

ثقافة الثورات

الثورة السورية نموذجاً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الإهداء

* إلى عشاق الحرية وطلّابها

* إلى الثّابتين على المبادئ السّامية والقيم الرّفيعة

* إلى الصّابرين على ما أصابهم ابتغاء وجه ربّهم

* إلى أهل الثورة السوريّة المباركة

* إلى كلّ من يريد التّعريف على طهارة الشّام وأهله، وحقد الأنجاس عليها أقدم

هذا الكتاب المتواضع:

"ثقافة الثّورات، الثورة السوريّة نموذجاً"

عُمر أحمد حديفة

المقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

جميل أن يستذكر المرء بعدما يعلو الشيب رأسه بعض ما كتبه من ذكريات يستعيدها من أيام طفولته أو أيام شبابه فيستشعر قوته وأمانته في علمه وأدبه وأخلاقه.

والأجمل من ذلك؛ أن يكتب للآخرين ما يفيدهم في حياتهم من معلومات قد تكلفهم من العمل والوقت والجهد الكثير، وخصوصاً كتابة التاريخ الذي يمثل أسس حضارات الأمم ومحور نهضتها وازدهارها، ومدى امتلاكهم من الهمة والعزيمة والإرادة في التغيير والإصلاح.

ومن هذا القبيل، وجدت من واجبي تجاه أبنائي وأحفادي والأجيال من بعدهم، أن أكتب لهم شيئاً عن تاريخ آبائهم وأجدادهم، في مقارعة النظام الأسدي المجرم الذي جثم على الشعب السوري الأبى لعقود من الإفساد والإجرام ونشر الرذيلة والفجور.

وإيماناً مني بأن كتابة التاريخ هي أمانة ومسؤولية على من عايش أحداثها وعائنها وقائعها، وضرورة لتوثيقها وحفظها وأرشفتها؛ لقطع الطرق أمام من ليس من أهلها ممن لا يقدر قدرها فيدس على الناس ويحرف الأحداث ويزيف الوقائع كما يحلو له وكما يريد، فضلاً عن أنها شهادة علنية واجبة على أحداث قد تكون يوماً من الأيام في طي الكتمان أو في دهاليز التحريف والتزييف، فكان لا بد من تدوينها وحفظها أمانة ومسؤولية في رقابنا، وتبرئة لذمتنا أمام أهلينا وأمتنا.

فكان هذه الكتاب المتواضع من تاريخ الثورة السورية المباركة بعمل مكتوب وضرورة ملحة، يكون منارة ونبراساً للأولاد والأحفاد والأجيال اللاحقة؛ ليكونوا على بينة مما كان عليه أجدادهم وأسلافهم من أمانة ومسؤولية حين حققوا النصر بما امتلكوا من مقوماته، واستدركوا الهزيمة بما وقعوا من أخطاء.

وقد اجتهدت في كتابة هذا الكتاب ليكون وثيقة تاريخية ومرجعاً للأجيال اللاحقة من أصحاب الهواية والاختصاص، وحاولت فيه اختصار الكثير من الوقائع والأحداث ليكون سهل التناول بين من لا يجد وقتاً طويلاً للقراءة ولتتوصل على معلومات قد تكفيه عن الثورة السورية وأحداثها، كما قد أشرت في مباحثه إلى بقية الطبقات المستفيضة التي كتبتها في هذا المجال لمن أراد الرجوع إليها والاستزادة منها.

وقد كنت حريصاً في الكتاب على أن استهلّه بمبحثٍ ثقافيٍّ يحتاجه كلُّ فردٍ فاعلٍ من أفراد المجتمع، بعنوان (ثقافة الثورات) التي لا تمتلك من معلوماتها أجيالُ العصر إلا القليل، ثم أتبعته بمباحثٍ أخرى تخصُّ الثورة السوريّة وما اعتراها من تحدياتٍ منذ انطلاقها مروراً بعقدها الثاني، دون تطويلٍ مملٍ ولا اختصارٍ مخلٍ، مع نصحي للقارئ الكريم ممن يحبُّون الاستزادة والاطلاع الرجوع إلى الكتاب الرئيسي بهذا المجال بعنوان: (الواقع السوريُّ تحت المجهر دراسة ميدانيّة)، وكذلك الرجوع إلى السلسلة الموسّعة فيما يخصُّ الثورة السوريّة بكلِّ جوانبها بعنوان: (سلسلة الثورة السوريّة آمالٌ وآلامٌ).

والله أسألُ أن ينفع بهذا الكتاب شبابنا وأبناءنا وأحفادنا ومَن جاء من بعدنا، وأن يكونوا جميعاً على مستوى الأمانة والمسؤوليّة حتى يقضي الله بيننا وبين قومنا بالحقِّ، إنّه نعم الولي ونعم النصير، والحمد لله ربِّ العالمين.

محتويات الكتاب

الإهداء

المقدمة

المبحث الأول: ثقافة الثورات

المبحث الثاني: الشَّامُ في زمن الكرام

المبحث الثالث: عينٌ على الواقع السوري

المبحث الرابع: جاهليّة القرن العشرين

المبحث الخامس: الواقع السوري والرَّبيع العربي الدَّامي

المبحث السادس: النُّخبُ والمرجعيّاتُ الشرعيّةُ ودورها في الثورة السوريّة

المبحث السابع: الإعلامُ والإعلاميون ودورهم في الثورة السوريّة

المبحث الثَّامن: الثورة السوريّة وتبعاتها العامّة

المبحث التاسع: على رقعة الشّطرنج

المبحث العاشر: الثورة السوريّة بعد عقدها الأول

المبحث الحادي عشر: الواقع السوري وملقّاته المدنيّة

المبحث الثاني عشر: الثورة السوريّة صفحاتٌ ناصعةٌ وتاريخٌ مشرقٌ

المبحث الثالث عشر: الثورة السوريّة بين السّياسة والعقيدة

ثقافة الثورات

المطلب الأول: تعريف الثورة

المطلب الثاني: أسباب الثورات

المطلب الثالث: عناصر الثورات الرئيسية

المطلب الرابع: أشكال الثورات

المطلب الخامس: ميزات الثورات

المطلب السادس: من أهداف الثورات

المطلب السابع: الخلل في إدارة الثورات

المطلب الثامن: متلازمات النجاح في الثورات

المطلب التاسع: أقسام الناس في الثورات ودورهم فيها

المطلب العاشر: الإعلام الثوري

المطلب الحادي عشر: مدمرات الثورات

المطلب الثاني عشر: تفريغ الثورات

المطلب الثالث عشر: سرقة الثورات

المطلب الرابع عشر: ما بعد الثورات

المطلب الخامس عشر: مصطلحات مرادفة

خلاصات

ثقافة الثورات

المطلب الأول: تعريف الثورة:

الثورة لغةً: مِنْ فعل: ثَارَ الغُبَارُ، يَثُورُ ثَوْرًا وَثُورًا وَثَوْرَانًا: هَاجَ. وَثَارَ الغَضَبُ: اخْتَدَّ. وَالثَّائِرُ: الغَضبان. وَثَوَّرَ فُلَانٌ الشَّرَّ تَثْوِيرًا: هَيَّجَهُ وَأَظْهَرَهُ. وَأَثَارُوا الأَرْضَ عَمَرُوهَا: بِالْفِلَاحَةِ وَالزَّرَاعَةِ. وَثَارَ البركانُ: قَذَفَ الحُمَمَ والمواد المنصهرة من باطنه.

والثَّوْرَةُ: مصدر ثَارَ، ثَارَ على. وهي مفرد: ج ثَوْرَات. فهو مصطلحٌ مشتقٌّ من الفعل (ثار) أي: غضبَ وهاجَ، وَثَارَ إليه، أي: وثب إليه، وغالباً ما يُستعمل هذا اللفظ في معاني الغضب وعدم الانضباط^(١).

الثورة اصطلاحاً:

لا يوجد تعريفٌ محدّدٌ للثورات في علم الاصطلاح؛ لأنّ ذلك يرجع إلى طبيعة تفكير الباحثين وتفسيرهم لكلِّ ثورةٍ في أبعادها وأسبابها التي دعت إليها.

فمن الباحثين من اعتبر الثورات بأنّها: الأحداث التي تشهد تغييراتٍ كبيرةً ومفاجئةً في الأنظمة السِّياسيّة والبنية الاجتماعية والنُّظُم القانونية.

ومنهم من اعتبرها: حركةً جماهيريةً شعبيةً شاملةً مستمرةً، ونوعاً من أنواع التَّغيير الجذريّ الذي يستهدف إحداثَ تغييراتٍ في بنية المجتمع وبناءٍ وضعٍ جديدٍ يشمل جميع النُّواحي الاقتصادية الاجتماعية والثقافية والسِّياسيّة ...

ومنهم من اعتبرها: طريقاً من الطُّرق التي يصل بها الشَّعبُ لكسر الدُّل والاستبداد والفساد واستبداله بنظامٍ قائمٍ على العدل وتنظيم السُّلطة والمجتمع.

ومنهم من اعتبرها: محاولةً تغييرٍ حقيقيٍّ للقيادة السِّياسيّة لبلدٍ أو مجتمعٍ بشكلٍ جذريٍّ وسريع، إمّا سلماً، وإمّا حرباً إذا اقتضت الضُّرورة ذلك.

ومنهم من اعتبرها: نقلَ ملكيّة الدولة بكلِّ مفاصلها ومؤسساتها من يدي طاغيةٍ مستبدٍ إلى أيدي أصحابها الحقيقيين.

(١)- يُنظر: المصباح المنير (٨٧/١)، مختار الصحاح (٥١)، معجم اللغة العربية المعاصرة (٣٣٥-٣٣٦)، لسان العرب (١٠٨/٤).

ومنهم من اعتبرها: عملية الخروج عن الأوضاع الرّاهنة وعدم الصّبر عليها، والعمل على تغييرها طلباً للحقّ ورفعاً للظلم.

ولعلّي أخلصُ لتعريفٍ جامعٍ لكلّ المعاني السّابقة بما يلي:

الثّورة: حركةٌ جماهيريّةٌ شعبيّةٌ شاملةٌ مستمرةٌ، ونوعٌ من أنواع التّغيير الجذريّ الذي يهدف إلى إحداثِ تغييراتٍ في بنية المجتمع والدّولة، وبناءٍ وضعٍ جديدٍ بإصلاحاتٍ حقيقيّةٍ موجعةٍ بآلامها وأثمتها، يشمل جميع النّواحي الاقتصاديّة الاجتماعيّة والثقافيّة والسّياسيّة.

وقد انتشر هذا اللفظ (الثّورة)، حتى صار من الألفاظ الدّارجة على الألسن والتي تعبّر عن حالات الغضب وحُبّ التّغيير.

وقد استخدم المفكّرون المعاصرون مصطلح الثّورة للدّلالة على التّغييرات الجذريّة والفجائيّة التي تتمّ ضمن الظروف الاجتماعيّة والسّياسيّة في تغيير حكمٍ قائمٍ أو استبدال نظامٍ اجتماعيّ فاسدٍ والقانون المصاحب والمشرّع له.

ومن خلال التعّاريف السّابقة للثّورة ومفاهيمها نستنتج بأنّ الثّورة لا تسمّى ثورةً بالمعنى الحقيقيّ إلا إذا توافر فيها أمورٌ، هي:

١- التّحرّكُ الشّعبيّ: بأنّ يشارك فيها أغلبُ فئاتِ الشّعب ومعظمُ طبقاته وطوائفه.

٢- الأهدافُ المرجوّة: بأنّ تسعى لوضعٍ حلولٍ جذريّةٍ دائمةٍ وتغييرٍ حقيقيٍّ يُلبّي طموحاتٍ جميع الأطياف الشّعبيّة والفئات الجماهيرية، وينهض بهم نحو الأفضل.

٣- الثّباتُ والاستمراريّة: إذ لا بدّ من الثّبات على الأهداف المطلوبة، والإصرار على تحقيقها مهما طال أمد الثّورة ومهما بلغت تحديّاتها، لأنّ أنصاف الثّورات مقاتِل لأصحابها.

المطلب الثّاني: أسباب الثّورات:

تختلف أسباب الثّورات من مكانٍ إلى آخر، ومن بيئةٍ إلى أخرى، حسب طبيعة نظام الحكم القائم، لكنّها تتفقُ بشكلٍ عامٍ في أسبابٍ رئيسيّةٍ مشتركةٍ، فإنّ وُجدت تلك الأسباب واستفحلت دون معالجةٍ فستؤدّي إلى ثوراتٍ واحتجاجاتٍ، ومن هذه الأسباب:

أولاً: أسباب سياسية وعسكرية: كانتشار مظاهر القمع الكثيرة والمتنوعة، وكثرة السجون والمعتقلات المرعبة والتغيب القسري الممنهج، إضافةً للتمييز الطائفي والسياسي الذي يولد الظلم والقهر والاستبداد، وتدخل الأجهزة الأمنية بكل مفاصل الحياة، وفرض قوانين جائرة للضغط على الشعب، كقانون الطوارئ لمصادرة الحريات وتكميم الأفواه وإذلال الناس، ونشر الرذيلة والفجور والمجون في المجتمع والدولة، والوصول لأبش درجات الفساد المالي والإعلامي والأمني والسياسي والإداري الذي يحول مؤسسات الدولة لما يشبه المافيات والعصابات، ويسهل الاعتقالات السياسية العشوائية والتعسفية، بذرائع ودواعي أمنية كاذبة، وكذلك استخدام السلطة العسكرية الحاكمة للقوة المفرطة بعيداً عن سيادة القانون الذي يتجسد فيه صور احتكار السلطة وأشكال الاستبداد والتسلط، واستسهال استخدام وسائل البطش والقتل والقهر، وخصوصاً في حكم الأقليات أو حكم العائلة الواحدة؛ لتضمن استمرارية حكمها وتسلطها على الناس.

ثانياً: أسباب اقتصادية واجتماعية: احتكار السلطة الحاكمة لكل المشاريع والاستثمارات التجارية والاقتصادية، ووضعها بأيدي بعض المتنفذين من الحاشية السلطوية، مع عمليات الابتزاز المالي الممنهج لأصحاب رؤوس الأموال من بقية الشعب بدواعي أمنية، والذي يقسم الشعب إلى فئتين، هما:

أ_ فئة سلطوية ظالمة: تقتات على الأموال المنهوبة والثروات المغتصبة تحت سقف القانون المصنّع على مقاس السلطة الحاكمة، مع ابتزاز أصحاب الشركات والمؤسسات وإخضاعهم للشروط التي تحقق لهم مصالحهم وأهدافهم، وهو ما يفتح أبواب الفساد والرذيلة والفجور بكل أنواعه، الأمر الذي يسرع بهروب الكثيرين من أصحاب رؤوس الأموال خارج البلد.

ب_ فئة فقيرة مستضعفة: لا تملك حولاً ولا قوة، ولا تجرؤ على الكلام والبوح بما تعانيه، فتعيش ضمن ظروف الفقر والقهر والبطالة، وتخضع لسياسة التجويع والحرمان من خلال غلاء الأسعار وارتفاع الضرائب وعدم وجود فرص عمل كافية وانخفاض دخل الفرد في المجتمع.

المطلب الثالث: عناصر الثورات الرئيسية:

للثورات بشكل عام عناصر رئيسة مشتركة، وقد يتفرع عنها عناصر أخرى ترتبط بها بشكل أو بآخر.

وهنا سأعرض لذكر العناصر الرئيسية فقط مع شرح وتوضيح مختصر لها، والتي تتمثل بما يلي:

أولاً- الفكرة الجامعة:

هي الاجتماع على طاولة الحقوق العادلة والمطالب المشروعة للأغلبية المحرومة، والفئات المستضعفة، تلك الحقوق والمطالب التي تضمنها الشرائع السماوية والقوانين الوضعية في حق الحياة الحرة الكريمة (كالحرية والعدالة والكرامة وما يتبعها من مستلزمات).

ثانياً: النُخب والمرجعيات:

مهما كانت الفكرة سليمة ومهمة ونافعة للدولة والأمة والمجتمع فلن تحقق الفائدة المرجوة ما لم يتوفر لها رجال يؤمنون بها، ويحملون رؤيتها، ويعملون لأجلها، ويروجون لها، ويدافعون عنها بالغالي والنفيس، من خلال رؤية واضحة وتخطيط سليم، ووقت وافر وعمل دؤوب، مع الشجاعة في العمل، والحكمة في الإدارة والقيادة، وقد أشار إلى ذلك المفكر الإسلامي محمد المختار الشنقيطي^(١) في مقاله: "منطق الثورات ومآلاتها"^(٢) عندما تحدث عن الدعامات الأساسية للثورات، فقال:

"تقوم الثورات على دعامتين:

١- الشجاعة في مواجهة الظالم.

٢- والحكمة في قيادة المجتمع.

وتحتاج هاتان الدعامتان إلى التزام مبدئي وبصيرة عملية. وكما قيل:

"إِنَّ النَّاسَ يُقَدِّرُونَ الرَّبِيعَ وَلَا يُقَدِّرُونَ الشِّتَاءَ، وَلَكِنْ لَا يَوْجِدُ رَبِيعٌ دُونَ شِتَاءٍ مِمَّهْدٍ لَهُ"^(٣).

(١)- محمد المختار الشنقيطي: هو ناشط سياسي ومؤلف وباحث وأكاديمي موريتاني، تاريخ ومكان ميلاده: ١٩٦٦م، نواكشوط، موريتانيا، يعمل حالياً في جامعة حمد بن خليفة كأستاذ مشارك في الأخلاقيات السياسية وتاريخ الأديان. إلى جانب ذلك، يظهر الشنقيطي باستمرار على قناة الجزيرة، وله إسهامات منتظمة في موقع الجزيرة. نت، حيث نُشرت له مئات المقالات باللغتين العربية والإنجليزية. موقع ويكيبيديا.

(٢)- مدونات الجزيرة، منطق الثورات ومآلاتها، محمد المختار الشنقيطي، بتاريخ: ٢٤/٢/٢٠١١م.

(٣)- مدونات الجزيرة، أوراق الربيع (١١)، تشرح الثورات العربية، محمد مختار الشنقيطي، تاريخ ١/١١/٢٠١٦م.

وقد فرّق الكاتب بين الثورات السّلميّة وغيرها من حيث الدّعامات المساندة لها، فذكر دعامي الثّورة السّلميّة، وهما:

١- التّجويّع السّياسي: الثّورات السّلميّة لا تهدم النّظام المستبدّ مباشرةً، وإنّما تستنزفه من خلال حرمانه من التّحكّم في المجتمع.

٢- البطولة الهادئة: الابتعاد عن العنف إلا ما كان رمزيّاً، ودفاعاً، ومحدوداً^(١).

ثالثاً: الحاضنة الشّعبية:

وهي الوعاء الحاضن للفكرة ورجالها، الواعية لعدالة قضيتها، والمؤمنة بشرعيتها، والمستعدة للتّضحية والعطاء والبذل في سبيلها.

فإذا ما اجتمعت الفكرة الصّحيحة أو القضية العادلة، وسعى الدّعاة والمفكّرون والعلماء والنّخب على اختلاف أصنافهم ومشاربهم لنشرها وتوعية النّاس بمضمونها وجوهرها، وكان الشّعب هو الحصن الحصين الذي يحميها ويدافع عنها، فإنّ النّصر سيكون بانتظارها مهما اعترضتها التّحدّيات ومهما أعاقها الصّعوبات.

المطلب الرّابع: أشكال الثّورات:

تختلف الثّورات باعتباراتها المتنوّعة من حيث طبيعتها، ومن حيث أهدافها، ومن حيث آلياتها، ومن حيث مآلاتها، ومن حيث مراحلها، ولكلّ اعتبار أسس ومقومات نجاح أو إخفاق ساعرضها فيما يلي:

آ- أشكال الثّورات باعتبار طبيعتها:

أولاً: منظّمة: وهي أن تكون بقيادة نخب، ذات كفاءة وفاعليّة، تعمل وفق رؤية وأهداف ثورية، وضمن خطط واضحة وبرامج مفيدة وآليات مشروعة.

ثانياً: غير منظّمة: وهي أن تكون عفوية عشوائية تسودها الفوضى والاضطراب، ويقودها الرّعاغ وأصحاب الغايات، دون أهداف واضحة، خالية من الخطط والآليات.

(٢)- مدونات الجزيرة، منطق الثورات ومآلاتها، محمد المختار الشنقيطي، بتاريخ: ٢٤/٢/٢٠١١ م

ب- أشكال الثورات باعتبار أهدافها:

أولاً: سياسية: تقوم لرفض الحكم القائم عند عدم الرضاء عنه وتجاوز حدوده في الظلم والاستبداد والقهر والدُّل الذي يمارسه على أفراد الشعب.

ثانياً: اجتماعية: تقوم على أساس التغيير المجتمعي والانقلاب على عاداته وتقاليده للتصحيح والتصويب في القواعد والنظم والقوانين التي من شأنها أن تصحح المسار.

ت- أشكال الثورات باعتبار آلياتها:

أولاً: سلمية: غالباً ما تبدأ الثورات بالمظاهرات السلمية التي قد ترفع الورد وأغصان الزيتون، ثم تتطور إلى احتجاجات واعتصامات وإضرابات للضغط على النظام الجائر بالخضوع والاستجابة لمطالبهم والسماع لأصواتهم أو الاستمرار فيما هم فيه من الاعتصامات والإضرابات التي قد تشل البلد وتوقف استمرار الحياة فيه كمرحلة أخيرة قبل انتقالها لمراحل العنف والدّموية.

وتتجلى سلمية تلك الثورات بالأساليب التالية:

١- الجرأة والشجاعة وتجاوز مرحلة الخوف: فالخائف لا يصنع ثورة، والحرية تتطلب بذلاً وعطاءً ودماءً وتضحيات.

٢- القدرة على حشد الطاقات الغاضبة والهادفة: ويكون ذلك مم خلال الاحتجاج الشعبي المنضبط، كالمظاهرات الجماهيرية والمسيرات الشعبية لإرسال أصواتها إلى العالم ونشر قضيتها أمام الأمم.

٣- العصيان المدني: كالأضرابات العامة التي يمكن أن تشكل قوة ضاغطة أكثر تأثيراً من غيرها.

٤- الإبداع الثوري: الذي يفضح الأنظمة الفاسدة بما يبتكر من وسائل وأدوات فاضحة ومتنوعة من خلال تتبع الشبكات العنكبوتية ووسائل الإعلام الالكترونية المختلفة والكوميديا والسوشيال وغيرها لتعرية النظام الحاكم وفضحه وإظهار إجرامه ورجاله المفسدين.

ثانياً: مسلحة: فقد يستجر النظام الظالم الحاكم شعبه لاستخدام العنف من خلال المماطلة والابتزاز والاستفزاز، كما قد يستخدم السلاح لقمعهم والقضاء عليهم فيضطرون للرد عليه بالسلاح والعنف المضاد، لتبدأ مرحلة دموية عنيفة، فالشعب الذي يقوم بثورته الجماهيرية على

نظامٍ ظالمٍ بمظاهراتٍ واحتجاجاتٍ سلميةٍ سيقابله ذاك النظامُ الوالعُ في الجريمة بالعنف الشديد لقمعه والقضاء عليه وعلى ثورته، وهو ما يؤدي بدوره لاستخدام الجماهير الشعبية للسلاح للدفاع عن أنفسهم وأعراضهم وأموالهم، وتكون النتيجة الطبيعية: قتلى وجرحى ودماراً ودماءً وأشلاءً وتعقيداً في حل الأزمة والصراع.

ث- أشكال الثورات باعتبار مآلاتها:

أولاً: ناجحة: تعتبر الثورات ناجحةً عندما تحقق أهدافها التي خرجت من أجلها، وتحصل مطالبها التي تطمح لها، ويختلف معيار النجاح باختلاف الوقت الذي استغرقته، والمطالب التي حققتها، والتكاليف المتنوعة التي بذلتها، بعيداً عن أنصاف الحلول وأرباعها التي قد تعيدها إلى المربع الأول.

ولا يضر الثورة في نجاحها طول فترتها مهما امتدت، طالما بقي القائمون فيها والعاملون عليها ثابتين صامدين، وإلى تحقيق أهدافهم سائرين لا تهزهم المحن ولا تهزمهم المصائب والآلام.

وغالباً ما يكون النجاح حليف الثورات المنظمة بخطط مدروسة وقيادة واعية وتحرك منضبط ضمن برامج هادفة بعيداً عن الفوضى والعشوائية والارتجال.

ثانياً: فاشلة: تعتبر الثورات فاشلةً عندما تفتقد النخب الواعية في التخطيط، والقودة الحسنة في الأداء والتنفيذ، وتطغى الأنانية على سلوك شبابها والقائمين عليها، تُجبر الثورة لصالح فئة من فئاتها على حساب المصلحة العامة، فتنتشر الفوضى ويسود الفساد والعشوائية في مفاصلها، وقد تنتهي إلى الفشل التام أو النجاح الجزئي الذي لا يلبي طموحات الشعب الثائر ولا يرقى لتضحياته.

ج- أشكال الثورات باعتبار مراحلها:

أولاً: إن كانت الثورات غير منظمة فستكون معقدة منذ بدايتها لتعدد القيادات والزعامات، وتنوع المشاريع والأجندات، واختلاف الأهداف فيها، وستزداد تعقيداً مع الزمن، وقد لا يكتب لها النجاح المأمول.

ثانياً: وإن كانت الثورات منظمة فتبدأ بالتحرك الجزئي النخبوي ضمن لجان وفعاليات وترتيبات للوصول إلى الأهداف المرجوة، ثم يتبعها التحرك الشعبي والتفافهم حول شعارات معبرة وآمال

مرجوة، وضمن آليات ووسائل ضاغطة ك (المظاهرات، الاعتصامات، الإضرابات، الاستعصاء، العصيان).

ثالثاً: الانشطار والتحزب الفكري وظهور البرامج والأنشطة والمشاريع المختلفة والتي تنتهي غالباً بالافتتال البيني والتشطي الداخلي، وهذا ما سيكون له تداعيات سيئة على الواقع الداخلي من حيث:

أ- ضعف الزخم الثوري بسبب التشتت الذي أصابه والتفكك الذي سيحصل جزاءه.

ب- تخفيف الضغط عن العدو بسبب الانشغال بالخلاف الداخلي من جهة، وضعف الصف الثوري وتشتت قوته من جهة ثانية.

ج- خسارة الحاضنة الشعبية وانفصالها عن المشهد الثوري كدّة فعل على الأخطاء القاتلة.

رابعاً: انحسار الطرف المعتدل وخروجه من المشهد الميداني نسبياً لصالح الطرف المتشدد، وهو ما يسهم في ضعف القوة الثورية ويزيد من تشتيتها، والساحة في هذه الحالة مرتنة لقيادة المتغلب الذي سيصعب عليه جمع الحاضنة وتجميع القوى الثورية بعد التصدع الداخلي المقيت المميت.

خامساً: الثورات في زمن الفتور (مع إطالة أمد الثورات):

غالباً ما تبدأ الثورات بزخم كبير وحماسة عالية ونشاط مميز لتحصد نتائج ثورتها بأقصر وقت وأقل كلفة.

لكن؛ ومع اعتراض الثورة أيّاً من العوارض والعوائق الخارجة عن إرادة الثوار، كالتدخل الدولي في الصراع، والذي قد يؤخر نجاح الثورة، بل، ويطيل من أمدها، كما هو الحال في الثورة السورية، حيث خرجت قرارات الثورة من أيدي أبنائها وأصبحت بأيدي دول كبرى تتحكم فيها بما يخدم مصالحها بعيداً عن مصلحة الثورة، وهنا يتحوّل قادة الثورة لمجرد بياق وأدوات بأيدي الدول، تتلاعب بهم كما تريد، فضلاً عن انشغال أولئك القادة بكيفية الحفاظ على مناصبهم وتجميع ثرواتهم ضمن مناطق تمركزهم، لتتحوّل الثورة إلى دويلات أشبه ما تكون بالمليشيات والعصابات، فتتحوّل بذلك الثورة لمشاريع خاصة بهم على حساب الحاضنة والعناصر، والذي

قد يؤدي إلى الاقتتال الداخلي والاختلافات البيئية، يذهب ضحيتها العناصر والجنود، وتحمل تبعاتها الحاضنة الشعبية التي تغدو الحلقة الأضعف في هذه المرحلة.

وفي هذه المرحلة: إن لم يتم استدراك الخلل فيها، وتسلّم القادة الشرفاء لها، وإشراف أهل الحل والعقد من العقلاء عليها، مع التحلّل من الأجندات الخارجية مهما أبدت من تعاونٍ مكذوبٍ ومهما أظهرت من شعاراتٍ خداعةٍ، فهي من أخطر المراحل التي يمكن أن تقضي على الثورة بشكلٍ تام، إذ لا يخفى على أحد أن الدول لا يمكن أن تقدّم مساعدةً لأحدٍ إلا بمقابل، كما من المعروف للجميع أن الدول تبني سياساتها على أساس مصالحها الخاصة بعيداً عن العواطف والمجاملات.

المطلب الخامس: ميزات الثورات:

أولاً: الأكرية المظلومة: وهم غالباً من يقوم بالثورة بعدما فقدوا الكثير من مقومات حياتهم في العيش الكريم والحياة الآمنة الكريمة لأسبابٍ كثيرةٍ مختلفةٍ ومتنوعةٍ تُمارس عليهم من قبل أقليةٍ متحكّمةٍ ظالمة.

ثانياً: الإصلاح الجذري: وهو أساس خروج الجماهير الشعبية بمظاهراتها واحتجاجاتها بعيداً عن أنصاف الحلول لكثرة المظالم التي عايشوها والضغوط التي مورست عليهم ولم يستطيعوا تحملها والصبر عليها.

ثالثاً: سرعة انتشارها ونجاعة حلولها: وقبولها وكثرة التفاعل معها، حباً بالتغيير والإصلاح، وطياً لحقبة الظلم التي دفعتهم لذلك، وانتقاماً ممن ظلمهم.

رابعاً: التغيير وبناء القيم والأنظمة الجديدة: تسعى لذلك على أساس إعادة الحقوق وتفعيل الكفاءات وتشغيل القوى الفاعلة وتفجير الطاقات والقدرات في استثمار الثروات المتنوعة بما يحقق النهضة والازدهار في البلد.

المطلب السادس: من أهداف الثورات:

تقوم الثورات عادةً من أجل تحقيق الأهداف المجتمعية أو بعضها على أقل تقدير، ك: رفع المظالم التي تمارس على الشعب من قبل الحكّام والمستبدّين، وذلك لنقل المجتمع من حالةٍ إلى حالةٍ تتجلى فيما يلي:

١- نقل المجتمع من حالة الفقر والحاجة والعوز إلى التنمية الاقتصادية والنهوض الاجتماعي والحضاري.

٢- إقامة نظام سياسي جديد، يدير المجتمع بشكل يضمن الحريات والحقوق، ويؤمن الاستقرار والحياة الكريمة.

٣- الخلاص من حياة الظلم والطغيان والاستبداد الذي يمارسه الحكام الظلمة وعملاؤهم المفسدون.

٤- تأمين العدالة وتكافؤ الفرص ومحاربة الفساد المالي والإداري بكل أشكاله.

٥- تأمين البيئة المناسبة للتعايش مع الآخرين ضمن الضوابط الشرعية والحفاظ على التعليم والصحة والقيم الأخلاقية.

وأرى من المفيد هنا أن ألفت النظر إلى ملاحظة مهمة قد تعترض الثوار في حراكهم الثوري ضد أنظمة حكمهم، كما هو الحال في الثورة السورية، وقد أشار إلى تلك الملاحظات الدكتور حسين قطريب^(١) في مقالة له بعنوان: (المتغير والثابت في مسيرة الثورات)، جاء فيها:

"إن أهداف الثورات لا تتغير، وإنما المتغير فيها هو العمل على الأولويات.

وحسب الظروف يتقدم الاهتمام بهدف على آخر، من حين لآخر دون المساس بالثوابت.

فإسقاط النظام الفاجر كان في رأس قائمة أهداف الثورة السورية.

ولكن اصطفاً معظم قوى الشر في العالم إلى جانب النظام المجرم "روسيا، وإيران، وأمريكا، والكيان الصهيوني، وبعض الأنظمة العربية"، ومنع الإمداد بوسائل إسقاطه عن قوى الثورة، فرض على قوى الثورة الاهتمام بأولويات مرحلية أخرى، أهمها ما يلي:

١- الحفاظ على المناطق المحررة كقاعدة للانطلاق نحو الهدف الأسمى، والدفاع عنها ببسالة.

٢- الحفاظ على الحاضنة الشعبية للثورة، ومدها بكل وسائل الصمود.

(١)- أ.د. حسين إبراهيم قطريب، أستاذ الجغرافية في جامعة صنعاء ١٩٩٦-٢٠١٢م، وناشط سياسي وباحث في الجغرافية السياسية، نُشر المقال على صفحته الخاصة على الفيس بوك.

٣- الحفاظ على استمرار العلاقات الحسنة مع الدول الشقيقة والصديقة، والعمل على تقويتها في كل الظروف، وعدم التَّنكُّر للجميل والنَّيل من بعضها لمجرد اضطرابها لبعض المواقف التكتيكية في مرحلة من المراحل.

٤- الاستمرار في الإعداد والتدريب ورفع الكفاءة القتالية لدى جميع العناصر الثورية.

٥- رصُّ الصُّفوف، وهجرُ المهاترات، ونشرُ الوعي، والابتعادُ عن كلِّ ما يفتتُ قوى الثورة ويفتُّ في عضدها.

٦- الاهتمام بالتَّوجيه المعنوي والتَّركيز على إبراز الايجابيات ورفع المعنويات.

٧- الاهتمام بالتَّعليم وتنشيطُ العمل الزراعي والتَّجاري والتَّصنيع في المناطق المحرَّرة، فإنَّ ذلك يُعدُّ من أهمِّ مساند استمرار الثورة".

وقد ذكر المفكِّر الإسلامي محمد مختار الشنقيطي في مقال له بعنوان: "منطق الثورات"^(١) متحدِّثاً عن أهداف الثورة، حيث قال:

"لا تعرِفُ الثَّوراتُ أهدافَها في البداية، وإنَّما تتعرَّف عليها أثناء المسار الثوري.

فهي تتعلَّم بالممارسة، وتُنضِّج معالمَ أهدافها مع الوقت، فغايةُ ما كان يطمح إليه الثَّوار الفرنسيون في البداية كان إلغاء الامتيازات بين الطبقات الاجتماعيَّة، وبناء ملكيَّة مقيدة تشرك الشَّعب مع الملك في رسم السِّياسات، ثمَّ تحوَّلت أهدافهم: سياسيَّة راديكاليَّة فيما بعد".

المطلب السَّابع: الخلل في إدارة الثَّورات:

يقول الدُّكتور: خالد المعيني^(٢) في كتابه (كي لا تُسرق الثَّورات):

"إنَّ من شأن التَّخطيط السَّليم أن يزيد من فرص نجاح الثَّورات ويقلِّص من احتمالات فشلها وانكفائها، وإنَّ عدم وجود رؤية واضحة وتحليل دقيق لكافة مستويات الصِّراع، أو على أقلِّ تقدير وجود قدرَّة على إدارة صفحات الصِّراع، وما هي الخطوة القادمة فإنَّ ذلك سيؤدي حتماً إلى ثلاث نتائج كارثيَّة، هي:

(١)- مدونات الجزيرة، منطق الثورات ومآلاتها، محمد المختار الشنقيطي، بتاريخ: ٢٤/٢/٢٠١١ م.

(٢)- الدكتور خالد المعيني: أستاذ الفلسفة السياسيَّة، له مؤلفات كثيرة منها ما يخص الربيع العربي، بعنوان: (كي لا تسرق الثورات)، دراسة موضوعية في ثورات الربيع العربي، الرياض منشورات ضفاف.

١- هدرُ الطَّاقات.

٢- هدرُ الرِّخْم.

٣- هدرُ القوَّة.

وهذا التَّوصيفُ الذي بيَّنه الدكتورُ "المعيني" هو تماماً ما حصل في الثَّورة السُّورية.

غالباً ما يؤدِّي الخلل في إدارة الثَّورات إلى كوارثٍ قاسيةٍ على كلّ الأصعدة والمستويات التي قد تتجلَّى في النِّقاط الآتية:

١- التَّفريطُ بالكثير من الطَّاقات البشريَّة والكفاءات العلميَّة والفعاليات الثَّوريَّة التي قد لا تتوفَّر فيما بعد.

٢- خسارة الحاضنة الشَّعبية وانحسارها بشكلٍ كبير، وارتداد أفعالها عكسياً تجاه الثَّورة والثَّوار، وهو ما يُنذر بإنهاء كلّ مظاهر الثَّورة والقضاء على ما تبقى منها، من خلال ضعف القوى الثَّوريَّة الفاعلة في السَّاحة.

٣- ردَّة الفعلِ العكسيَّة التي ستتولَّد عند النَّاس، وكميَّة الحقد على الثَّورة والثَّوار وما نقلوه من صورٍ مشوَّهةٍ عن مشروعهم الذي أرادوه لهم ولأهلهم وبلدِهم.

المطلب الثامن: متلازماتُ النِّجاح في الثَّورات:

لا يمكن اعتبار الانتفاضات التي تحدث عند الشُّعوب ضدَّ حكَّامها ثوراتٍ إلا إذا استطاعت أن تُؤسِّسَ لمُتغيَّراتٍ جديدةٍ وفق رؤيةٍ جديدةٍ ونظامٍ سياسيٍّ تقوم به نُخبٌ فاعلةٌ تجسِّد القيم والمبادئ الثَّوريَّة الدَّاعمة لبناء مجتمعٍ قويٍّ متماسكٍ.

والثَّورة بهذا المعنى تقوم على ركائزٍ أساسيةٍ، كما ذكرها الدكتور "خالد المعيني" في كتابه (كي لا تُسرق الثَّورات)، حيث قال:

"إنَّ الثَّورة الحقيقيَّة تقوم على ثلاثة ركائز:

١- فكرٍ خلاقيٍّ تشتقُهُ عقولُ المفكرين الذين يمثلون عصارةً وضميرَ العقل الباطن لمعاناة شعوبهم، على أن يستند هذا الفكرُ على قضيةٍ عادلةٍ.

٢- جماهير واعية بجوهر قضيتها".

٣- نخبة شجاعة ومنظمة تتبني هذا الفكر، تمتلك رؤية تنفيذية وتخطيطاً سليماً.

ومن المفيد أن نتعرف على ماهية النُخب المجتمعية، ومدى المسؤولية المترتبة على عاتقها، حيث يتفق الكثير من علماء السياسة الاجتماع حول تقسيم النُخب إلى أقسام أربعة، هي:

١- النُخب السياسية: التي تتمثل بالسلطة الحاكمة وما يتبع لها من عسكرية، وأمن، وإدارة، واقتصاد وغيرها، تمثل الثورة وتضع قضيتها في المجالس الرسمية والمحافل الدولية بما تملكه من أوراق القوة ووسائل الإقناع.

٢- النُخب الدينية: تتمثل بالعلماء والمفكرين والموجهين والمرجعيات الشرعية الذين يحددون المسار الأخلاقي السلوكي الصحيح النابع من العقيدة السليمة.

٣- النُخب الثقافية الاجتماعية: يتمثلون بقيادة الرأي من القامات الاجتماعية والأعيان وأصحاب الفضل والوجاهة، ومن وجوه القبائل المعترين، ومن أصحاب الكلمات المؤثرة في المجتمعات.

كثيرة هي المبادرات الاجتماعية والدعوات الإصلاحية التي ولدت ميتة أو مشلولة معلولة؛ لأنها لم تستوف مقومات نموها وعوامل استمرارها وضمان نجاحها.

ولعل من أهم تلك المقومات: فقدان النُخب والمرجعيات والقيادات الذين يملكون مقومات النجاح من النباهة والإدراك، والعلم والخبرة، ومن التخطيط والعزيمة، والجرأة والشجاعة في خضم أمواج عاتية متلاطمة وهلاك أكيد.

ولم تنحصر القيادة والمرجعيات والنُخب في مجال واحد من مجالات الحياة فيقتصر ذلك في صنف واحد من البشر، بل اتسعت لتشمل كل المجالات السياسية والعسكرية والإعلامية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية وغيرها من المجالات المختلفة.

فليس بالضرورة لمن تربّع على سدة القيادة العسكرية أن يحوز القيادة السياسية أو غيرها، فمن كان نابغاً في أمر فقد يكون مقصراً في أمر آخر، إذ لا كمال إلا لله وحده.

ولكن بالضرورة أن تكون الصفات القيادية متقاربة من بعضها إن لم تكن واحدة، كما لا بد من توفر الصفات القيادية بمن سيرتقي سدتها ممن يعرف قدرها فيعطى حقها كما أمر الله، وينظر إليها على أنها تكليف رباني مسؤول عنه، وليس تشريفاً يمكن التفريط فيها والاستهانة بها.

(فالقيادة والنخب والمرجعيات بمعناها العملي):

هي فن استقطاب عوام الناس والسير بهم نحو هدف معين ضمن نظام معين يفرضه الواقع وتستدعيه المرحلة.

والقيادة: هي المهارة التي يمتلكها القائد فيستهوي بها القلوب الطيبة فتحبه، ويستدعي بها النفوس المشرقة فتليبه حباً لا ينتهي وتليبه لا تنقطع.

والقيادة: هي فهم عميق لعجلة الحياة وحقيقتها، وتخطيط دقيق لتجاوز مراحلها وتحدياتها، بعيداً عن العواطف والمجاملات وعن التنازع والمزايدة.

والقيادة: هي رباطة الجأش عند البأس، والحفاظ على الروح المعنوية العالية، والثقة بالفوز والنجاح، واليقين بالوصول إلى الهدف المنشود، والتفاني مع الاستعداد الدائم لما يتطلبه الحال والمآل.

والقيادة: هي البوصلة التي تسدّد طريق العابرين، وتصوّب ضلال التائهين، وترفع منارات الهداية ومشاعل النور للحيارى والمغفلين، فتغدو معهم قدوة حسنة ومثالاً رائعاً في الصبر والثبات والصدق والإخلاص.

والقيادة: هي جسد سليم خالٍ من الأمراض والأسقام والعلل، وروح طاهرة نقيّة من الأدران والآفات والزّلل، وعقل ناضج بفكر متوازن لا يقبل الخلل ولا الكسل ولا الملل، تستوعب العوام وتستقطب النخب لتصنع منهم الحياة وتقدّم لهم الفوز والنّجاة.

ولابدّ لنجاح الثورات بشكل عام من تلازم بين المكونات الثورية تلازماً لا ينفك، وبقدر ما يكون التلازم والتعاون والتنسيق كبيراً بينها، بقدر ما تحقّق نجاحاً أكبر وأفضل بكلفة أقلّ ومدة أقصر.

ومن هذه المتلازمات:

أولاً: الحاضنة الشعبية والثورية:

وهي مجموعة الكفاءات والطاقات والفعاليات الثورية التي تحشد لقضية تؤمن بها وتدافع عنها بكل الأساليب والوسائل المتاحة، وتحمل كامل المسؤوليات والتبعات التي تنتج عنها وتلحق بها.

وهي الشرارة الأولى التي تُشعل نار المقاومة ضد الفساد والمفسدين، والبوابة الرئيسية للحرية والصالح والمصلحين.

وهي الداعم الأساسي للجانب السياسي والعسكري في صبره وثباته على مبادئه وتحقيق أهدافه.

وهي كنز الثورات ومفتاح التغيير إذا ما أحسنت قيادتها واستثمرت عطاءاتها من خلال الإحسان إليها والحفاظ عليها.

وهي صمام الأمان في نجاح الثورات حال استقطابها، ومستنقع الهزيمة حال فقدانها وخسارة رجالها.

ومن أحسن المواقف التي تجسد قوة الحاضنة الشعبية ما كان من رأي الأنصار على لسان سيدهم سعد بن معاذ (رضي الله عنه) في معركة بدر عندما قال للنبي (صلى الله عليه وسلم): "قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهدنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت، فنحن معك، فو الذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، وإننا لصبر في الحرب، صدق عند اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك فسر بنا على بركة الله".

نعم، تلك هي الحاضنة الصادقة، بوابة التغيير ومفتاح الحل والخلاص من الاستبداد والمستبدين، والسيف المشرع على الجبابة والطغاة عندما تمتلك الوعي الكافي بقضيتها، فتسعى بالعمل لها والدفاع عنها، وتبذل الغالي والتفيس من أجلها.

وقد ذكر الشنقيطي في مقالته: (منطق الثورات ومآلاتها)^(١) شروطاً لنجاح الثورات، فقال، هي:

- ١- صلابَةُ الإرادة والتَّصميم لدى الثَّوار.
- ٢- الحفاظُ على الصُّورة النَّاصعة للثَّورة.
- ٣- وحدة الصَّفِّ والتَّلاحم بين القوى الشَّعبية.
- ٤- حسنُ التَّسديد إلى مراكز ثقل النِّظام الحاكم.
- ٥- الوعيُ بأجنحة النِّظام المختلفة ومخططاتها.
- ٦- تقديمُ البديل السِّياسيِّ حتى لا تجد فلول النِّظام فراغاً للتَّمكّن.
- ٧- رفضُ السُّقوف الواطية والتَّغييرات الشَّكلية في النِّظام.
- ٨- التَّمسك بمنطق المغالبة لا المطالبة.

وباختصار:

فإنَّ مَنْ أراد النَّصرَ والفوزَ في معاركه فلا بدَّ له من امتلاكِ مقوِّمات ذلك بدايةً، ثمَّ ترتيبِ أدواته ووسائله بما يتناسب والمرحلة، ولعلَّ من أهمِّ ركائز النَّجاح وتحقيق النَّصر بأقصر مدَّةٍ وأقلَّ كلفة، إنّما هو الحاضنةُ الشَّعبيةُ التي تؤمِّن الأُنسَ للتَّأثرين وتشكِّلُ السَّدَّ المنيع في حمايتهم، ورفع معنوياتهم، وهذا يحتاج إلى مزيدٍ من الحكمة في التَّعامل مع الحاضنة بالرحمة والرَّعاية والحماية للحفاظ عليها وكسب ودِّها، حتى لا تنقلب الثَّورة على ثوارها فتكون سبباً في خسارتهم والقضاء عليهم.

ثانياً: النُّخبُ السِّياسيةُ:

تُعتبر النُّخبُ السِّياسيةُ البوصلةُ التي تحدّد المسارَ السِّياسيَّ للدولة، وتضع البرامجَ المناسبة للإدارة الدَّاخِليَّة والخارجيَّة بما يحقِّق الأمنَ الدَّاخِليَّ والأمانَ الخارجيّ من خلال إقامة العدل بين المواطنين ومدّ جسور الألفة والتَّعاون والعلاقات الخارجيّة مع الدُّول ذات المصالح والموارد، والممثل الحقيقيّ للأُمَّة في المحافل الدُّوليَّة والمجالس الرّسميّة.

(١)- مدونات الجزيرة ، منطق الثورات ومآلاتها، محمد المختار الشنقيطي، بتاريخ: ٢٤/٢/٢٠١١م.

ثالثاً: القادة العسكريون:

يُعتبر القادة العسكريون بيضة القبان في الدولة، من خلال إعداد الجيش والقوة بكل أصنافها وأشكالها، وترتيب الإعداد والاستعداد لكل السيناريوهات المحتملة، بعيداً عن تهديد أحد من دول الجوار، واستعراضاً لكل من تسول له نفسه الاعتداء أو نحو ذلك.

رابعاً: المرجعيّات الدينيّة:

وهم البوصلة الشرعية التي تحدّد المسار السلوكي لأفراد المجتمع، وتزكي نفوسهم على الأخلاق الكريمة والأفعال الحميدة، وترتّبهم على معرفة الحقّ والالتزام به، وعلى اكتشاف الباطل والتّحذير منه والابتعاد عنه ضمن المعايير الربانية: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُ﴾، وأسس المحبة والأخوة الإيمانية، فلا فرق بين حاكم ولا محكوم، ولا رئيس ولا مرؤوس إلا بالتّقوى والعمل الصّالح.

المطلب التاسع: أقسام النّاس في الثّورات ودورهم فيها:

لم يكن النّاس على مستوٍ واحدٍ من الفهم والإدراك وتحليل الأحداث وتركيبها، كما لم يكونوا على سويةٍ واحدةٍ في التّعامل مع صعوبات الحياة وتحدياتها وطبيعة التّعامل مع أحداثها، وهو مصداق قول الله سبحانه: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [سورة هود: الآية ١١٨].

ومن هنا يمكن تقسيم النّاس تجاه الثّورات إلى عدّة أقسام تتمثّل فيما يلي:

١- قسمٌ مؤيّدٌ للثّورة، ومتفاعلاً معها، ومدافعٌ عنها، ومتفهمٌ لأهدافها ومراميها، واعٍ لما يُحاك لها ولأهلها وما يدور حولهم، يضيّ بالغالي والتّفيس من أجلها من نفسٍ ومالٍ ومتاعٍ، وعلمٍ وقلمٍ ولسانٍ، يعملُ ليلاً ونهاراً لدحض الأكاذيب والأراجيف وردّ الشُّبه وفضح الشّائعات، مع نشر العلم والمعرفة والتّوجيه والإرشاد بكلّ ما يستطيع من أدواتٍ ووسائلٍ في وقتٍ تتكالب عليه الذّئاب البشريّة ويتكاثر على تشويه ثورته الذّباب الإلكتروني.

والثّورة بالنّسبة لهذا القسم تُعتبر مغرماً عليهم وتكليفاً كبيراً يطلبون الأجر والمثوبة من الله سبحانه.

٢- قسمٌ معارضٌ للثورة، مناهضٌ لها، لا يؤمنُ بها، يحاربُ أنصارها ويعملُ على هدمِ أركانها وقتلِ رجالها بكلِّ ما يستطيع من وسائلٍ وأدواتٍ.

يعملُ لبثُ الأراجيف والأكاذيب والأخبار المسمومة التي تساعد على إرهاب النَّاس وإرعايهم وزرع الفتنة بينهم وبين أبنائهم، وتشتيت فكرهم وإضعاف صفوفهم.

وقد يسوّق بعض الأخبارِ الصَّحيحة أحياناً ليدلّس على عوام النَّاس ويُسهّل عليهم قبولَ أخباره المكذوبة والمسمومة، وكثيرٌ من هؤلاء مَنْ يمتلك حلاوة اللسان وجميلَ البلاغة والبيان.

٣- قسمٌ أُطلق عليه في الثورة مصطلحٌ جديدٌ، هو: (فريق: الله يطفيها بنوره، وفريق: كنّا عايشين)، حيث يقفون على الحياد، ليسوا من هؤلاء ولا من هؤلاء، وهم على مبدأ: (مين يأخذ أمي اسميه عي)^(١)، وهؤلاء لا تهمهم الثورات بشيء، وإنّما أبعادوا أنفسهم عن تحمّل المسؤولية والتهرب من الأمانة ولو على حساب الكرامة والثواب الأخلاقية والدّينية والإنسانية.

٤- قسمُ العوام من النَّاس الذين لا يدركون فقه الواقع المحيط وصعوبة الإحاطة به وبمآلاته، لكنّ بعضهم عنده حبُّ النّقل والتّرويح والنّسخ واللصق ليسدّوا نقص أنفسهم فينقلون الأخبار والأحداث بقصدٍ أو من غير قصدٍ غير مباليين لما قد يحدثه فعلهم من مآلاتٍ ومخالفاتٍ شرعيةٍ وأخلاقيةٍ، وهؤلاء يصطقّون أخيراً مع المنتصر أياً كان.

٥- وهناك قسمٌ خامسٌ؛ يسرون في ركب الثورة ويلبسون لباسها، لسانهم طويلٌ بالتّعني بشعاراتها، لكنهم لا يقدّمون شيئاً في سبيلها ممّا قد يتوجّب عليهم، إلا أنّهم يتسلّقون على قيادتها وتسلم المناصب فيها والتحكّم بمفاصلها ما استطاعوا الى ذلك سبيلاً.

والثورة بالنسبة لهؤلاء تُعتبر مغنماً يستفيدون منها ويتسلّقون عليها ويتسلّطون على أهلها، وهم في الحقيقة عبءٌ على الثورة وأهلها.

(١)- وهو مثل شعبيٍّ سائدٌ في المجتمع السوري، يقال في مثل هذه الحالات للمنهزمين والمنبطحين الذين يهربون من مسؤولياتهم.

المطلب العاشر: الإعلام الثوري: (١)

الإعلام من أهم الركائز والأركان الداعمة للثورات، وقد يوفّر جهوداً كبيرة في حسم أمور الثورة نحو نصرها ونجاحها، وخاصةً إذا كان القائمون على إدارته من الإعلاميين المهنيين الذين يعملون باحترافية وصدقٍ وذكاء، يُفوّتون على الأعداء فرص النصر ويقطعون عنهم طرق النجاح والنّجاة، وذلك من خلال أمور تتجلى بما يلي:

١- العمل على فضح العدو وإظهار جرائمه وفساده أمام العالم لنزع شرعيته وإسقاطه من عيون أنصاره المخدوعين.

٢- إبراز القيم الثورية والمثل الأخلاقية التي يتمتع بها الثوار في تعاملهم مع الحاضنة الشعبية.

٣- عدم الإفصاح عن الأعمال الثورية والعسكرية التي يقوم بها الثوار إلا بما يتناسب مع الواقع والمرحلة ضمن مكتب إعلامي موحد.

٤- وضع معايير للعمل الإعلامي وتنظيمه بضوابط ثورية بما يقطع الطرق أمام المخربين والمغرضين.

وقد ذكر المفكر الإسلامي الشنقيطي في مقالته: (الخطاب الناجح أثناء الثورات) (٢)، وما ينبغي أن يكون:

١- سهل الاستيعاب؛ لأنّه يخاطب عامة الناس.

٢- جامعاً لا مفرقاً؛ ليضمن بناء واستمرار الكتلة الحرجة.

٣- مجملاً لا مفصلاً؛ لأنّ الثوار تجمعهم المبادئ وتفرّقهم البرامج.

٤- الاختلاف وقت مقارعة الاستبداد مهلك للثورات.

٥- الخوض في التفاصيل قبل سقوط الاستبداد مصدر تفرّق للصّف الثوري.

٦- خطاب الثورة خطاب تعبئة للداخل، وخطاب طمأنينة للخارج.

(١)- المقصود بالإعلام الثوري: كلّ ما من شأنه نقل الوقائع والأحداث للعالم الخارجي من خلال الوسائل الإعلامية المتنوعة. وسيكون لنا مبحث لاحق في الكتاب يتناول الإعلام.

(٢)- مدونات الجزيرة، منطق الثورات ومآلاتها، محمد المختار الشنقيطي.

٧- طغيان إحدى الثّبرتين على الأخرى مضرٌ بالثّورة.

المطلب الحادي عشر: مدمّراتُ الثّورات:

قد تنطلق الثّورات من قلب المعاناة المجتمعيّة، وقد تصل إلى مرحلةٍ متقدّمةٍ في تحقيق مطالبها، إلّا أنّ هناك بعضَ الأمور التي قد تطرأ عليها من داخلها ومن خارجها فتطيح بها وتقضي عليها أو تحرف مسارها.

فمن المدمّراتِ الدّاخليّة:

أولاً: الفوضويّة وعدمُ وجود القيادة الموجهة: التي تسير بالمظاهرات ضمن خطةٍ عملٍ مدروسةٍ ومنظّمةٍ ومُحكّمةٍ، فإذا ما فُقدت القيادة الواحدة الموجهة فسوف تحلّ مكانها الفوضى، وسيتسلّق أصحابُ الأهواء وتنتشر المظالمُ ويسود التسلّطُ والابتزازُ، وهو ما يُنذر بانفضاض الحاضنة الشّعبية والكنوز البشريّة عنهم، وسيكون مآلُ الثّورة إلى زوال وانتهاء.

ثانياً: تحوّل الثّورة إلى مصالح خاصّة: فقد تُحقّق الثّورة جزءاً كبيراً من أهدافها في وقتٍ تعتبر بعضُ الشّخصيّات الثّوريّة أنّها صاحبةُ الفضل في ذلك، فتضع أيديها على مفاصل المدن وحركة السّكان مع وُضع اليد على الممتلكات الخاصّة بذرائع قد تكون واهيةً وغير صحيحة، وهو ما يؤدي إلى تدمير الحاضنة الشّعبية وإسقاط الثّورة والثّوار.

ثالثاً: المال السّياسي (المسموم): وذكر المفكّر الإسلامي "الشّنقيطي" في مقالته (حول الدّعم الخارجي)^(١):

الثّورات والدّعمُ الخارجيّ: لا توجد قوّةٌ معاصرةٌ منزهةٌ عن الدّعم الخارجيّ منذ الثّورة الأمريكيّة ١٧٧٦ م التي دعمها ملك فرنسا لويس ١٤، ولا ينبغي أن ترفض الثّورة الدّعمُ الخارجيّ، لكنّ عليها أن تحافظ على استقلال قرارها.

كما أنّه ليس المهمُّ دوافعُ الدّاعمين للثّورة من القوى الخارجيّة، بل؛ المهمُّ هو آثارُ سياستهم على مسار الثّورة؛ لأنّ المعادلة الدّاخليّة أهمُّ وأعمقُ أثراً من المعادلة الخارجيّة.

(١)- مدونات الجزيرة، منطق الثورات ومآلاتها، محمد المختار الشنقيطي.

غالباً في الصّراعات الإقليمية والدولية وعند عدم مقدرة أحد الأطراف على حسم المعركة لصالحه تتدخل بعض الدول صاحبة المصالح الخاصة بذرائع مختلفة لتقديم الدعم المالي أو العسكري أو اللوجستي لطرف من أطراف النزاع، وتستدرجه استدراجاً لبعض المواقف التي تمثل نقطة ضعف عنده، ويبقى بحاجتها في مستقبله السياسي والحياتي، وهكذا حتى إذا وصل لتلك المرحلة أصبح رهيناً لأجندات تلك الدول، ياتمر بأمرها فيما يلي مصالحها بعيداً عن مصلحة ثورته التي قام من أجلها.

ولعلّ من أبهى الصّور التي توضّح ذلك، عندما قرّرت الولايات المتحدة الأمريكية التّفاوض مع الثّوار الفيتناميين، حيثُ طلبت منهم أن يرسلوا وفداً يمثّلهم في باريس للتّباحث حول وقف الحرب بعد أن أوغل ثوار فيتنام بالجنود الأمريكيين ومثّلوا بهم.

وفعلاً أرسل الثّوار وفداً مكوّناً من أربعة أشخاص؛ (امرأتين ورجلين)، وكانت المخابرات الأمريكية قد جهّزت لهذا الوفد إقامةً بأرقى فنادق باريس، وجهّزت لهم كلّ أسباب الرّاحة والمتعة، وكلّ ما لدّ وطاب، وعندما وصل الوفد الفيتنامي إلى مدينة باريس ونزل في المطار كانت هناك سيارات تنتظره لتقلّه إلى مكان إقامته.

ولكنّ الوفد رفض ركوب السيّارات وطلب مغادرة المطار بطريقته، وأنّه سيحضر الاجتماع في الوقت المحدّد، استغرب الوفد الأمريكي ذلك، وسأل رئيس الوفد:

وأين ستقيمون؟ فأجاب:

سنقيم عند طالب فيتنامي في أحد ضواحي باريس.

فتعجّب الأمريكي وقال له:

قد جهّزنا لكم إقامةً مريحةً في فندقٍ فخيمٍ، فأجاب الفيتنامي:

نحن كنّا نقاتلكم ونقيم في الجبال وننام على الصّخور ونأكل الحشائش، فلو تغيّرت علينا طبيعتنا نخاف أن تتغيّر معها ضمائرنا، فدعونا وشأننا.

وفعلاً ذهب الوفدُ وأقام في منزل الطالب الفيتنامي ليقوم بعدها بمباحثاتٍ أدّت لجلاء المحتل الأمريكي عن كل فيتنام^(١).

وحين التقى الوفدان على أرض المطار، وبادر الأمريكي لمصافحة الوفد الفيتنامي لكنهم رفضوا، وقال كبيرهم:

"لا زلنا أعداء ولم يخوّلنا شعبنا مصافحتكم، فَمَنْ يَبِيعُ ضميره يَبِيعُ وطنه".

- وفي يوم ما زار الجنرال جياب - أحد قادة الثوار الفيتناميين - عاصمة عربية توجد فيها فصائل فلسطينية (ثورية) في السبعينات من القرن الماضي، فلما شاهد حياة البذخ والرّفاهية التي يعيشها قادة تلك الفصائل، والسيّارات الألمانية الفارهة، والسيّجار الكوبي، والبُدل الإيطالية الفاخرة، والعطور الفرنسية باهظة الثمن، وقارنها بحياته مع ثوار (الفيت كونج) في الغابات الفيتنامية، قال لتلك القيادات مباشرة بدون موارد:

"لن تنتصر ثورتكم!!!"

فسألوه لماذا؟

فأجابهم: لأنّ الثّورة والثّروة لا يلتقيان".

الحقيقة:

لقد اختصر عليهم الكثير من المعلومات بهذه الكلمات؛ لأنّ الثّورة التي لا يقودها الوعي تتحوّل إلى إرهاب، والثّورة التي يُغدق عليها المال يتحوّل قادتها إلى لصوص.

وإذا رأيت أحداً يدّعي الثّوريّة ويسكن بقصرٍ أو فيلا، ويأكل أشهى الأطباق، ويعيش في رفاهية وترفٍ، فيما يعيش بقية الشّعب في مخيماتٍ، ويتلقى المساعدات الدّولية للبقاء على قيد الحياة، فأعلم أنّ القيادة لا ترغب في تغيير الواقع.

فكيف تنتصر ثورة قيادتها لا تريدها أن تنتصر؟

(١)- تعرف هذه المفاوضات باسم: اتفاقية باريس للسلام التي أُطلق عليها فيما بعد اسم اتفاقية انتهاء الحرب واستعادة فيتنام، هي معاهدة سلام وُقعت في ٢٧ يناير ١٩٧٣، لترسيخ السلام في فيتنام وإنهاء الحرب فيها.

ومن المدّرات الخارجيّة:

أولاً: التّدخلُ الخارجيّ: (الإقليمي أو الدّولي)، حيث إنّ الدّول تبني سياساتها على أساس المصالح ولو كانت على حساب الشُّعوب ونهب ثرواتهم، من خلال البحث عن ذرائع تستدعي تدخّلهم في الثّورات حسب تخطيطهم، فيضعوا آليات التّدخل، ويجّهّزوا الوسائل والأدوات لذلك، وهنا يحصل الخلل وتدخل البلاد في نفقٍ مظلمٍ يطيل أمد الثّورة ويضيع حقوق النّاس.

ثانياً: الاختراق الأمني: وهو ما يعمل عليه الخصم عادةً من خلال شراء بعض ذمم خصمه، أو إدخال عناصر في صفوفهم فيصل إلى ما يريد من تمزيق صفوفهم وتشتيت قوّتهم وكشف خططهم، وهو ما يؤدي إلى إفشال الثّورة والقضاء على الثّوار.

ومن جميل ما كُتب في مقتل الثّورات ومدّراتها ما كتبه الدكتور (محمد خير موسى)^(١) في مقال جاء فيه:

"مقتل الثّورات ليس في هزيمتها العسكريّة أمام جحافل المستبدّ وجيوش الطّغاة، بل في هزيمتها الأخلاقيّة والقيميّة أمام ذاتها.

تدوى الثّورات حين تغدو ثقافة السُّباب والشّتيم هي اللغة السّائدة في التّخاطب والتّحاور والتّعبير عن المواقف من أبناء الثّورة وغيرهم.

وعندما تلتفتُ يميناً وشمالاً فتجد أنّ الاحترام والتّوقير والتّقدير للأشخاص والأفكار غدا عملة نادرة؛ فإنّ الثّورة تفقدُ وهجها على الرُّغم من كلّ ما فيها من عدالةٍ وحقٍّ.

وتدخل الثّورة في مأزقٍ حين ينزوي أصحابُ الأفكار الرّاقية والتّوجّهات السّامية فيبتلعون ألسنتهم ويخبّون أقلامهم خشيةً تعرّضهم لموجات السُّباب والتّشهير والبذاءة التي لا تحترم شيبةً ولا تُجلّ دماً.

ينجح المستبدّ في إخماد الثّورة عندما يصبحُ الإسفافُ والانحدارُ والبذاءةُ اللفظيّة والسلوكيّة فيما بين أبناء الثّورة هو القاعدة العامّة، والاستثناء خلافه، وهنا ينبغي على عقلاء الثّورات أن لا

(١)- محمد خير موسى، كاتب فلسطيني مقيم في اسطنبول، له كتابان "إلحاد الثورات المضادة" و"القيسيات؛ الجذور الفكرية والمواقف السلوكية"، وله الكثير من المقالات المنشورة في مختلف المواقع.

يكونوا في موقف المنزوي أو المتفرج، بل؛ عليهم أن يجفّفوا مستنقعات الإسفاف والبذاءة بأيّ ثمن وجهدٍ لتغدو البيئة صالحةً لاستمرار الثورة في مواجهة الطُّغاة المجرمين^(١).

وفي نفس السّياق فقد ذكر المفكّر الإسلاميّ الشّنقيطي: عدداً من العوائق والمزالق أمام الثّورات، منها:

- ١- الأنانية السّياسية لدى أطراف الكتلة الحرجة التي فجّرت الثّورة.
 - ٢- سوء تفكير الثّوار أو تقديرهم في قراءة بُنية الدّولة وآلياتها.
 - ٣- خلطُ الشّعب بين أهداف الثّورة وأهداف الدّولة وتعجّله للثّمرات.
 - ٤- مللُ المجتمع من المهاترات السّياسية وإحساسه أنّ الثّوار منشغلون بالمغانم عن معاناته.
 - ٥- تواطؤ القوى الإقليميّة والدّوليّة الخائفة من انبساط رياح التّغيير.
- ولن تيّأس الدّول من ذلك أو الدّولة المعنيّة، فهي تعتمد على إجهاض الثّورة من خلال وسائل وأدوات:

أدوات عمَلِ الدّولة العميقة:

أدوات عملها: قوى الجيش والأمن، الإعلام المرتزق، القضاء الدّستوري غير النّزيه، بعض رجال الأعمال، العلاقات الخارجية.

مخاطرها: وأد الثّورة، أو حرّفها عن مسارها، أو تفرّغها من محتواها، أو استنزافها بالمعارك الجانبية، أو إغراقها في الأمور الجزئية، أو إفقاد الشّعب الثّقة فيها، أو تفرّيق صفّها بالإغراء والإغواء.

طرق التّعاطي فيها: من خلال تفكيكها، أو احتوائها، أو إرغامها على تغيير مسارها وسلوكها.

(١)- نُشرت هذه المقالة على صفحة الدكتور محمد خير موسى على التوتير بتاريخ: ٢١/يونيو/ ٢٠٢١ م.

المطلب الثاني عشر: تفريغ الثورات:

لن تترك أنظمة الاستبداد فرصة من الفرص ولا وسيلة من الوسائل للقضاء على الثورة أو لتفريغها من مضمونها أو التخفيف من فعاليتها إلا وستستخدمها، في الوقت الذي لن ينتبه الثائرون إلى تلك الأساليب والوسائل لحدثة عهدهم بدهاليز السياسة والأعيب الأنظمة الفاسدة التي تلعب على كل حبال المكر والخديعة والخيانة.

وهنا سأذكر بعض الوسائل التي استخدمها النظام الأسدّي المجرم مع الشعب السوريّ الثائر، حيث تختلف تلك الأساليب والوسائل تبعاً لوضع الفئة المستهدفة، وهي كما يلي:

١- حاول النظام الأسدّي استدعاء الدعاة والعلماء من أصحاب الرأي والكلمة والفكر في المجتمعات من خلال إرسال دعوات رسمية لهم، بعبارات رنانة توحى بالتقدير والمكانة والاحترام للحضور إلى مكتب المحافظة أو الرئاسة، مع العروض المغرية بالمكانة والصّلاحية والمناصب، وما ينطبق على العلماء في دعوتهم هذه ينطبق على النخب العلميّة والثقافيّة والمجتمعيّة.

ومن هنا فقد حيدّ كثيراً من النخب عن قضيتها الثوريّة، وأعادهم دعاءً له في الدّفاع عنه ضدّ أبناء بلدهم ومجتمعهم، بل وجعل منهم أعداء متخاصمين بعد أن كانوا إخوة متحابين.

٢- بعد الدّراسات الأمنيّة التي تقوم بها الأجهزة المخبريّة، تعمل تلك الأجهزة على التخلّص ممّن لا يمكن تطويعه لصالحهم، وذلك عن طريق ترتيب عمليات اغتالاتٍ أمنيّة تُسجّل ضدّ مجهولٍ (كما حدث مع شخصيات لبنان كالحريري وغيره)، وكما حدث لمن كانوا في سلك الدولة معه (كمحمود الزعبي وغازي كنعان)، وهذا النظام من أبرع الأنظمة في التخلّص من أبنائه وعملائه وأعضائه قبل خصومه وأعدائه.

٣- النظام الأسدّي خلال فترة حكمه لعقودٍ مضت كان قد رسّخ كلّ معاني الظلم والقمع والاستبداد، وزرع الخوف والرعب في قلوب النّاس من خلال إذلالهم وإهانتهم في الشّوارع والسّاحات، وفي بيوتهم وأمام أهلهم وأبنائهم، وهو ما جعل من النّاس تحسب كلّ الحسابات قبل أن تقوم بأيّ أمرٍ يمكن أن تُسأل عنه أو تتحاسب عليه.

٤- حملات الاعتقالات لم تتوقّف طيلة حكم النظام الأسدّي، وما يتبع السّجن من ويلات التعذيب والإهانة والابتزاز لكلّ عائلة المعتقل وأقربائه مع حرمانهم جميعاً من أدنى حقوقهم

المدنيّة والعسكريّة، إضافةً لوضعهم تحت المراقبة الأمنيّة ودفعهم للهجرة خارج البلد للخلاص منهم مع التسهيلات الكاملة من إدارة الهجرة والجوازات.

٥- تقريبُ أصحابِ الأموال والشركات المختلفة والمؤسسات الخاصّة، والتّعهّدُ بحمايتهم من أيّ اعتداءٍ عليهم وعلى ممتلكاتهم، وهو ما يُرغّب ضِعافَ القلوب ويجعلُ منهم أدواتٍ طيّعةً في أيدي النّظام المجرم، يقدّمون له ما يحتاجه من أموالٍ ويدفعونها لعناصره المجنّدة لديه.

٦- الضّغطُ على أصحاب العقول والمفكرين للتّخلّص منهم وتهجيرهم خارج البلاد خوفاً ممّا قد يقومون به من أعمالٍ، أو ينشرون من أفكارٍ قد تطيح بحكمه، وذلك من خلال علاقاته مع الدّول الصّديقة التي تستدعي المئات من الكفاءات العلميّة لمدارسها أو مؤسساتها الخاصّة تحت عنوان "البعثات الدّوليّة والعلميّة" مع الدول.

٧- التّركيز على القبائل والعشائر العربيّة، وصناعة وجهاءٍ جُدُدٍ من خلال دعمهم بمناصبٍ ووجاهات يخدم بها قبيلته وأهله، وبذلك يصنع وجوهاً جديدةً تأتمر بأمره وتحقّق له أهدافه في قبيلته بعد أن يهمل رجال القبيلة الأصليين الذين قد لا يطيعونه ولا يبيعون دماء أبنائهم وأهلهم.

٨- من خلال الدّراسات الأمنيّة للشّعب كافّةً، حيث تتقدّم تلك الدّراسات إلى الجهات العليا المختصّة من أجل كفيّة استيعابهم واستجلاهم لصالح النّظام حتى يكونوا سنداً قوياً له، أو تحييدهم عن معاداته على الأقل عند تعذّر استقطابهم، وذلك من خلال التّواصل معهم والسّؤال عن أوضاعهم وإشعارهم بالحرص عليهم على الدّوام.

٩- عندما يعجز النّظام عن استيعاب البعض بالطّرق الدّبلوماسية وغيرها ممّا سبق ذكره، فإنّ أبواب السّجون مفتوحةً، وأعواد المشانق منصوبةً تنتظر أصحابها المتمرّدين (حسب خطّطه ومعيّاره)، وهذا ما بات واضحاً من خلال صور (قيصر)^(١) التي ظهر منها عشرات آلاف الصّور المقتولة، فضلاً عمّا تمّ إعدامه على حبال المشانق وما زال مصيرهم مجهولاً.

(١)- صور قيصر: "جريمة العصر" هي الجريمة التي كشف بعضَ خيوطها مصوّرٌ منشقٌّ عن النظام، لُقّبَ باسم: "قيصر"، حين سرّب مطلع ٢٠١٤ حوالي ٥٥ ألف صورة، توثق ١١ ألف ضحية قضت في معتقلات نظام بشار الأسد، فيما لا يزال مصير عشرات آلاف المعتقلين مجهولاً، وما تزال آلة التعذيب تطحن السوريين المغيبين في الزنازين وتسلب منهم حياتهم، فضلاً عن سلب آدمية من لا يزال حيا منهم. موقع ويكيبيديا.

بهذه الأساليب الناعمة والخشنة التي استخدمها النظام الأسدي زعماً منه أنه سيفرغ الثورة من محتواها بعد أن يئس من القضاء عليها وإنهاءها، وعلى الرغم من عدم تحقق أهدافه في ذلك إلا أنه لم يزل متابعاً بتلك الوسائل والأساليب مع ضعف القلوب لعله يُعيد حكمه وسيطرته كما كان، لكنّه لم ينجح والحمد لله؛ لأنّ هذا الشعب، وبعد سنوات الثورة قد اكتسب مزيداً من الثقافة الثورية فقلّب الطاولة على النظام المجرم، وما زال متابعاً في مسيرته الثورية رغم التحديات الجسيمة إيماناً منه بعدالة قضيته في العزة والحرية والكرامة مهما بلغت الصعوبات، ومهما كلفت من التضحيات.

المطلب الثالث عشر: سرقة الثورات:

من حقّ الشعوب المظلومة أن تثور على حكّامها الظلمة لتستعيد حريتها المسلوبة ولتسترجع حقوقها المغتصبة.

وليس لأحد أن يمنع غيره من الانخراط في الحركات الشعبية المنضبطة للوصول إلى الأهداف والغايات المنشودة.

ولكن؛ وضمن الأحوال والمعايير الدولية المتخاذلة عن حقوق الناس والتآمر الواضح ضدّ حرية الشعوب المستضعفة قد تتعثر الحركات الثورية في بعض مراحلها، وقد يعمل على إفشالها والقضاء عليها.

وهنا يجب التنبّه إلى حساسية المرحلة بالحفاظ على استمرارية الحراك المنظم، مع الحفاظ على روح التسامح والعدالة والمودة والمحبة والتعاون على البرّ والتقوى، مع التواصي بالحق والصبر على الدوام، متزامناً مع التربية الفكرية والسياسية للجيل الناشئ، ليبقى محافظاً على سمّته الإسلامي وقيمه الدينية التي تميّزه عن غيره في أحلك الظروف وأصعب الأوقات.

كما لا بدّ من الانتباه لما قد يحدث من سرقة الثورات والانقلاب عليها بعد التضحيات الجسام والدماء الغزيرة التي أُريقَتْ، فيقوم بعض ممّن لبس لباس الثورة وانخرط ضمن صفوف الثوار بسرقتها بعدما تسلّق على مفاصل الحكم فيها من خلال أدوات وآليات ووسائل يمكن توضيح جزئ منها، من خلال مقالٍ كنتُ كتبته بهذه المناسبة تحت عنوان: (فستذكرون ما أقول لكم)^(١).

(١) - نشرتها على قناتي الخاصة في تلغرام، بتاريخ: ٢٠٢٢/١٠/١٠م.

"قد ينحرف المرء بتصرفاته، وقد يشذُّ بسلوكه، وقد يَفْجُرُ بعلاقاته الأسرية والمجتمعية، فقد يسرق ليأكلَ ويطعمَ أطفاله وأسرته، (ولا يُبرَّرُ له ذلك).

كما قد يزني عندما تضعف نفسه ويغيب رادعُه في وقت انتشار الفواحش والمغريات الفاتنة لِيُشْبِعَ غريزته، (ولا يُبرَّرُ له ذلك).

وقد يقطع الطُّرُقَ ويختطفُ النَّاسَ ويبتزُّهم بالفدية والأموال لانحلالٍ في أخلاقه أو انعدامٍ في تربيته، أو تغلبُ الفجورِ عليه، (ولا يُبرَّرُ له ذلك).

وبمعنى آخر:

أنَّه عندما تنعدم التربية الأخلاقية ويغيب الوازع الدينيُّ الرادع، ويتغلبُ الهوى وتطغى الأنانية، يجنح المرءُ في المنزلقات والانحرافات الأخلاقية، ويقع في مستنقعات المخالفات الشرعية، ويتجاوز كلَّ الأعراف والتقاليد المجتمعية، لِيُشْبِعَ شهوته ويملاً غريزته ويصلَ إلى نزواته وملذاته المؤقتة التي هي غاية ما يصبو إليه في حياته.

لكنَّه؛ ومع ذلك، فقد يجلس مع نفسه ساعةً صحوَّةً وتوبةً ورجوعٍ وعودةً إلى الله سبحانه، بعد أن ينظر إلى نفسه نظرةً ازدراءٍ واشمئزازٍ واحتقار، أنَّه ضعيفٌ أمامها لا يقدر على كبح جماحها ولا منعها من تجاوز الخطوط العريضة للأخلاق والقيم والمبادئ السامية، يأمل أن يصل إلى مرحلةٍ يتغلب فيها على شهواته ونزواته ليرقى بنفسه إلى مرتبة الإنسان السويِّ.

ليس هذا المقصود من البحث هنا، وإنَّ كان ذلك جزءاً مهماً فيه، إذ لا مبرر للانحراف الأخلاقي، ولا مبرر للمخالفات الشرعية، ولا للممارسات الشاذة بكلِّ أنواعها؛ لأنَّها تخالف الطُّبائع البشرية السويَّة، وتخالف الشرائع الربَّانية المعصومة، وتخالف القوانين الدولية النزيهة.

فمثلاً:

لم يقتصر معنى السَّارق على سرقة متاعٍ بسيطٍ، أو مبلغٍ محدَّدٍ، أو عقارٍ معيَّن، أو غيره ممَّا يستوجب الحدَّ والعقوبة والذي يمكن العودة عنه والاستبراء منه من خلال التَّوبة الصادقة النَّصوح وإعادة الحقوق إلى أصحابها.

لكنَّ المجالات المهيَّمة التي يغفل أو يتغافل عنها الكثيرُ من النَّاسِ وخصوصاً هذه الأيّام، هي سرقة الأوطان من أصحابها، وحرمانهم من حقوقهم التي أكرمهم الله بها، واستغلال حاجاتهم وفقدهم وابتزازهم من خلال التلاعب بقضاياهم، والتدليس عليهم، والتسلُّط على رقابهم ممَّن امتطوا جياد السِّياسة وليسوا من أهلها، فتنازلوا عمَّا لا يملكونه ولا يستطيعون تعويضه ولا استرجاعه.

وممَّن تسلَّقوا مراكب القيادة ولم يمتلكوا قيادها ولا بعض صفاتها، فتناشوا الحقوق والواجبات المترتبة، ولم يروا أمامهم إلا المكاتب الفارغة والكراسي الزائفة والأموال الطائلة على حساب الشعوب المستضعفة.

وممَّن وهبوا طراوة اللسان وحلاوة الكلام، فأجادوا الخطابات الرنانة والعبارات الطنانة، فأبدعوا بالكذب والدجل وتألَّقوا بالتزلف والنفاق، فزيَّنوا الباطل وزوَّروا حقائقه، وأماتوا الحقَّ وطمسوا معالمه.

أولئك هم لصوص الأوطان والثورات، وسُرَّاق البلاد وأصل بلاء العباد.

ولعلَّ سائل يسأل:

وهل تُسرَّق الثَّوراتُ والأوطانُ؟

بل كيف تكون سرقتها؟

نعم؛ تُسرَّقُ الأوطانُ بما فيها، وتُسرَّقُ الثَّوراتُ وتُباع بمن فيها عندما يتصدَّر لقيادتها مَنْ ليس مِنْ أهلها، ولا يمتلك من صفاتها إلا الاسم والعنوان.

تُسرَّقُ الأوطانُ والثَّوراتُ عندما تصبح القيادة مغنماً لإشباع الغرائز والشهوات بعيداً عن سلامة العباد ومصالح البلاد.

تُسرَّقُ الأوطانُ والثَّوراتُ عندما يتسلَّط على إدارة البلاد وقيادتها مَنْ لا يقدر على حملها، ولا يستطيع القيام بأعبائها.

تُسرَّقُ الأوطانُ والثَّوراتُ عندما تتأخَّر القيادة في متابعة أعمالها ومستلزماتها على الدَّوام.

تُسرَّقُ الأوطانُ والثَّوراتُ عندما يتسلَّط عليها مَنْ لا يدرك طبيعتها وحقيقة متطلباتها، دون أن يتنازل لمن هو أقدر منه في القيام بواجباتها.

تُسْرِقُ الأوطانُ والثَّوراتُ عندما تُستسهلُ الأخطاءُ ويُتغافلُ عن التَّجاوزاتِ التي ستوردهم المهالكُ في الدُّنيا قبل الآخرة.

تُسْرِقُ الأوطانُ والثَّوراتُ حين لا يحسنُ القائدُ اختيارَ الحاشيةِ والمستشارين من حوله، فيُقرَّبُ الفاسدين والمفسدين، ويُبعدُ الصَّالحين والمصلحين.

تُسْرِقُ الأوطانُ والثَّوراتُ عندما نرى مِنْ أراذلِ القومِ بما لهم من ماضٍ قاتمٍ ومخزٍ، نراهم وقد تصدَّروا فأجلسوا في مقاعد أهل الحلِّ والعقد وأصبحوا من أصحاب القرارات النَّافذة.

تُسْرِقُ الأوطانُ والثَّوراتُ عندما يتسلَّق للقيادة من غلبت عليه شهواته على مصالح أهله وبلده.

تُسْرِقُ الأوطانُ والثَّوراتُ عندما تتسرَّ القيادة بفتاوى رجالٍ دينٍ يلوون أعناق النُّصوص الشرعية على مقاسهم مقابل عرضٍ دنيويٍّ خسيسٍ.

لا أتحدَّث هنا عن قياداتٍ، ولا عن سياسيين، ولا عن كَهَنَةِ النِّظامِ الأسديِّ المجرمِ أبداً، فهؤلاء أقلُّ من أن أتحدَّث عنهم، أو أن أعطي من وقتي وقلبي جزءاً لثلاثاتهم التي انغمست في دماء الأبرياء، ورقصت على جماجم الأنقياء، أو لعمائم مزيفةٍ شاركت وباركت قتل الأبرياء، وانتهاك الحرمات، فهؤلاء لا يستحقون إلا اللعنات التي تتراحم عليهم ليلاً ونهاراً ممَّن قال فيهم ربُّنا سبحانه في الحديث القدسي: (وعزَّتي وجلالي لأنصرنك ولو بعد حين)^(١).

نعم، لا أتحدَّث عن أولئك أبداً، إنَّما أتحدَّث عمَّن خرج ضدَّ الظُّلم والظُّلُمِ فانحرف وابتعد عمَّا خرج من أجله؛ لعله يعود إلى رشده فيصحَّ المسار ويصوب الأخطاء قبل فوات الآوان، فما زال في الوقت متّسع.

أتحدَّث عمَّن ما زال في قلبه ضميرٌ عند الصِّدْمَةِ يُؤيِّبه، أو رادعٌ عند التَّذكيرِ يمنعه، أو وازعٌ عند الانحراف ينقذه قبل زوال الأمان.

أتحدَّث عمَّن أنظر إليهم كإخوةٍ لي؛ لهم عليَّ حقُّ النصِّح والتَّوجيه، وامتني لهم تمام الرُّشد والهداية والتَّوفيق.

(١)- الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (ت: ٢٧٩هـ)، سنن الترمذي، دار الغرب الإسلامي - بيروت، ١٩٩٨م، باب في العفو والعافية، رقم الحديث (٣٥٩٨)، (٤٧٠/٥).

فَلْتَذَكَّرْ جميعاً: أَنَّ اللَّهَ أَكْرَمَنَا فَأَقَامَنَا لقضاء حوائج النَّاسِ والسَّعي في خدماتهم وتأمين راحتهم واستقرارهم....

فَمَنْ استطاع على ذلك فَنِعِمَتِ المهمةُ والكرامةُ، وَمَنْ لم يستطع فَلْيَتْرُكْ لغيره مَمَّنْ هو أقدر منه، وليكن لنا عبرةً في نصيحة النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأبي ذرٍّ (رضي الله عنه) عندما طلب منه الإمارة فقال: (يا أبا ذرٍّ إِنَّكَ ضعيفٌ، وإِنَّهَا أمانةٌ، وإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خزيٌّ وندامةٌ، إلا من أخذها بحَقِّهَا وأدَّى الذي عليه فيها)^(١).

وفي نفس السِّياق فقد كتب المفكِّرُ الإسلاميُّ محمد الشَّنيطي مقالاً بعنوان: (منطق الثَّورات) ذكر فيه فقرة بعنوان: (من وسائل اغتيال الثَّورات)، جاء فيها:

١- كسر الإرادة بالقمع والبطش.

٢- تلطيخ صورة الثَّورة وتزييف الوعي الشَّعبيِّ.

٣- توجيه جهد الثَّوار إلى حواشي النِّظام وهوامشه.

٤- تفريق الثَّوار وتمزيقهم بالإغراء والإغواء.

٥- التَّضحية ببعض أجنحة النِّظام إبقاءً على البعض الآخر.

٦- سدُّ الفراغ الذي تحدُّه فوضى ما بعد الثَّورات.

٧- تقديم بدائل مزيفةٍ ترقِّعُ الواقعَ ولا تغيِّره.

٨- تحويل الثَّورة إلى حركة مطالبيةٍ دون مغالبة.

المطلب الرَّابع عشر: ما بعد الثَّورات:

في ثقافة الثَّورات وضمن غياب العدالة الدَّوليَّة وملاحقات مجرِّمي الحروب من الحكَّام الظَّلمة، لا يمكن التَّنَبُّؤُ بنهاية الثَّورات ضمن فترةٍ معيَّنة، أو بنجاحها بالشَّكل الذي كان يأمل فيه أصحابها من تغييرٍ جذريٍّ وكاملٍ في مجالات الخلل والاضطراب السِّياسي والإداريِّ بشكِّلٍ خاص.

(١)- الإمام مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (ت: ٢٦١هـ)، صحيح مسلم، دار إحياء التراث العربي - بيروت، باب كراهة الإمارة بغير ضرورة، رقم الحديث (١٨٢٥)، (٣/ ١٤٥٧).

ولكن؛ وعلى افتراض نجاح الثورات بالشكل المأمول أو ضمن الممكن والمتاح لابد من العمل على الحفاظ عليها لضمان استمرارها ثم انتقالها من مرحلة الثورة إلى مرحلة الدولة والحكومة، والتي تختلف كثيراً عن حالة الثورات، حيث أنها تجنح للهدوء والاستقرار وتأمين الأمن والأمان للناس بعد حالة الثوران والفوضى، وهي مرحلة عمل في الواقع وليست شعارات ومظاهرات، بل هي حالة دراسة الممكنات السياسية والدولية الواقعية والعلاقات المجتمعية والإقليمية والدولية، وترشيد الموارد البشرية والاقتصادية وتوجيه الطاقات والكفاءات العلمية والفكرية بمجالات التقدم والازدهار الحضاري.

وهذه المرحلة قد تكون من أصعب المراحل أيضاً حيث ستظهر شخصيات صاحبة طموح وسلطة ترى أنها أحق باستلام إدارة البلاد وإقامة الحكم الذي تؤمن به وتعتقد وتراه مناسباً للواقع الجديد.

وكذا شخصيات أخرى ترى نفس الأمر ومعها مشروعها الخاص بها في إدارة المنطقة، وقد لا تقبل مشاركة الآخرين معها لأسبابها الخاصة، وهنا قد تدخل الساحة في صراع جديد سيكون أشد من صراع الثورة الأولى.

ولذلك كان لابد للعقلاء من أهل الثورة أن يتنبهوا لذلك، وأن يكونوا حازمين بما تقتضيه المرحلة بعيداً عن العواطف والمجاملات، وقد تكون مسؤولية الإسلاميين كبيرة في إنجاح ما بعد الثورات، حيث تقع في أربع اتجاهات كما ذكرها الدكتور سليمان العودة^(١) في كتابه: (أسئلة الثورة)^(٢)، وهي كما يلي:

١- حق الإسلاميين في أن يستعيدوا مكانتهم التي حرموا منها عبر عقود من المشاركة والحضور الإعلامي وتكوين الأحزاب.

٢- أن لا تقع هذه البلدان في استبداد بغطاء إسلامي من نوع جديد يستنسخ التجربة الإيرانية بنكهة سنيّة.

(١)- سلمان بن فهد بن عبد الله العودة (١٤ ديسمبر ١٩٥٦م)، داعية إسلامي، ورجل دين، وأستاذ جامعي، ومفكر سعودي، ومقدم برامج تلفزيونية. ولد في جمادى الأولى ١٣٧٦ هـ في قرية البصر الصغيرة الواقعة غرب مدينة بريدة في منطقة القصيم، حاصل على ماجستير في السنة في موضوع "الغربة وأحكامها"، ودكتوراه في السنة في شرح بلوغ المرام /كتاب الطهارة)، كان من أبرز ما كان يطلق عليهم مشايخ الصحوة في الثمانينيات والتسعينيات، له ١٢٦ مؤلف، وحالياً هو في السجن.

(٢)- سلمان العودة، أسئلة الثورة، مركز نماء للدراسات والبحوث، الطبعة: الأولى، بيروت، ٢٠١٢م، (ص ٢٠٧).

٣- حماية البلاد من أن تقع في وحل الفوضى وعدم الاستقرار خلال الصراع والتنافس مع القوى الأخرى مما يقوّي منطق الاستبداد الذي لا يزال شبّه قائماً.

٤- المشروع التّنمويّ الوطني الشّامل الذي تتوافر عليه الهمم، وتندفع له الطّاقات، وتنخرط فيه جميع القوى.

وكذلك فقد ذكر الشّنقيطي في مقالته: (الثّورة بين البداية والنهاية)^(١):

"أخطر ما في الثّورات ليس البدايات، وإنّما النهايات.

الوقوف في منتصف الطريق ليس خياراً.

توكفيل: "إنّ الثّورة مثل الرواية، أصعب ما فيها: هو نهايتها".

وأمام هذه التّحدّيات التي قد تعترض الثّورات فقد ذكر المفكّر الشّنقيطي بعض الأمور التي يجب الانتباه إليها لتأمين الثّورات من السرقة والاعتقال فقال:

"ممّا يُعيّن على تأمين الثّورة من الثّورة المضادّة ما يلي:

١- المحافظة على تماسك الكتلة الحرجة التي صنعت الثّورة مهما يكن خلافها السّياسي.

٢- تأجيل التّنافس الحزبيّ إلى حين انتصار الثّورة واستقرارها.

٣- الإسراع بإنهاء المرحلة الانتقاليّة سدّاً للفراغ الذي تستغلّه وتدخل من خلاله الثّورة المضادّة.

٤- وضوح المبادئ الأساسيّة التي سيتأسّس عليها النّظام الجديد، وأهمّها: الحرّيّة للجميع، والعدالة للجميع".

المطلب الخامس عشر: مصطلحات مرادفة:

يُطلق على الحراك الثّوريّ الذي يُراد منه التّغيير وإزالة الحكومات بعض المصطلحات كـ (الثّورة) وقد عرّفناها آنفاً...

كما يُطلق عليها مصطلح الأزمة، ومصطلح الصّراع، ومصطلح المعارضة.

(١)- مدونات الجزيرة، منطق الثورات ومآلاتها، محمد مختار الشنقيطي.

فماذا تعني تلك المصطلحات، وماذا نسّي ما يحدث في الواقع السوري؟

فأما مصطلح (الأزمة):

فهي مرحلة سابقة للثورة وتعبير عن موقف وحالة يواجهها متخذ القرار والمسؤولية في لحظة حرجية وخطيرة تحتاج للحسم في وقت ضيق مع عدم العلم بالمصير والمآلات، فلا يحتمل التأخير ولا الخطأ في تقدير المواقف والمآلات، والتي قد تمهد لأزمات جديدة.

كما أنّها مجموعة من الكوارث والمشكلات التي تحدث على نطاق دولي فتؤدي إلى اندلاع الصراع بين مجموعة من الدول بصفته أطراف الأزمة، وغالباً ما تؤدي إلى حروب بينها.

وأما مصطلح (الصراع):

فهو اختلاف بين طرفين أو أكثر على فكرة ما، يسعى كل طرف للتأكيد: أنّه على حق في فكرته وعمله، ويبقى الصراع مستمراً ما لم يصل طرفاه إلى حلول توافقية.

وأما مصطلح (المعارضة):

فغالباً ما يُستعمل في المجال السياسي لجماعة سياسية أو حزب سياسي يختلف مع أهداف ومبادئ حكومة أو نظام دولة فيمارس الضغط عليه من خلال أعمال وتصرفات ميدانية أحياناً (تظاهرات، واحتجاجات، واعتصامات، وإضرابات)، تضع النظام الحاكم أمام خيارات صعبة، إمّا بالتنازل للمطالب والحقوق وإشراك المعارضة في صنع القرار مع الحكومة، وإمّا بالرفض والتعنّت واستخدام القمع ضدهم، وهنا قد تتحوّل المعارضة السياسية إلى معارضة مسلحة قد تتطور في إحدى مراحلها إلى حرب أهلية لا تُحمد عقبائها.

ومما سبق نرى أنّ ما حصل في الساحة السورية:

هو ثورة: من حيث خروج الشعب السوري على جلّاديه ليرفع الظلم عنه، ويستعيد حريته وكرامته، ولا يكون ذلك إلّا من خلال الثورة على هذا النظام المجرم.

وهو أزمة: من حيث المشكلات والكوارث التي أصابت الشعب السوري المظلوم وأنهكت النظام الظالم المجرم، والتي كانت بوابة التدخل الدولي بعد تعنت النظام في الاستجابة، فلا يعلم المستقبل والمآلات.

وهو صراعٌ: من حيث إنها اختلافٌ بين مجرمٍ متحكّمٍ بمقدّرات شعبٍ وبمصيره، وبين شعبٍ مقهورٍ يسعى لنيل حرّيته واسترجاع كرامته.

وقد أُطلق مصطلحُ المعارضةِ على الثّورة والثّوار مجازاً؛ لأنّها تحمل معنى الثّورة من أحد جوانبها، من حيث إنّها تعمل على إسقاط النّظام المجرم وتغييره تغييراً جذريّاً من جهةٍ، ولا تحمل معنى الثّورة من حيث إنّها قد تتنازل عن بعض أهدافها وثوابتها مقابل استرضائها وإشراكها ببعض الحقائق والوزرات في الحكومة.

كما قد حاولت بعض وسائل الإعلام وصفَ ما حصل في سوريا بـ (بالحرب الأهليّة) وهذا تعبيرٌ لا ينطبق على الثّورة السوريّة؛ لأنّ الحرب الأهليّة:

هي التي تحصل بين أهالي البلد الواحد فيما بينهم لأسبابٍ مجتمعيّةٍ، غالباً تمسُّ سمعةً أو كرامةً أو حميّةً أو ما شابه ذلك، وغالباً ما تنتهي تلك الحروب بالتّفاوض بين الأطراف، والاتّفاق على ما يرضيهم.

بينما الثّورة السوريّة كانت بين شعبٍ حرٍّ مظلومٍ يطالب بالحرّيّة والكرامة التي هي حقٌّ له، من عصابةٍ مجرّمةٍ اغتصبت السّلطة واستحكمت فيها، فخرج لانتزاع عزّته وكرامته وحرّيته من جديدٍ.

المبحث الثاني

سوريا من قلب الحدث

المطلب الأول: نظرة عامة على العالم العربي والإسلامي:

المطلب الثاني: عين على الواقع السوري

سوريا من قلب الحدث

من المهم قبل الكلام عن الثورة السورية أن نضع القارئ الكريم بإحاطة متواضعة عن الواقع العربي والإسلامي بشكل عام وعن سوريا وبلاد الشام بشكل خاص؛ ليتكوّن عند القارئ فكرة عامة عنه ثمّ عن طبيعة الشعب السوري وطبيعة الحكم فيها ممّن تسلّط عليها، والأسباب الكامنة للثورة السورية المباركة، وأسباب تعثرها في بعض مراحلها.

المطلب الأول: نظرة عامة على العالم العربي والإسلامي:

• ممّا لا شكّ فيه ولا ريب: أنّ الواقع المريع الصّعب الذي تعيشه الأمة العربية والإسلامية لم يأت من فراغ محض أو بلا أسباب داعية أوقعتهم فيه وألجأهم إليه، ولم تكن هذه الأسباب وتلك التّداعيات بالسهلة ولا بالبسيطة عندما ألقت بأثقالها على الواقع العربي والإسلامي فأحالتهم كالجسد المشلول لا يقدر على عمل ولا يقوى على حراك.

• إنّهُ الواقع المؤلم الذي استحكم في بلدنا من الشّام المباركة (سورية)، وحلّ في مضاربنا، وترعّب على موائدنا، ويبدو أنّه باقٍ حتى يقضي على آمالنا ونحن في غفلة ممّا يدور حولنا من مخططات، وما يُحاك علينا من مؤامرات ستودي بنا إلى التهلكة وسوء المآل إن لم نستدرك أمورنا ونستنهض هممنا قبل فوات الأوان.

• لقد مضى عهد المجاملات ولا ينبغي التّعامل فيه بعد اليوم، فالخطر داهم والمستقبل خطير والعدو متكالب، وجسد الأمة أضحي مشلولاً طريح الفراش، فلا هو ميّت فيرتاح، ولا هو حيّ يقوى على تحمّل آلام الموت وسكراته.

هكذا غدا واقِعنا للأسف، فنحن عن إنقاذه متقاعسون، وعن نصرته معرضون، غرقنا في شهوات دنيانا فدَفَنّا أنفسنا ونحن أحياء، وابتعدنا عن عزّة ديننا فأمسينا بين الأمم أذلاء، لا يُسمع لنا كلامٌ ولا يُحترم لنا مقامٌ، ولا حول ولا قوّة إلا بالله.

• فهنا هي مصر أم الدنيا: التي يُنظر إليها على أنّها المرجع الرّشيد والسّند العتيد، صاحبة البأس الشّديد والمجد التّليد والقوّة التي يمكن الاعتماد عليها أمام أيّ خطرٍ داهم، والرجوع إليها عند أيّ اختلافٍ قاصم.

مصر الكنانة، أرض العلم والهندسة والحضارة بما امتلكت من علماء وأدباء ومفكرين ...

مصرُ الخيرِ والبرِّ والعطاء، بما اكتنزت من خيراتٍ وثرواتٍ ومياهٍ وبركات ...

مصرُ الفنِّ في الإدارة والتنظيم والإبداع، بما تجمَّلتُ من نوايغٍ ومتميّزين ومبدعين ...

لكنّها اليوم ... وبعد أن تسلَّط عليها الفراعنة الجُدُدُ، واستحكمَ في حكمها الطُّغاةُ والجبابرة ارتمتْ في أحضانِ المشاريعِ الصَّفْويَّةِ، وأُسِرَتْ في سلاسلِ الأغلالِ الغربيَّةِ والأمريكيَّةِ، وارتهمتْ للأوامرِ والتَّعاليمِ الصهيونيَّةِ، فغزا شبائِها الانحلالُ الأخلاقي، ودمَّرَ كيَّانَها الانهيارُ الاقتصادي، وأماتَ هيبَتَها الفسادُ السِّياسي، فتحوَّلتْ سهماً قاتلاً وخنجراً مسموماً في خاصرةِ الأمةِ العربيَّةِ والإسلاميَّةِ.

• وأما الجزيرةُ العربيَّةُ: أرضُ الرِّسالةِ ومهدُ النُّبوَّةِ، منبعُ العلم والعلماء، ومنارةُ الفكر والتَّوجيهِ والعطاء، منبتُ الدِّينِ والقيم والأخلاق، ومنطلقُ النُّبوَّةِ للهداية والتَّوعية والسِّباق، فضلاً عن الثَّرواتِ والخيراتِ والبركاتِ التي منَّ اللهُ على أهلِها تفضُّلاً منه وتكرماً، تنبتُ في أرضِها وتأتيها من كلِّ مكان.

لكنّها اليوم ... باتتْ رهينةً للمطامعِ الغربيَّةِ، ومحطَّ نظَرٍ للعدساتِ الأمريكيَّةِ، وموضعِ اهتمامٍ للمؤامراتِ والمكائدِ الصَّفْويَّةِ الرَّافضيَّةِ التي أطبقتِ الحصارَ عليها من كلِّ جانب، وزرعتْ بداخلِها الأراذلَ من الأقارب والأجانب، وأبعدتْ عنها كلَّ مَنْ يقدِّمُ لها أو يؤازرها أو يساندها، فهي إلى عزلةٍ كاملةٍ تنقطعُ فيها الأنفاسُ لتستكينَ وتستسلمَ للأمرِ الواقعِ المهيمن، تمهيداً لعودةِ أبي الطَّاهرِ القرمطيِّ ومشروعه القبيح، ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم.

وكذا دولُ الخليجِ العربي، فبالرَّغم ممَّا وصلتْ إليه من التَّرفِ الماديِّ المتنوعِ وارتقتْ في المجالِ العمرانيِّ والإداريِّ، لكنّها أضحتْ لقمةً سائغةً في الفمِ الإيرانيِّ الرَّافضي، تبتلعها متى شاءت، وتستنزفها كيفما أرادت، فضلاً عن كونها فريسةً سهلةً المنالِ أمامِ السِّهامِ الغربيَّةِ والمطامعِ الأمريكيَّةِ بما امتلكتْ من المخزوناتِ النَّفطيَّةِ والثَّرواتِ الباطنيَّةِ في الوقت الذي ينبغي أن تُجبرَ تلكَ الثَّرواتُ لإعادةِ أمجادِ الأُمَّةِ وحضارتِها السَّاميةِ برونقٍ مائعٍ جديدٍ.

• وأما بغدادُ الرَّشيديَّةُ: عاصمةُ الخلافةِ الإسلاميَّةِ ومركزُ حضارتِها المشرقيَّةِ، ذاكَ البلدُ الأشمُّ الذي وقفَ أمامَ المدِّ الإيرانيِّ الشَّيعيِّ ردحاً من الزَّمنِ لما كان يملكُ من إدراكٍ لخطرهم وخُبهم ومكرهم، فقد تُركَ وحده في المواجهةِ الكبرى أمامَ القوىِ المجرمةِ لتنهالَ عليه الخناجرُ المسمومةُ من كلِّ

حَدَبٍ وَصَوْبٍ، حتى أحواله ركماً باكيةً، وأنقاضاً هاويةً، وشوارعَ خاويةً، وغدتْ بغدادُ كئيبةً من غير سكانٍ تبكي حالها، وبقيتْ جرحاً نازفاً من غير دواءٍ يشفي جراحها، وغدا أهلها بينَ قَتيلٍ وجريحٍ، أو بين مُطارِدٍ ومهجَّرٍ في بلاد اللجوءِ والشَّتات لا يملكون حولاً ولا قوَّةً، فيما انتشرتْ في شوارعها الكلابُ البشريَّة، وامتلأتْ أرضُها بالغزاة الصَّفويَّة، وبذلك تحوَّلت العراقُ الجريحةُ إلى مستعمرةٍ إيرانيةٍ بامتيازٍ، يعرِّدون فيها بطقوسهم المكذوبة، ويقضون على آثارها التَّاريخيَّةِ المجيدة وحضارتها الإسلاميَّة الحميدة.

• وأما اليمنُ السَّعيدُ: كما كانوا يسمونه، فلم يبقَ سعيداً كما كان، فقد أصبحَ اليومَ منكوباً مكلوماً بعد أن مرَّقتهُ الحروبُ، وانهالتْ عليه الخطوبُ، وأحاطتْ به المصائبُ والكروب، فتسلَّطتْ عليه الذِّئابُ الحوثيَّة، واستحكمتْ بشعبه الشَّيَاطِينُ الشَّيعيَّة، فاغتصبتْ مقدَّراته ونهبتْ خيراته، ودمرتْ بيوتَهُ، وشرَّدتْ أهلَهُ، واستجلبتْ عليه إيرانَ بعملائها ووكلائها، ومازالَ اليمنُ يُنْ بين خناجرِ الأعداءِ وتخاذلِ الأصدقاءِ حتى يقضيَ اللهُ أمراً كان مفعولاً.

• وأما لبنانُ الأسيرُ: فقد وقعَ أسيراً في شباك ما يُسمَّى (حزب الله) الشَّيطاني، فأصبحَ رهينَ خياناته بعدما أحكم قبضته عليه، وغرَّزَ مخالفه في جسده، فزاده تفرُّقاً وتشَّتتاً وضعفاً وإنهاكاً، ويكفي فيه أن تقولَ: إِنَّ الطَّوائفَ اللبنانيَّةَ المختلفةَ والمتفرِّقةَ لم تستطع أن تتَّفَقَ على حكومةٍ تديرُ أمورَ البلدِ الذي لا تزيدُ مساحتهُ على عشرةِ آلافِ كيلومترٍ مربعٍ، بل لقد أصبحَ معروفاً أمامَ الجميع بأنَّ لبنانَ هو البلدُ الذي يمكنُ أن يبقى لسنواتٍ دون رئيسٍ يحكمُهُ لتعذُّرِ الاتفاقِ بين تلك الطوائفِ التي باتت كُلُّها رهينةً لمشاريعٍ خارجيَّةٍ ظالمةٍ قاتلة.

• وأما سوريةُ الجريحةُ المكْلومة: فهي التي اجتمعَ عليها كلُّ ذئابِ العالمِ وضباعِهِ، وتكالبَ على خيراتِها رؤوسُ الكفرِ وطواغيتُ الضَّلالِ، من الرَّاغضةِ المجوسيَّة، ومن الطَّوائفِ المختلفةِ الصَّليبيَّة، ومن الأفاعي المارقةِ الشُّيعيَّة، ومن الخنازير الصَّهيونيَّة العالميَّة، ليتقاسمُوها فيما بينهم، وليدمروا معالمها الحضاريَّة، وليشوهوا تاريخها المشرق، وليقضوا على شبابها الواعد، فيدخلوا مشاريعهم الطَّائفيَّة ومخططاتهم العنصريَّة، وينشروا أفكارهم المضلِّلة، ويغزوا عقولَ شبابها وبناتها ولو على حساب الجماجم والدِّماء والأشلاء، حتى غدتْ سوريا من غير سوريين، وأُسْكِنَ فيها مَنْ ليس منها، ولا حول ولا قوَّة إلا بالله العليِّ العظيم.

• وأما بقية الدول العربية والإسلامية: فليست بأحسن حالاً من أخواتها، فالأنظارُ الخبيثة تتوزع بين فرائسها لتضمن نجاح مسيرتها في السيطرة على ذاك العملاق المسلم والتمكين منه، بالأساليب الناعمة حيناً من خلال إلهائه وإغوائه وإغرائه وإغراقه في مستنقع الرذيلة والشهوات، وبالأساليب الخشنة حيناً آخر من خلال الحسم العسكري الذي يقضي على آماله وأحلامه وطموحاته في الخلاص من التبعية والخضوع، وتلك الدول بين هذا وذاك، فلا تملك قوة تدفع عنها أعداءها وتثبت بذلك وجودها في أرضها، ولا تملك سنداً تعتمد عليه في ضعفها وعند الاعتداء عليها، فباتت رهينة بأيديهم، وأداة طيعة في مشاريعهم.

• ومن الجدير ذكره أنه: لم يختلف الواقع العربي والإسلامي بحالاته المأساوية عن الواقع الداخلي لكل دولة من تلك الدول بما تعانيه من تعدد في فصائلها وتشرذم في صفوفها وفرقة بين أبنائها وتسلط بعضها على بعض بغياً وعدواً، حتى أصبحوا أعداءً متناحرين، وعلى حب الزعامة والرياسة متنازعين، فهم بحاجة لمن يصلح بينهم؛ لأنهم فقدوا الثقة بأنفسهم.

المطلب الثاني: عين على الواقع السوري:

في هذا القسم أرى من الضروري الكلام عن الطوائف والأعراق المكونة للجغرافيا السورية بشكل عام، ونسبة كل منها في الدولة السورية وكيف كان حالهم في الثورة السورية ومواقفهم منها، هذا من جهة، ومن جهة أخرى؛ الكلام عن التشكيلات العسكرية إبان الثورة السورية، وسبب نشأتها وما طرأ عليها، لتبقى الأجيال على دراية تامة من التحولات والمتغيرات الإقليمية والدولية التي طرأت على الدول العربية بشكل عام وعلى سوريا بشكل خاص.

وعليه فإن الذي يراقب الواقع السوري ويقب في صفحاته يمكن أن يُقسّم المجتمع السوري إلى قسمين، هما:

القسم الأول:

المدنيون: وهم مجموعة الطوائف والأعراق المكونة للجغرافيا السورية من السنة، والنصيرية، والمسيحية، والشيعة، والدروز، والإسماعيلية، والآشورية، والأيزيدية، واليهودية وغيرها من الطوائف.

القسم الثاني:

العسكريون^(١): وهم مجموعة الكتل والتشكيلات العسكرية التي مثلت القوة العسكرية للنظام الأسديّ القاتل، ومجموعة الفصائل العسكرية التي نشأت بعد الثورة السوريّة للدّفاع عن الأهل والعرض والدين ضدّ قوَّات النظام القاتل وجيشه المتوجّش، ومنها على سبيل المثال لا الحصر: حركة أحرار الشام، جبهة النصرة، فيلق الشام، جيش الإسلام، فيلق الرحمن وغيرها ممّا يمكن الاطلاع عليه.

وفيما يلي عرضٌ مختصرٌ لكلِّ قسمٍ من المكوّنات السوريّة المدنيّة:

ولعلّ من أفضل ما كُتِبَ فيها بشكلٍ واضحٍ ومبسّطٍ ومختصرٍ ما جاء في موقع الجزيرة تحت عنوان: (طوائف وأعراق المجتمع السوري)^(٢) سأنقله هنا كما ورد من مصدره مختصراً ببعض فقراته، والذي جاء فيه:

"يتشكّل المجتمع السوري من عدّة طوائف عاشت على مدار القرون الماضية حالةً من الودّ والوئام، وتنتمي هذه المجموعات إلى دياناتٍ وعرقياتٍ مختلفة، ساهم كلّ منها في بناء حضارة بلاد الشام.

١- السّنة: دخل الإسلامُ سوريا عام ٦٣٦ م، في عهد عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، على يد خالد بن الوليد وأبي عبيدة بن الجراح (رضي الله عنهما)، سلّماً دون قتال، وقد كان ذلك بسبب مظالم الدّولة البيزنطية، ورغبة أهل الشّام بالتخلّص منها.

انتشر الإسلامُ في العهد الرّاشديّ في المدن الكبرى، فيما بقيت الأريافُ والقبائلُ الكبرى مسيحيّةً حتى القرن العاشر.

وفي العهد الأمويّ أصبحت دمشقُ عاصمةً الدّولة الأمويّة ممّا أدّى إلى ازدهارها اقتصاديّاً وعمرانيّاً، حيث شهدت تعميرَ الكثير من المساجد، وسكّنها عددٌ كبيرٌ من الصّحابة والتّابعين، إلا

(١)- يمكن الاستزادة والاطلاع على الفصائل المقاتلة ضدّ قوات النظام الأسدي المجرم، وأعدادها، وظروف نشأتها وتشكيلها، بالرجوع إلى كتاب: (الواقع السوري تحت المجهر دراسة ميدانية).

(٢)- موقع الجزيرة بتاريخ ٢٧/ ١٣/ ٢٠١٣ م، تحت عنوان: "طوائف وأعراق المجتمع السوري".

أنَّ الخلافات القبليَّة التي كانت تُثار بين القيسيَّة واليمانيَّة في حمص ودمشق أضعفت الدَّولة وساعدت على تأسيس الدَّولة العباسيَّة التي نقلت العاصمة إلى بغداد.

وفي العصر العباسي بدأت الطوائف الأخرى (العلويُّون، الدُّروز، الإسماعيليَّة) تظهر وتتمركز في سوريا حتى عصر المماليك الذين اهتموا بدمشق وحدها دون سوريا، ممَّا أدَّى لتناقص عدد سكانها إلى الثُّلث.

وبعد انتصارهم في معركة مرج دابق، دخل العثمانيون سوريا من حلب، وظلت تحت سيطرتهم لأربعة قرون حتى الثَّورة العربيَّة الكبرى عام ١٩١٨م، وشهدت البلاد خلالها بعض المظاهر العمرانيَّة والتَّطور الفكريِّ من خلال المساجد والبعثات والمدارس الأجنبيَّة التي ولدت تياراً فكرياً. يشكِّل السُّنَّة أكبر الطوائف في سوريا، والمذهب السائد هو المذهب الشافعي.

٢- العلويُّون: يعود تشكُّل المذهب العلويِّ إلى محمد بن نصير البصريِّ في القرن الثَّالث للهجرة، واستمرَّ المذهب من بعده في كنف الدَّولة الحمدانيَّة، حتى تمَّ إنشاء مركزين للطائفة أحدهما في حلب، والآخر في بغداد.

انقرض مركزُ بغداد بعد حملة هولاكو عليه، وانتقل مركزُ حلب إلى اللاذقية. وبقي العلويُّون هناك ضمن الدُّول الإسلاميَّة المتعاقبة محلَّ صراعٍ ومعاركٍ حتى تقسيم سوريا وتشكُّل الدَّولة العلويَّة عام ١٩٢٠م حتى ١٩٣٦م، ثمَّ عودتهم مرَّةً أخرى على يد حافظ الأسد وابنه اللذين أسَّسا لنظامٍ مركبٍ طائفيٍّ وأمنيٍّ^(١).

٣- الشَّيعيَّة: تعود جذور الشَّيعيَّة في سوريا إلى القرن الأول الهجري منذ الفتنة بين عليٍّ ومعاوية (رضي الله عنهما)، ولكنَّه أخذ في الانتشار في القرن الرَّابع الهجري مع ظهور الدَّولة الحمدانيَّة في حلب، ومن ثمَّ الدَّولة الفاطميَّة التي حاولت نشر الشَّيعيَّة في سوريا خصوصاً في دمشق، ضمن نجاحٍ محدودٍ في هذا السِّياق؛ ثمَّ عادت للانحسار مع بداية الدَّولة الأيوبيَّة التي حاربت الشَّيعيَّة، وكذلك أيَّام الدَّولة العثمانيَّة، إلى أن أصبح الشَّيعيَّة يمثِّلون أقليةً صغيرةً محدودةً في بعض المناطق.

(١)- لمن أراد مزيداً من المعلومات عن الطائفة النُصيرية فليرجع إلى كتاب (الواقع السوري تحت المجهر) بعنوان: (اعرف عدوك).

يُذكر أنَّ العلاقات الاقتصادية السَّيَّاسِيَّة بين سوريا وإيران في عهد بشار الأسد انعكست كسياسة تشييعٍ ممنهجةٍ في كثيرٍ من المناطق خصوصاً في الأرياف، مستغلَّة حاجتها الاقتصادية، وظهرت مراكزُ أكثر وضوحاً للشَّيعة السُّوريين والإيرانيين في بعض مناطق دمشق.

٤- الإسماعيليُّون: قاد أئمَّةُ الإسماعيليِّين سرّاً من سَلَمِيَّة^(١) في القرن التاسع أنشطةُ الأتباع في المناطق الأخرى، وحتى مع وصول الفاطميين للحكم في مصر ظلَّت سوريا مركزَ نشاطٍ مهمٍّ لهم، حتى استلام السَّلاجقة الحكم واضطراب سوريا وتقسيمها سياسيّاً، حيث انتقلوا حينها إلى حلب، ومن ثمَّ أُجبروا على الخروج منها إلى دمشق، قبل أن يُجبروا على الخروج منها كذلك، ممَّا اضطَّهم إلى تأمين حياتهم في شبكةٍ من المعاقل الأمانة والقلاع في مثلث ريف حمص وريف حماة والسَّاحل، وهي المنطقة التي يوجدون فيها الآن، حيث أصبحت (القدموس، ومصيف) مراكزهم المهمَّة في تلك الفترة.

ساد بعضُ التوتُّر بين الأيوبيين والإسماعيليِّين، لكنَّه انتهى من خلال صلحٍ بين صلاح الدِّين الأيوبي وسنان بن سلمان، للتَّعايش.

وبعد هجمات المغول على إيران وبعدها على سوريا التجأ الإسماعيليُّون للظَّاهر بيبرس وأصبحوا مخلصين تابعين له، ومن بعده للدولة العثمانية وحتى اليوم.

ويمتاز الإسماعيليُّون بنشاطٍ فكريٍّ وعلميٍّ ممَّيز، كما يملكون قدرةً إداريةً عاليةً لمناطق نفوذهم التي يسيطرون عليها من خلال القلاع الموجودة في الجبال، والتي يصل عددها في سوريا إلى ستين قلعةً تقريباً.

٥- اليهود: يرجع وجود اليهود في سوريا إلى العصور القديمة، إذ تذكر بعضُ الرِّوايات التَّوراتيَّة وجودَ اليهود منذ عهد النَّبيِّ داودَ (عليه السَّلام)، ثمَّ ازداد عددهم في القرن السَّادس عشر نتيجة طردهم من الأندلس من قِبَل النَّصارى.

أكبر التَّجمعات التَّاريخيَّة لليهود هي دمشق وحلب والقامشلي، وبشكل أصغر في نصيبين واللاذقية.

(١)- سَلَمِيَّة: مدينةٌ سوريَّةٌ تتبع إدارياً وجغرافياً محافظة حماة، حيث تعتبر هذه المدينة مركزاً مهمّاً للإسماعيلية.

ومنذ الفتح الإسلامي وحتى العهد العثماني لم يتأثر وجود اليهود في سوريا، حيث ظلت لهم أحياءهم ومناطقهم وكنائسهم، فقد كان لهم حيٌّ في دمشق، ومنطقة قرب القلعة في حلب، وكثر وجودهم في جوبر في ريف دمشق.

وقد بقي الوضع هكذا حتى النكبة، إذ تصاعدت العدائية ضدهم مما أدى لهجرة عددٍ كبيرٍ منهم إلى فلسطين، وبعد النكسة صدرت ضدهم عددٌ من القوانين التقييدية التي تمنعهم من السفر والوظائف العامة وغيرها، مما أدى لتزايد هجرتهم بشكلٍ غير شرعيٍّ حتى عام ١٩٩٢م، إذ رُفع حظرُ السفر عنهم فهاجرت الغالبية السّاحقة منهم، خصوصاً مع العروض المقدّمة من الولايات المتحدة، ولم يبقَ منهم الآن سوى بضع مئاتٍ في دمشق وحلب والقامشلي.

٦- الدروز: تعرّض الدروز في القرن التاسع الهجري لما يُسمّى بالمحنة من قِبَل الدولة الفاطمية، وخصوصاً في حلب وأنطاكية، ممّا حدا بهم للتّحرك نحو جبل العرب في الجولان الذي صار من وقتها معقلاً تاريخياً لهم منذ تلك الفترة حتى اليوم.

٧- اليزيديون: ويعود أصل ديانتهم ومكان وجودهم هناك إلى العصور القديمة، كغالب ديانات ما بين النهرين المرتبطة بالطبيعة كخدمة للإنسان أو هلاك له.

يوجد اليزيديون في الحسكة وعفرين، ويتحدّثون اللغة الكرديّة بشكلٍ رئيسيٍّ مع عاداتٍ وتقاليده وأزياءٍ عربيّة، ومجتمعهم مغلق، فإنّهم لا يتزوّجون من القوميات أو الأديان الأخرى.

٨- المسيحيون: كان سكّان سوريا من أوائل الشُعوب التي اعتنقت المسيحيّة، حيث اعتنق الآراميون وبعض القبائل العربيّة المقيمة في سوريا المسيحيّة، وتعدّ سوريا مركزاً مهماً للدّيانة المسيحيّة، إذ يوجد على امتدادها العشرات من الأديرة والكنائس والمراكز المقدّسة في التّاريخ المسيحيّ.

ترتفع نسبة المسيحيين في دمشق وحمص واللاذقية والجزيرة الفراتية، وقد ازداد عددهم من خلال هجرتين: هجرة الأرمن، وهجرة الأشوريين، إلا أنّ عددهم عاد للتّناقص منذ منتصف القرن العشرين بسبب الظروف المحليّة والإقليميّة.

لعب كثيرٌ من مسيحيي البلاد دوراً فكريّاً وثقافياً وسياسيّاً مهماً، وساعد في ذلك الوضع الاجتماعي والاقتصادي للمسيحيين، إذ يوجد أغلبهم في المدن، وينتمي أغلبهم لطبقاتٍ اقتصاديّةٍ عليا.

٩- العرب: وهم أكبر مكونات الشعب السوري، ويشكلون أكثر من ٨٠% من مجموع السكان، ويرجع تاريخهم إلى ما قبل الإسلام على شكل قبائل، ومع الوقت ازدادت الزيجات المختلطة في سوريا، فاختلط الشعب ببعضه بعضاً، ولم يعد هناك خطٌ فصلٍ واضحٍ بين العرب القديمين والمستجدين، وصار الجميع عرباً بلا تمييز.

والعربية هي اللغة الرسمية للدولة، ويتحدث بها السوريون باللهجة السورية التي تداخلها بعض المفردات غير العربية، وقد خرج من سوريا الكثير من الأدباء والشُعراء واللغويين العرب، وتأسس في دمشق أول مجمع للغة العربية في العالم.

١٠- الأكراد: بدأ تواجد الأكراد في سوريا منذ عام ١٩٥٢م، بسبب الاشتباكات بين الجماعات الكردية والجيش التركي. ويعيش معظمهم في الحسكة ومنطقتين صغيرتين شمال حلب، وكثير منهم يعيش في المدن الكبرى، وغالبية الأكراد من السنة، وفيهم أعداد قليلة من المسيحيين واليزيديين.

في عام ١٩٦٢م، تمّ تجريد أكثر من ٢٠% من الأكراد من جنسيتهم، كما منعتهم الدولة من استخدام اللغة الكردية في مدارسهم أو في الصحف والكتب، وعلى الرغم من ذلك فهي تسمح لهم بإنشاء الأحزاب السياسية الموجودة بكثرة ضمن مناطقهم.

١١- التركمان: ويرجع أصلهم إلى العائلات التركية الممتدة من الذين أتوا سوريا مع السلاجقة ومن ثمّ المماليك والعثمانيين، ثمّ اندمجوا مع الشعب السوري، كما ترجع أصول بعضهم إلى قبائل تركية أسكنها العثمانيون في الريف للتخفيف من وجود العشائر التي تعتمد على الرعي.

يتواجد التركمان في غالب المدن السورية مندمجين مع المجتمع، مع وجود القليل من القرى التركمانية في اللاذقية وحلب، وهي قرى لا زالت تتحدث بالتركمانية.

١٢- الشركس: هاجر الشركس من بلادهم في القوقاز قسرياً في نهاية القرن السابع عشر إلى أنحاء الإمبراطورية العثمانية، وذلك بسبب التهديدات الروسية بالقتل أو النقل أو التوطين في معسكرات جماعية، وتحت طائلة التنصير القسري، إلا أنّ عدداً منهم كان موجوداً في سوريا قبل ذلك مع دولة المماليك كجنود وقادة جيوش. وقد استقرّ معظمهم في هضبة الجولان، ولهم عدة

قرى حول المدن الرئيسيّة، وبعض الأحياء الرئيسيّة في المدن؛ (كحيّ المهاجرين في دمشق، وحي الشراكس في جبلة).

يحافظ الشراكس بصورة جيّدة على لغتهم وتقاليدهم الشراكسيّة.

١٣- الأرمن: بسبب الحروب والاضطرابات التي عانى منها الأرمن، هاجر كثيرٌ منهم إلى سوريا، واستقروا هناك، ويعيش معظمهم في حلب وبلدة كسب في اللاذقية.

تلعبُ الكنيسة دوراً مهمّاً في توحيد الأرمن، إذ إنّ الغالبية العظمى من الأرمن هم من الديانة المسيحيّة، خصوصاً أنّ حلب كانت مركزاً مهمّاً للحجاج الأرمن الدّاهبين للقدس.

١٤- الآشوريّون: الآشوريّون أو السّريان أو الكلدان، ينحدرون عريقاً من حضاراتٍ قديمةٍ في الشّرق الأوسط، أهمّها الآشوريّة والآراميّة، وهم من أوّل المعتنقين للديانة المسيحيّة ابتداءً من القرن الأول الميلادي، ويتميّزون بلغتهم السّريانيّة وهي إحدى لهجات اللغة الآراميّة.

يوجد الآشوريّون في القامشلي بشكلٍ ملحوظ، ويشكّلون حوالي ثلث مسيحيي سوريا، وقد ازداد عددهم بعد هجرة الآشوريّين من العراق بعد حرب ٢٠٠٣ م.

بعد هذا العرض المختصر للطوائف والأعراق السّورية كان لابدّ من الكلام عن الدّور الذي لعبته تلك المكوّنات في الثّورة السّوريّة وما مورس عليها من ضغوطٍ وتحدياتٍ من خلال إلقاء الضّوء على الأطراف الرئيسيّة في السّاحة وهي: الشّعب السّوري الحرّ، والاكراذ، والنّظام الأسدّي المجرم.

أولاً: الشّعب السّوري الحرّ:

الذي عاش طيلة أربعة عقودٍ على منظومة حزب البعث العلمانيّ الفاجر، القاتل الماكر الغادر ونهج الفساد والإفساد والطُّغيان، واستمرّاً الدّلّ والهوان، ولم يكن مهياً لهكذا أحداثٍ كبيرة، ولذلك اختلف النّاس في تعاملهم وتعاطيهم مع الثّورة، بين مؤيّدٍ لها ومدافعٍ عنها (وهم أغلبية) وبين معارضٍ لها ومنتقديّ لداعميها وراعيها (وهم أقلية)، وبين فريقٍ ثالثٍ لا ناقةَ له فيها ولا جمل، ولا همّ له إلا الحفاظُ على نفسه وأهله والعيش وحده على المبدأ الذي يقول: (مَنْ يأخذُ أمّي أناديّه عمّي).

ومما لا شك فيه بأن نجاح أيّة حكومة يحتاج إلى ثلاثة جهاتٍ للتعاملِ يعملان بالتوازي جنباً إلى جنب:

- عسكريّ: وهو الذي يتولّى إدارة المعارك الميدانيّة والعسكريّة، وتحرير الأراضي وبسط السيطرة والنّفوذ، لتكون أوراقاً قويّة بيده يفرضها في المطابخ الدوليّة لتساعده في تحصيل حقوق أهله وحاضنته وشعبه.

- سياسيّ: وهو الذي يتولّى الشؤون الخارجيّة لبلده وتمثيل شعبه وحاضنته وعرض قضاياهم في المحافل الدوليّة، وإدارة العلاقات العامّة الإقليميّة والدوليّة بما يضمن الشرعيّة وحقوق الشعب ويلبي طموحاته وتحقيق مصالحه وتوسيع علاقاته التجاريّة والاقتصاديّة والسياسيّة لتحقيق المزيد من التّقدّم والازدهار العلميّ والحضاريّ والتّكنولوجي.

- مدنيّ: وهو الذي يتولّى إدارة المناطق المحرّرة من الدّاخل، ويؤمن الخدمات الضّرورية واللازمة للنّاس، وما يضمن لهم حمايتهم وأمنهم واستقرارهم بما يستطيع، من خلال بناء المؤسسات المدنيّة الفاعلة بكلّ المجالات الحياتيّة بالتّعاون الكامل مع الحاضنة الشعبيّة وإشراكها في تحمّل الأمانة والمسؤوليّة والقرار بعيداً عن التّفرد والاستبداد والاقصاء.

ثانياً: الأكراد: كنت قد تكلمت عنهم باختصار، وهنا يمكن لفت النّظر إلى الفصيل الإرهابي الانفصالي pkk والذي يُحسب على الأكراد زوراً وبهتاناً، والذي حارب الثّوار والثّورة السّوريّة، وكان الدّيراع الأيمن لأمريكا في محاربة الثّورة السّوريّة والقضاء عليها.

ثالثاً: النّظام الأسدّي المجرم:

وهو أسُّ المشكلات كلّها، حيث أدخل الشعب السّوريّ في نفقٍ مظلمٍ من الظّلم والاستبداد والإجرام، وقد حكم البلد بالحديد والنّار حتى تحكّم واستحكم، وكان جاهزاً للتعامل مع كلّ ما يمكن أن يحدث من معارضةٍ لحكمه ونظامه بالأساليب السّياسيّة والعسكريّة والأمنيّة المخبراتيّة، والاستفادة من جميع الخبرات الدوليّة التي تخدمه بهذا الخصوص ولو على حساب أرضه وعرضه وشعبه، وبذلك استطاع النّظام المجرم بأجهزته القمعيّة الأمنيّة والعسكريّة اختراق المناطق المحرّرة بكلّ مفاصلها بما زرعه من عناصرٍ وضباطٍ وأمراءٍ وشرعيين يضعونه وينقلون له صورة الواقع أولاً بأول، وخصوصاً بما يتعلّق بالعمليات العسكريّة التي كانت كثيراً ما

تصل إلى النظام قبل أن تصل إلى عناصر الثوار المقاتلين، فضلاً عن الدَّهاء الإعلامي الذي اتَّبعه بكلِّ مجالاته المرئية والمسموعة والمقروءة، ووسائل التَّواصل الاجتماعيِّ كافةً بجيشه الإلكتروني وقُلبه للحقائق وتزييفه للوقائع وتلفيقه للأحداث، في محاولةٍ لتقديم صورةٍ أمام العالمِ بأنَّه صاحبُ الحقِّ المنتصر، وخصوصاً بعد سيطرته على أحياءٍ من ريف حلب، حيث أعلن الانتصاراتِ العارمة والتَّبريكاتِ العظيمة والاحتفالاتِ الواسعة علماً أنَّه في حينها لم يسيطر على أكثر من ٢٥% منها.

وهكذا كان يستغل النظامُ المجرمُ حادثة عهد المعارضة وقلة خبرتها السَّياسية لِيجيِّر ذلك ضدها، ويُظهِرها إرهابيَّةً معتديةً عليه أمام عالمٍ ظالمٍ متخاذلٍ متواطئٍ معه، كعميلٍ يقدِّم لهم كلَّ ما يحتاجونه مقابل الحفاظ على كرسيِّه ولو أُبِيد كلُّ شعبه وتهدمت مدنه ودُمِّرت محافظات بلده واحتلها الرُّوس والإيرانيُّون وقوى الاستكبار العالميَّة.

وأما عن موقف الجيش السُّوري وقوَّاته العسكريَّة المتنوعة في جميع الفروع والتَّشكيلات والاختصاصات العسكريَّة فقد باتَ العصا الغليظة بيده، والخنجر الغادر المسموم بخاصرة الشعب السُّوري الثَّائر، وتحول إلى أدواتٍ طيِّعة لقتل الشَّعب وتدمير مدنه وقراه فوق رؤوسهم، وتهجير ما تبقى منهم وتشريدهم إلى بلدان الشَّتات، ولا استغراب في ذلك، فمنذ تسلُّط المَقبور حافِظ الأسد على الحكم عمِلَ على تبعيِّث^(١) الجيش بدايةً، ثمَّ فرزَه على أساسٍ طائفيٍّ نصيريٍّ يحمي طائفته ويُقوِّي شوكتَه وسلطته، ويضمن استمرار حكم العائلة البغيض.

وهذا لا يحتاج إلى كثير شرحٍ وتوضيحٍ، فالتَّاريخ السُّوري مليءٌ بالشَّواهد الدَّالة على المكر والخديعة والغدر والخيانة لهذا النظام منذ استلامه وصولاً لعهد ابنه المجرم بشار، وما تعيشه سوريا من ويلاتٍ ومجازرٍ وجرائمٍ خير دليلٍ على خيانتهم وعمالتهم وحقدهم الدَّفين مع استخدامهم للجيش وقواته وتجنيدهم للميليشيات والمرتزة في قمع الشَّعب وقتل الشُّرفاء فيهم.

وأما بقية الطوائف والأعراف فلم تدخل في مضمار الثَّورة لأسباب عدَّة، أهمُّها أنَّها تحسب من الأقليَّات في سوريا، لا تملك ظهراً يحميها ولا سنداً يقف معها ويُقوِّيها، فضلاً عن الأهداف التي وُضعت وأُعلنت بُعيدَ انطلاق الثَّورة بقليلٍ بإقامة الخلافة الإسلاميَّة وظهور ما يسمى "دولة

(١)- التَّبعيِّث: كلمة تشير إلى نهج (حزب البعث) وفرضه على كل المؤسسات والأعمال الحكومية فضلاً عن فرضه على الأفراد والجماعات.

الخلافة" بقيادة شخصياتٍ أجنبيّةٍ وغريبةٍ زَرَعَتْ الشُّكوكَ والريبَةَ في صدور الجميع، وزاد من ذلك ما شاهده الجميعُ من قسوةِ التَّعاملِ وسوءِ الأداءِ وفظاعةِ المشاهدِ من قطعٍ للرؤوسِ وبتيرٍ للأيدي وجلدٍ للظُّهورِ وغيرها ممّا شكّلَ ردّةً فعلٍ عكسيّةٍ نفّرتُ مِنْ كلّ ما يتّصلُ بالخلافةِ الإسلاميّةِ التي لم يروا منها إلا تلك الأفعال القاسية والمؤلمة، والتي لا تَمُتُ إلى الإسلامِ بِصِلَةٍ، وهذا لا يعني عدم وجود شخصياتٍ وطنيّةٍ خرجتُ ضدّ سياسةِ النِّظامِ الأسديّ المجرمِ وانضوت مع التّيارِ الشَّعبيّ الواسع، وبذلتُ ما تستطيع في سبيل القضاء على النِّظامِ الأسديّ والتَّخلُّص منه مع بقيّةِ الثَّائرين من كلّ الطّوائف، فقد ظهرت شخصياتٌ عدّةٌ كان لها المواقف المشرّفة في فضح النِّظامِ الفاسد وإظهار عوارهِ، وبقيتُ تعمل مع شرائح الشَّعبِ الثَّائر يداً بيدٍ تحت سقف الوطن.

المبحث الثالث

الشَّامُ في زمن الكرام

الشَّامُ في زمن الكرام

تمهيد:

فإنَّ لله خواصاً في الأمكنة والأزمنة والأشخاص بما امتازت بمزايا كريمة وصفاتٍ جلييلةٍ رفعت من مكانتها وبوأَتْها تاجَ السِّيادةِ وسُدَّةَ الرِّيادةِ.

ولعلَّ من أعظم الخواص والعطايا التي وهبها الله لبلاد الشَّام عَطِيَّةُ البركة، التي هي من أفضل الأرزاق والعطايا، فكانت وصيَّةُ النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) لأصحابه في أماكن سكناهم، حيث قال لحذيفة بن اليمان، ومعاذ بن جبل (رضي الله عنهما) وهما يستشيرانه في المنزل والمستقر، فأوماً إلى الشَّام، ثمَّ سألاه فأوماً إلى الشَّام، وقال: «عليكم بالشَّام، فإنَّها صفوة بلاد الله يُسْكِنُها خيرته من خلقه، فمن أبى فَلْيَلْحَقْ بيمينه، وليُسْقِ من غدِّره، فإنَّ الله تكفَّل لي بالشَّام وأهله»^(١).

كما كانت دعوته (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) للشَّام وأهلها فقال: «اللهم بارك لنا في شامنا»^(٢).

فالشَّام مباركةٌ، مباركٌ مَنْ فيها، مباركٌ ما فيها.

هذا هو حال أهلها وساكنيها من الخير الكثير، والأمن الوفير، والبهاء والجلال الرَّائع الجميل.

لكنَّ أهلَ الكفر والطُّغيان لن يتركوها تنفياً ظلَّالَ الخير والأمن والسَّعادة، فكانوا دوماً باستنفارٍ كاملٍ وعملٍ دؤوبٍ لخلق الفوضى وبثِّ الاضطراب والتَّخريب الممنهج حتى تصبح تلك البلادُ كفرائسَ سهلةٍ الابتلاع والهضم بين مخالِب الكلاب المتوحِّشة وأنياب الدِّئاب المفترسة.

وإنَّه لمن المحزن أن نرى من أبنائنا مَنْ لا يعرف عن تاريخ أمته وحضارة أسلافه إلا السَّيء القليل، زهداً بهذا التَّاريخ العظيم واستهتاراً بتلك الحضارة العريقة، واستهانةً ببطولات الرِّجال العظام الذين كانوا الرُّواحِلَ الأشداءَ في زمن المتاعب والآلام والمحن والبلاء.

(١)- أخرجه الإمام أحمد، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١هـ)، مسند الإمام أحمد، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م، من حديث عبد الله بن حوالة، رقم (٢٠٣٥٦)، (٤٦٦/٣٣)، وهو حديث صحيح.

(٢)- أخرجه الإمام أحمد، مسند الإمام أحمد، من حديث عبد الله بن عمر، رقم (٥٦٤٢)، (٤٥٨/٩)، وهو حديث حسن.

- فَمَنْ يقرأ التاريخ الإسلاميَّ ويقلِّبُ في صفحاته يدركُ تماماً كيف بدأ النَّبيُّ (صلى الله عليه وسلّم) دعوته بكلِّ صدقٍ وإخلاصٍ، ومحبةٍ ورحمةٍ ورأفةٍ، وعزيمةٍ وصبرٍ وثباتٍ، حتّى صنع أمةً عزَّ نظيرها في ذاك الزّمن، أمةٌ تُوجت بوسام شرفٍ ربّاني تخلّد ذكره في التاريخ، وإلى يوم القيامة: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١١٠].

- تلك الأمة التي وُلدت من رحمِ البلاء والوباء، وترعرعت في كنف الجاهليّة الجاهلاء، فكانت محاطةً بكَمٍّ كبيرٍ هائلٍ من الأعداء الدّخلاء والعملاء، ولكنّ صدقَ العزيمة لرسالتها، وقوّة الإيمان بمبادئها، وما تمتّع به قادتها من حكمةٍ إداريّةٍ وحكمةٍ سياسيّةٍ وخططٍ عسكريّةٍ وذكاءٍ وعبقريّةٍ مكّنها من الوقوف في وجه العواصف البشريّة والمخاطر الوحشيّة التي اعترضتها، فوضعوا بصماتهم المشرقة على صفحات التاريخ، وفرضوا وجودهم بين الأمم، وتحولوا من رعي الغنم إلى قيادة الأمم.

- لم تتوقّف مسيرة الإصلاح بوفاة القائد الأوّل (صلى الله عليه وسلّم)، بل تابعت مسيرها بكلِّ قوّةٍ وحيويّةٍ ونشاطٍ، تحملُ الخير للبشريّة، وتنشرُ الهداية والعدل والأمان، حتّى كانت الطّعينّة تسير من صنعاء إلى حضرموت لا تخشى إلّا الله.

- ها هو عمرُ بنُ الخطاب (رضي الله عنه) أميرُ العدل وصاحبُ الأمانة والمسؤوليّة، الذي علّمَ البشريّة قواعدَ العدل وأُسُسَ الكرامة والحرّيّة، ليقفَ كلُّ عند حدوده ويستشعرَ مسؤوليّته في القيادة، كما كان حاله (رضي الله عنه) عندما قال: "وَلَوْ هَلَكَ حَمَلٌ مِنْ وَلَدِ الضَّأْنِ عَلَى شَاطِئِ الْفُرَاتِ، ضَائِعًا؛ لَخَشِيتُ أَنْ يَسْأَلَنِي اللَّهُ عَنْهُ" ^(١).

- وليس ببعيدٍ عنه حفيده النّبيُّ الجليل، الخليفةُ الخامسُ عمرُ بن عبد العزيز (رضي الله عنه) ^(٢) الذي ملأ الدُّنيا بعدله، وسار على نهج أجداده حتّى فاضتْ في عهده خزائنُ بيت المال،

(١)- الخلال، أبو بكر أحمد بن محمد بن هارون بن يزيد الخلال البغدادي الحنبلي (المتوفى: ٣١١هـ)، كتاب السنة، دار الراية - الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م، باب ذكر خلافة أبي حفص عمر بن الخطاب رضي الله عنه، رقم (٣٩٦)، (٣١٧/٢).

(٢)- عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم الأموي القرشي، أبو حفص، (٦١ - ١٠١ هـ / ٧٨١ - ٧٢٠ م)، الخليفة الصالح، والملك العادل، وربما قيل له خامس الخلفاء الراشدين تشبيهاً لهم. وهو من ملوك الدولة مروانية الأموية بالشام. ولد ونشأ بالمدينة، وولي الخلافة بعهد من سليمان سنة ٩٩ هـ، مدة خلافته سنتان ونصف. يُنظر: الأعلام للزركلي (٥٠/٥).

فأمر بإلغاء ديون الغارمين، ثم بتزويج شباب المسلمين، ثم بإعتاق الأسرى والرقائق ممن لا يملكون المال، ولا يجدون سعة في أيديهم.

إنه صاحب المقال الجميل المانع: « حينما كتب إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن - وهو بالعراق - أن أخرج للناس أعطياتهم، فكتب إليه عبد الحميد «إني قد أخرجت للناس أعطياتهم، وقد بقي في بيت المال مال» فكتب إليه أن «انظر كل من أدان في غير سفيه ولا سرف فاقض» فكتب إليه: إني قد قضيت عنهم، وقد بقي في بيت مال المسلمين مال، فكتب إليه: أن انظر كل بكر ليس له مال، فسأل أن تزوجه فزوجه وأصدق عنه " فكتب إليه: إني قد زوجت كل من وجدت، وقد بقي في بيت مال المسلمين مال، فكتب إليه بعد مخرج هذا، أن «انظر من كانت عليه جزية فضعف عن أرضه، فأسلفه ما يقوى به على عمل أرضه، فإننا لا نريد لهم إعامهم هذا ولا إعامين»^(١).

- بهذه الأخلاق العظيمة السامية سادوا الأمم وقادوا الشعوب، نشروا الأمن والعدل والأمان، وحققوا السعادة والاطمئنان، وزرعوا في نفوس البشرية الرحمة والمحبة والعفو والغفران، ففتحت على أيديهم آفاق واسعة ومساحات شاسعة، حتى امتدت أرض الخلافة ما بين المشارق والمغارب، فوصلت من حدود الصين شرقاً إلى إسبانيا غرباً، ومن أطراف السودان جنوباً إلى القسطنطينية شمالاً.

عن بلاد الشام أتحدث؛ عن بلاد هي أشرف بقاع الأرض، عن أرض هي موضع الأنبياء والمرسلين ومركز الأولياء والصالحين، عنهم أخذ العلم عنهم نُقل إلى العالمين، هم أهل القيادة والريادة والجهاد، هم من قال فيهم المصطفى (صلى الله عليه وسلم): «إذا فسد أهل الشام فلا خير فيكم»^(٢).

عن العاصمة الأموية ومنطلق الفتوحات الإسلامية أتحدث، وسل إن شئت عن المهلب بن أبي صفرة^(٣)، وقتيبة الباهلي^(٤)،

(١)- أبو أحمد حميد بن مخلد بن قتيبة بن عبد الله الخرساني المعروف بابن زنجويه (المتوفى: ٢٥١هـ)، الأموال، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م، (٩٣٦)، (٥٦٥/٢).

(٢)- أخرجه الإمام أحمد، مسند الإمام أحمد، من حديث معاوية بن قرة، رقم (١٥٥٩٦)، (٣٦٢/٢٤).

(٣)- المهلب بن أبي صفرة بن سراق الأزدي العتكي، أبو سعيد، (٧ - ٨٣ هـ) أمير، جواد، صاحب فتوحات الشرق زمن الدولة الأموية، ولده عبد الملك بن مروان ولاية خراسان، فقدمها سنة ٧٩ هـ، ومات فيها. ينظر: الأعلام للزركلي (٣١٥/٧).

(٤)- قتيبة بن مسلم بن عمرو بن الحصين الباهلي، أبو حفص، (٤٩ - ٩٦ هـ)، أمير، فاتح، من مفاخر العرب. ولي الري وفتح بلاد ما وراء النهر، وافتتح كثيراً من المدائن، كخوارزم، وسجستان، وسمرقند، أطراف الصين. ينظر: الأعلام للزركلي (١٨٩/٥).

ومحمد بن القاسم^(١)، وطارق بن زياد^(٢)، وموسى بن نصير^(٣) وعبد الرحمن الغافقي^(٤) وغيرهم من الأبطال الميامين الفاتحين ليخبروك بالصدق والخبر اليقين.

إنَّها بلادُ الشَّامِ؛ الدَّرْعُ المتينُ والحصنُ الحصينُ أمامَ الحملاتِ الصَّليبيَّةِ الحاقدة، والهجمات العبيديَّة الماكرة، التي تحطَّمت جيوشُها الجرَّارة وتمرَّغت أنوفُ قادتها الحاقدين على أبواب حطَّين^(٥) صلاح الدين^(٦)، وفي عينِ جالوت^(٧) تحت أقدام بيبرس^(٨) وجنوده الميامين.

وهل تنسى البشريَّة علماء الشَّامِ المباركين الذين ما زالت مؤلَّفاتهم مراجعَ ومواردَ ينهل منها العلماء، ومكتبةٌ يعود إليها العظماءُ ليأخذوا منها العلمَ والأدبَ والمعرفةَ والحضارةَ والبلاغةَ والبيان.

نعم، إنَّها الشَّامُ المباركةُ التي بشرَ بها الحبيبُ المصطفى (صلى الله عليه وسلَّم) بصوته النَّدِيّ في أحلك ظروف المسلمين وأشدَّها قساوةً وإيلاماً: «الله أكبر أُعطيَتْ مفاتيحُ الشَّامِ، والله إنِّي لأنظر إلى قصورها الحمر»^(٩).

(١)- محمد بن القاسم بن محمد بن الحكم ابن أبي عقيل الثَّقَفِي، (٦٢ - نحو ٩٨ هـ)، فاتح السند، ووالها. من كبار القادة، ومن رجال الدهر في العصر المرواني، ينظر: الأعلام للزركلي (٣٣٣/٦).

(٢)- طارق بن زياد، (نحو ٥٠ - ١٠٢ هـ)، فاتح الأندلس. أصله من البربر. أسلم على يد موسى بن نصير، فكان من أشد رجاله. ينظر: الأعلام للزركلي (٢١٧/٣).

(٣)- موسى بن نصير: أبو عبد الرحمن، (١٩ - ٩٧ هـ)، فاتح الأندلس، ووالي إفريقية والمغرب زمن الدولة الأموية. ينظر: الأعلام للزركلي (٣٣٠/٧).

(٤)- عَبْدُ الرَّحْمَنِ بن عبد الله بن بشر بن الصارم الغافقي، أبو سعيد، (١١٤ هـ / ٧٣٢ م)، أمير الأندلس، من كبار القادة الغزاة الشجعان، فاتح بلاد كثيرة من أوروبا، قائد معركة بلاط الشهداء. ينظر: الأعلام للزركلي (٣١٢/٣).

(٥)- معركة حطين: معركة فاصلة بين الصليبيين والمسلمين بقيادة صلاح الدين الأيوبي، وقعت في يوم السبت ٢٥ ربيع الثاني ٥٨٣ هـ الموافق ٤ يوليو ١١٨٧ م بالقرب من قرية المجاودة، بين الناصرة وطبريا انتصر فيها المسلمون، ووضع فيها الصليبيون أنفسهم في وضع غير مريح استراتيجياً في داخل طوق من قوات صلاح الدين الأيوبي، أسفرت عن تحرير مملكة بيت المقدس وتحرير معظم الأراضي التي احتلها الصليبيون.

(٦)- صلاح الدين الأيوبي: يوسف بن أيوب بن شاذي، أبو المظفر، الملقب بالملك الناصر، (٥٣٢ - ٥٨٩ هـ)، من أشهر ملوك الإسلام، حاكم سوريا ومصر، قائد معركة حطين وفاتح القدس (سنة ٥٨ هـ)، ولم يدخر لنفسه مالاً ولا عقاراً، وكانت مدة حكمه بمصر ٢٤ سنة، وبسورية ١٩ سنة. ينظر: الأعلام للزركلي (٢٢٠/٨).

(٧)- معركة عين جالوت: (٢٥ رمضان ٦٥٨ هـ)، هي إحدى أبرز المعارك الفاصلة في التاريخ الإسلامي؛ إذ استطاع جيش المماليك بقيادة سيف الدين قطز إلحاق أول هزيمة قاسية بجيش المغول بقيادة كتبغا.

(٨)- الظاهر بيبرس العلاني البندقداري الصالحي: ركن الدين (٦٢٥ - ٦٧٦ هـ)، الملك الظاهر: صاحب الفتوحات والخبار والآثار، قائد العساكر بمصر، في أيام الملك (المظفر) قُطُز، وقاتل معه التتار في فلسطين، وتولى (بيبرس) سلطنة مصر والشام (سنة ٦٥٨ هـ) ولقَّب بالملك (القاهر، أبي الفتوحات) ثم ترك هذا اللقب وتلقَّب بالملك (الظاهر). ينظر: الأعلام للزركلي (٧٩/٢).

(٩)- أخرجه الإمام أحمد، مسند الإمام أحمد، من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه، رقم (١٨٦٩٤)، (٢٥٠/٣٠).

"إِنَّمَا الشَّامُ الَّتِي بَارَكَ اللَّهُ فِيهَا؛

فِي أَرْضِهَا: بِالْمِيَاهِ وَالْأَشْجَارِ وَالثِّمَارِ وَالْخَصْبِ ...

وَفِي أَرْضِهَا: بِالكَثْرَةِ وَالطَّيِّبِ ...

وَفِي رِجَالِهَا: بِالْعِلْمِ وَالنُّبُوَّةِ ...

وَفِي طِبَاعِهِمْ: بِالِاسْتِقَامَةِ ...

وَفِي عَزَائِمِهِمْ: بِالنَّجْدَةِ وَالشَّجَاعَةِ وَالْمَكَارِمِ، وَفِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِمْ"^(١).

- إِلَّا أَنَّ ذَلِكَ لَمْ يَزُقْ لِأُمَّمِ الْكُفْرِ وَرُؤُوسِ الضَّلَالِ الَّذِينَ مَا فَتَنُوا يُحْيِكُونَ الْمَكَائِدَ وَيُدَبِّرُونَ الْمَوَاسِمَ، وَيَزْرَعُونَ الْفِتْنَ، وَيَبْثُثُونَ الْأَكَاذِيبَ وَالْإِشَاعَاتِ، لِيَفْتَنُوا فِي عَضُدِ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَيُضْعِفُوا مِنْ عَزِيمَةِ شَبَابِهَا الْمُتَوَثِّبِينَ إِلَى الْمَجْدِ، وَيَشْتَتُوا مِنْ قُوَّتِهِمْ وَيَشَكِّكُوا فِي نِيَّاتِهِمْ، وَيَخْلُصُوا إِلَى قُلُوبِهِمْ بِالشُّكِّ وَالْارْتِيَابِ، فَيَكُونُوا بِذَلِكَ قَدْ حَقَّقُوا أَوَّلَى خَطَوَاتِهِمْ فِي تَحْقِيقِ مَشْرُوعِهِمْ فِي الْقَضَاءِ عَلَى أُمَّةِ الْإِسْلَامِ.

- إِنَّ مَهْمَةَ الْقَضَاءِ عَلَى الْخِلَافَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ تَبْدُو صَعْبَةً الْمُنَالِ، وَلَا سِيَمَا أَنَّهَا امْتَدَّتْ بِمَسَاحَاتِهَا الْوَاسِعَةِ وَاسْتَحْكَمَتْ فِي قُلُوبِ أَتْبَاعِهَا بِأَخْلَاقِهَا الْفَاضِلَةِ الْجَلِيلَةِ وَعِلَاقَاتِهَا الْكَرِيمَةِ النَّبِيلَةِ، وَهُوَ مَا جَعَلَ أَهْلَ الْبَاطِلِ يَضْعَوْنَ الْخَطَطَ، وَيَدْرُسُونَ الْمَوَاسِمَ، وَيَسَخَّرُونَ الطَّاقَاتِ وَيُعِيدُونَ الْكِرَاتِ بَعْدَ الْكِرَاتِ، وَيَتَفَنَّنُونَ فِي اسْتِخْدَامِ كُلِّ الْوَسَائِلِ وَالْأَدَوَاتِ الَّتِي يُمْكِنُ أَنْ تَحَقِّقَ لَهُمْ ذَلِكَ.

- حَتَّى اخْتَرَقُوا صَفُوفَ الْقَادَةِ فِي غَفْلَةٍ مِنْهُمْ، وَدَخَلُوا بِلَاطِ الْخُلَفَاءِ وَقُصُورِ السَّلَاطِينِ، وَتَغْلَغَلُوا فِي صَفُوفِ الْجَيْشِ وَمَوَاطِنِ الْقَرَارِ، فَأَمْسَكُوا بِبَعْضِ مَفَاصِلِ الْحُكْمِ وَتَعَرَّفُوا نِقَاطَ الضَّعْفِ وَمَكَامِنَ الْخَطَرِ فِي جَسَدِ الْخِلَافَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، حَتَّى إِذَا حَانَ وَقْتُ الْقَضَاءِ عَلَيْهَا وَالتَّخْلُصِ مِنْهَا تَمَّ الانْقِضَاؤُ عَلَيْهَا بِوَحْشِيَّةٍ وَحَقْدٍ دَفِينٍ، وَالْإِحَاطَةُ بِهَا مِنْ كُلِّ حَدَبٍ وَصُوبٍ، وَكَانَتْ فَاجِعَةً السُّقُوطِ الْأَلِيمِ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ.

(١)- البقاعي، إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (المتوفى: ٨٨٥هـ)، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، (٩٢/٣).

باختصار:

مهما كانت الأمة تتمتع بمقومات سيادية، وبمظاهر حضارية، وبما يتحلّى رجالها بقيم رفيعة ومبادئ سامية تقوي من عزيمتها وتضمن استقرار أمّتها فترة من الزمن، لكنّها يجب أن تكون على دراية تامة بما يُحاك عليها من مؤامرات، وما يُدبر لها من مكائد؛ لأنّها لن تخرج عن نظر الأعداء، ولن تبتعد عن ملتقى سهامهم القاتلة في انتظار الفرصة السانحة لاصطيادها والقضاء عليها.

المبحث الرابع

جاهليّة القرن العشرين

المطلب الأول: الجاهليّة بين الأمس واليوم

المطلب الثاني: سوريا المحتلّة وبائع الجولان

المطلب الثالث: سوريا مزرعة الأسد

جاهلية القرن العشرين

المطلب الأول: الجاهلية بين الأمس واليوم:

عندما أسقط في أيدي الخلفاء، وقُضِيَ على الخلافة العثمانية، وأبعد رموزها، وحيل بينهم وبين شعوبهم، وغُيِّبوا في غياهب السجون والمنافي لتعود الجاهلية بوجهها القبيح ولتنفث سموها وتزرع حقدًا من جديد.

جاهلية لم تكن كجاهلية أصحاب القرون الأولى، الذين كانوا يعرفون بعضاً من مكارم الأخلاق، يقدرون للغريب قدره ولو كان عدواً، ويرحمون مَنْ كان في قومه عزيزاً كريماً.

جاهلية الأمس كانت تُدار من بعض الأشراف الذين تمسكوا ببعض المبادئ والقيم السامية التي تمنعهم من الولوج في الانحدار الأخلاقي والانحطاط الاجتماعي، كما كان حال مشركي مكة عندما طال انتظارهم وهم يحاصرون النبي (صلى الله عليه وسلم) في بيته ليقتلوه يوم الهجرة، فلم يتسوروا جدار بيته، ولم يخلعوا باب داره بالرغم من طلب بعضهم ذلك، إلا أن زعيمهم أبا جهل الحاقد قال كلمة دَوَّنَهَا لَهُ التَّارِيخُ: "لا.. حتى لا تتحدث العرب أننا تسورنا على بنات محمد وهتكنا سترهن"^(١).

وكذلك ما كان من أحد زعماء المشركين آنذاك، زهير بن أبي أمية لما اشتد حصار الشعب على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه وقبيلته من بني هاشم، حيث نادى في أهل مكة وقد تحركت فيه نخوة العرب ومروءتهم في رفض الظلم والانتفاض عليه، فقال: "يَا أَهْلَ مَكَّةَ، أَتَأْكُلُ الطَّعَامَ وَتَلْبَسُ الثِّيَابَ وَبَنُو هَاشِمٍ هَلَكُوا لَا يُبَاعُ وَلَا يُبْتَاغُ مِنْهُمْ، وَاللَّهِ لَا أَقْعُدُ حَتَّى تُشَقَّ هَذِهِ الصَّحِيفَةُ الْقَاطِعَةُ الظَّالِمَةَ"^(٢).

ولا يعني هذا أننا ندافع عن الجاهلية وما كانت عليه بجوانبها القاتمة الظالمة، ولكن الشيء بالشيء يذكر، فإنه من المفيد المقارنة بين جاهلية الأمس وجاهلية اليوم ولو ببعض الجوانب.

فجاهلية اليوم لم تعرف مبادئ ضابطة، ولا قيماً ناظمة، بل انغمست في مستنقع الانحطاط، وانحدرت إلى قاع الرذائل والفجور والفساد.

(١)- السهيلي، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلي (المتوفى: ٥٨١هـ)، الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م، (١٢٦/٤).

(٢)- السهيلي، الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، (٢١٨/٣).

جاهلية اليوم، جاهلية عمياء ظالمة، لم تدع مجالاً لعالم ينطق ببنت شفة، بل غيبتهم في ظلمات السجون، ونفثهم في الفياقي والقفار، وعلقتهم على أعواد المشانق، ولم تترك منفذاً يشع نوراً على شعب أضاعته في ظلمات الجهل والتهميش إلا أغلقت أبوابه وقمعت أصحابه بوحشية وهمجية.

جاهلية أبعدت مشاعل النور والضياء، ومنابر الهدى والإباء من طريق العوام بعد أن أطفأت أنوارهم وكممت أفواههم، واستبدلتهم بأبواق تقلب الحقائق وتزين الخبائث وتشرعن الباطل.

جاهلية عمياء لم ترحم كبيراً ولم تراع حرمة، ولم ترأف بصغير، بل مارست كل أشكال الحقد الدفين الذي كانت تكنه على أمة الإسلام، فنمت على حساب الأمم، وترعرت على جماجم الشعوب، فقسمت أرض الخلافة الإسلامية إلى أكثر من عشرين دولة مرسومة الحدود، موثقة بالقيود التي لا يمكن الانفكاك عنها ولا التملص منها، إلا بالتضحيات وركوب الأهوال، كيف لا، وقد عملوا على تربية خونة ليكونوا رؤساء على تلك الدول من جهة، وعملاء ومندوبين لهم من جهة أخرى، وبذلك يضمنون السيطرة على تلك الدول واستمرار ذلك، بل وتحقيق كل ما يريدون من مخططات ومشاريع قد انتظروها وعملوا لها منذ أمد بعيد.

كل ذلك كان بتدبير وتخطيط الدول الكبرى التي تسعى: دول "الحلفاء"، كأمريكا وبريطانيا وفرنسا وروسيا، إذ لكل دولة مصالحها ومشاريعها الخاصة بها، ورجالها الذين تسلطهم على رقاب الشعوب، والعلماء السريون الذين يراقبون عن كثب.

وهكذا حتى أصبحت الدول العربية لقمة سهلة سائغة تلوكها أنيابهم كيف شاءت ومتى أرادت.

وقد شاء الله أن تكون بلاد الشام من تلك الأمصار التي كتب عليها تاريخ من الرضوخ والخنوع لحكم وتسليط طغاة مستبدين أذلوا العباد، ودنسوا البلاد، وأذاقوهم سوء المهانة والعذاب، فكانوا حراساً أمناء وكلاباً أوفياء لأسيادهم من الحلفاء، يُنقذون مشاريعهم، ويحققون مؤامراتهم، ويضربون بيد من حديد كل من يخرج عن رأيهم ويرفض طاعتهم.

باختصار:

مهما حاولت الجاهلية بكل أشكالها وألوانها أن تغير وجهها الحقيقي وتلبس ثياب الطهر والرحمة والعفاف، فإنها لن ترضى السيادة لغيرها، ولن تدع القيادة إلا بأيديها، وستكسر عن أنيابها ضد

خصوصها، وتسلك كلُّ سُبُلِ الفَتْك والإجرام لتقضيَ عليهم بكلِّ ما تستطيع، في الوقت الذي ينال خصوصها وهي في أوج صحوتها وانتباهاها.

المطلب الثاني: سوريا المحتلة وبائع الجولان:

شاء الله أن كانت بلدنا "سوريا" من البلدان المحتلة، حيث تسلطَ عليها الهالكُ المقبورُ حافظُ الأسد بانقلابٍ عسكريٍّ عام ١٩٧٠م، وأطاح برفاقِ دربه وغدرَ بهم فأعدمَ بعضهم، وسجنَ بعضهم الآخرَ حتى الموتِ.

وقد بدأتِ المأساةُ السورية منذ أن أُسقطتِ الخلافةُ العثمانيةُ على يدِ دولِ الحلفاء، وأخذوا يتقاسمون الفريسةَ فيما بينهم، وكانت فرنسا صاحبةَ الحظِّ والنصيبِ في سوريا ولبنانَ بموجبِ اتفاقيةِ سايكس بيكو عام ١٩١٦م^(١)، واتفاقيةِ سان ريمو عام ١٩٢٠م^(٢)، التي فرضتْ مشاريعها على الشعبِ السوريِّ المسكينِ، وأخضعته لنظامِ الوصاية والانتداب، وركّزت على إظهارِ الأقلياتِ وخصوصاً النُصيرية منها، وأدخلتِ الكثيرَ من شخصياتهم في الجيش ورقّتهم في مفاصله ورفعت رُتبهم العسكرية في صفوفه، فامتطّوا صهوةً واستحكموا بزمام أمره، وجعلتْ لهم دولةً (دولة العلويين في السّاحل) بحجةِ تبعيتهم لعلّي بن أبي طالب (رضي الله عنه)، كما عمدَ الفرنسيون إلى إقامة دويلاتٍ صغيرةٍ للأقلياتِ السورية (كدولة جبل الدروز - ودولة العلويين - ودولة حلب - ودولة دير الزور - ودولة دمشق)، ليضمنوا بذلك سيطرتهم على البلاد وليُقوّوا النُّعراتِ الطائفيةَ بين أبناء البلد الواحد، وما خرجَ الفرنسيونَ من سورية عند استقلالها إلا

(١) - اتفاقية سايكس بيكو في ١٩١٦م؛ هي معاهدة سرّية بين فرنسا والمملكة المتحدة بمصادقة من الإمبراطورية الروسية وإيطاليا على اقتسام منطقة الهلال الخصيب بين فرنسا وبريطانيا، ولتحديد مناطق النفوذ في غرب آسيا وتقسيم الدولة العثمانية التي كانت المسيطرة على تلك المنطقة في الحرب العالمية الأولى، وقد جرت المفاوضات الأولية التي أدت إلى الاتفاق بين ٢٣ نوفمبر ١٩١٥م و ٣ يناير ١٩١٦م، وهو التاريخ الذي وقع فيه الدبلوماسي الفرنسي فرانسوا جورج بيكو والبريطاني مارك سايكس على وثائق مذكرات تفاهم بين وزارات خارجية فرنسا وبريطانيا وروسيا القيصرية آنذاك. وصادقت حكومات تلك البلدان على الاتفاقية في ٩ و ١٦ مايو ١٩١٦م.

(٢) - مؤتمر سان ريمو، هو مؤتمر دولي عقده المجلس الأعلى للحلفاء فيما بعد الحرب العالمية الأولى، في مدينة سان ريمو، إيطاليا، في الفترة من ١٨ إلى ٢٦ أبريل/نيسان ١٩٢٠. وحضره الحلفاء الرئيسيون في الحرب العالمية الأولى يمثلهم رئيس وزراء المملكة المتحدة (جورج لويد)، رئيس وزراء فرنسا (ألكسندر ميلران)، رئيس وزراء إيطاليا (فرانسيسكو سافريو نيتي) وسفير اليابان (ك. ماتسوي) وممثل عن كل من بلجيكا واليونان، وكان من نتائج المؤتمر:

- ١ - وضع سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي.
- ٢ - وضع العراق تحت الانتداب الإنكليزي.
- ٣ - وضع فلسطين وشرقي الأردن تحت الانتداب الإنكليزي مع الالتزام بتنفيذ تصريح بلفور.
- ٤ - الاتفاق بين بريطانيا وفرنسا على تنازل الأخيرة عن منطقة الموصل مقابل حصة ٢٥% من نفط الموصل الذي تستخرجه «شركة نفط العراق» البريطانية مع منح فرنسا الشركة تسهيلات لنقل النفط.

بعدها دمروا اقتصادها وتركوها في أتون صراعاتٍ داخليةٍ وزرعوا فيها سرطاناً ينخرُ جسدها من أبناء الطائفة النُصيرية.

ثمَّ ازدادتِ المأساةُ السُّوريةُ حينَ قامَ الهالكُ حافظُ الأسدِ مع بعض ضباطِ الأقلّياتِ عام ١٩٦٣م، بانقلابٍ عسكريٍّ باسمِ حزبِ البعثِ العربيّ الاشتراكيّ حيثُ ازدادَ تغلغلُ النُصيرين في الجيشِ أكثرَ فأمسكوا بمفاصله، وبدأوا ببناء الدولة النُصيرية بعد ما كانوا قد شكّلوا اللجنة العسكرية البعثية^(١) في القاهرة عام الانفصال ١٩٦٠م.

وقد كان بناء هذه الدولة ضمن ثلاثة مراحل استطلع حافظ الأسد واللجنة البعثية معه أن يُمكنوا الأقلّية النُصيرية من الأكرية السُنية، ويُحيّدوها عن كلّ مفاصل الحكم الرئسية والحساسة، وتمكين أبناء الطائفة النُصيرية من مفاصل الحكم العسكرية والأمنية فضلاً عن بقية المفاصل الأخرى، وذلك ضمن مراحل ثلاثة، هي:

المرحلة الأولى:

لم يكن بناء الدولة النُصيرية بين ليلةٍ وضحاها، وإنّما كان ثمرة أعمالٍ كبيرةٍ وجهودٍ طويلةٍ من مؤامراتٍ خارجيّةٍ ومخططاتٍ داخليةٍ تضافرت مع خياناتٍ لبعضِ الشّخصياتِ من الطوائف الأخرى في فترةٍ مُبكّرةٍ من حكم سوريا، ولقد أجملَ الدكتور منير الغضبان^(٢) في كتابه: (سوريا في قرن) بعضَ التّفصيلاتِ عن هذه المرحلة، فجاء في بعض أبحاثه باختصار^(٣):

"كان بعضُ رجالِ النُصيرية يعملون بالخفاء ويشاركون في الوزارات ومفاصل الدولة المدنيّة والعسكرية تحت ستار حزبِ البعثِ العربيّ الاشتراكيّ يمثله (حافظ الأسد)، والحزبِ القوميّ السُّوريّ يمثله (صلاح جديد)، الدِّراعُ القويّ المتنقِّدُ في الحزبِ القوميّ السُّوريّ، والذي يعمل ويخططُ لاستلام الحكم بدعمٍ غربيّ، ومن أجل السَّيطرة على الجيش؛ لأنّه أساس الحكم والتَّحكُّم في السَّياسة السُّورية".

(١)- اللجنة البعثية العسكرية: تتألف من: [حافظ أسد (علوي)، محمد عمران (علوي)، صلاح جديد (علوي)، أحمد المير (إسماعيلي)، عبد الكريم الجندي (إسماعيلي)].

(٢)- الدكتور منير الغضبان، داعية إسلامي، من مواليد (التل - دمشق - سوريا) عام ١٩٤٢م حتى ١ يونيو - ٢٠١٤م، المراقب العام لجماعة الإخوان المسلمين في سوريا سابقاً، توفي في مكة المكرمة من يوم الأحد الموافق ٣ رجب ١٤٣٥ هـ، وصلي عليه بالمسجد الحرام.

(٣)- يُنظر: سوريا في قرن، د. منير الغضبان، (ص ٢٥٩ وما بعدها) بتصرف.

ففي الوقت الذي كان يعمل فيه أهل السُّنة في الصِّناعة والتِّجارة وينظرون إلى الكليّات العسكريّة نظرةً مهينةً رخيصةً لا يذهب إليها ولا يتطوَّع بها إلا الفقراء الذين لا يجدون فرصة عملٍ، أو الكسالى الفاشلون في مدارسهم وجامعاتهم، كانت الغالبية العظمى من أبناء الطائفة النُصيرية يتطوَّعون في الكليّات العسكريّة بكلِّ فروعها واختصاصاتها، فضلاً عن آلاف الضُّباط الذين تمّت إقالتهم وتسريحهم على يد صلاح جديد ليتخلَّص من عبئهم في المرحلة المقبلة التي يخطِّط لها.

كانت يدُ صلاح جديد طويلةً في هذه المرحلة في تسريح الضُّباط السُّنة وغيرهم ممَّن يمكن أن ينافسوه، دون أن يجرّؤ أحدٌ على منافسته أو الاعتراض عليه، مع شعور البعثيين بخطر ذلك، فهم بانتظار ذريعة يمكن أن تنتهي بالقضاء عليه وعلى حزبه، حتى كانت حادثة اغتيال عدنان المالكي المحسوب على حزب البعث عام (١٩٥٥م)، حيث كانت الاتِّهامات تشير إلى حزبه (الحزب القومي السُّوري) مباشرةً، لتبدأ مرحلة استئصاله والقضاء عليه بموجب قرار الاتِّهام الموجه إلى حوالي ١٤٠ عضواً من أعضاء الحزب، وبهذا اعتُبر قرارُ الاتِّهام الحزب القومي السُّوري جمعياً سرّيةً خرقت الدُّستور والنِّظام، وأنَّ هدفه الاستيلاء على السُّلطة بواسطة التَّسلُّل إلى الجيش، إضافةً إلى تُهم التَّواصل مع الحكومة العراقيّة من جهةٍ، والأمريكيّة من جهةٍ أخرى، للقيام بانقلاب في سوريا.

كانت هذه فرصة مناسبة جداً بالنِّسبة للشُّيوعيين ولحزب البعث للتَّخلُّص من أعدائهم (اليساريين) في السَّاحة وإضعاف مركز الغرب الأمريكي في سوريا. فاعتُبر الحزب القومي السُّوري حزباً غير مشروع، ثمَّ اعتُقل عددٌ كبيرٌ من أعضائه، وأُغلقت مكاتب الحزب بالشَّمع الأحمر، وسُرح أنصاره من الجيش والدَّولة، كما شكَّلت محاكم مؤقتة تتمتع بسلطات خاصّة لمحاكمة المتهمّين بالتآمر مع دولة أجنبية للإطاحة بالحكومة. وهكذا استُؤصل الحزب القومي السُّوري من الحياة العامّة في سوريا.

المرحلة الثانية:

أمام عمليات استئصال الحزب القومي السُّوري لم يجد أنصاره أمامهم سبيلاً إلا الهروب خارج البلد، وكانت بيروت ملجأً لبعضهم، كالعقيد غسان جديد، حيث تابعوا نشاطهم الحزبي، ولم يتوقَّفوا عن العمل للانتقام من حزب البعث، وذلك من خلال جَمْع الأحزاب والشَّخصيّات المعارضة ضمن كتلة واحدة وإصدار بيانٍ مشتركٍ يمثل المعارضة السُّورية بكلِّ أطيافها،

واستطاعوا بذلك استعطافَ بعضِ الشخصياتِ إلى جانبهم، أمثال عدنان الأتاسي، ابن رئيس الجمهورية السابق هاشم الأتاسي^(١)، وأديب الشيشكلي^(٢) الذي برز في المرحلة الأولى عنصراً رئيساً من المؤامرة، حيث وضعَ يده مع أعدى أعدائه، ومن الدروز الذين مثّلهم الضابطان: محمد معروف ومحمد صفا، والعلويين الذين مثّلهم المقدمُ غسان جديد، وحزب الشعب الذي مثّله عدنان الأتاسي وفيضي الأتاسي، غير أنَّه انسحب في اللحظات الأخيرة وفي ظروفٍ غامضةٍ يصعب التّنبُّت من أسبابها".

"وقد دعا نصُّ البيان الذي اتَّفَقوا عليه في النِّهاية إلى ثورةٍ شعبيةٍ تطيح بالدَّستور السُّوري وتحلُّ البرلمان، وتقيم حكماً جمهورياً رئاسياً، ثمَّ تشكّل حكومةً جديدةً من مُوقِّعيّ البيان، وتُلغِي الأحكامَ التي صَدَرَتْ في (قضية المالكي). وقد دعا البيانُ أيضاً إلى تشكيل لجنةٍ عسكريةٍ وسياسيةٍ لربط الجنود والمدنيين في الحركة، ورسم خططٍ مفصلةٍ للانقلاب".

"أما الثَّورةُ الشَّعبيةُ، فقد تقررَ أن يشاركه فيها ثلاثة طوائف^(٣)،

حيث تقدّمتها القياداتُ السِّياسيةُ للمشاركة فيها، وعلى رأسها المهندسُ الأكبر للانقلاب والمنسقُ بين الفئات المختلفة نوري السَّعيد.

لم تكن عيونُ الطَّرف الآخر في غفلةٍ ممَّا يفعله هؤلاء، إنّما كانت تراقب وتعمل ليلَ نهار.

(١)- هاشم الأتاسي (١٨٧٣ - ١٩٦٠ ميلادي)، والملقب أبو الجمهورية، هو ثاني رئيس للجمهورية السورية لولائتين، ينتسب الأتاسي لعائلة غنية ومعروفة في حمص، درس فيها وفي إسطنبول وعمل في ظل الدولة العثمانية في بيروت وحمص، نشط خلال الانتداب الفرنسي على البلاد كناشط سياسي بارز مطالب بالاستقلال خصوصاً إثر تأسيسه وزعامته لحزب الكتلة الوطنية التي لعبت دوراً بارزاً في الحياة السياسية السورية قبل ١٩٦٣ م.

(٢)- العقيد أديب بن حسن الشيشكلي (١٩٠٩ في حماة - ٢٧ سبتمبر ١٩٦٤ في البرازيل) كان قائد الانقلاب العسكري الثالث في تاريخ سوريا الذي حدث في ١٩ ديسمبر ١٩٤٩، وأصبح رئيساً لها بين عامي ١٩٥٣ و ١٩٥٤، كان أديب ضابطاً سابقاً في الجيش السوري، استولى على السلطة على دفعات منذ عام ١٩٥١ وحتى عام ١٩٥٤، وكان قبلها أحد العسكريين السوريين الذين شاركوا في حرب ١٩٤٨ وتأثر خلالها بأفكار الحزب السوري القومي الاجتماعي.

(٣)- وهذه الطوائف هي: أ- الطائفة النُصيرية: وقد مثّلها في المجال العسكري غسان جديد، وفي الجانب المدني محمد الفاضل. ب- الطائفة الدُرزية: وقد مثّلها في المجال العسكري العقيد محمد صفا وفضل الله أبو منصور وشكيب وهاب، وفي الجانب المدني الأمير حسن الأطرش.

ج- العشائر: وقد مثّلها نائب العشائر هائل سرور، بينما مثّل الجانب المدني حلفاء العراق في سورية ميخائيل اليان من الحزب الوطني، وفيضي الأتاسي وعدنان الأتاسي ومنير العجلاني وسامي كبرة".

"ففي ٢٣ تشرين الثاني تمّ اكتشاف المؤامرة وخيوطها والشخصيات التي تقف وراءها والدول التي تدعمها.

"وفي ٢٢ كانون الأول من عام ١٩٥٦م نُشرت قائمة الاتّهام، وتضمّنت أسماء (٤٧) متّهماً، منهم: أديب الشيشكلي، وزعماء التّأمر الفعّالين: محمد صفا، وغسان جديد، ومحمد معروف، وصالح الشيشكلي، وسعد تقي الدّين، وحسن الأطرش، والرئيس القبلي هایل سرور، وأعضاء بارزون من اللجنة السّياسيّة أمثال ميخائيل اليان، وعدنان الأتاسي، ومنير العجلاني، وسامي كباره".

وأُفتتحت الجلسةُ في الثامن من كانون الثاني ١٩٥٧م على مدرّج جامعة دمشق، وكان العقيد عفيف البزري رئيساً لهذه المحكمة العسكريّة والتي انتهت أحكامها في ٢٧ شباط، وحُكم عليهم (أو على كثير منهم) بالموت غيابياً، وقبل ذلك بأسبوعٍ أو أقلّ قُتل غسان جديد في شوارع بيروت".

لقد فضّح دورُ الدُّروز في المؤامرة؛ لأنّ فارس دوبر الدُّرزي هو الذي قام بنقلِ شحنات الأسلحة إلى جبل الدُّروز والبدو باسم حسن الأطرش وهایل سرور، وأما العلويّون فقد بقيَ دورهم مخفياً إلا من خلال القيادات، ودُفِنَ الدَّور مع مقتل غسان جديد أكبر عناصر المؤامرة ليعودوا إلى السّاحة من جديد بعد عشرة أعوامٍ على هذا التّاريخ، وتخلو لهم السّاحة وحدهم في الجيش.

المرحلة الثالثة: الطّائفيّة تحت مظلة البعث:

كلُّ هذه التّصفيّات الحزبيّة والطّائفيّة كانت تحت نظر ومراقبة الملاحم صلاح جديد (زعيمُ الحزب القوميّ السُّوريّ)، الذي رأى أنّ المصلحة تفرض عليه الانضمام إلى حزب البعث آنذاك؛ ليضمّن مستقبله السّياسيّ وينتقم لمقتل أخيه غسان جديد.

وقد كان المقدّم محمد عمران^(١) أعلى منه رتبةً، وكان يتلقّى الأوامر من قيادة طائفته النّصيريّة، وكان من المبعدين إلى مصر إبان الانفصال عنها، حيث تواجد خلال سنوات الوحدة في مصر قرابة ألف ضابطٍ سوريّ، معظمهم بغير إرادته، كما تخرّج ألف ضابطٍ سوريّ من المدارس العسكريّة المصريّة أيضاً.

(١)- اللواء محمد عمران (١٩٢٢م-١٩٧٢م) كان قائدًا عسكريًا وسياسيًا وعضوًا في حزب البعث العربي الاشتراكي. هو أحد زعماء انقلاب حزب البعث عام ١٩٦٣م؛ وبمجرد نجاح الانقلاب العسكري ذلك الوقت، ٨ مارس/آذار ١٩٦٣م، أصبح نائباً لرئيس الوزراء وبقي في منصبه إلى ١٥ ديسمبر ١٩٦٤م، اغتيل بتاريخ ١٤ مارس ١٩٧٢م في المدينة اللبنانية طرابلس.

وفي سنة ١٩٦٠م، أقام الضُّباطُ البعثيون في مصر تنظيماً سرياً سمّوه: (اللجنة البعثية العسكرية)، وكان حافظ الأسد في الثلاثين من عمره آنذاك، وقد نهج طريق العمل السياسي السري.

"كانت بدايات اللجنة العسكرية متواضعة حقاً، فلم يكن فيها سوى خمسة ضباط، هم: النقيبان الأسد والجندي، والرائدان: جديد والمير، والمقدم: عمران^(١)، وكان أول عمل قاموا به هو أنهم أقسموا على السرية، وكانوا مشتركين في غريزة قديمة هي غريزة الكتمان والثقة التي تتصف بها مجتمعات الأقليات المضطهدة في الشرق الأوسط.

كان ثلاثة منهم نصيريين، واثنان من الفرقة الإسماعيلية، وكانت خليتهم في عزلتها أشبه ما تكون بالمحفل الماسوني، ولكنهم في غضون بضعة سنواتٍ راحوا يقتلون ويدمرون بعضهم بعضاً أثناء تسلُّقهم إلى القمة"، فقد كان أكبرهم والِدِماغُ الموجة لهم هو المقدم محمد عمران المولود عام ١٩٣٢م، ينحدر من عائلةٍ من صغار مُلاك الأرض، تنتمي إلى عشيرة الخياطين في قرية مخرم شرقي حمص، وقد لعب تحت تأثير أكرم الحوراني^(٢) دوراً صغيراً في الانقلاب ضدّ الشيشكلي عام ١٩٥٤م، ولكن عمران لم يكن عسكرياً من النَّمط المعتاد فهو مولعٌ بالقراءة والنِّقاش، بل يمكن اعتباره إلى حدٍّ ما مفكراً يُهرِّفُ رفاقه بما يأتيهم به من المعلومات، لكنّه ينقصه مقداراً من القسوة ليتماشى مع الخشونة التي راحت تتزايد داخل مجموعته، وقد دفع فيما بعدُ ثمناً غالياً لانعدام القسوة عنده.

أمّا صلاح جديد المولود عام ١٩٢٦م، في قرية دير بعبدا قرب بلدة جبلة الساحلية، وينتمي إلى أسرةٍ متوسطةٍ من عشيرة الحدادين أكبر العشائر النصيرية، فقد كان ذا شخصيةٍ مناقضةٍ لعمران، كان يابساً صموتاً دقيقاً، كان يُؤثّرُ الاستماع أكثر من الكلام. فيجعل الآخرين يُحسُّون وكأنّهم يحصي عليهم كلماتهم ليستعملها ضدّهم ذات يوم.

(١)- سيأتي لاحقاً ترجمة كل اسم من هذه الأسماء، ولا بد هنا من الإشارة أنّ الضُّباط النصيريين قسمين: قسم يبقى في سلك الأمن والجيش ويصل لأعلى المراتب، ويكون هؤلاء الضباط حصراً من عشيرة الخياطين أو الحدادين فقط، وقسم آخر (من غير عشيرة الخياطين أو الحدادين) لا يُسمح له أن يترفع فوق رتبة اللواء وأحياناً ما دون، وبعدها يتقاعد بعد أن يُسمح له بنهب ما شاء من الأموال لتكفيه باقي حياته.

(٢)- أكرم رشيد معي الدين الحوراني، (١٩١١م - ١٩٩٦م) سياسي بارز، ولد في مدينة حماة وتوفي في عمّان، كان حافظ الأسد يردد على سامعيه أنه «لولا الحوراني لكنا في السُّلطة منذ العام ١٩٥٧م»، وقد سُمع حوار بين مصطفى حمدون (أحد قادة تمرد قطنا) والحوراني يلومه على إحباط تمرد قطنا لقطع الطريق على اللجنة العسكرية وحافظ الأسد الوصول إلى السلطة لاحقاً، وقد أجاب الحوراني «هل تريد مني أن أكون حافظ أسد آخر»، وفي عام ١٩٥٧م.

كانت آراؤه يسارية واضحة، وحين احتدم الصراع على السلطة قُدر له أن يكون المنافس الرئيسي للأسد، أما سياسياً فكان ولاؤه الأول للحزب القومي السوري، ثم أُبدل موقعه وانضم إلى البعث عندما كان ملازماً ثانياً في الخمسينات.

"في البداية لم يساور اللجنة العسكرية أي تفكير بالاستيلاء على السلطة في دمشق، إنما كانت أهدافهم هي إعادة بناء حزبهم المشتت، وحماية الوحدة وإسقاط النظام القديم في سوريا، وبذلك يكونون قد كفّلوا استمرار صعودهم وصعود طوائفهم، فأبناء الطوائف المغبونة هم الأكثرُ خسارة فيما لو عادت السّاعة السياسيّة في سوريا إلى الوراء، واسترجعت النّخبّة في المدينة نفوذها الضّائع.

كان من الخطّة سفر عمران وجديد إلى سوريا، حيث التقيا سرّاً ببعض البعثيين المدنيين بدمشق في محاولة لإعادة الحزب، وكانت هذه الاتّصالات الجديدة والامتدادات مع البعثيين المدنيين لربط الخيوط كلّها بيد اللجنة العسكرية، كان مخطّط النّصيريين يتضمّن التعاون مع الإسماعيليين والدروز، بناءً على توجيهه شيوخ الطّائفة لأبنائهم: (جديد وعمران والأسد) فانضمّ معهم الضّابطان الإسماعيليان: (أحمد المير^(١) وعبد الكريم الجندي^(٢)).

لم تكن الطّائفة الدُرزيّة بعيدة عن هذا التّنظيم في الوقت الذي تلوح فيه خطّة شيوخ الطّائفة على ضرورة المشاركة الدُرزية.

(١)- أحمد المير ملحم (١٩٢٢ - ٢٠٠٧): هو عسكري سوري، وقائد الجبهة السوريّة في الجولان، إبان حرب تموز ١٩٦٧. ولد المير عام ١٩٢٢، في قرية مصياف، في محافظة حماة، وكان أحد أعضاء اللجنة العسكرية في حزب البعث. بعد الانفصال عن مصر عام ١٩٦١م، عاد المير من هافانا مع مجموعة من الضباط البعثيين الذين تم تسريحهم بعد الانفصال. بعد انقلاب ٢٣ شباط ١٩٦٦م، تم تعيينه قائداً (أمراً) لجبهة الجولان، حتى عام ١٩٦٨م، حيث قام حافظ الأسد بإعفائه من منصبه، وعين بعد ذلك عضواً في القيادة القطرية لحزب البعث، وبعدها أُقيل من منصبه، وعُين دبلوماسياً في سفارة سوريا بمديريد. توفي المير عام ٢٠٠٧م، ودُفن في قرية مصياف، بحماة.

(٢)- ولد عبد الكريم الجندي في بلدة السلمية ١٩٣٢م، تخرج من الكلية الحربية ١٩٥٢م، وهناك تعرّف على صلاح جديد وربطهما صداقة متينة، لعبت هذه الصداقة دوراً مهماً في تشكيل اللجنة العسكرية، شارك بفعالية بانقلاب البعث ١٩٦٣/٣/٨م، أو ما يسعى بثورة الثامن من آذار وإقامة سلطة الحزب الواحد (حزب البعث)، تسلم عدة مناصب عسكرية وسياسية قبل حركة شباط ١٩٦٦م منها منصب وزير الزراعة والإصلاح الزراعي، مع نهاية عام ١٩٦٨م بدأ الصراع بين أجنحة حزب البعث الحاكم، جناح يقوده صلاح جديد والجناح الآخر يقوده حافظ الأسد، وكان الجندي من أبرز قادة الجناح الأول، لكن تردد صلاح جديد في فتح جبهة والتخلص من الجناح الآخر وقبوله حالة التعايش مع الخط الآخر كانت قشة الشعير، لم يكن الجندي يحكم طبيعته ونفسيته أن يستمر بهذه الطريقة مما دفعه إلى الانتحار صبيحة ١٩٦٩/٣/٢م في مكتبه بدمشق بعد أن كتب رسالة وضع فيها رؤيته للصراع وحذر فيها إلى ميول وتوجهات الأسد من كل المشاريع المطروحة.

«حسب معلومات بعض الرواة فإنَّ قائدَ المجموعة (اللجنة العسكرية) في البداية كان درزيًّا هو المقدم فريد هنيدي، ولكنَّه نُقِلَ إلى خارج الجيش بعد وقتٍ قصير،

وأما نتيجة اتصالات عمرانٍ وجديد بعد سفرهما السريِّ إلى دمشق فيتحدَّث عنها الأسد نفسه فيقول:

"ولم يكن الضُّباطُ الذين اتَّصلتُ بهم يدركون بأنَّ هناك تنظيمًا وقيادة، رغم أنهم كانوا يعرفون أنَّني اشتغل بالسياسة كعضوٍ في الحزب، وكانوا يرون أنَّ اقتراحي منهم ليس عفوياً، وبعد مدَّةٍ تشكَّلت ثقةٌ كافيةٌ لجعلهم يحتفظون لأنفسهم بأية معلوماتٍ نقلتها لهم، فالبعثيون ولا سيما العسكريُّون من بينهم، لديهم إحساسٌ بمشاكل الأمن، ولم يسألني أحدٌ:

مَنْ أنت بالضبط؟

ومن تمثل؟!

وبمرور الزَّمن؛ وبسريَّةٍ عظيمةٍ أقامت اللجنة العسكريَّةُ شبكةً من دزنتين أو ثلاثٍ دزنياتٍ من الضُّباط الذين نجمَ من بين صفوفهم بعدَ عقدٍ من الزَّمن عدَّةُ شخصياتٍ هامَّةٍ في الحياة العامَّة في سوريا، كان معظمهم من خلفيَّةٍ ريفيَّة، مثل أعضاء اللجنة الخمسة أنفسهم، ولم يكن هناك أحدٌ من دمشق أو المدن الأخرى، وكان عددٌ كبيرٌ منهم من الأقليات الدينيَّة."

لقد توسَّعت اللجنة العسكريَّةُ فيما بعد نتيجة هذه الاتِّصالات لتبلَّغ خمسةَ عشرَ عضواً، لكنَّ العشرة الآخرين لم ينضموا فعلاً للجنة العسكريَّة إلا بعد أن استلم البعثُ السُّلطة بعد ٨ آذار من عام ١٩٦٣ م، وكان قرابةُ الثُّلثين من هذه اللجنة من الطوائف الثلاثة: (النُصيريين والدُّروز والسُنَّة)^(١).

(١)- وهذا هو تركيب اللجنة التي كانت تقود الحكم والسلطة في سورية باسم البعث:

١- (خمسةٌ علويون، وهم: محمد عمران من المخرم (حمص)، وصالح جديد من (دير بعبدا - اللاذقية)، وحافظ أسد من (القرادحة - اللاذقية)، وعثمان كنعان من (الإسكندرون)، وسليمان حداد.
٢- اثنان إسماعيليان، وهما: عبد الكريم الجندي من (سلمية حماة)، وأحمد المير من (مصياف - حماة).
٣- اثنان درزيان من جبل الدروز وهما: سليم حاطوم من (ذيبين)، وحمد عبيد.
٤- ستَّةٌ سنيون: ثلاثةٌ منهم من (حوران)، وهم: موسى الزعبي، ومصطفى الحاج علي، وأحمد سويداني، واثنان من (حلب): أمين الحافظ، وحسين ملحم، وواحدٌ من (اللاذقية)، وهو: محمد رباح الطويل".

ولا بدّ من ملاحظتين اثنتين عن اللجنة العسكرية:

الأولى: انضم هؤلاء الرجال (العشرة الجُدد) إلى اللجنة العسكرية بعد أن تمّ الاستيلاء على السلطة عام ١٩٦٣ م، "وانتهت بذلك المرحلة الأولى من العمل السري".

الثانية: كان احتكار القيادة العليا للجنة العسكريّة (بعد توسّعها) في أيدي ثلاثة علويين، هم: (محمد عمران، وصلاح جديد، وحافظ الأسد).

وبذلك اتّضحت الهوية الكاملة للتّخطيط النّصيري لاستلام سوريا تنفيذاً لمقرّرات الطّائفة.

جائزة الخيانة وجزاء العمالة:

وهكذا من خلال قراءة الأحداث وتأملها عن قرب نجد أنّ حافظ الأسد كان يُعدّ لمرحلة مهمّة من تاريخ سوريا بعد أن قدّم الجولان هديةً لإسرائيل.

"وحيث إنّ حافظ الأسد هو المُعدّ لاستلام سوريا، ووقع عليه الاختيار، وتمّ تدريبه وراء الكواليس، فلا بدّ أن يصعد إلى القمّة، ويربح منافسةً صلاح جديد ليتّرع على عرش السّلطة في سوريا، وقد أثبت من خلال حرب حزيران عام ١٩٦٧ م؛ أنّه رجلٌ مبدئيٌّ بالنّسبة لإسرائيل، حيث البيان السّاقط الذي أسقط الجولان وسلخه عن جسم سوريا خلال ٤٨ ساعة فقط، وهو الإقليم المحصّن الذي قيل عنه: "إنّ الجبهة السّورية الإسرائيلية خطّ ماجينو السّوري المشهور الذي كلف البلاد أكثر من ثلاثمائة مليون دولار لتحصينه، وتجهيزه بأحدث المعدات".

"بعد هذه الخيانة المفضوحة لا بدّ أن يُفتح أمامه الطّريق ليصل إلى القمّة، ونحن لا ننكر ذكاه وعمق تخطيطه في مواجهة خصومه وإسقاطهم، لكن الحكم عنده هو الأصل، وقد وُعدّ به بعد تنفيذ المخطط المطلوب.

"لم يكن لحافظ أسد أن تُفتح له الأبواب، وتُهيأ له السبل، وتُدلّل أمامه العقبات إلا ضمن خطة مدروسة، ومن خلال شخصيّة الأسد المروّضة لتنفذ كلّ مخططات العدو، فتسليم الجولان كان الامتحان الأول، والتّخلّي عن الفدائيين كان الامتحان الثاني، وكفّ خطر الفدائيين عن العمل خلال الحدود السّورية لمهاجمة إسرائيل كان الامتحان الثالث.

هذه الامتحانات جعلته محط أنظار العالم ليؤدي دوراً جديداً في المنطقة، والتعامل مع إسرائيل هو الميزان لاستقرار أي حاكم في المنطقة، وقد فعل خلال عامين ما عجزت إسرائيل عن تحقيقه منذ نشأتها، فلم تعرف إسرائيل الاستقرار كما عرفت في عهد الأسد، حيث صارت حدودها آمنة مستقرة لا تتعرض لطلقه رصاص واحدة من أحد".

"لا شك أن صلاح جديد وشلتته من النصيريين قد أدوا الدور الأول بأن كانوا فتيل الانفجار لمعركة عام ١٩٦٧م، وقادوا عبد الناصر إلى المواجهة مع إسرائيل، وبعد أن دمر سلاح الجو السوري، وأصبحت مرتفعات الجولان في أيديهم، انتهى دور التهويش والمزايدات، ولم يعد هناك حاجة لإشعال معركة جديدة، فليكن الأسد هو بطل السلام في المنطقة.

ولننظر إلى أين آلت اللجنة العسكرية التي كانت تقود سوريا عام ١٩٦٣م إلى عام ١٩٧٠م، حيث بقي الأسد وحده منها.

أما صلاح جديد: فقد أودع السجن، وأما عبد الكريم الجندي: فقد انتحر، وأما أحمد المير: فقد سُرح من الجيش إلى وظيفة مدنية، وأما محمد عمران: فقد عُيّن سفيراً في إسبانيا، وتم اغتياله بعد ذلك على يد مخابرات الأسد لتخلو الساحة له وحده، وأصبح الحكم الآن نصيراً أسدياً يدين بالولاء لشخص واحد.

والأعضاء العلويون البارزون في كتلة حافظ الأسد هم: شقيقه رفعت أسد، وعلي حيدر^(١) قائد القوات الخاصة (وهو جيش علوي خالص رديف للجيش السوري)، ومحمد توفيق الجمني قائد الفرقة الأولى، وعلي دوبا^(٢) رئيس المخابرات العامة، وعلي الصالح قائد الدفاع الجوي، وعلي حماد رئيس شؤون الضباط، وكمثال على الأنصار العلويين البارزين الآخرين: عبد الغني إبراهيم، ومصطفى شريّا، وحكمت إبراهيم، وعلي حيدر، وعلي أصلان^(٣).

(١)- علي حيدر (١٩٣٢م - ٢٠٢٢م) كان قائد القوات الخاصة السورية لمدة ٢٦ عاماً ومن المقربين إلى الرئيس حافظ الأسد، توفي

في ٥ أغسطس عام ٢٠٢٢ في محافظة اللاذقية (قرية بيت ياشوط)، كان من المشاركين في مجزرة حماة ١٩٨٢م،

(٢)- ولد دوبا لعائلة علوية صغيرة من ملاك الأراضي، في قرية قرفيص منطقة جيلة جنوب اللاذقية، كان الرئيس السابق للاستخبارات العسكرية السورية، وكان مستشاراً مقرباً لحافظ الأسد، كان أحد المجرمين المعروفين في سوريا.

(٣)- علي أصلان (مواليد ١٩٣٢م) هو رئيس أركان الجيش السوري السابق وعضو اللجنة المركزية للفرع الإقليمي السوري لحزب البعث العربي الاشتراكي تحت قيادة حافظ الأسد.

حافظ الأسد والحكم الطائفي:

قدّمنا المبررات الكافية السابقة للامتحانات التي خاضها حافظ الأسد في موقفه مع إسرائيل، وحتى تتجلى الحقيقة لا بدّ أن نُعيد إلى الذاكرة حقيقة موقف النصيريين من اليهود ورأيهم فيهم، فبذلك يتضح الاتساق والتكامل في الدور النصيري في الساحة السورية، و(جديد والأسد) كلّ منهما أدّى دوراً محدداً له، وكلاهما قد حقّق آمال وطموحات أجدادهما في نصرة اليهود، واشتركا في كلّ المسؤوليات حتى عام ١٩٧٠ م، وبعدها انتهى دور (جديد)، وبدأ دور (الأسد) على المستوى القومي والعربي.

وأرى من المفيد هنا عرض التعليق على الوثيقة التي رفعها زعماء النصيريين لرئيس الحكومة الفرنسيّة ليون بلوم والمحفوظة تحت رقم ٣٥٤٧ بتاريخ ١٥/٦/١٩٣٦ م، والموجودة في سجلات وزارة الخارجية الفرنسيّة، ليتفهم الجميع طبيعة العلاقة بين النصيرية واليهود من خلال النقاط التالية^(١):

١- من خلال بنود الوثيقة، هم يكشفون عن حقيقة هويتهم حين يتمكنون في ظلّ العدو، ويتحدّثون للحكّام الفرنسيّين يستنجدون بهم من التعصب الإسلاميّ، وهذا يعني أنّهم غير مسلمين.

٢- وما يجمعهم في خندق واحد مع اليهود هو أنّ النصيريين واليهود من الأقليات غير المسلمة، وتصبح هذه الأقليات في خطر الموت والفناء إنّ انتهى الانتداب الفرنسيّ وعاد الحكم للأكثرية المسلمة السنيّة في سوريا.

٣- ولا يجد زعماء النصيريين دليلاً على صحّة وجهة نظرهم إلا الاستشهاد بموقف مسلمي دمشق من منع اليهود من تقديم المعونات لإخوانهم في إسرائيل.

٤- واليهود مضطهدون في رأي النصيريين، والحرب ضدهم يمثّلها روح التعصب والحقد الإسلاميّ، فهم لا يذكرون أنّ اليهود مغتصبون جاؤوا لأخذ هذه الأرض من أصحابها الشرعيين، وهذه مشاعرٌ موحدة ومتطابقة تمام التّطابق بين اليهود والنصيريين.

(١)- سوريا في القرن، منير الغضبان، (ص ٢٥٩ وما بعدها) بتصرف.

"فاللهو طيبون، (حسب رأيهم)، جاؤوا للعرب والمسلمين بالحضارة والسّلام، ونثروا فوق أرض فلسطين الذهب والرّفاه، وهم الطّبقة الواعيّة المثقفة المضحيّة العاملة، وهم حملة مشعل الحضارة ودعاة الطّهر والسّلام في الأرض.

أما العرب المسلمون (حسب رأيهم)، فهم فقراء متأخّرون ومتخلّفون، وهم طغاة ومعتدون، ينقضّون على اليهود، ويشعلون عليهم الحرب المقدّسة، وهم في حقدهم وقهرهم لليهود يذبحون الأطفال والنساء وسيحوّلونهم إلى جثث وكتل من الدّمار والفناء حين يرتفع الانتداب الإنكليزيّ والفرنسيّ من البلاد، وسيلقون المصير الأسود المحتوم على أيديهم.

هذه هي النّظرة الحقيقيّة للنّصيريّين نحو اليهود، فكلاهما في خندق واحد لمواجهة التّعصّب الإسلاميّ السّيّ.

وقد تبى هذه الوثيقة زعماء النّصيريّين بما فيهم أجداد صلاح جديد وحافظ أسد، وهذه هي الفرصة السّانحة وقد حكّم جديد والأسد سوريا المسلمة المتعصّبة السّنيّة، وعليهم أن يؤدّوا دورهم التّاريخيّ في نصرة حلفائهم وإخوانهم اليهود، فكان أن قدّموا لهم الجولان، وغدروا بالفدائيين، وعملوا أقلّ ما يجب عليهم عمله تجاه اليهود ((الطيبين)) الذين جاؤوا بالحضارة والسّلام ونثروا فوق الأرض الذهب والفضّة (حسب زعمهم).

إنّها رسالة تاريخيّة تقدّمها جديد والأسد، تحقيقاً لحلم أجدادهم (محمود آغا جديد، وسليمان بك الأسد)، فيعطون الجولان ومرتفعاتها لإسرائيل، حتى تبقى دمشق عاصمة المسلمين السّنيين تحت رحمة مدافع اليهود إلى الأبد.

وبعد هذا:

"فليس للمرء أن يبحث بين السّطور إذا كانت السّطور تنطق بحقيقة الحقّ والضّغينة على المسلمين، وتطفح بذلك الحبّ والتّفاني لليهود والصّليبيّين".

حافظ الأسد والدّولة الطائفية:

بعد هذا العرض للشّخصيات التي أقامت الدّولة النّصيريّة نعود لنسلط الضّوء على غدر حافظ الأسد وتسلّطه على الحكم في سوريا، حيث تغلّب على رفاق دربه بانقلاب عسكريّ آخر عام ١٩٧٠م، تحت مسمّى: (الحركة التّصحيحيّة)، وأحكم قبضته على البلد بما يُسهّل عليه ضمان

حكمه وسيطرته، فقام بإجراءات وخطوات مأكرة تخدم حكمه وتمكّنه من إحكام قبضته على رقاب الشعب، ويمكن تلخيص هذه المرحلة وما مرّ فيها من مآسٍ وعقبات بالنقاط التالية:

١- يدركُ حافظ الأسد حساسية منصب رئاسة الجمهورية بالنسبة له، لكونه (نصيرياً)، لا يُمكنه الدُستورُ استلامَ ذاك المنصب، وخاصةً بوجود شخصيات إسلامية فاعلة هي مَنْ وضعت الدُستورَ واشترطت فيه: (أن يكون دينُ الدولة الإسلام)، فكان لابدّ من القيام ببعض الخطوات التي تُخرجه من ذاك المأزق الخطير، حيث قام بخطوتين:

أ- العمل على تعديل الدُستور من خلال تصويت مجلس الشعب عليه، ومن خلال استجوابهم على سؤال: هل يكون العلوي مسلماً؟

وفي الوقت الذي بادرت شخصيات دينية نصيرية إلى تصريح رسمي يعلنون فيه أن: كتابهم القرآن الكريم، وأنهم مسلمون شيعة على المذهب الاثني عشري، مع إصدار موسى الصدر رئيس المجلس الشيعي الأعلى في لبنان آنذاك فتوى بأن العلويين هم من المسلمين الشيعة، كما كتب بعض رجال دينهم كتباً بهذا الشأن، أمثال عبد الرحمن الخير^(١) الذي بيّن في كتابه: (نحن العلويون الجعفريون) عن عقيدتهم الجعفرية، ليدلّسوا على الناس بأنهم طائفة من الطوائف المسلمة وعلى المذهب الجعفري.

ت- تممّص حافظ الأسد الشخصية صاحبة الهم الإسلامي، وأخذ يتقرب منهم ومن الهيئات والجمعيات التي تُعنى بالشأن الإسلامي، كما دعم الأوقاف بما تحتاجه من رواتب ومستلزمات، وزاد من وظائفهم في المؤسسات الدينية، وحضهم على بناء المساجد والمعاهد الشرعية، وقرب إليه بعض الشخصيات المؤثرة في مناطقها والتي لها بُعد اجتماعي وعلوي وعشائري، وخاصة بعدما بزغ نجم جماعة الإخوان المسلمين كقوة فاعلة وذات تأثير كبير في الحاضنة الشعبية، فكان لابدّ من العمل على تحييد خطرهم عليه من خلال دعم بعض الشخصيات الأخرى ذات التوجيه الإسلامي ودعمها؛ كأحمد كفتارو وتسليمه منصب المفتي العام، وترجيحه على منافسه آنذاك الشيخ حسن الحبنكي الميداني، ودعمه بمنصب الافتاء والأوقاف، واجتذاب المشايخ الذين يمكن أن يعتمد عليهم في أوقات الشدة والحرّج، كما سمح لهم بإقامة وبناء عشرات

(١)- عبد الرحمن الخير: المولود عام ١٩٠٤م، نشأ في بلدة القرداحة، تعلم الكتاب في قريته ثم في المدرسة الرشادية، انتقل إلى مدرسة العنازة قضاء بانياس لينال شهادة أهلية التعليم، له مؤلفات عديدة حول العلويين وتاريخهم، مات في مدينة دمشق ١٨ حزيران عام ١٩٨٦م.

المعاهد الشرعية والجمعيات الخيرية والاجتماعية الرجالية والنسائية مثل: (مجمع أبو النور في دمشق الذي يرأسه أحمد كفتارو)، و(معهد الفتح الإسلامي في دمشق الذي يرأسه صالح الفرفور وعبد الفتاح البزم)، و(كلية الشريعة في حلب)، و(القبسيات^(١) التي ترأسها منيرة القبسي)، وغيرها من المعاهد الموالية للدولة ورئيسها ومنهجها لتدريس المنهج الإسلامي الوسطي (حسب زعمهم)، علماً أن هذه المعاهد والجمعيات لا يمكن لها أن تخرج من تحت الأوامر والعباءة الحزبية في كل أمورها.

٢- "لقد اتكأ حافظ الأسد خلال حكمه بشكل رئيسي على رفاق دربه في النضال العسكري، ولذلك تحدّد تطوّر إطار الدولة في عاملين رئيسيين: عامل الولاء، وهو المحدّد الحاسم، والخلفية العسكرية التي شكّلت الجزء غير الظاهر في نمط الدولة المدنية التي حاول الأسد ومنذ استلامه السلطة حاول إعادة هيكلة النظام السياسي على أسس جديدة مختلفة في بنائها عمّا ساد منذ استلام البعث السلطة عام ١٩٦٣ م، إذ أنشأ البرلمان (مجلس الشعب) عام ١٩٧١ م، وعيّن جميع أعضائه تعيناً، وأسّس الجبهة الوطنية والتقدمية^(٢) عام ١٩٧٢ م، التي اعتُبرت صيغة من صيغ تشريع التعددية السياسية التي ضمّت جميع الأحزاب السياسية المتحالفة مع البعث واعترفت بميثاق الجبهة الذي أقرّ بقيادة البعث الدائمة لها، علماً أنّها لا تملك تأثيراً جوهرياً في صنع القرار، وإنّما دورها تثقيفيّ فحسب، بمعنى أنّ الرئيس يقوم بشرح سياسته ليحصل على التأييد والتصديق من خلالها.

(١)- القبسيات: جماعة دعوية نسائية بدأت في سوريا وانتشرت خارجها كذلك. أسستها منيرة قبسي، وهي سورية الأصل كانت من مدرسة مفتي سوريا أحمد كفتارو، وهو الذي أشار عليها بالدخول إلى هذه الطريقة الصوفية ثم انتشرت إلى دول أخرى مثل الخليج العربي واليمن وأوروبا وأميركا وأستراليا. وفي لبنان برزت سحر حلي فصرن يعرفن فيما بعد باسم السحريات، وبالطبايعات في الأردن وذلك نسبة إلى فتاة تدعى فادية الطباع. وهذه التسميات تصدر من خارج الجماعة..

(٢)- الجبهة الوطنية التقدمية: هي ائتلاف مكون من مجموعة من الأحزاب الوطنية والقومية الاشتراكية والشيوعية في سوريا بقيادة حزب البعث العربي الاشتراكي، ينضوي تحت الجبهة الأحزاب والتنظيمات التالية:

- ١- حزب البعث العربي الاشتراكي: وهو قائد الجبهة وأمينه العام يرأس القيادة المركزية للجبهة (عضو مؤسس).
- ٢- حزب الاتحاد الاشتراكي العربي، ٣- الحزب الشيوعي السوري «بكدش»، ٤- الحزب الشيوعي السوري (الموحد) «فيصل»
- ٥- حزب الوجدوين الاشتراكيين، ٦- حركة الاشتراكيين العرب، ٧- الحزب الوجدوي الاشتراكي الديمقراطي
- ٨- حزب العهد الوطني، ٩- حزب الاتحاد العربي الديمقراطي، ١٠- الحزب السوري القومي الاجتماعي.
- ١١- الاتحاد العام لنقابات العمال، ١٢- الاتحاد العام للفلاحين.

ثم أعلن دستوراً جديداً عام ١٩٧٣م، عدل بموجبه الدستور المؤقت لعام ١٩٦٩م، الذي كان يربط السلطات التشريعية بالوزارة، فجرى تعديله لكي يصبح النظام رئاسياً^(١).

٣- قام المجرم المقبور حافظ الأسد فور انقلابه باعتقال رفاقه من الضباط الذين ساعدوه وساندوه في انقلابه الأول فأعدم بعضهم وغيب بعضهم الآخر في السجون حتى لا قوا حتفهم هناك، فأرسل بذلك إشارات واضحة لكل من يفكر بمعارضته أو مناهضته موحياً بتصفيتهم والخلاص منهم.

٤- لبس المجرم المقبور لباس الدين والتقوى بخطابات دينية منمقة، تُظهر شعوره القوي بمسؤوليته كإمام عادل، وأب راعٍ وأم حنون، وكأنه الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عن سيدنا عمر) وقد ظهر من جديد ليعيد الحق إلى نصابه، ويأمن الضعيف تحت حكمه، حيث انفتح على الشعب السوري وقام بجولات في المحافظات السورية ليلتقي بأهلها الذين قابلوه بكل سعادة وسرور وترحاب بعد أن خلصهم من زمرة اليساريين الماركسيين (صلاح جديد ورفاقه)، وكذلك انفتاحه على الجامعات واللقاء مع طلابها والسماح لهم وتوظيف من يريد منهم في الوظائف الحكومية.

فاستطاع الأسد بذلك استيعاب عدد كبير من رجال الدين الذين لا تهمهم إلا سلامتهم الشخصية والحفاظ على مصالحهم الخاصة ومناصبهم التي منحهم إيّاها مقابل الوقوف في صفه وتبرير أعماله وإجرامه باسم الدين والأمن والإصلاح.

وهكذا حتى إذا ما استقرت له الأمور واطمأن الناس لحكمه وانشرحوا للمسير تحت ظلال سلطانه، رفع سيفه الغادر وسلّ خنجره المسموم، وبدأ يجرّ رقاب معارضيه والمناهضين لحكمه، وأدخل البلاد والعباد في نفق مظلم لا يعلم منتهاه إلا الله.

٥- وضع المجرم يده على الجيش بكل أركانه وقواعده، وبدأ بتسريح الضباط الأكثر خطورة عليه - حسب نظرته وتفكيره- مهما كانت طائفتهم، ثم تفرّغ إلى الضباط السنة الذين قد يفكرون في الانقلاب عليه في يوم من الأيام، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل أمر بإقامة الدراسات الأمنية لكل أفراد الجيش (عناصر وقادات)، ثم اتخذ الإجراءات بما يتناسب مع المسير الطائفي الذي يسير إليه في تحقيق أهدافه.

(١)- زيادة، رضوان زيادة، السلطة والاستخبارات في سورية، (ص ٦٠).

وبهذه الخطوة قضى على أكثر من ٨٠٪ ممن قد يفكر بمعارضته والعمل ضده.

وقد تمّ تسريح الضباط على ثلاثة مراحل، بدأت بالضباط الذين يشكلون عليه خطراً واضحاً، ثم إلى أمثالهم من ضباط الطوائف الأخرى من الدروز والاسماعيليين والمسلمين السنة، ثم انتهت بتسريح ضباط من الطائفة النصيرية الذين لا يوالونه ولا يحسبون عليه.

وكلّ هذه الأعمال كانت بتخطيطه وتنفيذ القيادة العليا للجنة العسكرية البعثية التي شكّلت بسرية تامة في مصر عام الانفصال ١٩٦٠م من الأعضاء المقربين منه يومئذ، وهم: [حافظ أسد (علوي)، محمد عمران (علوي)، صلاح جديد (علوي)، أحمد المير (إسماعيلي)، عبد الكريم الجندي (إسماعيلي)].

وهؤلاء كانوا أول من وقعوا في شركه وانقلب عليهم فأوقع بهم واعتقلهم بتهمة الخيانة فأودعهم السجون حتى أنهى بعضهم سياسياً وأمات بعضهم في السجون.

٦- بعد استلام حافظ أسد الحكم في سوريا رافعاً راية ولواء حزب البعث العربي الاشتراكي وتحت قيادة الثورة الحزبية التي نظمت القوانين الحاكمة بما يتناسب مع تحقيق أهدافها، ثم بعدما تخلص من رفاق دربه الذين ساعدوه في الوصول إلى سدة الحكم عمد إلى إعادة كتابة الدستور من جديد، ثم هيكلة المؤسسات الدستورية والتشريعية والقانونية بما يضمن صلاحياتها ضمن دائرته وتحت إشرافه، وكذلك الحال في المجالات المدنية المختلفة ضمن أطر النقابات والاتحادات والمنظمات والجمعيات العاملة لتصبح ذراعاً للدولة بطريق غير مباشر تمارس نشاطها بما يخدمه ومشروعه، ومنه الزام الجميع بالمسار الحزبي وما يتبعه من فروع ذات صلة ابتداءً من طلائع البعث لمرحلة التعليم الأساسي، مروراً بالشبيبة لطلاب المرحلة الإعدادية، ثم الانتظام الحزبي في المرحلة الثانوية والجامعية، فضلاً عن المعسكرات والدورات ذات الصلة بالشأن الحزبي مع المرغبات المادية والمعنوية ومنحهم المراتب الوظيفية والفروع الجامعية التي يحرم منها أصحابها الحقيقيون لعدم انصياعهم، أو عند إعراضهم لتلك الأوامر والعروض.

كل ذلك ليكون المجتمع بما فيه والدولة بمن فيها جدران حماية لهذا النظام الطائفي المجرم، ليصل بعدها إلى مرحلة القائد الأوحدي الذي حصر الكثير من المسؤوليات به وحده وذلك من خلال تشريعات وداستير وقوانين نافذة، منها:

"فهو رئيسُ الجمهوريّة، صاحبُ الصّلاحيّات الرئاسيّة الواسعة.

وهو الأمينُ العامُ لحزبِ البعثِ العربيّ الاشتراكيّ الذي يعطيه الدُّستورُ في مادته الثامنة الحقّ في قيادة الدّولة والمجتمع.

وهو القائدُ العامُ للجيش والقوات المسلّحة وفق المادة / ١٠٣ / من الدُّستور.

وهو رئيسُ القيادة المركزيّة للجهة الوطنيّة التّقدميّة.

وهو من يضعُ السّياسة الخارجيّة للدّولة، ويشرفُ على تنفيذها بالتّشاور مع مجلس الوزراء.

وأما صلاحيّاته: فتتجاوزُ الصّلاحيّات التّنفيذيّة إلى التّشريعيّة، ذلك أنّه يملكُ حلّ مجلسِ الشّعبِ (المادة ١٠٧).

وهو من يملكُ ردّ القوانين (المادة ١٠٨ من النّظام الدّاخلي لمجلس الشعب).

وهو من له الحقّ أن يعيّن نائباً له أو أكثر ويحدّد اختصاصاتهم ويعفيهم من مناصبهم.

وهو من يُعيّن رئيسَ مجلسِ الوزراء ونوابه والوزراء وإعفاءهم من مناصبهم (المادة ٩٥).

كما له إعلانُ حالة الحرب (المادة ١٠٠)، وإعلانُ حالة الطوارئ وإلغائها (المادة ١٠١).

وهذا يعني أنّ كلّ مؤسسات الدّولة في النّظام الرّئاسيّ الأسدّي تتمركزُ صلاحيّاتها دستورياً وقانونياً وفعلياً بيد رئيس الدّولة^(١).

٧- أعلنَ حافظُ الأسد "حالة الطوارئ" في كاملِ الأراضي السّوريّة بموجب الأمر العسكريّ رقم / ٢ / الصّادر عن المجلس الوطنيّ لقيادة الثّورة بتاريخ ٨ / ٣ / ١٩٦٣ م، والذي يبيحُ للأجهزة الأمنيّة بكلّ فروعها سلطات واسعة وصلاحيّات كبيرة فرضت قيوداً على الحريّات الشّخصيّة والسّياسيّة والإعلاميّة وكَمّمت الأفواه وصادرت الأفكار وأبعدت العقول عن أماكن التأثير.

كما أصدرَ قانون "مكافحة أهداف الثّورة" بالمرسوم التّشريعيّ رقم / ٦ / بتاريخ ٧ / ١ / ١٩٦٥ م، من أجلِ القضاء على كلّ من يشعر بخطرته تجاه حزبه ومشروعه الطّائفي.

(١)- زيادة، رضوان زيادة، السلطة والاستخبارات في سورية، (ص ٧٥).

ولم يكتفِ بذلك فقد أصدر قانوناً بإحداث المحاكم الميدانية العسكرية بالمرسوم التشريعي رقم ١٠٩ / بتاريخ ١٧ / ٨ / ١٩٦٨ م، وهو ما يُعتبر من القوانين الاستثنائية التي تلجأ إليها الدول لتصفية الخصوم تحت ذرائع الأمن وغيرها.

وكذلك فقد أصدر قانوناً لاستحداث إدارات أمن الدولة بالمرسوم التشريعي رقم ١٤ / بتاريخ ١٥ / ١ / ١٩٦٩ م، بفروعها المختلفة وصلاحياتها الواسعة وإطلاق يدها في كل ما من شأنه أن يضمن الأمن والاستقرار له ويُبعد الخوف والخطر عنه حسب زعمه، مع ضمان حماية أفراد ومسؤولي تلك الأجهزة من المساءلة والمحاكمات القضائية ومنع ملاحقتهم في حال تورطهم بالجرائم والتعذيب والفساد، وقد جاءت هذه الحماية ضمن المادة رقم ١٦ / والتي تنص على:

"لا يجوز ملاحقة أي من العاملين في إدارة أمن الدولة عن الجرائم التي يرتكبونها أثناء تنفيذ المهمات المحددة الموكلة إليهم، أو في معرض قيامهم بها إلا بموجب أمر ملاحقة يصدر عن المدير". وهذا يعني مزيداً من التسلط والقهر والابتزاز والإجبار الذي تمارسه أجهزة الأمن على الشعب السوري بكل فئاته، حتى باتت سوريا دولةً بوليسيةً تحكمها عصابات ومافيات مجرمة لا تعرف مبدأً ولا تلتزم قيماً ولا أخلاقاً.

٨- بالتزامن مع تسريح الضباط المناوئين للحكم الأسدي فقد شجّع أبناء الطائفة النصيرية على الالتحاق بالكتليات الحربية والجوية والأمنية المهمة التي تضمن سلامة وجوده واستمرار حكمه، مع تقديم جميع التسهيلات اللازمة لهم في الوقت الذي يتم فيه رفض شباب الطوائف الأخرى وخاصةً شباب الطائفة السنّية بذريعة الضرورات والدراسات الأمنية (حسب خطتهم)، مع توفير الكفاءة اللازمة فيهم.

وبهذه الخطوة أحكم سيطرته على الجيش، وأحكم قبضته على البلد، وضمن زيادة الرتب العسكرية في طائفته وإنقاصها من بقية الطوائف الأخرى.

ثم عمد المجرم حافظ الأسد إلى تشكيل كتل عسكرية خاصة باسم الجيش والأمن لحماية الدولة والأمن القومي، ولكنها في الحقيقة كانت لحمايته وطائفته، وأخذ لها أسماءً وطنيةً بامتياز: (سرايا

الدِّفاع، سرايا الصِّراع، الحرسُ الجمهوري^(١)، واختُصَّتْ بامتيازاتٍ خاصَّةٍ عن غيرها من قطع الجيش وكنيَّاته، فضلاً عن تسهيل أمور سُكناهم وإقامتهم في أماكن خدمتهم بما يحقِّق التَّوازن السُّنِّي العلوي في توزيعهم على المحافظات المهمَّة بما يخدم مصالحهم في التَّغير الديمغرافي الذي يسعون إليه والذي من خلاله يتمكَّنون من بسط نفوذهم وسيطرتهم على البلد ومفاصله.

٩- من الجدير بالذِّكر في هذا المجال أنَّ الطَّائفة السُّنِّيَّة كانت من الأثرياء ومُلاك الأراضي وأصحاب الأموال الذين يعملون في مجالات الصِّناعة والتِّجارة، والذين يعتبرون الدُّخول في سلك الجيش من المهن الرِّخيصة التي لا تليق بأبنائهم، وتعتبر الكليَّة العسكريَّة كما وصفها باتريك سيل "مكاناً للكسالى أو المتمرِّدين أو المتخلِّفين أكاديمياً أو المغمورين اجتماعياً، وقليلٌ من شباب العائلات الشَّهيرة الذين يفكِّرون في الالتحاق بالكليَّة (العسكريَّة)، إلا في حالات فشلهم بالمدارس أو طردهم منها".

وثمة عامل آخر اجتماعيٌّ اقتصاديٌّ ساعد في إبراز التَّمثيل القويِّ لأعضاء الأقليَّات في الجيش السوريِّ، ألا وهو: أنَّه بالنِّسبة للكثير من أهل المناطق الرِّيفيَّة الفقيرة (حيث كان يعيش معظم أفراد الأقليَّات) قدَّم السِّلْك العسكريِّ واعتبره فرصة جيِّدة لتسلُّق السُّلَّم الاجتماعيِّ والتَّمتُّع بحياة أكثر رفاهية عن تلك التي يوقِّرها القطَّاع الرِّاعي" وقد شكَّل هذا الحافز أهميَّة أقلَّ بالنِّسبة لسكَّان المدن الكبرى ومعظمهم.

وأخيراً، فإنَّ سكَّان المناطق المدنيَّة كثيراً ما بدا لهم الأمرُ أيسرَ في تجنُّب الخدمة العسكريَّة عن أمثالهم بالمناطق الرِّيفيَّة، وذلك عن طريق سدادهم لرسوم الإعفاء من الخدمة^(٢).

وفي نفس الوقت الذي كانت فرنسا داعمةً للأقليَّات العلويَّة والدِّرزيَّة والاسماعيليَّة ومشجَّعةً لهم على الانخراط في صفوف الجيش والارتقاء في رتبها العسكريَّة، فضلاً عن إتاحة فرص العمل لهم التي يحتاجونها لكفاية أُسرهم، فالجيشُ وظيفهُ الفقراء حسب زعم الطَّائفة السُّنِّيَّة آنذاك.

(١)- سرايا الدفاع: كانت قوَّة شبه عسكريَّة في سوريا تولى قيادتها رفعت الأسد. وكانت مهمتها الدفاع عن حكومة الأسد والعاصمة دمشق من هجوم خارجي أو داخلي. في ١٩٨٤م، تمَّ دمجها في الجيش العربي السوري تحت اسم الفرقة الرابعة والحرس الجمهوري بالإضافة إلى الفرقة المجوقلة التي تتكون من خمسة أفواج قوات خاصة.

(٢)- د. نيقولاس فان دام، الصراع على السلطة في سوريا، مكتبة مدبولي، القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٩٩٥م، (ص ٥٠).

وهكذا استطاع النصيريون أن يتغلغلوا في صفوف الجيش مع بعض الأقليات الأخرى ويُمسكوا بمفاصل الحكم والدولة ويتحكموا فيها، فيدخلون من يريدون من طائفهم ويرفضون من يريدون من بقية الطوائف الأخرى حتى غدت سوريا وكأنها مزرعة لهم.

١٠- وضع المجرم المقبور حافظ الأسد يده على السلك التعليمي، فأمسك بوزارة التربية والتعليم وأخضعها للدراسات الأمنية التي تناسب حكمه، فقام بتسريح المدرسين ذوي التوجه الإسلامي وإحالة بعضهم إلى وظائف مدنية هاشية تبعدهم عن أي نشاط ديني، وتحد من تأثيرهم فيمن حولهم من الناس، مع الإحياء لهم بأنهم تحت المراقبة والمتابعة، وتحت المساءلة القضائية والأمنية لأي نشاط محظور (كالفكر الذي يحملونه ويؤمنون به، وهو ما كان بين عامي ١٩٧٠ م - ١٩٨٠ م).

١١- قام المجرم حافظ الأسد بعد تسريح المدرسين ذوي التوجه الإسلامي الأصلي باستبدالهم بوكلاء ومعلمات من الطائفة النصيرية (إذ إن بنات السنة آنذاك لم يكن معدّات للتدريس خارج مدنهم)، وهنا وقعت الكوارث الكبرى حيث تحولت المدارس إلى مسارح لعروض الأزياء فتنت الكثير من المدرسين، وأفسدت أخلاق الطلاب الذين لم يترثوا على ذلك، فوقع الكثير بالمحظور و هووا في مستنقعات الفجور، وفشل الكثير في دراستهم، وقد كان هذا سبباً كبيراً في تجهيل أبناء السنة وتركهم للتعليم حتى نشأ جيل قوامه الجهل والفساد في الوقت الذي حظي الطالب النصيري بكل الامتيازات المدرسية التي تؤهله لدخول الجامعات والكليات بكل أشكالها وجميع فروعها.

١٢- قام بالتضييق على الشباب السني بكل مستوياته من خلال التغيي بالأمن القومي، والحفاظ على سلامة وأمن البلد من الإرهاب وأدواته، فأصدر قانوناً يُجيز له القضاء على كل خصومه من الأكثرية السنية: (قانون ال ٤٩ الذي يقضي: بالإعدام على كل من ينتمي إلى تنظيم الإخوان المسلمين)، وهذا ما مكّنه من إعدام عشرات الآلاف من حملة الشهادات الجامعية، وهروب الآلاف منهم إلى خارج البلاد حفاظاً على أرواحهم، ومما أسهم في إنجاح خطته هذه في القضاء على خصومه هو ما مارسه من الرّخم الإعلامي المزيّف عليهم وعلى جماعة الإخوان المسلمين، وجلبهم من الأطباء والمهندسين والأساتذة والمثقفين، فشوة سمعهم وأساء إلى فكرهم بعد أن غيهم في السجون ولم يستطع أحد أن يدافع عن نفسه وفكره، فانفرد بالتشويه والتلفيق والتزوير وقلب للحقائق، وبث السموم وزرع الفتن والأكاذيب والشائعات الرأفة في أذهان العوام، وحتى عند

أبناء المعتقلين وذرائعهم فضلاً عن بقية فئات الشعب، وذلك على مدى أربعة عقود من ضخ الأفكار الكاذبة ونسبها للإخوان المسلمين، وهذا ما كان له الأثر السيء في قلوب الناس الذين أساءوا الظن بالإخوان، وطعنوا بهم، واتهموهم بالغدر والخيانة، وأنهم سبب الوباء والبلاء على هذه الأمة، وأنهم عبارة عن شرذمة مجرمة أهلك الحث والنسل، في الوقت الذي لم يعلموا فيه شيئاً عنهم ولم يطلعوا على فكرهم وأسس منهجهم وأهدافهم وغاياتهم.

١٣- كما استفاد حافظ الأسد من الخلافات الداخلية بينية ضمن صفوف جماعة الإخوان المسلمين والتي قسّمتها إلى ثلاثة أقسام:

أ- الأولى: (الطليعة المقاتلة) وهي التي أسسها الشيخ مروان حديد^(١) (رحمه الله) والتي كانت تميل إلى العمل المسلح كوسيلة للخلاص من النظام النصيري الكافر، والذي لا يجوز السكوت عنه ولا الصبر عليه أكثر من ذلك.

ب- الثانية: (مكتب دمشق)، وكان يرأسه الدكتور عصام العطار^(٢) الذي كان صاحب كلمة وتأثير في العاصمة دمشق، لكنّه أبعد من سوريا إلى لبنان فترة من الزمن، ثم إلى ألمانيا، ومنع من العودة إلى دمشق، وهو ما أعاق من تأثيره المباشر على أعضاء جماعته، وكان الدكتور عصام ومكتب دمشق يميلون في أسلوبهم إلى التركيز على القاعدة الشعبية وتربيتها للاعتماد عليها، وأما بخصوص التعامل مع النظام الأسد فكانوا يتجنبون الصدام المسلح معه، ويتخذون موقف الحيطة والحذر اتقاء غدره ومكره واعتقاله لهم بأي ذريعة يمكن أن يستخدمها ضدهم.

٣- الثالثة: (مكتب حلب)، وكان برئاسة الشيخ عبد الفتاح أبو غدة^(٣) من حلب، ويبدو أنّه كان القسم المتبني من جماعة الإخوان والمعتز به في التنظيم العالمي للجماعة، والذي كان يرى أنّ الوسيلة الأنجع والأفضل أمام الظروف التي تعيشها سوريا هي الحوار للوصول إلى الغاية المنشودة مع هذا النظام الفاجر حتى لا تُجرّ الساحة السورية إلى مزيد من الدماء والأشلاء والخراب.

(١)- مروان حديد: (١٩٣٤ - حزيران ١٩٧٦) هو مؤسس وقائد حركة الطليعة في سوريا، اعتقلته المخابرات الجوية في ٣٠ حزيران سنة ١٩٧٥م بعد أن قضى عدة سنوات يتنقل في الخفاء هرباً منها، وتوفي في سجن المزة العسكري بعد سنة من اعتقاله في شهر حزيران سنة ١٩٧٦م.

(٢)- عصام العطار: داعية إسلامي سوري، ومراقب عام سابق لجماعة الإخوان المسلمين في سورية. ولد في عام ١٩٢٧ في أعقاب الثورة السورية، نفي إلى خارج سوريا مع عائلته التي تم اغتيالها في ألمانيا من قبل عصابات الأسد.

(٣)- عبد الفتاح بن محمد بن بشير بن حسن أبو غدة الخالدي الحلبي. ولد في مدينة حلب شمال سورية في ٩ مايو ١٩١٧م، في بيت ستر ودين، لحق بالرفيق الأعلى فجر يوم الأحد ١٦ فبراير ١٩٩٧م، عن عمر يناهز الثمانين عاماً.

أمام هذه الانقسامات الداخليّة استطاع حافظ الأسد الاستفادة منها في تشتيت صفوف خصومه، ودقّ أسفين الفرقة بينهم، وضرّهم بيدٍ من حديدٍ، وزجّهم في السُّجون وتصفيّتهم على حبال المشانق، وتهجير الباقي منهم.

وبهذه الخطوة ضَمِنَ القضاء على أهمّ وأخطر خصومه الذين أدركوا في وقتٍ مُبكّرٍ خطورة دينه ومذهبه ومنهجه، وتاريخ طائفته وآلية وصوله إلى ما وصل إليه من حكم البلاد والسيطرة عليها.

١٤- عمِلَ المقبورُ حافظُ أسد على تشجيع هجرة أبناء الطائفة النصيريّة من قراهم الجبلية إلى المدن وتوزيعهم على كلّ المحافظات المهمّة وتسهيل توظيفهم في مفاصل الدولة وتأمين السكّن العائليّ لهم من خلال بناء تجمّعات سكنيّة في أغلب المحافظات السوريّة التي تخدمهم (كطائفة) لا تملك فيه سكناً ولا حقّ لها فيه، فأنشأ الضّواحي والتجمّعات السكنية مثل ضاحية الأسد في دمشق، ومساكن الضباط في القطيفة، وغيرها كثير.

وبهذه الخطوة ضَمِنَ تمكينهم من أرضٍ غيرهم، فأصبحوا من السُّكان الأصليين فيها، ينازعون أهلها على أملاكهم دون أن يكون للآخرين حقّ الرّدّ أو الاعتراض.

١٥- فتَحَ المجرمُ المقبورُ المؤسسات العامّة بكلّ مجالاتها، والهيئات والشركات بكلّ ميادينها، والكليات الجامعيّة بجميع فروعها، والأكاديميّات العسكريّة والفنيّة بكلّ اختصاصاتها أمام شباب الطائفة النصيريّة للتوظيف المدني والعسكري والخدمي ولو لم تتوقّر فيه الكفاءة والمؤهلات، مع قطع الطريق والتضييق على الشباب السنيّ في الحصول على أيّة وظيفة ولو توقّرت الكفاءة والمؤهلات، وهو ما دفع أبناء السنّة للتّوجه للأعمال الحرّة أو السّفر والهجرة لتأمين ما يكفهم من لقمة العيش لهم ولعوائلهم.

١٦- أسرَعَ بالسيطرة على مفاصل الاقتصاد والتجارة في البلد ووضّعها في أيدي بعض المتنقّذين من الضباط الأقارب، مع التضييق على الشركات المناهضة ورجال الأعمال المنافسين، ومنع البعض من العمل الاستثماري إلا بدفع الإتاوات أو الشراكات المشروطة وضمن أعمال ومشاريع محدودة، وبهذه الخطوة ضَمِنَ احتكار المؤسسات التي تضمن له الربح الفاحش مع عدم دخول المنافسين الذين قد ينازعونهم الأمر.

كما ضَمِنَ تجميعَ ثرواتِ البلادِ في أيدي طائفته وتحت تصرفها، فأصبحَ الشعبُ السوريُّ بينَ طبقتين: إمَّا رجلُ أعمالٍ يملكُ الثروةَ الكبيرة، وإمَّا عاملٌ بسيطٌ فقيرٌ يحتاجُ لمن يُشغله كي يحصلَ على قوتِ عياله.

١٧- أصدرَ تشريعاً جديداً ومرسوماً يُمكنُ فيه لأهل طائفته من اغتصاب الأراضي وامتلاكها بموجب قانون الإصلاح الزراعيّ تحت عنوان: (الأرض لمن يعمل بها) ^(١)، وبذلك فتح المجال لكلِّ مَنْ يريد العملَ في الأراضي الزراعيّة بوضع أيديهم على أملاكٍ ليست لهم، ولن يستطيع أحدٌ إخراجهم منها.

١٨- فتحَ المجرمُ حافظُ الأسدَ البنوكَ أمامَ الطائفةِ النصيريّة بكلِّ أشكالها التجاريّة والصنعيّة والزراعيّة وغيرها، وحتى ما يُسمّى بقروض البطالة، وتأمين كافة التسهيلات في الدّفع والإعفاء منها ومن أرباحها، وتمكينهم من إقامة المشاريع المختلفة واستصلاح الأراضي الزراعيّة والعمل فيها، بل وامتلاكها تحت غطاءِ قانونِ الإصلاح الزراعيّ (الأرض لمن يعمل بها)، وبذلك أصبحَ الكثيرُ منهم من أصحاب المشاريع والأموال التي تمكّنهم من خوض المجالات الحياتيّة الأخرى والدُخول في سلك المنافسات والاستثمارات المختلفة، مع حرمان الطرف الآخر من كلّ ذلك للمحظورات الأمنيّة المزعومة من جهة، وللمخالفة الشرعيّة التي يعتقد بها أهلُ السُّنة من جهةٍ أخرى (المسلمُ يحرمُ التّعاملَ بالبنوك الربويّة).

١٩- إنّ من أخطر الأمور التي تميّز بها الطائفة النصيريّة أنّ المرأةَ عندهم هي للمتعة فقط، ولا حرج في أن تجالسَ وتخالطَ وتمازحَ وتجانسَ مَنْ تريدُ وتصاحبَ مَنْ تشاءُ، فلها كلّ الحقّ في ذلك وغيره، وهذا كان له الأثرُ السيّئُ على كثيرٍ من أبناء السُّنة الذين انحرفوا ووقعوا في مستنقع الرذيلة والفساد، وكذا كثيرٌ من القدامى فقدوا أراضيتهم عندما وقعت في أحضانهم النساءُ وخسروا أموالهم مقابلَ قضاءِ شهواتهم بنساءٍ بعنّ فروجهنَّ لكسبِ المالِ وإفسادِ الرجالِ ونشرِ الرذيلة والانحلال.

٢٠- لعلَّ من أعظم الأمور خطورةً في المأساة السوريّة التي نعيشها اليوم واقعاً مريعاً هو التّقاربُ مع إيرانَ صاحبة المشروع الصّفويّ، وبناء الجسور فيما بين البلدين من تبادلِ الخبرات العلميّة،

(١)- وهو قانون صدر أيام الوحدة بين سوريا ومصر، القانون ١٦١ لعام ١٩٥٨م قانون الإصلاح الزراعي، وبعدها قام المقبور بإعادة تطبيقه في سوريا أيام انقلاب البعث وما بعده.

وإرسال البعثات الطلابية من وإلى مدينة (قُم) ^(١) الإيرانية، ليعودوا بعدها مدرّسين للتربية الدينية ومشايخ بدلاً من الخطباء والعلماء والدعاة الذين تمّ عزلهم للضرورات الأمنية، إلا من أصغى لأوامرهم وكان بوقاً من أبواقهم يُشرعن لهم الأحكام الجائرة، ويُسوّق لهم الفتاوى بالمقاس الذي يريدونه، وقد زادت أعداد أولئك المشايخ عندما أدخلوا الكثير من شباب الطائفة النصيرية إلى كلية الشريعة في مدينة دمشق، ومنهم من حاز درجة الماجستير والدكتوراه في الشريعة والدراسات الإسلامية.

وبهذه الخطوة استغنوا عن الدعاة الصادقين والعلماء المخلصين، وتخلّصوا منهم، وضمّنوا خطاباً جديداً يسبّح بحمدهم ويلهج بذكرهم ويُسوّق لحكمهم وبما يناسبهم وطائفتهم.

٢١- فتح المجال أمام طلاب الطائفة النصيرية للدخول في كلية الشريعة والدراسات الإسلامية في دمشق هذه المرة، وشجّعهم على ذلك مع تقديم التسهيلات اللازمة لهم من سكنٍ ونفقةٍ وغيرها، وبذلك يكون قد مهد لمرحلة مستقبلية تكون الواجهة الدينية كلها من أبناء الطائفة النصيرية إلا من بعض الشخصيات السنيّة الموالية له، والتي من المصلحة أن تبقى في الواجهة الدينية كغطاءٍ مصلحيٍ لخلط الأوراق في تركيبة الحكم الطائفي، ومن تلك الشخصيات: (محمد سعيد رمضان البوطي / دمشق) ^(٢)، (أحمد كفتارو / دمشق) ^(٣)، (أحمد حسون / حلب) ^(٤)، (محمود العكام / حلب) ^(٥)، (عصام المصري / حمص) ^(٦)، (الخنزوي / الجزيرة) ^(٧).

(١)- مدينة (قُم): هي إحدى مدن إيران والتي تعتبر الحوزة العلمية، فيها المركز العلمي الديني للشيعة بعد النجف. تقع على بعد ١٥٧ كم جنوب العاصمة طهران. وتوجد بالمدينة العديد من المزارات الدينية أهمها مرقد فاطمة المعصومة بنت موسى الكاظم.
(٢)- محمد سعيد رمضان البوطي: ولد عام ١٩٢٩، عالم سوري، أثار موقفه من الثورة السورية ودعمه لنظام بشار الأسد وقوفه معه على ظلمه وفجوره جدلاً واسعاً، وتم اغتياله بتفجير في مسجد الإيمان في دمشق مساء الخميس ٢١ آذار ٢٠١٣ م.
(٣)- أحمد أمين كفتارو: المولود في دمشق عام ١٩١٢ م، انتخب مفتياً عاماً للجمهورية العربية السورية ورئيساً لمجلس الإفتاء الأعلى ١٩٦٤ م، توفي يوم الأربعاء ٠٩/٠٩/٢٠٠٤ م، كان من الداعمين لنظام الأسد الأب والابن على ظلمه وإجرامه.
(٤)- أحمد بدر الدين حسون: ولد في حلب سنة ١٩٤٩، مفتي سوريا الأخير، عين مفتياً لحلب العام ٢٠٠٢ م، وهو عضو مجلس الافتاء الأعلى في سوريا، كان له دور سيء جداً في الثورة السورية ولا يزال، في دعمه للنظام النصيري منذ فترة الأسد الأب وإلى ابنه بشار.

(٥)- محمود عكام: ولد في حلب ١٩٥٢ م، مفتي محافظة حلب، له دور سيء في الثورة وساهم في تثبيت نظام الأسد النصيري والدفاع عنه.

(٦)- عصام المصري، وهو عضو مجلس شعب سابق، عُيّن رئيساً للمديرية عام ٢٠١٤ م، وهو يلعب اليوم دور الوسيط بين الأجهزة الأمنية والخطباء ويملي تعليمات النظام الأمنية على المؤسسة الدينية، وتم عزله أخيراً من المديرية.

(٧)- الخنزوي: من مشايخ الطريقة الخنزوية، ولعل من أشهرهم محمد عز الدين الخنزوي الذي توفي عام ٢٠٠٥ م، ونجله محمد مطاع، يعرف بدعّمه لنظام الأسد المجرم في ظلمه وفجوره.

(محمد السيد / طرطوس) ^(١).

٢٢- أطلق يد أخيه المجرم رفعت الأسد من خلال تمكينه في السلك العسكري وتشكيله لسرايا الدفاع والصراع وغيرها التي تفرض سياسة القمع وكبت الحريات وانتهاك الحرمات والتي تجلّى منها ما حدث من نزع الحجاب للنساء في شوارع دمشق على يد الشبيحات ^(٢) (المظليّات) اللاتي تمّ تدريبهنّ من أجل استخدامهنّ لتحقيق مقاصد الحزب والطائفة، إلا أنّ محاولاتهم في نزع حجاب الطاهرات باءت بالفشل آنذاك، لكنّها (سياسة نزع الحجاب) عن الطالبات في المدارس بقيت إلى فترة متأخرة من تاريخ حكم المقبور حافظ الأسد.

٢٣- قام المقبور حافظ الأسد بخطوة قد تكون من أخطر الخطوات في دمج النصيريين ضمن الهوية السنيّة في سوريا على المدى البعيد، حيث أسند إلى أخيه جميل أسد مهمّة القيام ببناء المساجد والحسينيّات في القرى النصيريّة وبعض المدن والقرى السنيّة ونشر المذهب الجعفريّ فيها بعد أن أسس (جمعية المرتضى) في بلدة بستان الباشا من ريف اللاذقية، لتكون غطاء لهم في دعوتهم ونشاطاتهم الدينيّة على مستوى البلد كلّ، وقد برز الدور الكبير لهذه الجمعية بما قدّمته من منح مجانيّة للحجيج من الشخصيات والمشايخ والوجهاء السنة، وتبادل اللقاءات والزيارات الدورية إلى مركز الجمعية ورئيسها جميل أسد لتكون المرجع الدينيّ الرئيس مع تقديم الهدايا والعطايا الماليّة للرّائين وللنّشطاء في مراكز الجمعية في المحافظات السّورية.

٢٤- لم يقتصر أذى وإجرام نظام الأسد على أهل سوريا فحسب، بل تعدّى إجرامه إلى البلدان المجاورة وقتل أبناءها خدمة للصهيانية وحمايةً لأنهم، وخير دليل على ما قدّمه حافظ المقبور من خدمات لليهود وقتل عشرات الآلاف من أبناء المخيمات الفلسطينية في لبنان عام ١٩٧٦م وخاصة مخيم تل الزعتر، وتشريد عشرات الآلاف منهم، وإغلاق العمل الفدائي ضدّ الكيان

(١)- عبد الستار السيد: ولد في مدينة طرطوس عام ١٩٥٨. يشغل حالياً منصب وزير الأوقاف لدى النظام منذ عام ٢٠٠٧م، له الدور الأكبر في الدفاع عن النظام المجرم ودعمه في ظلمه وفجوره.

(٢)- الشبيحة: هذا المصطلح لم يكن معروفاً من قبل، وإنما ظهر في فترة تسعينيات القرن الماضي من حكم الأسد الأب، وقد أطلق على عصابات من الساحل السوري تنتمي للطائفة النصيرية عامةً ومن آل الأسد وأقربائهم خاصةً. وهؤلاء غالباً ما كان يمتلكون أفضل أنواع السيارات آنذاك (سيارات الشبح)، ومنها جاء هذا المصطلح، وقد كان الناس يهربون من أماكن تواجدهم أو الأماكن التي يمكن أن يمرّوا بها حتى يتجنّبوا شرورهم وإجرامهم، يعملون في تهريب المخدرات والحشيش والدخان وبقيّة الأنواع الممنوعة من البلدان المجاورة وخاصةً لبنان، من الطرق البرية والبحرية بعدما يُجبرون أصحاب الشاحنات من المدنيين على الذهاب إلى أماكن استلام البضاعة والمواد المهربة، وسأعرض للكلام عنهم لاحقاً.

اليهودي في لبنان، وتحويل أهل السنة في لبنان إلى أقلية نتيجة القهر والظلم الذي مارسه عليهم فترة احتلاله لها حتى تاريخ انسحابه عام ٢٠٠٥ م، ومازال الجولان شاهداً على خيانة هذا النظام^(١) وبيعته للأراضي السورية وتصرفه بها كيف يشاء وذلك عند انسحابه من معركة تشرين عام ١٩٧٣ م، وتخليهم عن أكثر من (٣٩) قرية، بعد ما سلم هضبة الجولان للصهيانية عام ١٩٦٧ م^(٢).

٢٥- انتهج المقبور حافظ الأسد سياسة تعظيم القائد الخالد بعدما استطاع أن يحكم قبضته على الشعب السوري بالحديد والنار، وأن يطوّعه كما يريد، فأنشأ جيلاً رباه على المبادئ الطائفية لباسي بعثي (ليعني بذلك أعين الموالين له من الطائفة السنية) وصنّعه على عينه بإشراف رجاله وزبائنه (فاستخف قومه فأطاعوه) حتى وصل بهم الأمر ليرفعوا له شعارات ترفعه إلى مستوى الألوهية مثل: (يا الله... حلك... خلي حافظ محلك) وكذلك (إلى الأبد يا حافظ الأسد) وغيرها من الشعارات التي تُنبئ عن مشروعهم الطائفي البغيض الدميم المنتظر.

كل هذه الشعارات أصبحت علنية جهاراً نهاراً مكتوبة بكل الأزقة والشوارع دون أن يستنكر سيادته بأي كلمة تدل على عدم رضاه بذلك (كون هذه العبارات تخص الذات الإلهية)، بل كان من الراضين بها والساكنتين عنها والمشجعين لها، وهكذا حتى إذا أخذ الله روحه القدرة (في ١٠/٦/٢٠٠٠ م) فأراح العباد والبلاد من شره، فتنقّس الناس الصّعداء، وأزيلت عنهم الهموم والغوم والكربات التي لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى.

إلا أن هذه الفرحة لم تدم طويلاً، فسرعان ما انبرى رجاله وزبائنه لتعديل الدستور وتنصيب ابنه بشار الأسد خلفاً له ولتبدأ مرحلة جديدة من القهر والإذلال والإجرام والإضلال.

(١)- النظام، وجيش النظام: عندما نطلق مصطلح النظام خلال أبحاث هذا الكتاب فإن المقصود به: هو النظام الأسدي المجرم بكل رموزه وشخصياته ومؤسساته العسكرية والمدنية التي ساندت حكومته الفاجرة ووقفت معها في ظلمها واستبدادها وقهرها للشعب السوري.

وأما جيش النظام فإنه يُطلق على القوات العسكرية والأمنية التي من المفترض أنها إنما وجدت لحماية الوطن والمواطنين، إلا أن هذا النظام الفاجر عمل على تصفية هذا الجيش من الطائفة السنية وبعض الطوائف الأخرى ليضمن الولاء الكامل لنظامه القمعي فاستخدمه في قتل الشعب المناهض له ولسياسته الاجرامية، ولذلك رأينا منذ بداية الثورة كيف انشق عن هذا الجيش كل من ملك من الضمير الإنساني والأخلاقي، ولم يبق معه إلا الموالين له، أو من تمّ سحبه للتجنيد الاجباري ولم يتمكن من الهروب والانشقاق، كما قد أضاف إلى المنظومة العسكرية الأجهزة الأمنية بكل أنواعها العسكرية والسياسية والجوية وغيرها من الفروع والتي تمّ تنظيمها أصلاً على أسس الطائفية والولاء التام.

(٢)- للاطلاع والاستزادة عن خيانة سقوط الجولان وبيعها الرجوع إلى كتاب: (سوريا في قرن)، د. منير الغضبان، (ص ٤٢٥).

٢٦- كان من الدَّهَاءِ والخَبْثِ في تعاملِ حافظ الأسد ونظامه الطَّائِفِيّ مع الشَّعب السُّوريّ أنّه عمل على إنهاء الطَّبقة الوسطى في المجتمع السُّوريّ ليضمنَ عدمَ منافسةٍ أحدٍ له مستقبلاً ويقطعَ الطريقَ أمامَ من يفكّر يوماً بالحكم والسِّياسة، وذلك من خلال إدراكه أنّ المجتمع فيه ثلاثُ طبقاتٍ اجتماعيّةٍ:

أ- طبقةُ الفقراء الذين لا يفكّرون إلا بلقمة عيشهم وكفاية أسرهم، وهؤلاء مضمونون بعدم الدُّخول في مضمار السِّياسة.

ب- طبقةُ الأغنياء الذين يجتمعون حول الحكام ويتقربون منهم بطبيعتهم ضمناً لأموالهم وحمايةً لشركاتهم وممتلكاتهم، وهؤلاء مضمونون أيضاً.

ج- الطبقةُ الوسطى التي تمتلك ما يكفها من مالٍ، ولا تخاف على شيءٍ لا تمتلكه، فهؤلاء عندهم متنسجٌ من الوقت والتفكير، ولا بدّ من قطع الطُّرُق أمامهم من خلال الضَّغَطِ عليهم وإبعادهم عن أمور السِّياسة وتخويفهم من الخوض في غمارها والاقتراب من مواضعها وشخصياتها بتهجيرهم خارج البلاد أو سجنهم أو قتلهم على أعواد المشانق.

ونتيجةً لذلك فقد مرّت سوريا في حقبة الأسد تصحُّراً سياسياً كبيراً تجلّى ذلك بوضوح في الثَّورة السُّوريّة المباركة التي عجز السُّوريُّون عن تصدير نُخبٍ سياسيّةٍ كفوءةٍ تديرُ دقّة الثَّورة وتمثلها بالمحافل الدَّوليّة بالشكل الذي يُلبّي طموحات هذا الشَّعب.

٢٧- سرقةُ النِّفط السُّوريّ الذي يصعبُ تقدير كمّيّاته والتي كانت تذهبُ تحت اسم المجهود الحربي ومكتب الرِّئاسة في الوقت الذي لا يُسمح لأحدٍ السُّؤال عنه ولا الاطلاع عليه، ولا يعرف أحدٌ مقدارَ ما تملك سوريا من الثَّروة النِّفطيّة وغيرها من الثَّروات الأخرى وعائداتها، ولم ينتبه الشَّعب السُّوريّ إلى ذلك إلا بعدما كُشف عن ثروة المقبور حافظ وابنه بشار وعمّه رفعت أسد في البنوك الغربيّة والأجنبيّة والتي قُدِّرت بمليارات الدولارات.

فكانت كلُّ هذه الكمّيّات النِّفطيّة والثَّروات الباطنيّة تذهبُ إلى حسابات تلك العصابة المجرمة في الوقت الذي يريخ ثلاثة أرباع الشَّعب السُّوريّ تحت خطِّ الفقر.

٢٨- عمَد المقبور حافظ الأسد إلى التَّقارب مع إيران طمعاً بالدَّعم المفتوح الذي يضمن النِّجاح لمسيرته والاستمرار في حكمه وتسلّطه على شعبه، كما جعلَ من إيران التي كانت تنظر إلى سوريا

بعينٍ واحدةٍ أصبحت الآنَ تنظرُ إلَها بكلي عينيها، بل أصبحت تنظر إلى سوريا على أنَّها إحدى أهمِّ محافظاتِها التي ستحقِّق فيها مشاريعَها وأطماعها، وستقيم فيها مؤسساتها الصَّفوية، وتبني فيها حسيْنِيَّاتها الشَّيعِيَّة، وهذا ما بدا واضحاً في أواخر عهد المقبور، وتجلَّى أكثر في عهد ابنه المجرمِ بشار، وظهرَ جلياً علنيّاً في الثَّورة السُّوريَّة عندما زجَّت فيها إيرانُ بعشراتِ الميليشياتِ المقاتلةِ متحصِّنةً بعشراتِ الآلاف من المقاتلين والمدافعين عن بشار وطائفته وانغماسهم في حربٍ ضروسٍ لا يعلم نهايتها إلا اللهُ تبارك وتعالى.

بهذه الخطوات التي قام بها حافظ الأسد على مدى أربعة عقود استطاع أن ينتقل بالسلطة في سوريا من حكمها تحت مظلةٍ وغطاءٍ حزب البعث العربي الاشتراكي إلى حكم الطائفة النُصيريَّة، ومنها إلى حكم العائلة الواحدة والقائد الأوحده، وجعل الحكم في عائلته من بعده، كما هو الحال اليوم.

المطلب الثالث: سوريةُ مزرعةُ الأسد:

بشار الأسد "بائع سوريا" عام ٢٠٠٠م:

بعد موتِ المقبورِ الهالكِ حافظِ الأسدِ واستلامِ ابنه المجرمِ بشار من بعده استبشَرَ الناسُ خيراً لعدم معرفتهم به كرجلٍ سياسةٍ، ولم يظنّوه إلا طبيباً يدرس في إحدى جامعات بريطانيا فيحسنُ المعاملة، ويُصلحُ ما أفسده والده عليهم، فيفرِّجُ عن أبناءهم المعتقلين عشرات السنين، ويعوِّضُ للمفقودين، ويُنصفُ المظلومين، ويُقدِّمُ العونَ للفقراء والمساكين، ويحاسبُ الحاكمَ والمذنبين، ويتابعُ الفسادَ والمفسدينَ وما إلى ذلك من الأحلام التي كانوا ينتظرونها بحسن ظنِّهم به.

وحتى على صعيد التَّعامل مع النُخب والعلماء فلم يتغيَّر تعامل بشار معهم بشكلٍ واضحٍ بدايةً، وإنَّما عمل على استيعاب علماء الدَّاخل الذين ما زالوا يشعرون بالخوف والقمع منذ عهد والده حافظ، لكنَّه فتح لهم قنواتٍ محدودةٍ ومضبوطةٍ وحاول من خلال حزب البعث الاقترابَ من التيارات الدِّينيَّة الموجودة التي أُسِّست منذ عهد والده مع تقوية العلاقة مع حركة حماس وحركة الجهاد الإسلاميِّ ومناصرته للقضيَّة الفلسطينيَّة تحت شعار المقاومة والممانعة، وفتح أبوابه لحزب الله اللبناني الشيعيِّ، الذي كان يأخذُ صورةَ الدِّينِ واجهةً ويرفع شعاراته ومناهضته للصَّهاينة والأمريكان تدليساً وتضليلاً، وبذلك استطاع أن يستوعب الكثير من العلماء ويُحيّد خطرهم المحتمل بطريقةٍ دبلوماسيةٍ بعيدةٍ عند العنف والقتال، مع فتح المجال أمام أحزاب

المجتمع المدني بدايةً وعلى حذرٍ شديدٍ وتحت المراقبة والتي لم تدم طويلاً حتى بدأ باعتقال قادتهم وأصحاب التأثير منهم وزجهم في السجون، وخاصةً بعد عام ٢٠٠٥م، وحتى انطلقت الثورة السورية المباركة فكانت نتيجةً للسياسات القمعية وتسلط الأجهزة الأمنية وتحكمها برقاب الشعب كما كان عليه الأمر إبان حكم والده المقبور، حيث سار على نهج أبيه وظلمه، بل وصل إلى مرحلةٍ أسوأ مما كان عليه والده وأشدَّ إجراماً وإفساداً منه في كلِّ المجالات.

وكان ذلك من الأسباب المباشرة لانطلاقة الثورة والعمل على إسقاطه، إضافةً إلى بعض الأسباب الأخرى التي تتجلى فيما يلي:

فعلى الصَّعيد الدَّاخلي:

فقد استشرى الفسادُ بكلِّ مجالاته، وانتشرت الرذيلةُ والمجونُ جهاراً نهاراً، فلا دور للمؤسسات والفعاليات العاملة المؤثرة؛ لأنَّها دولةٌ أمنيَّةٌ بوليسيَّةٌ بامتياز، دولةٌ عصاباتٍ مأكرةٍ ماصَّةٍ للدِّماء من خلال استخدام كلِّ أشكالِ القمع والاستبدادِ الفكريِّ وكمِّ الأفواه وانعدامِ الحرية والتعبير.

وانقسم الناس بين مُعلِّقٍ على أعواد المشانق أو مُعَيَّبٍ في غياهب السجون ليلاقي حتفه هناك، أو مَنْ قد فرَّ بنفسه وأهله خارج البلاد، ولم يبقَ في الواجهة الدِّينيَّة إلا من كان بوقاً من أبواقهم أو من تخرَّج في حوزاتهم وحسينياتهم ممَّن يسوِّق لهم إجرامهم ويشرعن لهم قوانينهم وقراراتهم، أو مَنْ كان غيرَ راضٍ بما يجري ولكنَّه لا يستطيع الكلام، فازداد الفسادُ فساداً والرَّذيلةُ رذيلةً وعمَّ ذلك بكلِّ أجهزة الأمن والدَّولة ومؤسساتها.

فغدا الفردُ السُّوريُّ لا يحصل على حقِّ له إلا بعدَ دفعِ الرِّشاوى والإتاواتِ الباهظة، فضلاً عن القضاء الذي غدا وكأنَّه سوقٌ بين الثَّعالبِ والدِّئاب، فالقاضي الذي حصل على شهادته برشوةٍ أو وشايةٍ يَقلِبُ الحقَّ باطلاً والباطلَ حقّاً، حتى عمَّ الظُّلمُ والفساد في المجتمع واستطار شره.

وأما على الصَّعيد التَّعليمي:

وأما على الصَّعيدِ التَّعليمي فحدِّث ولا حرجَ من أساتذةٍ اشتروا شهاداتهم من هنا وهناك ومدرِّساتٍ حصلنَّ على وظائفهنَّ من لحوم أجسادهنَّ في ليالٍ حمراءَ ماجنةٍ ولا حولَ ولا قوةَ إلا بالله.

فقد استفحل الفساد في المؤسسات التربوية فأصبحت أدوات ومطايا لخدمة الأفرع الحزبية والشخصيات النصيرية المتنقذة، وأصبح المعلم محط انتقاص واحتقار مالم يسبح بحمد الحاكم المجرم وعصابته، ويدرس طلابه حب الوطن والوطنية التي تعزز لحكم العصابة الأسدية المجرمة، حتى نشأ من أبنائنا جيل مشوه في فكره، منحرف في سلوكه وأخلاقه، يحيا لذاته، وشهواته ولذاته لا يعرف للعلم أي معنى سوى الوظيفة التي تحميه من الفقر والحاجة.

وهذا لا يعني أن لا ترى بعضاً من أبناء السنة في أجهزة الدولة القائمة، فالسياسة النصيرية المتبعة جعلت من حزب البعث مطية يحققون على أكتافه مشروعهم الطائفي، وعلى أكتاف المواليين لهم من أبناء السنة المضللين، وهم عن حقيقة ذلك غافلون، ولأبعاده جاهلون وفي سكرتهم سادرون.

وأما على الصعيد الاجتماعي:

وأما على الصعيد الاجتماعي فقد ساد الانحلال الأخلاقي في المجتمع، وتفككت الروابط الأسرية فيه من خلال زرع العملاء والمخبرين بين أفراد المجتمع الواحد والبيت الواحد، يخشى المرء أن يهمس في بيته بكلمة، معتقداً أن للجدران آذاناً يمكن أن تُحصى عليه كلامه.

وكذلك فقد عملوا وسعوا جاهدين من أجل تشويه العقيدة وحرف الأخلاق من خلال نشر الفاحشة في المجتمع وترويج المسلسلات الإباحية والأفلام الماجنة، وجعلها من البرامج المهمة في الحياة اليومية للفرد في مجتمعه بعد تهجير العقول والأدمغة والكفاءات العلمية والثقافية التي تزرع الوعي في عقول الناس وتحذيرهم مما يُحالك لهم.

وأما على الصعيد الخارجي:

وأما على الصعيد الخارجي فلم تتغير سياسة المجرم بشار عن سياسة أبيه القاتل، بل زاد أكثر في علاقاته الخارجية المشبوهة، علماً أنه لم يكن يملك من الدهاء والخبث السياسي الذي يملكه والده الماكر، وهذا ما أوقع البلد في متاهات عظيمة نحصد نتائجها الأليمة وثمراتها المرة في هذه الأيام.

فقد حافظ على حماية إسرائيل وحفظ أمنها وحدودها كما كان الأمر في عهد أبيه الهالك، بل فاقه في ذلك.

فلقد نجح في دعم الإرهاب وزعزعة الاستقرار في دول الجوار والتدخل في شؤونهم (لبنان وفلسطين).

كما نجح في توتر العلاقات مع أغلب الدول العربية والإسلامية، وأسقط الدولة السورية في ميزان المجتمع الدولي إلى أدنى مستوى يمكن لدولة أن تنزل إليه سوءاً وتخلفاً وفساداً.

ولم يفلح إلا بانفتاحه على إيران وارتمائيه في أحضانها، حيث فتح أمامها البلد لكل مشاريعها واستثماراتها ونشاطاتها المتنوعة، وبذلك أصبحت إيران التي كانت تنظر بعين واحدة على سوريا في عهد حافظ الأسد أصبحت الآن تنظر إليها بعينها على أنها (أي سوريا) محافظتها الـ ٣٥ /، فاستحكمت ببعض مفاصلها، فأقامت فيها الحوزات العلمية والحسينيات الشيعية، ونشطت السياحة الدينية للمراقد وشجعت البعثات إلى إيران (مدينة قم) لتخرج الدعاة الروافض والعودة بهم لنشر التشيع والدعوة إليه وأصبح ذلك من الوظائف الرسمية، تدرس المناهج الشيعية الصفوية تحت مسمى المذهب الجعفري بدايةً، ثم انتشرت اللطميات في أسواق المدن، وارتفعت الرايات الشيعية، وعلت الأناشيد والأهازيج التي تجهر بشتم الصحابة في الأحياء والساحات، وتمكن الإيرانيون من شغل مناصب مهمة في الدوائر الرسمية، وفُتحت أمامهم تجارة العقارات والاستثمارات بكل فروعها ومجالاتها، فأقاموا المستشفيات والنوادي واستولوا على مناطق بأكملها، حتى غدت سوريا وكأنتها محافظة إيرانية في صفتها، سورية في تسميتها.

• أمام هذا الواقع الأليم الذي يمر به الشعب السوري دون أن يجد متنقساً أو يرى بصيص أمل أو فسحة انفراج في المستقبل فيما يعيشه، كان أبناؤه أحد أصناف ثلاثة:

١- صنف غيب في السجون وتم تصفيته عشرات الآلاف منهم على أعواد المشانق وتحت التعذيب، والباقي في عداد المفقودين.

٢- صنف استطاع الفرار بنفسه خارج البلاد وابتعد عما يجري فيها، وبعضهم عمل على تقديم ما يستطيع لإخوانه في الداخل بالمجال الذي ينجح به ويتوفر له.

٣- صنف بقي في مناطق النظام المجرم، فسكت على ظلمه وسانده مستفيداً منه ومنفعة إعطائه (كالعميل المأجور)، وإما خائفاً لا يملك حولاً ولا قوة (يقبل اليد ويدعو عليها بالكسر) وهؤلاء ليسوا بالعدد القليل، يلتجئون إلى الله عسى أن يجعل لهم من أمرهم فرجاً ومخرجاً.

باختصار:

يمكن تلخيص الواقع السوري قبل الثورة بعبارات مختصرة تتمثل بتسلط العصابة الأسدية الطائفية وتحكمها في مفاصل الدولة المختلفة وممارسة الاستبداد بأنواعه والاستعباد البشري من خلال التصفيات الجسدية والتطهير الممنهج لمعارضيه، وإقصاء الكفاءات والطاقات الفاعلة وممارسة الضغوط بكل أشكاله وجميع مجالاته، حتى باتت سوريا وكأنها مزرعة للدواجن تحرسها الكلاب وتشرف عليها الذئاب.

إضافة إلى كمّ الأفواه والتغيب في السجون والتعليق على أعواد المشانق والإعدامات الميدانية وملاحقة الناس في أرزاقهم والتضييق عليهم بكل حركاتهم وسكناتهم.

كل ذلك كان سبباً في خروج الشعب السوري الذي لم يستطع تحمّل المزيد من الظلم والقهر والاستبداد علّه يدفع عنه ذلك ويعيد مجده كما كان أسلافه الأوائل، ولكن لم يكن يخطر على بال أحد يوماً أنّ الثورة السورية ستكون من أعقد الأزمات على المستوى الإقليمي والدولي، فضلاً عن المستوى المحلي والذي ولّد شرخاً كبيراً في المجتمع قد لا يندمل على المدى المنظور، وذلك لأسباب كثيرة، منها ما هو داخلي، ومنها ما هو خارجي، إذ لم يقتصر مجال التعقيد والتحدّي في الأزمة السورية في مجال معين بحيث يسهل حصره ومعالجته، وإنما تعدّى كلّ المجالات الحياتية للشعوب لهيّدّ الدول الإقليمية ويستدعي بعدها الأطراف الدولية التي وجدت بُغيتها في مثل تلك الأزمات لتجد الذريعة الجاهزة للتدخل والسيطرة إن لم تكن هي من صنعت هذه الأحداث والأزمات، أو دفعت إليها على الأقل بطريق مباشر أو غير مباشر.

لكن كلّ ذلك لم يكن ليُثني هذا الشعب عن القيام بثورته للتخلص من هذا النظام الفاجر فكان الربيع العربي الذي طالما انتظرته الشعوب المظلومة، وتشوّقت إليه النفوس المكبوتة، فكانت انطلاقاً الثورة المباركة التي سنقف معها ضمن محطات مهمة ووقفات مؤلمة.

المبحث الخامس

الواقع السوري والربيع العربي الدّامي
وقفات مهمة ومحطات مؤلمة

الواقع السوري والربيع العربي الدامي

وقفات مهمة ومحطات مؤلمة

كنت قد وضعت عنواناً لهذه الفقرة بـ (الربيع العربي)، الاسم الذي أطلقه الناشطون.

نعم؛ إنه الربيع العربي الذي طالما انتظره الشعب السوري كغيره من الشعوب العربية المظلومة التي كانت متلهفةً لقدمه، وتعدُّ ساعاته وأيامه ساعةً وساعةً ويوماً بيوم.

إنه اليوم الذي طال انتظاره، ولطالما كنّا نحلم لأن نعيش أيامه ونسعد بظلاله، إلا أنني عدلت عن تلك التسمية إلى عنوان آخر هو: (الربيع الدامي)، لما جرى بقدمه من أنهار الدماء التي سالت في الشوارع والأحياء والقرى والمدن والأرياف، وزوت الأراضي بعطرها الندي وريحها الشدي.

نعم؛ إنه الربيع الدامي الذي أظهر إجرام المجرمين وحقد الحاقدين وفساد المفسدين.

الذي أظهر زيف الشعارات الكاذبة التي أوهمت الناس وخدعتهم طيلة العقود الماضية.

الذي كشف حقيقة رافعي تلك الشعارات ونفاق من يدعون إليها ويروجون لها.

حقاً إنه الربيع الدامي الذي لا بد من استقباله وسلوك طريقه الشاق الطويل لنصل إلى الربيع المزهر بالعزة والكرامة، وقد سقيت الأرض بدماء الشيوخ والأبطال، ودموع الحرائر الطاهرات والأطفال.

- من قسوة الحياة التي كانت تعيشها الشعوب العربية التي كانت تنتظر الساعة بالساعة واليوم باليوم لترى فسحة أمل أو بقعة انفراج في الأفق للخلاص من أولئك الطغاة الذين جثموا على أجساد شعوبهم لعقود، حتى إذا طغوا وبغوا وتكبروا واستكبروا وتجاوزوا في بغيمهم وعنجهيتهم جاء أمر الله لتقوم الثورة في تونس، فتنجح في انتفاضتها وانتزاع حريتها وعزتها وكرامتها في مدة قصيرة، فاستبشر الناس بها خيراً، إلا أن الجميع لم يصدق ما حصل، بل كل كان يردد قولته:

(ما حصل في تونس خاص بها ولا يمكن أن يحدث مثله عندنا في سوريا)

حتى إذا انتقلت الثورة إلى مصر وانتفض الشعب كله بوجه الطاغية وانتهت بالنجاح وخلع فرعون مصر ازدادوا استبشاراً بزوغ الفجر الجديد وظهور الربيع العربي، إلا أن الجميع في سوريا يكرر

مقولته: (إنّ هذا الأمر الذي نجح في تونس ومصر لن ينجح في سوريا؛ لأنّ الوضع السوري مختلفٌ).

وهكذا انتقلت الثورة من مصر إلى ليبيا التي انتصرت بعدما تأخّرت أشهراً لما كان لحاكمها القذافي من صفات العنجهية والتكبر وشدة البأس، فازداد الناس استبشاراً بقرب الخلاص من استبداد الحكام واستعبادهم، إلا أنّ الجميع في سورية ما زال يشكك في قدرتنا على النّفير، فالأمر عندنا في سوريا مختلفٌ، حتى إذا حان الوقت أذن الله للشّعب السوري أن يرى حريته وينتزع كرامته، وقد سبقه في ذلك الشّعب اليمني ضدّ طاغيتهم بأسابيع قليلة.

وهكذا أدركنا أنّ الظلم مرتعه وخيم، وأنّ للظالم يوماً لا بدّ لاقيه في الدّنيا قبل الآخرة، وأنّ الله ليُملي للظالم فإذا أخذه لم يفلته، عبارات كنّا نسمعها ونردّها دوماً، وأمّا اليوم فقد أصبحنا نعيشها حياةً وحقيقةً لا مزية فيها.

فها هو يوم الجمعة بتاريخ ١٨ / ٣ / ٢٠١١ م، يخرج بعض الشّباب بمظاهرة بعد صلاة الجمعة رفعوا فيها أصواتهم بالهتافات وشعروا بمذاقها الرّائع الذي لم يعرفوه من قبل، واعتلى أحدهم المنصة ليلقي خطاباً جريئاً يطالب فيه النّظام الحاكم الظّالم بالحريّة والكرامة في ذهول من الحضور وصمت من الأمن يستوعب النفوس ويتحمّل الصّدمة.

وهنا أرى من الأهمية بمكان أن أتعرّض لبعض العناوين التي تُذكر بالمراحل التي مرّت بها الثورة السوريّة والتي تضعنا بصورة الواقع الحقيقيّ للثورة والثوار وما اعتراها من صورٍ مشرقةٍ وأخرى مؤلمةٍ تحمل قيم هذا الشّعب ومدى تحمّله وصبره وثباته على مبادئه وأهدافه التي خرج من أجلها لا يعرف ذلاً ولا يقبل خنوعاً، متحدّياً لكلّ العقبات التي من شأنها أن تُنزل من كرامته أو تحطّ من قدره بين الأمم؛ لأنّه يدرك أنّه صاحبُ أمانةٍ ورسالةٍ تشرفَ بحملها، وسيبقى على ذلك ما استطاع إلى ذلك سبيلاً موقناً بإحدى الحسنيين، إمّا بالنّصر والفوز والتّمكن في الدّنيا، أو بالشّهادة وحسن الخاتمة في الآخرة، وتلك هي غاية المني عند المؤمن.

ونفس الشّريف لها غايتان ورود المنايا ونيل المني

فمن خلال سبرنا للثورة السوريّة بشيءٍ من الموضوعيّة والشفافيّة ووضعها تحت المجهر سنجد الكثير من النّقاط التي تدلّ على نقاء هذا الشّعب وصفائه وقيمه السّامية وأخلاقه الكريمة من

جهة، ومدى نُضجِه وصحوته الثَّوريَّة من جهةٍ أخرى، فالخروج بالثَّورة هو نوعٌ من التَّضحُّج الفكري والصَّحوة التي غُيِّبَتْ عن عقول النَّاس لعقودٍ مضتْ كانت قد رسَّخت الفساد والظُّلم والطُّغيان والاستبداد في المجتمع السُّوري مع التَّخويف والتَّرهيب وكمَّ الأفواه وعدم المطالبة بأيِّ حقٍّ قد يؤدِّي إلى قتل صاحبه أو زجِّه في غيابات السُّجون أو تعليقَه على أعواد المشانق.

الثَّورة السُّورية: وقفاتٌ مهمَّةٌ ومحطَّاتٌ مؤلِّمة:

١- المظاهرات والاعتصامات:

خرجت الثورة السورية بعفوية تامَّةٍ للمطالبة بالتَّغيير والإصلاح في بدايتها على يد أطفالٍ صغارٍ، ثمَّ توسَّعت على أيدي شبابٍ تسري الحماسةُ في عروقهم وتملأ الشَّجاعةُ قلوبهم، كان ذلك بتاريخ ١٨ / ٣ / ٢٠١١ م، (جمعة الكرامة)، حيث كانت أولُ المظاهرات النائرة ضدَّ النِّظام الأسدِيِّ المجرم، وتحمل عدَّةَ مطالبٍ محقَّةٍ وعادلة، منها إطلاقُ الحريَّات، وإخراجُ المساجين السِّياسيِّين، ورفعُ حالة الطوارئ، ثمَّ تطوَّرت الأمورُ شيئاً فشيئاً مع تعنُّت النِّظامِ المجرمٍ ورفضه لكلِّ ما من شأنه الاستجابةُ والإصلاحُ وتحقيقُ العدالة، حتى رفع الثَّائرون سقْفَ مطالبهم إلى إسقاطِ النِّظامِ الأسدِيِّ المجرم ومحاكمة رموزه.

وكانت المظاهراتُ بعدها في يوم الجمعة من كلِّ أسبوعٍ، تُسمَّى باسمٍ يناسب الحالة الميدانيَّة والواقع المؤلِّم الذي يعانيه النَّاس ويُعايشه من الإجمامِ الأسدِيِّ اليومي.

وقد ابتدأت تلك المظاهراتُ بشكلٍ خجولٍ ثمَّ سرعان ما امتلأت الشُّوارعُ والسَّاحاتُ بالمظاهرات السِّلَميَّة العارمة المطالبة بالحريَّة والإصلاح والكرامة، ثمَّ توسَّعت لتشملَ جميعَ المدنِ والبلداتِ والمحافظاتِ بكلِّ طاقاتها وفعاليتها وأبنائها الذين طالما انتظروها على أحرَّ من الجمر.

لم يرفع المتظاهرون الثَّائرون أيَّ شعاراتٍ مناهضةٍ للنِّظامِ المجرم بدايةً، كما لم تحنَّ شعاراتهم على أيَّة عباراتٍ إسلاميَّة، وإنَّما كانت تطالب بالحريَّة والكرامة، وكان المتظاهرون يحملون بأيديهم الورودَ والرِّياحين وأغصانَ الزَّيتون في كثيرٍ من الأحيان.

وهذا يعني أنَّها (أي المظاهرات): لم تكن إسلاميَّة المنشأ والفئة، ولم ترفع شعاراتٍ إسلاميَّة تصف من وراءها، وهو ما كان له الأثرُ الإيجابيُّ الكبيرُ في استجلاب وتجميع الطوائف الأخرى التي

تشارك معها في مناهضة العصابة الأسديّة الحاكمة، وتقوّي من مظاهراتها، وتُعلي من صوتها في العالم.

توسّعت المظاهرات والاعتصامات السّلميّة المفتوحة حتى ملأت الشوارع والسّاحات والميادين للتأكيد على مطالبهم وحقوقهم المشروعة بكلّ بسالة وشجاعة، فكانوا مستعدين لكلّ ما قد يفعل النظام ضدهم لإخماد حراكهم من اعتقال وتهديد، ومن رشاشات المياه وسيارات الإطفاء وغيرها ممّا كانوا يتوقعون.

و ممّا زاد من زخم الثورة وقوّة شبابها القبول الشّعبيّ الكبير من جميع الشُعب العربيّة والإسلاميّة والتّعاطف الدّوليّ السّياسي والعسكريّ الذي رفع الصّوت بدايةً بدعمه المتنوّع، في الوقت الذي لم يتنازل النّظام المجرّم إلى تحقيق شيءٍ من مطالب الشّعب الثّائر، بل لجأ إلى أسلوب القمع والوحشيّة، واستخدام السّلاح للقتل والإجرام بذريعة محاربة الإرهاب والعصابات المسلّحة، فخلفّت عصاباته الجريمة المجازر بمئات الشّهداء بدايةً من مجزرة حماة، ومجزرة معرة النعمان، وغيرها من المدن الثّائرة، حيث بلغ شهداء المجزرتين آنذاك أكثر من مئة وخمسين شهيداً، وكان ذلك في شهر حزيران من عام الثورة ٢٠١١ م.

٢- علم الاستقلال يرفرف من جديد:

اعتمد الثوار في مظاهراتهم رفع علم الاستقلال السّوريّ الذي رُفِع في سماء مدينة دمشق لأول مرة عام ١٩٣٢ م، بشكلٍ رسميٍّ عند انتخاب أول رئيسٍ لسوريا "محمد علي العابد"، وذلك خلال مراسيم تدشين الرئاسة. "بعدما تمّ إقراره من قبل الجمعية التأسيسيّة التي كان يُشرف عليها شخصياتٌ وطنيّةٌ سوريّةٌ لها حضورها في وجدان المواطن السّوري أمثال "إبراهيم هنانو"^(١)، و"فوزي الغزي"^(٢)، و"هاشم الأتاسي"^(٣).

(١)- إبراهيم هنانو: زعيم سوري، قاوم الغزو الفرنسي. كان أحد قادة الثورة السورية على الاحتلال الفرنسي لسورية ولبنان، توفي في يوم الخميس الموافق ٢١ نوفمبر ١٩٣٥ م.

(٢)- فوزي الغزي: سياسي سوري ورجل قانون، كان أحد مؤسسي الكتلة الوطنية، وهو واضع أول دستور جمهوري في سورية عام ١٩٢٨ م. مات مسموماً وهو في الثانية والثلاثين من العمر، ولُقب من يومها بأبي الدستور السوري.

(٣)- هاشم الأتاسي: والملقب أبو الجمهورية، هو ثاني رئيس للجمهورية السورية لولائتين الأولى ليكون تاسع حاكم في تاريخ سوريا الحديث، توفي في حمص يوم ٦ ديسمبر/كانون الأول ١٩٦٠ خلال سنوات الجمهورية العربية المتحدة.

يرى الشعب السوري في هذا العلم تجسيدا لتاريخهم النضالي ضد الاحتلال الفرنسي، ولاحقا ضد الاستبداد الاسدي بعد الثورة السورية.

بالتالي يعتبر أنصار الثورة هذا العلم رمز هويتهم السورية المتجذرة في أعماق التاريخ والحاضر، ولا سيما وأن الكثير من شهداء سوريا أثناء الثورة كفنوا به في مراسيم التشييع والدفن.

شكل علم الاستقلال عند الثوار ماهية الهوية السورية المستحضرة من أعماق التاريخ السوري، وارتبط بتضحيات السوريين وسرديتهم في التظاهرات السلمية والتجهيز القسري وحرهم المسلحة وصراهم ونضالهم السياسي والمدني.

فلقد باتت هذه الرؤية السورية الأصلية، ترفع في كل مكان؛ فوق خيمة اللجوء والنزوح، وعلى عربات التهجير التي يقودها المهجر خلال رحلته للبحث عن موطن جديد ليملك به، وفي بيت سوري مهجر يترقب تبلور الحل السياسي لكي يعود ويرفعه في الحي الذي ولد به وسلبه الاستبداد منه، وعلى أكتاف طالب سوري تخرج حديثا في المغرب، ليست حالة طارئة مرتبطة بالثورة والفوضى، وإنما هي حالة متجذرة في أعماق التاريخ، فقبل أن يكون علم الثورة كان علم الاستقلال والدولة، لذلك هو تعبير عن حلم بناء الدولة الوطنية التي تعكس إرادة الشعب السوري، ورمزا عظيما وراية شريفة لكل أطراف المعارضة السورية السياسية والعسكرية والمدنية وفي المحافل الدولية، وهو ما كان في جلسة قمة جامعة الدول العربية المنعقدة في الدوحة بتاريخ ٢٦/٣/٢٠١٣م.

٣- الإصلاح المخادع والرفض العزيز:

لم يخرج الشعب السوري بثورته عبثا ولا مزاجا أو تسلية، وإنما خرج فيها بعدما وصل لدرجات اليأس والإحباط مما يعيشه تحت سلطة مجرمة مستبدة أهلك الحث والنسل ودمرت البلاد وقتلت العباد، مع علمها أن النظام المجرم لن يترك لها مجالا للوصول لما تريد من حقوق وحرية، لكنه (الشعب) بعد عقود الدل التي عاشها أجداده وعانها بنفسه لم يمتلك شيئا يخسره بعد فكان لابد من انتزاع الحرية واسترجاع الحقوق مهما بلغت التكاليف ومهما عظمت التضحيات.

وما أريد الكلام فيه هنا عن كيفية تعامل النظام الفاجر تجاه الأحداث التي إن تمكنت الثورة وانتصرت فإنها ستطيح برأسه وتنتهي حكم طائفته، وقد تصل بهم جميعاً إلى مآلات صعبة لا تُعرف نهايتها.

حاول بشار الأسد أن يخادع الناس بالأساليب الناعمة الدبلوماسية في حل الأمور من بداية استلامه للسلطة من خلال التقرب من الحاضنة الشعبية وإطلاق قانون تشكيل الأحزاب، واستعطاف بعض المشايخ وأصحاب العمام ورجال الدين من كل الطوائف، ورفع قانون الطوارئ^(١) (صورياً) واستبداله بقانون مكافحة الإرهاب، وتشكيل لجان التواصل مع الناس وزياراتهم في المدن والقرى، والسَّماع منهم والإطّلاع على شكاويهم، وعرض المساعدات المادية والغذائية عليهم، والعمل على استجلابهم واسترضائهم في هذه المرحلة الحرجة.

كان الشعب السوري واعياً لطبيعة النظام الأسد الفاجر، ويدرك تماماً أن ما يصدره بشار الأسد من إصلاحات وقوانين جديدة هي مجرد مراوغات مستهلكة وخداع ممنهج لا يمكن أن ينطلي على أحد، فكان موقف الشعب السوري الحر هو الرّفص التام لهذه الإصلاحات الموهومة المزعومة ولم يُخدعوا بأساليبهم الناعمة، بل تمّ الرّفص الشعبي وعدم الانصياع لأزلام النظام من الشخصيات السياسية المرسلّة والمشايع المزيّفة والإعلاميين المُستأجرين، مع رفض المعونات والمساعدات المادية المُقدّمة وهو ما زاد من حنق النظام الفاجر وإمعانه في القتل والتدمير والتشريد للتركيع والاختضاع.

٤- الشبيحة؛ والشعب الثائر وجهاً لوجه:

مصطلح (الشبيحة)؛ لم يكن معروفاً من قبل، وإنّما ظهر في فترة تسعينيات القرن الماضي من حكم الأسد الأب.

(١)- قانون الطوارئ في سوريا: عرفت سوريا قانون الطوارئ منذ عهد الانتداب الفرنسي أواسط عشرينيات القرن العشرين، ثم صدرت مجموعة أخرى من القوانين، لكن أبرزها وآخرها المرسوم التشريعي رقم ٥١ الصادر في ٢٢ كانون الأول / ديسمبر ١٩٦٢. وبموجب هذا القانون أعلنت في سوريا حالة الطوارئ إثر انقلاب عسكري قاده حزب البعث العربي الاشتراكي في ٨ آذار / مارس ١٩٦٣ حيث أعلنت الأحكام العرفية بالأمر العسكري رقم ٢، وعند إعلان حالة الطوارئ يسعى رئيس مجلس الوزراء حاكماً عرفياً وتوضع تحت تصرفه جميع قوى الأمن الداخلي والخارجي ويمنح الكثير من الصلاحيات. وتجزئ المادة ٤ من القانون للحاكم العرفي أو نائبه وضع قيود على حرية الأشخاص في الاجتماع والإقامة والتنقل والمرور في أوقات معينة، ومراقبة الصحف والنشرات والمؤلفات وغيرها، وأن يحيل المخالفين إلى المحاكم العسكرية.

وقد أُطلق على عصابات من الساحل السوري تنتمي للطائفة النصيرية عامّةً، ومن آل الأسد وأقربائهم خاصّةً.

وهذا المصطلح من المرادفات التي ظهرت في بعض البلدان، للدلالة على فئة منحرفة، تُستخدم أداةً في أعمالٍ قذرة، كـ (البلطجية في مصر)، الذين جنّدهم النظام المصري من أذنا به من المدنيين لقمع الثورة ضده، وكـ (البلاطجة في اليمن)، الذين استخدمهم علي عبد الله صالح ضدّ الثائرين عليه، وكـ (المرتزقة في ليبيا)، الذين استخدمهم القذافي ضدّ معارضيه، وكذا المرتزقة المأجورين الذين تستعملهم الدول في الحروب بالوكالة.

كان الشبيحة في سوريا يمتلكون أفضل أنواع السيارات آنذاك (سيارات الشّبح)، ومنها جاء هذا المصطلح، وقد كان النَّاس يهربون من أماكن تواجدهم أو الأماكن التي يمكن أن يمرّوا بها حتى يتجنّبوا شرورهم وإجرامهم.

يعمل الشبيحة في تهريب المخدرات والحشيش والدخان وبقية الأنواع الممنوعة من البلدان المجاورة وخاصّةً لبنان، من الطُّرق البريّة والبحريّة بعدما يُجبرون أصحاب الشّاحنات من المدنيين على الدّهّاب معهم إلى أماكن استلام البضاعة والمواد المهربة.

غالبية الشبيحة من أصحاب السُّمعة السيئة والانحلال الأخلاقي، متمرسون على ابتزاز النَّاس واستغلالهم ونهب ممتلكاتهم، ويستخدمون كلّ أنواع القسوة وأساليب العنف من قتل بالسكاكين والهرّوات والجنّازير وقطع الأيدي والرؤوس التي تُدخّل الهلع والرُّعب في قلوب النَّاس.

لم يقتصر عمل الشبيحة على التّهرّب فحسب، وإنّما تحوّلوا إلى عصاباتٍ تعمل بشكلٍ ممنهجٍ في التّهديد والابتزاز والقتل والخطف، ثمّ التّواصل مع الطّرف المخطوف أو المغدور للتّفاوض وأخذ الفدية منه، لتمويل أنفسهم وعصاباتهم المنتشرة في كلّ مكان.

كلّ ذلك أصبح في الثورة السوريّة باسم الدولة النصيريّة التي يستقوّن بها وتحميهم في أغلب الأحيان، فيعملون خارج القانون والأنظمة، ولا يخضعون للمؤسسات القضائيّة والأمنيّة في فسادهم وإجرامهم، بل كانت المؤسسات الأمنيّة والحكوميّة تسهّل لهم أمورهم وتواطئهم من جهة، وخوفاً من بطشهم وإجرامهم من جهةٍ أخرى.

كانت أشكالهم تُبنى عن صفاتهم؛ فهم معروفون بأشكالٍ تميزهم عن غيرهم برؤوسٍ كبيرة، وشعرٍ محلوّق، وأجسامٍ ضخمة، ولحي طويلةٍ بعض الأحيان.

استمر نشاطهم التّشبيحيّ منذ عهد الأسد الأب، واقتصر آنذاك على التّهريب والابتزاز وترويع النّاس، وازداد بنشاطٍ وإجرامٍ أكبر في عهد الأسد الابن قبل الثّورة، لكنّه ازداد أكثر فأكثر في الثّورة السّورية بقمع المتظاهرين وقتلهم، حيث استخدمهم النّظام الفاجر كראس حربةٍ في قمع الثّوار وقتل المتظاهرين، وبدا ذلك واضحاً وعلنيّاً منذ انطلاقة الثّورة وفي شهرها الأول في مدينة بانياس وجبله واللاذقية السّاحليّة، المدن التي تُعتبر معقل الطّائفة النّصيريّة.

ثمّ عمد النّظام الأسدّي إلى مأسسة عمل الشّبيحة وتحويلها إلى مؤسساتٍ رسميّةٍ تعمل تحت سلطته وبأوامره وتمويله مدعومةً من جميل الأسد وباسم جمعية المرتضى^(١) التّابعة له، ثمّ مع توسّع العمل التّشبيحيّ ضدّ المظاهرات التي توسّعت بدورها لتشمل معظم المحافظات السّوريّة تولّت جمعيّة بستان الباشا الخيريّة التّابعة لرامي مخلوف^(٢) في قضاء مدينة جبلة لمتابعة عناصرها وحمايتهم وتسليحهم ودعمهم وتجنيد ما تستطيع من المجرمين وضعاف النفوس لحماية النّظام الطّائفي المجرم.

ثمّ ازداد توسّعها في المناطق الثّائرة ضدّ الأسد في سوريا لتشمل بقية الطّوائف السّنيّة والدّرزيّة وفلسطينيين ينتسبون إلى جماعة أحمد جبريل^(٣) باسم الجبهة الشّعبية لتحرير فلسطين القيادة

(١)- جمعية المرتضى: هي جمعيّة شيعيّة أسسها جميل الأسد في سوريا عام ١٩٨١، تعتبر الأولى من نوعها لنشر التّشيع في سوريا، عمدَ جميل الأسد إلى افتتاح فروع للجمعية في كافة أنحاء سوريا، وركّز على القبائل في درعا والجزيرة ومناطق الأكراد في القامشلي، بالإضافة إلى نشاطه في مناطق العلويين، عملت "جمعية المرتضى" على إحياء الاحتفالات وإقامة الندوات والمهرجانات في عموم البلاد، واستطاع جميل من خلال جمعيته أن ينشئ شبكة واسعة من الأتباع والمؤيدين، كان حافظ الأسد يستفيد من هذه الجمعية على الصعيد الاستخباراتي، لكن الخلاف بين حافظ ورفعت أثر على الجمعية وأدّى إلى حلّها نهائياً، حيث أعلن جميل تأييده لرفعت في قيادة سوريا بدلاً من أخيه حافظ أثناء مرضه عام ١٩٨٣ م.

(٢)- جمعية بستان الباشا: بغطاء إنساني وخيري يخفي أهدافها الحقيقية تستمر "جمعية البستان الخيرية" المملوكة لرامي مخلوف بأعمالها التّشبيحية في المناطق الخاضعة لسيطرة النظام من خلال تجنيد الشبان واستغلال فقرهم، وتأمين موارد مالية للأسد ومواليه من خلال استغلال مساعدات الأمم المتحدة، كما تنشط الواجهة "الخيرية" لرامي مخلوف بشكل لافت مؤخراً بالعملية التعليمية في الساحل السوري، ومساعدة إيران على مد نفوذها الشيعي في المنطقة، من خلال افتتاح ثانويات شرعية دينية تدرس المذهب الشيعي في القرى الموالية، وحتى بداية الثّورة السورية كان يقتصر وجودها وخدماتها على ريف اللاذقية فقط الذي يعتبر الحاضنة الشّعبية للنظام لا في عموم البلاد.

(٣)- أحمد علي جبريل (ولد في عام ١٩٣٨ في يازور - توفي في ٧ يوليو ٢٠٢١ في دمشق)، فلسطيني، أسس عام ١٩٥٩ جبهة التحرير الفلسطينية، وشارك في تأسيس الجبهة الشّعبية لتحرير فلسطين، وانفصل عنها عام ١٩٦٨ ليؤسس الجبهة الشّعبية لتحرير فلسطين-القيادة العامة التي تولى أمانتها العامة حتى وفاته، وكان ممن ساند الأسد ضد الشعب السوري وارتكب الكثير من المجازر بحق المدنيين السوريين.

العامة، وكذلك من ضعاف النفوس والمجرمين وقطاع الطرق، ومن السُّجناء المحكومين الذين تمَّ إخراجهم من السُّجون بمراسيمٍ جمهوريّةٍ مضلّلةٍ مقابل التّطوُّع والعمل معهم تحت مؤسسات الدِّفاع الوطني، والمقاومة الشَّعبية، واللجان الشَّعبية، وغيرها من الأسماء المختلفة في العنوان، المتّحدة في الجوهر والمضمون كـرديفٍ قويٍّ للجيش الأسديّ والحفاظ على النظام المجرم الذي يعتبرونه السَّنَدَ الرَّئيسَ لبقائهم.

كما من الجدير بالذِّكر؛ أنّه لم يقتصر قادة الشَّبيحة على الشَّخصيات النُّصيريّة، وإنّما امتدت لتشمل بعض الثَّجار ورجال الأعمال المتواصلين مع الأجهزة الأمنيّة والمقرّبة من الدَّائرة الرِّئاسيّة، حيث كانوا مصدرًا لصناعة الشَّبيحة وتجنيد المزيد وتمويلهم بما يحتاجونه للمتابعة في قمع الثَّورة وقتل الثَّوار.

لم يقتصر مصطلح الشَّبيحة على أولئك المجرمين الذين امتحنوا تلك الرِّذائل وأُطلقت أيديهم فيها، وإنّما عمل النِّظام على ردها (بالتشبيح الإعلامي) من خلال قلب الوقائع والأحداث بشخصيّاتٍ إعلاميّةٍ مجرّمةٍ تظهر على القنوات الفضائيّة لتبرّر القتل والإجرام وتصف الثَّوار بالمدنسين والمخربين، فكان هؤلاء الوجه الآخر للشَّبيحة أيضاً، الذين كانوا أكثر خطراً وأذىً من الصِّنف الأول، مع مشايخ السُّوء والفتنة الذين جعلوا من علومهم وفتاويهم وسيلةً شرعيّةً لقتل أهلهم لقاء عَرْضٍ من الدُّنيا قليل.

وهذا يعني أنّ مصطلح الشَّبيحة هو مصطلحٌ واسعٌ في مضمونه ومجالاته، وشبيحة الثَّورة يعني:

الرئيس الشَّبيح، والضَّابط الشَّبيح، والإعلامي الشَّبيح، والمعلّم الشَّبيح، ورجل الدِّين الشَّبيح، والمجرم الشَّبيح.

وهكذا كلُّ يُمارس التشبيح في الدِّفاع عن نظامٍ قاتلٍ فاجرٍ في مجاله لإيمانه به واعتقاده، أو لخوفه وجبنه، أو لضعفه وقلة حيلته، أو لخسّته ونفاقه.

ولعلَّ في تعريف الكاتب عزيز تبسي^(١) للشَّبيحة اختصاراً كافياً وشفافاً عندما وصفهم بقوله: "إنَّ الشَّبيحةَ منتوجٌ عضويٌّ لنظام الطُّغمة العسكريَّة الحاكمة وفسادها السِّياسي والاقتصاديِّ وانحطاطها الأخلاقيِّ".

٥- من السِّلَمية إلى المواجهة المسلَّحة:

اتَّسمت الثَّورة السُّوريَّةُ بدايةً بالمظاهرات السِّلَمية شهوراً عديدة، وكان أداؤها رائعاً، ومطالبها مُحقَّقة ومرضيةً للنَّاس ومُفرحةً لهم، ينتظرون الأخبارَ من شاشات القنوات الفضائيَّة يوميّاً، ويكتبون الياقاتِ بأروع العباراتِ الهادفة، والشِّعاراتِ المُعبِّرة، وهنا أدرك النِّظامُ الفاجِرُ أنَّ الأمورَ ستخرجُ عن سيطرته إنَّ لم يَقمَ بما يلزمُ لعلاجِ الأمرِ والقضاء على التَّمرد حسب زعمه، لا سيما أنَّه صاحبُ تجربةٍ سابقةٍ في القمع والإجرام حيث استطاع أن يقضي على ثورة الثمانينيات^(٢) التي لم تكن أقلَّ خطراً وأثراً من هذه الثَّورة.

حيث امتلك في هذا الوقت بعض الخيارات التي تُنهي له الأزمَة حسب زعمه، كالعمل على بعض الإصلاحات الوهميَّة، واستجلاب بعض مشايخ الفتنة ووجهاء القبائل والعشائر والشَّخصيَّات الاجتماعيَّة، والتَّقرُّب من الشَّعب ووعودهم بالوظائف الحكوميَّة والمدنيَّة وغيرها ممَّا يطلبه النَّاس ويخفَّف عنهم، لكنَّ الشَّعب وصل إلى مرحلةٍ أدرك فيها كذبَ هذا النِّظام وخداعه لهم وغدره بهم، فلم يستجيبوا له ولم تُثنيهم وعوده عن المضي في ثورتهم ومظاهراتهم ومطالبتهم المحقَّقة.

(١)- وهو مقال نُشر للكاتب في المركز العربي للأبحاث ودراسة السِّياسات، بعنوان: سورية: درب الألام نحو الحرية - محاولة في التاريخ الراهن، عام ٢٠١٣ م.

(٢)- ويُقصد بها: الثورة التي قام بها الإخوان المسلمون في سوريا، وهي سلسلةٌ من الانتفاضات المسلَّحة حصلت في سوريا في الفترة الممتدة من عام ١٩٧٥ حتى عام ١٩٨٢. كانت الانتفاضات موجَّهة ضدَّ حكومة حزب البعث التي كانت تُسيطر على السلطة في سوريا حينها ما تسبَّب في عددٍ من العمليات المسلَّحة ضدها، مع الاغتيالات المنهجية للشَّخصيات المفسدة حسب وصف جماعة الإخوان، وصلت الانتفاضة ذروتها عام ١٩٨٢ حينما حصلت مجزرة حماة التي راح ضحيتها ما يقارب الـ ٦٠٠٠ ألف نسمة من المدنيين.

ثمّ مع فشل النظام الأسديّ وعدم تمكّنه من السيطرة والقضاء على الثّورة وقمع الثّائرين وعدم استطاعته توقيف انتشار حراكهم الثّوري، استخدم مساراً إضافياً آخر في التّعامل تجلّى بتشكيل (خلية أزمة)^(١) من شخصيّات عسكريّة وأمنيّة مخبرانيّة قادرة على معالجة الأمر.

وكان من أهداف هذه الخلية مع القيادات الأمنيّة استجراؤ أبناء الثّورة لاستخدام السّلاح وسلوك سبيل العنف من خلال تجنيدهم لبعض الشّبيحة لافتعال المشكلات وابتزاز النّاس، وهو ما يدفع المتظاهرين لاستخدام العنف المضادّ ضدّ قوات النظام الفاجر، فيكون النظام الأسديّ قد حصل على التّبرير الكافي وشرعيّة إنهاءهم، بأنهم عصابات مسلّحة خارجة على القانون لابتداءً من ضربها واستخدام القوّة العسكريّة المناسبة للقضاء عليها، وهو ما بدا واضحاً في بابا عمرو^(٢) في شباط من عام ٢٠١٢م، وكذلك ما حصل من تدمير لمناطق كاملة في دوما وحريستا من ريف دمشق، وفي بعض القرى والمدن السوريّة الثّائرة الأخرى.

ثمّ قُتل بعض أفراد هذه الخلية في عمليّة تفجير مبنى الأمن القوميّ في دمشق، وأعيد ترتيب وتوزيع أعضاء الخلية فيما هو قادمٌ وازداد العمل العسكريّ واستخدام العنف والأسلحة بكلّ أصنافها وألوانها على أشده، ممّا أدّى إلى تدمير بعض المدن والبلدات السوريّة تدميراً كاملاً عمرانيّاً واجتماعيّاً، حيث استخدمت الأسلحة الثقيلة بأنواعها من دبابات تجوب المدن والقرى والشوارع والأسواق، ومن مدافع تدكّ البيوت والأحياء والممتلكات والمرافق، ثمّ استخدم الطائرات المروحية لتسقط البراميل المتفجرة على المدن والقرى منذ الشهر الثالث من عام ٢٠١٢م، وهو ما أثار استغراب واستهجان العالم آنذاك بهذا النظام الخبيث الذي أثبت إجرامه بشكل عمليّ، بل أدخل الطّائرات الحربيّة بكلّ أنواعها ليبدأ تدمير المدن والقرى على ساكنيها ونهب أموالهم وحرق ممتلكاتهم، فضلاً عن استخدامه لكلّ أنواع الأسلحة الفتّانة والمحرمّة دوليّاً أمام مرأى ومسمع من العالم.

(١)- خلية الأزمة: كانت شخصيّات هذه الخلية كلّ من: محمد سعيد بختيان، العماد حسن تركماني، العماد داود راجحة، العماد آصف شوكت، اللواء محمد الشعار، اللواء علي مملوك، اللواء محمد ديب زيتون، اللواء جميل الحسن، اللواء عبد الفتاح قدسية، هشام الاختيار، اللواء المتقاعد صلاح النعيمي.

(٢)- بابا عمرو أو باب عمرو: شارك أهالي بابا عمرو بالثّورة السوريّة ضدّ النظام السوري الحالي والتي بدأت بتاريخ ١٥ مارس م ٢٠١١. وقد عانى أهالي بابا عمرو من هجمات شرسة باستخدام كافة الأسلحة الثقيلة من دبابات ومدافع وطائرات حربيّة، انتهت بالسيطرة عليه ونزوح سكّانها، مع دخول الجيش السوري على أنقاض ما سببه من دمارٍ كاملٍ للحى.

٦- انشقاقات عسكرية، ومواجهات ميدانية، وتحرير مناطق:

مع تجاهل النظام الأسدّي المجرم لمطالب الثورة المشروعة، بل ورّده على المتظاهرين الثائرين بكل أنواع العنف والإجرام شجّع الكثير من الضباط والعناصر العسكرية على الانشقاق وانضمامهم إلى صفوف الثورة، حيث بدأت حركة الانشقاقات في شهر آب من عام الثورة ٢٠١١ م، وأخذت بالازدياد يوماً بعد يوم لتأخذ الثورة منحىً جديداً وطريقاً عسكرياً موازياً للطريق السّليّ معتمدين على الله، ثم على أنفسهم دون أن يطلبوا نصراً من أحدٍ أو ينتظروا مساعدةً من أحدٍ حتى بدأ عرش الأسد بالاهتزاز تحته.

تمّ تأسيس ما يُسمّى بالجيش السوري الحرّ بقيادة المقدم المنشق الأول حسين هرموش^(١) والعقيد رياض الأسعد^(٢)، وأخذ شكله العسكري بتشكيل كتائب الثوار والمجموعات العسكرية للدّفاع عن المدنيين العزل ضدّ العصابة الأسدّيّة المجرمة، وكان ذلك بنهاية عام الثورة وبداية عام ٢٠١٢ م.

اضطرّ الضباط والعسكريون وشباب الثورة لاستعمال السلاح للدّفاع عن أنفسهم وأهلهم بعدما أغلظ عليهم النظام المجرم بشتى أنواع القمع والوحشيّة والقتل دون أن يُفرّق بين صغيرٍ وكبيرٍ أو بين امرأةٍ ورجلٍ، مع الضّخ الإعلامي عن وجود العصابات المسلّحة والمندسين والإرهابيين لتشويه صورة الثائرين أمام العالم، وساعده في ذلك التّصريحات الدّاعمة له من مشايخ السّوء الذين ربّاهم إلى هذه الأيام، والذين كان لهم الأثر السيّء على الثورة والثوار من خلال تشويه صورتهم أمام العالم.

ومع دخول الطائرات الحربيّة بصواريخها المتفجّرة والطائرات المروحيّة ببراميلها المدمّرة بدأت موجات التّزوّج الجماعيّ نحو الحدود والدّول المجاورة وخاصّةً مدينة جسر الشّغور بعد المجزرة الرّهيبية فيها في شهر حزيران من عام ٢٠١١ م.

(١)- حسين هرموش: هو ضابط سابق في الجيش السوري برتبة: مقدم، والقائد السابق لحركة لواء الضباط الأحرار، برز اسمه بعد انشقاقه وتأسيسه اللواء خلال حركة المظاهرات السوريّة ٢٠١١ م للدّفاع عن المدنيين، واعتقل لاحقاً في شهر سبتمبر ٢٠١١ م، ولا يزال مصيره مجهول إلى اليوم.

(٢)- رياض موسى الأسعد: هو ضابط برتبة عقيد في سلاح الجو السوري سابقاً، ومؤسس الجيش السوري الحر. أعلن انشقاقه عن جيش النظام في ٤ يوليو ٢٠١١، وفي ٢٩ يوليو، أسس الجيش السوري الحر، وأعلن قائداً له بعد ذلك ببضعة أيام، وكان للجيش الحر دور بارز في قيادة معارك الجنود المنشقين ضد نظام بشار الأسد.

ومع كل ذلك فقد استمرت الثورة وتابعت مسيرتها بكل ثبات وهمّة وعزيمة واستمرت الأمور بخير لصالح شباب الثورة حيث فتح الله عليهم فتحزّروا على أيديهم أكثر من سبعين بالمئة من البلاد وخاصةً أرياف المدن (أرياف حلب وحماة وادلب والرقّة وحمص والحسكة ودمشق)، وأوشك النظام المجرم على الانهيار والسقوط.

أخذت الثورة منحى آخر من السلمية إلى المقاومة المسلحة بين طرفين غير متكافئين، ولكن الله الذي علم ما في قلوب عباده من ظلم وقهر، مؤسس عليهم من قبل نظام فاجر فتح عليهم أبواب نصره، فأخذت تتشكل الكتائب والمجموعات الصغيرة بإمكانيات متواضعة وتخوض المعارك مع قوات النظام التي لا تملك عقيدة الدفاع والقتال، معتمدين على الله سبحانه وتعالى ومستعينين به، مترافقاً ذلك ومتوافقاً مع شعاراتهم التي كانوا أعلنوها ومازالوا مؤمنين بها ويعملون لأجلها: (هي لله هي لله... لا للسلطة لا للجاه)، (ما لنا غيرك يا الله).

وما زال قطار الثورة والتحرير يسير حتى وصل إلى محطة الاجهاز على النظام الأسدي المجرم، لكن الأمر الذي لم يكن بالحسبان أنّ تلك العصابة الحاكمة المجرمة قد تجذّرت في أرض العهر والفساد والاستبداد الدولي، في وقت غفل الشعب الثائر عما يحاك ضده، بدا ذلك واضحاً من خلال التداخلات الدولية التي توالى لإنقاذ النظام الفاجر، فكان تدخل أصحاب المشروع الطائفي (إيران الصفوية) الذي عملت عليه منذ خمسة عقود مضت؛ لتحمي مشروعها من الخطر الذي يهددها، فزجت بكل قوتها ومرزقتها وميليشياتها الطائفية ضدّ ذلك الشعب الأعزل واستخدمت كلّ ما بوسعها لإنقاذ ربيها بشار الأسد المجرم وللتخفيف عنه، إلا أنّها باءت بالفشل وتكبّدت الخسارات العسكرية والمالية والبشرية الفادحة بعد أن أفلست وغرقت في مستنقع الدماء وأصبحت تحتاج إلى من يساعدها وينقذها ممّا وقعت فيه.

٧- الصّحوة من حالة السبات والتّنويم إلى حالة الحركة والتّغيير:

حيث دأب النظام السوري أيام الهالك حافظ الأسد على قمع الحريّات وتكليم الأفواه، والملاحقة لكل صاحب فكر ودعوة وتأثير في الحراك الشعبي والمجتمعي، وعمل جاهداً على تهجير تلك النخب خارج حدود البلد فيما بقي الآخرون بحكم المحبوسين لا يستطيعون الكلام إلّا بما يمليه عليهم ذلك النظام الفاجر أو التزام الصمت حتى لا يقعوا في شرك سجنونه أو يُعلّقوا على حبال مشانق إعدامه.

وهكذا بقي الشعب السوري -كما هو حال الشعوب الأخرى- على تلك الحالة حتى جاءت ثورات الربيع العربي فكانت المتنفس الكبير لتلك الشعوب لتعبّر عن واقعها وتشرح أوضاعها وتنتفع على غيرها من الأمم والشعوب، حيث بدأت الفعاليات والنشاطات الثورية والعلمية والفكرية تكثُر وتتفاعل في كل العواصم والمدن العربية والإسلامية وتنتشر الوعي الفكري والنهضة العلمية وتعيد روح الانتماء العربي والإسلامي لأفراد تلك الشعوب ونخبها وتوجههم للتفكير بقضاياها الكلية التي غيّبت عنهم طيلة العقود الماضية وحُرموا من الكلام فيها لتأتي الفرصة العظيمة بفتح الأفاق أمام جيل التغيير وشباب المستقبل وقد تغيرت الوسائل والأدوات فأصبحت طيّعة بين أيديهم في إيصال الرسائل المهمة وعرض الأوضاع والوقائع المؤلمة ووضع العالم المتحضر أمام التزاماته الإنسانية والأخلاقية برفع الظلم وردع الظالم وترك المجال أمام أهل العلم والخبرة والمعرفة لتقديم أفضل النماذج الإدارية والتربوية والاجتماعية.

٨- النهضة الفكرية لدى النخب بكل اختصاصاتها مع تحمل الأمانة والمسؤولية:

بنظرة بسيطة يمكن للمتأمل في الوضع التربوي والتعليمي أيام عهد حافظ الأسد المجرم يدرك مدى المستوى المتدنّي الذي وصلت إليه المدارس والجامعات، وكيف أبعدت الكفاءات عن صناعة العلماء والمفكرين وتربية الأجيال والمبدعين، من خلال إقصاء المدرّسين من أصحاب الفكر والتأثير وملاحقتهم بدواعي أمنية، أو إحالتهم إلى وظائف مدنيّة أو تهميش دورهم المجتمعي، وهو ما أحدث خواء ثقافياً وضحالة علمية وتصحراً فكرياً عند الشباب العربي بشكل عام والشباب السوري بشكل خاص، ولم يملأ هذا الفراغ أهله، وإنما تمّ استبدال النخب والكفاءات بشخصيات موالية لهم يسبحون بحمدهم ويزرعون فكرهم البعئي الذي يريدون.

حتى جاءت الثورة المباركة التي صحت فيها الأمة العربية والإسلامية من غيبوبتها وتوجّهت إلى أبنائها من جديد، فبدأت ببناء صروح العلم والمعرفة، وشقّت طريقها نحو المعالي والقمم العلمية حتى أصبحت المدارس والمعاهد والجامعات من المعالم الرائعة التي امتازت بها المناطق المحررة بطلّابها المبدعين، وطاقاتها المتميّزين، بالرغم من قلة الإمكانيات والتضييق الممنهج على الثورة وأهلها، في رسالة واضحة للعالم كله؛ بأنّ إرادة الشعوب لن تُهزم، وأنّ طريق الحرية يحتاج إلى صبر وتحملٍ وصدقٍ وثباتٍ، وبعدها سيكون مآله الفوز والنجاح والوصول للغاية المرجوة بإذن الله.

٩- إيران بميليشياتها والحرب الطائفية:

بدأ التّدخلُ الإيرانيُّ مشاركتَه العلنيّةَ بكلِّ ترسانته العسكريّة في منتصف عام ٢٠١٣ م، بإرساله عشرات الآلاف من جنوده فضلاً عن تكليفه ودعمه لحزب الله اللبناني الشّيوعيّ من بداية الثّورة السّوريّة الذي أنكرَ تدخّله بدايةً، إلّا أنّ قتلهم وأسراهم كانوا خيرَ دليلٍ على نفاقهم وكذبهم، وهكذا دخلت الميليشياتُ العراقيّةُ والإيرانيّةُ والأفغانيّةُ وغيرها حتى وصلوا لأكثر من ٦٦ / ميليشيا شيعيّة، والتي تُعدُّ بعشرات الآلاف من المقاتلين توزّعوا على جبهات القتال في سورية، وكأنّ الأمرَ أصبحَ حرباً بين الجيش الإيراني ومرزقته، وبين الثّائرين السّوريّين الذين ما زالوا حديثي عهدٍ بالقتال وخططه ونظامه وأساليبه، فضلاً عن سلاحهم المتواضع الذي بين أيديهم.

ابتدأت مرحلةً جديدةً ثالثةً من المعارك، حيثُ ظهرت الحربُ الطائفيةُ بامتياز، إذ شهدت زخماً كبيراً من الإجرام الطائفي بحقّ المدنيّين العزل الذين يُقتلون لأنّهم سنّةٌ من أحفاد معاوية (رضي الله عنه)، دون شفقةٍ أو رحمةٍ، حتى لم يُعدَّ يُسمع صوتٌ لجنديٍّ سوريٍّ إلا نادراً، واستمرت المعارك بشدّتها وضرارتها مع ثبات أسطوريٍّ لثوارٍ ومقاتلين أثخنوا فيهم قتلاً وأسراً حتى أنهكهم وأرسلوا الآلاف منهم إلى إيران بالصّناديق الصّفراء، لكنّ إيران صاحبة المشروع الصّفوي وحلمها بإعادة الامبراطوريّة الفارسيّة جعلها لا تملُّ ولا تتراجع عن استقدام المرتزقة من هنا وهناك، لتحافظ على مشروعها الطائفي الذي عملت على نشره منذ خمسة عقود مضت في كلّ مدن ومحافظات سوريا، لتُكشفَ المشاريع التي كانت تعملُ في الخفاء دون أن يعلمَ بها إلا القليل الذين لا يجرؤون على الإفصاح والكلام خوفاً على مكتسباتهم الشّخصيّة أو موالاةً لهم، لكنها إرادة الله التي أبت إلا فضحهم وكشف مخططاتهم الصّفويّة الشّيعيّة في أرضٍ بارك الله فيها وتكفّل بأهلها.

١٠- التّزوّج والتّهجير واللجوء:

لم يكن انفجارُ الشّعب السّوريّ بثورته ضدّ النّظام الأسدّيّ المجرم من فراغٍ يملؤونه، أو من نشاطٍ عبثيّ يريدون ممارسته، وإنّما كان نتيجةً طبيعيّةً لليأس والإحباط والظلم والاستبداد والفساد والإفساد وكبت الحريّات وتكميم الأفواه والطائفية المقيتة التي حولتهم إلى قطعانٍ ضعيفةٍ في مزارع الظلام والمفسدين.

فما إن انطلقت الثّورة السّوريّة حتى استشاط النّظام المجرمُ غضباً فكانت ردّاتُ فعله قتلاً واعتقالاً وقصفاً وحصاراً وتدميراً وتشريداً وتهجيراً.

نتج عنه أول موجات النُزوح من مدينة حمص وريفها الشّمالِيّ منذ بداية عام الثّورة، وفي شهر تموز من العام نفسه كانت حركة النُزوح من درعا إلى الأردن، وفي شهر أيار كانت حركة النُزوح من جسر الشّغور وريف اللاذقية إلى تركيا، وما إن انتهى عام الثّورة الأول ٢٠١١م، حتى وصل عدد النّازحين خارج القطر لأكثر من نصف مليون نازح.

لم يكن قرارُ النُزوح وتركُ الدّيار والبلاد سهلاً على أصحابها، لكنّ الضُّغوط المحيطة بهم والتّحدّيات التي تنتظرهم والمآلات التي تهدّد حياتهم وأولادهم أكبر بكثير، وخصوصاً بعدما اتّبع النّظامُ المجرم سياسةَ حصار المدن، وممارسة الإرهاب عليهم، والتّجويع، وبثّ أخبار الاقتحامات التي ترهب النّاس، والاعتقالات التي تطلّ الجميع دون تفرّيق، والمداهمات العشوائية المستمرة التي تزرع الخوف والهلع في نفوسهم، مع إفساح المجال للهروب والنُزوح بدفع الأموال والإنذابات للحفاظ على أنفسهم وأهلهم في بلدٍ آخر يمكن أن يختاروه بأنفسهم ويصلوا إليه بسهولة.

ابتدأت حركة النُزوح كما أسلفنا من بداية الثّورة حيث بلغ عدد النّازحين في نهاية العام الأول منها إلى نصف مليون نازح، ثمّ ارتفع هذا العدد إلى ثلاثة ملايين نازح بنهاية عام ٢٠١٣م.

تضاعفت أعداد النّازحين بعد استخدام النّظام المجرم الطّائرات الحربيّة بصواريخها، والمروحيّات ببراميلها، والقصف المدفعيّ بكلّ أصنافه، مع الضُّغوط المتتالية على الحاضنة الشّعبيّة بكلّ مقوّمات حياتهم، بعد تدمير بيوتهم وحرق ممتلكاتهم، وزاد من ذلك دخول ما يُسمّى تنظيم الدّولة الإسلاميّة (داعش)، وسيطرتهم على مناطق واسعة، وقتالهم للجيش الحرّ، ودخول التّحالف الدّولي الذي أكثر وزاد من هجماته وإجرامه على المناطق المحررة، وهو ما كان سبباً في ازدياد أعداد النّازحين والهاربين من الموت.

ومع احتدام المعارك في عام ٢٠١٥م والتّدخّل الرّوسيّ بكلّ ترسانته العسكريّة ومقتل أكثر من نصف مليون شهيد، وفقدان مثلهم في السّجون والمعتقلات، وإحكام الحصار على المدن وابتزاز الأهالي لإجبارهم على المصالحات والتّسويات للبقاء في مدنها وأماكن سكنها، أو المغادرة الإجباريّة ضمن (الباصات الخضراء)، وهو ما يُسمّى بالتّهجير القسريّ الذي مورس على أهالي حمص وريفها والقلمون والزبداني والغوطة ودرعا وحلب وغيرها، إلى مناطق الشّمال السّوري وتركيا، حيث تجاوز عددهم المليون مهجّر.

لم تنتهِ عمليات التَّهجير، فقد استمرَّت وبقِيَتْ مرتبطةً بعمليات القصف والتَّدمير الرُّوسِيّ الذي لم يترك بشراً ولا حجراً ولا شجراً، حيث شهد شتاء عام ٢٠١٨ م موجاتٍ من النُّزوح هائلةً لمئات القرى، وتقدرُ بأكثر من مليون نازح إلى الحدود السُّوريَّة التركيَّة على اعتبارها أكثر المناطق أمناً من غيرها.

ثمَّ كان العام ٢٠٢٠ م أيضاً أكثرَ دمويةً ممَّا سبقه من الإجرام والوحشية ليكتمل على النَّاس ألامهم ومصائبهم في التَّشرد والنُّزوح والتَّهجير القسري عندما استخدم الرُّوسُ بعملياتهم العسكريَّة سياسةً الأرض المحروقة، فنزحت مئات القرى والبلدات لتلحق بركب أخواتها المهجَّرات على الحدود الأكثر أمناً، حتى باتت الحدود السُّوريَّة التركيَّة أكبرَ تجمُّعٍ سكانيٍّ في العالم الحديث، حيث قارب عددُ المخيِّمات (السَّبعة آلاف) مخيم، فضلاً عن أصحاب الأرض والمنازل السَّاكنين والمقيمين فيها.

ومن أوائل المدن السُّوريَّة المهجَّرة إلى الشَّمال السُّوريِّ كانت مدينة القصير في ريف حمص بعدما دُمِّرت على رؤوس ساكنيها عام ٢٠١٣ م، ثمَّ أحياء حمص القديمة عام ٢٠١٤ م، وحيّ الوعر في حمص عام ٢٠١٥ م، وكذلك أحياء من مدينة حلب بعد محاصرتها لمدة أعوامٍ مع القصف المكثَّف والممنهج حتى تمَّ تهجيرهم وإخراجهم منها قسرياً عام ٢٠١٦ م، وكذلك تهجير مدينة داريا، ومضايا، والرَّبداني، ومدن الغوطة الشَّرقيَّة والغربيَّة، ثمَّ مدن ريف حمص الشَّمالي؛ كالرَّستن، وتلبيسة، وغيرها حتى بلغ عدد المهجَّرين ضمن الأراضي السُّورية يتجاوز أربعة ملايين نازح ومهجَّر..

باختصار:

يمكن القول: إنَّ النَّازحين السُّوريين على اختلاف المصطلحات ما بين نازحٍ ومهجَّرٍ ولاجئٍ في الدَّاخِل السُّوريِّ وخارجه، يمكن إحصاؤهم كما جاء في تقرير مفوضية الأمم المتَّحدة لشؤون اللاجئين لعام ٢٠٢٠ م تجاوز الثلاثة عشر مليوناً^(١).

(١)- عدد اللاجئين كما ورد في تقرير مفوضية الأمم المتحدة لشؤون اللاجئين: نازحون ومهجَّرون على الحدود: (أربعة ملايين)، لاجئون في تركيا: (ثلاثة ملايين و ٦٠٠ ألف لاجئ)، لاجئون في لبنان: (مليون ونصف لاجئ)، لاجئون في الأردن: (مليون و ٤٠٠ ألف لاجئ)، لاجئون في مصر: (٥٥٠ ألف لاجئ)، لاجئون في دول الاتحاد الأوروبي: (مليون لاجئ)، لاجئون في العراق أربيل: (٢٤٥,٨٠٠ لاجئ)، لاجئون في أمريكا الشمالية وكندا: (١٥٢ ألف لاجئ) / لاجئون في دول متفرقة: (نصف مليون).

١١- تعاطفٌ دوليٌّ ونجاحٌ عسكري:

لاقت الثورة السوريّة تعاطفاً شعبياً كبيراً على المستوى المحلي والدولي، كالولايات المتحدة الأمريكية، وبريطانيا، وفرنسا، وألمانيا، وتركيا، ودول الخليج العربي، وغيرهم من الدول العربيّة والغربيّة لما رأوه من ظلم النظام الأسدّي ضدّ الشعب السوريّ الصّابر وانتهاكاته لحقوق الإنسان واستخدامه الأسلحة بكلّ أنواعها وأصنافها بعيداً عن التّعامل المناسب واللائق مع شعبه المطالب لحرّيته وكرامته، فكانت تصريحاتهم توجي بفقدان النظام المجرم لشرعيّته وتندّد بإجرامه، ثمّ قامت بعدّة إجراءات ضدّه واتّخذت قراراتٍ لردعه منها:

جمّدت عضويّته في الجامعة العربيّة، ونُقل البرلمان العربيّ من دمشق، وسحبّت بعضُ الدول العربيّة سفراءها من دمشق، وقطعت بعضُ الدول العربيّة علاقاتها مع دمشق، وصدرت بياناتُ التّنديد بجرائم النظام وضرورة محاسبته في المحاكم الدوليّة كمنظمة العفو الدوليّة، ومجلس حقوق الإنسان، والجمعية العامّة للأمم المتّحدة، ومجلس الأمن الدولي، ومنها ما أصدرته الولايات المتّحدة الأمريكيّة من قانون قيصر، وفرض عقوباتٍ اقتصاديةٍ على مؤسساتٍ وكياناتٍ وشخصياتٍ للضّغط على النظام وخضوعه لمطالب الشعب السوريّ.

وبعيداً عن المواقف الدوليّة والإقليميّة المتعاطفة مع الثورة السوريّة فقد كثرت المبادرات الشعبيّة المؤيّدّة للثورة والثوار بكلّ أطرافها وجميع مجالاتها للضّغط على النظام الأسدّي المجرم (كمؤتمر علماء المسلمين لنصرة الشعب السوري)، الذي انعقد في مدينة استنبول في تموز من عام ٢٠١١م، كان هذا بالتزامن مع استمرار المظاهرات وتوسّعها في المحافظات السوريّة الكبرى كافّة (كدمشق وريفها، ودرعا وريفها، وحلب وريفها، وحمص وريفها، وحماة)، التي شهدت المظاهرات المليونيّة والتي ردّ النظام عليها بالسّلاح الحيّ، فأدّى ذلك إلى استشهاد المئات منهم، وحصار المدينة وفرض العقوبات الجماعيّة على المدن والقرى الثائرة في أنحاء سوريا حتى أصبح عدد الشّهداء اليوميّ مجرد أرقام تُذكر في القنوات الفضائيّة اليوميّة، ويُدوّن مجلسُ حقوق الإنسان في الأمم المتّحدة دون أن يحرك ساكناً بشكلٍ عمليّ يُنهى إجرام هذا النظام ويقضي عليه.

ومع استمرار الإجرام الأسدّي والإيرانيّ على الشعب السوريّ تدفّق المئات من المقاتلين الأجانب للدّفاع عنهم ومساعدته لهم في نيل حرّيّتهم، وانضموا في فصائل عسكريّة مع بقية الفصائل المدافعة وأخذت وضعها العسكريّ كغيرها من الفصائل.

ازدادت قوة الثوار وباتت في تصاعد مستمر، كما توسعت مساحة الأراضي المحررة، وأصبحت فرص فوزهم وانتصارهم كبيرة وقريبة، والتي قد قلب الطاولة على النظام العالمي في حال انتصارها، حيث أصبح الثوار يعملون بخطط عسكرية بعد أن شكّلوا الكتائب والألوية والمجموعات القتالية، وأخذت المناطق والمدن تهاوى أمامهم وتحرّر على أيديهم، مع ازدياد الروح المعنوية في قلوب أبناء الثورة واليقين بانتصارها وانضمام المزيد من الفعاليات والهيئات والنخب السياسية والفكرية والعسكرية إليها، حيث انتظمت تلك المجموعات المقاتلة في كتائب وألوية عسكرية، ورتبت أمورها ونظمت صفوفها في الدفاع عن نفسها وأهلها وبلدها تحت مسمى: (الجيش السوري الحر)، وهكذا شهدت السنوات الأولى عشرات المعارك بين قوات النظام وبين الثوار المقاتلين الذين مرّغوا أنوف القوات الغازية وأثخنوا فيهم قتلاً وتشريداً وأسرّاً، واستطاعوا أن يغيثوا منهم ما يضمن لهم الاستمرار في ثورتهم حتى إسقاط النظام المجرم والخلص منه.

لكن الأمر الذي لم يكن بالحسبان عند الثوار هو: أن عشرات، بل ومئات من المقاتلين الأجانب الذين جاؤوا لنصرتهم وللدفاع عنهم، وللقتال معهم (حسب زعمهم)، كانوا في حقيقتهم مُرسّلين للتجسس عليهم وعلى ثورتهم، ولمهمات مخابراتية وأمنية، وهذا الأمر ممّا تفعله دول الاستعمار الغربي ووكلاؤهم بزرع ودسّ العملاء بين صفوف الثوار لاستخدامهم لاحقاً في شق صفوفهم وتشيت كلمتهم وإضعاف قوتهم كثورة مُضادة تعمل ضمن الصفوف وتلبس نفس اللباس، وتعطي الصورة المشوهة عن الثورة الحقيقية وعن الثوار الصادقين، لتوسم الثورة بالإرهاب، والثوار بالإرهابيين، فيصبحوا بذلك هدفاً مطلوباً للمحاكم الدولية (وهذا ما يصبون إليه ويعملون لأجله).

١٢- صمود وثبات مع غفلة واختراق:

ومع ازدياد أعداد الثوار واتساع مساحة سيطرتهم ازداد بأسهم على النظام المجرم الذي بدوره صعّد من عملياته العسكرية بكلّ وحشية وهمجية بما يملك من ترسانة عسكرية وأسلحة كيميائية، فقصف المدن والمدنيين ودمّر المساجد والمدارس والمشافي والمرافق العامة، فضلاً عن منازل الأمنيين للضغط على المدنيين حتى يتخلّوا عن أبنائهم الثوار الذين أوشكوا على إسقاطه والخلص من حكمه، ولكنّه (النظام) لم ينجح في ذلك، فالحاضنة التفت حول أبنائها وقدمت لهم كلّ ما يحتاجونه في سبيل الخلاص ورفع الظلم وإسقاط الفساد والمفسدين من النظام وأتباعه المجرمين.

أمام هذا الصمود الذي تمتع به السوريون الصادقون والذين خرجوا من أجل قضيتهم العادلة ومشروعهم الصادق، وأمام هذا المشهد المخيف الذي يمكن أن تحققه الثورة، والذي يهدد المنظومة العلمانية والكيان الصهيوني والدول الغربية الصليبية كان العمل بكل الأدوات والوسائل التي من شأنها أن توقف هذا السيل الجارف الذي سيفضح المستور الغربي والنفاق العالمي المتآمر على الثورة وأهلها، فكانت الضغوطات والتحديات المختلفة التي شملت كل نواحي الحياة، وطالت كل أطراف الشعب ممن سار في طريق الثورة وكان حاضراً للتوار.

فكانت مهمة الإرهاب حاضرةً وجاهزةً لتبرّر التدخّل المباشر في القضية السورية، وخصوصاً أن مواد الإرهاب جاهزةً بين أيديها، بل ومن تصنيعها من خلال الغرباء والأجانب الذين سرّبتهم ضمن صفوف المهاجرين إلى الأراضي السورية، وتبني شعارات الإمارة والخلافة الإسلامية، فكان تنظيم الدولة الإسلامية (داعش) بيدها جاهزاً للقيام بالدور الخطير المنوط فيه بحق الشعب السوري والثورة السورية.

كما كان ظهور الفصائل والألوية ذات التوجّه الإسلامي بشكل واضح وانحيازها عن الجيش السوري الحرّ برايات إسلامية بزعمهم، وما نتج عنه من الاختلاف الفكري والعقدي سبباً رئيساً في تشتت الثورة وتشرذمها ومعول الهدم في أركانها، وما تبعه من مأس ومنتصبات داخلية أودت بحياة المئات من المجاهدين وأقصت آلاف آخرين عن ساحة الجهاد، إضافةً لتبعات كثيرة لا مجال لذكرها الآن، وكذلك التبعات الخارجية التي تمثلت في تباين الدول في مواقفها بين مؤيد للثورة أو داعم لها من جهة، وبين معارض لها أو محرّض عليها، من خلال التصنيف بالإرهاب الذي لصق ببعض الفصائل المقاتلة بعد أن أطلق عليها اسم: (الفصائل الإسلامية) بشكل صريح، ومن هنا فقد دخلت الثورة السورية نفقاً مظلماً لم تكن تحسب له حساباً، بل لم يكن الشعب السوري على دراية تامة بالخبط الدولي الذي من شأنه إدخال الساحة السورية في متاهات بعيدة عن أهدافه التي خرج من أجلها ليرى ثورته وقد اختُرقت بصنوف من قادة، وعناصر، وفعاليات، وهيئات، ومنظمات، عملوا على حرف مسار الثورة عن أهدافها بعدما وصلوا بدعائهم ومكرهم وخبثهم إلى مراكز القيادة والقرار باسم الدين والإسلام والجهاد، وبعدما استطاعوا أن يحصّنوا أنفسهم ويحتموا بأبناء الثورة الذين انضموا إليهم عاطفةً وجهلاً، في الوقت الذي لم يغفل فيه النظام عن إرسال بعض جنوده وأزماله للانخراط في صفوف الثورة والثوار ليأتي الوقت الذي

زرعهم من أجله، فافتت صفوفهم ويشتت قوتهم، ويُمزق وحدتهم، ويستعيد بعضاً من الأرض التي خسرها من قبل.

١٣- داعش؛ السهم الغادر:

بعدما اتخذت الثورة السورية شكلها العسكري، وتشكلت الألوية والكتائب تحت مسمى (الجيش الحر)، وبدأت بالعمل ونجحت فيه، تطوّر الأمر إلى مرحلة جديدة بتشكيل فصائل مقاتلة تحت مسميات إسلامية ك (أحرار الشام)، ثم (جبهة النصرة)، التي تشكلت من أغلبية مهاجرة جاءت للدفاع عن بلاد الشام، وعن شعبها السوري المسلم، إلا أنها كانت تتميز بالتشدد الديني والقسوة في التعامل مع بقية الفصائل؛ لأنها كانت تنظر إليهم على أنهم جاهلون في الدين، وبعضهم يصل إلى درجة الكفر والارتداد، وهذا ما كان له الأثر السيء في العلاقة معهم، ثم انشق بعضهم عن جبهة النصرة، وهم الذين كانوا أكثر تشدداً باسم تنظيم الدولة الإسلامية (داعش).

كما لم يغفل النظام المجرم عن خبث التعامل لتشويه سمعة الثورة و(أسلمتها)^(١)، حيث أطلق سراح المئات من المساجين الإسلاميين من سجونهم، وقد سبقه إلى ذلك ما حصل في العراق من إطلاق آلاف السُجناء من الإسلاميين والقاعدة الذين التحقوا بالثورة السورية وانضموا إلى كتائب وألوية رفعت رايات إسلامية، ونحت في توجُّهها منحى الخلافة الإسلامية وإقامتها على أرض الشام، ورفعت بشكل رسمي رايات (تنظيم القاعدة في بلاد الرافدين والشام) المصنّف بالإرهاب الدولي، لتدخل الثورة كما يبدو في حرب مع العالم كلّ، حيث استغلّ النظام المجرم هذا الأمر بشكل خطير، فحرّض من خلاله على الثورة وأهلها على أنهم عصابت إرهابية مسلحة لا بدّ من استئصالها والقضاء عليها.

كثيرة هي المصائب التي ألمت بالثورة السورية التي تختلف بضررها وقساوتها، ولعلّ من أخطر تلك المصائب التي أصابت الثورة بمقتلها قضية الاختراق (الأممي والعسكري والسياسي والفكري) الذي كان له الأثر السيء على مسار الثورة... والواضح تماماً أنّ الثورة السورية باتت تحت المجهر الدولي تُدرّس من كلّ جوانبها، ويُصنّع بعض قادتها في المطابخ السياسية العالمية وتحت إشرافها بشكل مباشر أو غير مباشر، ولعلّ ما عاشته الثورة السورية خير دليل على الصناعات المخبريّة

(١)- الأسلمة: المقصود بها هنا أنّها صبغت بالاسلام الذي تنظر إليه دول الغرب على أنّه (إرهاب)، وهو ما يؤدّي إلى صبغ الثورة السورية بصبغة (الإرهاب)، وما يترتب على هذه الصبغة من نتائج ليست لصالح الثورة.

العالمية، ووضع إشارات استفهام كثيرة تحتاج إلى أجوبة مقنعة حول قادتهم، وأصل منشهم وطريقة أدائهم، والجهات التي أرسلتهم والتي تخطط لهم.

ومن خلال التدقيق في بعض جزئيات تنظيمهم وهيكلته يمكن أن نقسمهم إلى عدة أصناف:

• **الأمنيون:** وهم أصحاب القرار في التنظيم، وقرارهم لا يقبل الطعن ولا المناقشة، وكلهم أو جلهم غرباء غير معروفين إلا بالكنى والألقاب، ولهم صلاحية معرفة كل شيء ولا يسألون عن شيء.

• **الشريعويون:** وهم أصحاب العلم كما يدعون والدورات الشرعية وأصحاب الفتاوى المروجة لتوجهات التنظيم وقراراته، وغالهم أجانب إلا القلة القليلة من الأنصار الموالين.

• **الأمرأ والقادة:** وهم المعنيون بالمعارك والمعسكرات والشؤون الإدارية والعسكرية، والمسؤولون عن العناصر وضبط الأمور، وأغلبهم ضباط أجانب غير معروفين إلا بالكنى والألقاب، وقد التحق بهم خشية المحاسبة بعض القادة ممن كان لهم خلفية مشبوهة، فبايعوا (داعش) وأحسنوا الولاء لها حتى أصبحوا أمرأ لا يستطيع أحد مساءلتهم أو محاسبتهم.

• **العناصر:** وهم العدد الأكبر، والفاعل الأعظم في المعارك، وأغلبهم سوريون، وهم صادقون مخلصون، انضموا إلى هذا التنظيم حباً بالجهاد وطلباً للشهادة، فأعطوا البيعة والولاء لأمرأهم من أجل إقامة دولة الخلافة كما يزعمون، ورفع راية التوحيد، وتطبيق شريعة الله دون هواده أو رحمة، وسياستهم: أخذ الجميع بالغلبة.

ويغلب على العناصر صغر السن وحدائثه، وضحالة العلم وقلة المعرفة، وشدة البأس وقساوة القلب، والسمع والطاعة وتنفيذ الأوامر من غير تردد، وسرعة تكفير الآخرين ممن لا يوالونهم، واستهانتهم بسفك دماء الآخرين ممن كانوا إخوانهم بالأمس القريب.

وهكذا تحول هؤلاء إلى حطب في محرقة عظيمة أضحى فيها شبابنا مجرد أرقام يقتل بعضهم بعضاً، اختلفت الأهداف والغايات، واختلط الحابل بالنابل، وكل ذلك بلباس المجاهدين ولسان المؤمنين وراية المخلصين، والأعداء تذكي ذلك وتدعمه وتقبح زناده ثم تنتظر نتائج المعارك فيما بين تلك الفصائل.

١٤- عدم توازن، خلل واضطراب:

التفوق العسكري إن لم يوازه تفوق سياسي فسيكون مآله الخلل والاضطراب، ولن يكتب له النجاح والاستمرار، فلا بد من امتلاك القيادة الرشيدة والبطانة الصالحة، والتوازن بين جناحي القوة (السياسية والعسكرية)، وامتلاك مقومات النجاح لضمان الوجود والاستمرارية والبقاء.

الحقيقة؛ أنه لم ينجح السوريون بصناعة نخبة سياسية تتصدر المشهد السياسي، وتشرح القضية السورية للعالم على حقيقتها وبيان أهداف الثورة، ثورة الحرية والكرامة مع بيان وفضح إجرام النظام الأسد.

فقد كانت الدول الأوروبية وغيرها من الدول صاحبة المبادرة في تقديم شخصيات معينة تصدرت المشهد السياسي بما يتناسب مع مصالح تلك الدول بشكل رئيس على حساب مصلحة الثورة التي لم يمثلها إلا القلة القليلة من المخلصين في ذلك المجلس (الائتلاف الوطني السوري)، والذين قد لا يملكون من القرار إلا الشيء اليسير أمام رجال محسوبين لدول معينة.

كما كان من أبرز المواقف المؤلمة أيضاً: الانفصال المنهجي، وعدم التجانس الفكري بين أصحاب الثورة والميدان في الداخل، وبين المتصدّرين للمشهد السياسي في الخارج، وهو ما كان أيضاً سبباً إضافياً في تشتت الثورة وضياح بوصلتها الثورية، والامتناع من أداء القوى السياسية البعيدة عن الواقع والثورة والتي تحمل النصيب الأكبر من وزرها لما وصلت إليه الثورة من مآلات خطيرة.

١٥- اختلاف وترهل، انحسار وتضييق:

نجحت الدول الغربية في تحويل الصراع بين الثوار ونظام الأسد إلى صراع بيني، أي بين الثوار أنفسهم مع بعضهم من خلال (الدواعش) الذين صنّعوهم وأرسلوهم بلباس الدين وإقامة الخلافة الإسلامية المزعومة الموهومة، في غفلة من أبناء البلد، عن حُبث ودهاء الغرب في ذلك، وتغليب العاطفة أحياناً من بعض أبناء هذا الشعب، حيث وصل الدواعش لما لم يستطع أن يصل إليه النظام الأسدي المجرم، وكل حلفائه من قتل لخير القادة والثوار بتهمة الردّة، فضلاً عن الاقتتال الداخلي الذي يظهر بين الفترة والأخرى في الساحة من أجل النفوذ والمكاسب الخاصة والمصالح المحدودة وبعض أماكن السيطرة وغيرها من الأسباب التي ليس لها أي علاقة بالثورة وأهدافها السامية النبيلة.

فما حصل من اقتتالٍ فصائليٍّ داخليٍّ كان له انعكاسٌ سلبيٌّ واضحٌ على المسار الميداني والعسكري، وخسارة الكثير من الأراضي التي تمَّ تحريرها في بداية الثورة، كما انعكست على الثورة وحاضنتها الشعبية التي باتت أكثر المتضررين، بل وأصبح بعضهم يرى أنَّ الثورة صارت عبئاً عليهم لا بدَّ من التَّخلص منها بأيِّ ثمنٍ كان، كلُّ ذلك بسبب الأخطاء التي ارتكبت في السَّاحة والتي تجلَّى بعضها في شخصياتها غير الكفوءة في الإدارة والقيادة، والذي أدَّى بدوره إلى الظُّلم الذي لم يرضوه والذي ثاروا عليه أيام الأسد وزمرته الفاسدة.

وزاد الخطرُ بعد تمُدُّد تنظيم (داعش) على حساب المناطق المحررة وإعلان إمارتها الإسلامية المزعومة بعد السَّيطرة على مناطق الثَّروات ومكامن الدَّعم الدَّاتي واستقطاب الصِّغار من الشُّباب والتَّلعب بعواطفهم وعقولهم وانقلابهم على أهلهم وإخوانهم الذين كانوا معهم بالأمس في الجبهات وأماكن الرِّباط، وكان ذلك سبباً في استجلاب ضباع العالم وذئابها للتَّدخُّل المباشر في الشَّأن السُّوري، وبذلك انتقلتِ الثورة السُّورية من ثورةٍ داخليةٍ ضدَّ عصابةٍ مجرمةٍ إلى أزمةٍ إقليميةٍ وعالميةٍ أطرافها ليسوا من السُّوريين فحسب، بل هي دولٌ إقليميةٌ وأخرى عظمى وجدت بُغْيَها في الجغرافية السُّورية، فبات التدخُّلُ الدوليُّ المباشر واقعاً حقيقياً بحجَّة وجود تنظيم القاعدة والفصائل الإسلامية، وكان ذلك لصالح النِّظام المجرم على حساب دماء وأشلاء هذا الشَّعب وأهداف ثورته العظيمة.

كان ذلك من أسباب الانشطار الكبير في صفوف الثُّوار وتصنيفهم لبعضهم ما بين مجاهدين، ومرتدين، وفاسدين، ومرتزقة، وعملاء، يكيد كلُّ طرفٍ منهم للطَّرف الآخر، وتحول كلُّ فصيلٍ لمنطقةٍ يسيطر عليها، ويبنى دويلته بما يناسب برنامجه الذي يؤمن به ويعتقده، فأصبح لدينا مزيدٌ من التَّفكُّك الفصائليِّ مشحوناً بمزيدٍ من العداء القلبيِّ المنتظر للثَّار في الوقت المناسب.

لم تَعُدِ المعاركُ مع النِّظام وحلفائه كما كانت من قبل، بل تضاءلت المساحاتُ المحرَّرة بشكلٍ كبيرٍ، فبعدما وصلت نسبةُ المناطق المحرَّرة عام ٢٠١٥م إلى أكثر من ٨٠٪ من مساحة الأراضي السُّورية، تراجعتُ فأصبحتُ بعد عام ٢٠١٩م أقلَّ من ٢٠٪ من المساحة الكلية، الأمر الذي كان له من آثارٍ سلبيةٍ أرقتِ الحالةَ النَّفسيةَ في قلوب الحاضنة التي سئمت ذلك، وتجلَّى ذلك عند الكثير منهم بسحب أبنائهم من ساحات القتال وإخراجهم منها لضمان سلامتهم وعدم قتلهم أو اغتيالهم.

وقد رافق ذلك انحسارُ الدَّعمِ الخارجيّ وتَجفُّفُ منابعه بشكلٍ كبيرٍ، بل وانقطاع بعض أصنافه، مع التَّضييق الماليّ على الفصائل بشكلٍ ممنهجٍ بغية إضعافها إلى أدنى مستوى ممكن.

١٦- روسيا؛ ومشروعها القذريّ التَّغيير الدِّيمغرافيّ والتَّهجير القسريّ:

دخلت الثَّورة السُّوريَّة عامها الرَّابِع ٢٠١٥م، بعد أنْ أنهكت إيران وميليشياها، ومن قبلها النِّظامُ الأسدِيّ المجرم، فدخلت روسيا صاحبة المصالح الاستراتيجية في المنطقة لتعيد هيبته وامبراطوريَّتها التي مضى على سقوطها أربعة عقودٍ، لتدخل بأساطيلها البحريَّة والجويَّة والبريَّة وبكلِّ ما تملك لتُنهي الثَّورة وتقضي عليها خلال ثلاثة أشهرٍ (حسب زعمها)، إضافةً لذلك؛ فقد كانت تريد أنْ تجرَّب ترسانتها الجديدة، وتبيع أسلحتها القديمة والفاسدة، وتقوم بمناوراتٍ على الأرض السُّوريَّة على حساب الثُّوار وأشلاء الشَّعب السُّوري، وهذا ما صرَّح به المجرم فلاديمير بوتين بكلِّ وقاحةٍ وصلفٍ في إحدى مقابلاته التلفزيونية، وفعلاً كانت الطَّائرات الروسيَّة تجوب السَّماء السُّوريَّة ليلاً ونهاراً، والبوارجُ الحربيَّة تقذفُ بحممها وصواريخها الباليستيَّة بشكلٍ عشوائيٍّ ومدمرٍ، والصَّواريخُ الارتجائية والقنابلُ العنقوديَّة وغيرها من أنواع الأسلحة الجديدة التي أحرقت الأخضر واليابس، وأهلكت الحرث والنَّسل وحولت البناء إلى رمادٍ، إلا أنَّه لم يستطع إخضاع هذا الشَّعب وتراجعهِ عن مطالبه المشروعة، ولم يبقَ له من الوقت الذي أعلنه في وسائل الإعلام بإنهاء مهمَّته في القضاء على الثَّورة والثُّوار، إذ بقيَ في حربه وإجرامه أكثر من سبع سنواتٍ ولم يستطع حسمَ المعركة، بل تفاجأ بشراسة المقاتلين وصمود الثُّوار والمجاهدين، فلم يستطع إنقاذ النِّظام الأسدِيّ المجرم بالصُّورة التي كان يحلم بها وبالمدة التي وضعها كرئيس دولةٍ عظمى أمام رجالٍ يحسبهم شرادماً قليلين وعصاباتٍ متفرِّقين.

كما لا يُنكر أنْ سياسة الأرض المحروقة التي استخدمها الاحتلال الرُّوسِيّ ضدَّ الشَّعب السُّوريّ الأعزل أحدثتُ تغييراً في الخريطة الجغرافيَّة لصالح النِّظام الأسدِيّ المجرم، فأخرتُ من سقوطه، وأطالتُ من عمره من خلال سياسته الإجرامِيَّة المتمثلة بالنِّقاط التَّالية:

أ - القصفُ العنيف المتواصل على القرى والمدن لتهديم البنى التَّحتيَّة، والممتلكات على ساكنيها للضغط على الحاضنة الشَّعبيَّة وحرمان النَّاس من أدنى مقوِّمات الحياة وإجبارهم على حياة التَّهجير والتَّشرد واللجوء.

ب - اتّباع سياسة الأرض المحروقة في الجبهات وأماكن المعارك والرباط، مع التدمير الكامل لكل شيء، ثمّ الدّخول براً للإكمال على ما تبقى.

ت - الرّجّ بكامل القوّات العسكريّة المختلفة والأسلحة المحرّمة دوليّاً من أجل حسم المعركة أو انتزاع نصرٍ ولو صوريّاً.

ث - العمل على استقطاب بعض الشّخصيّات العسكريّة والسّياسيّة ببعض الإغراءات الوهميّة لاستخدامهم في المصالحات والتّسويات وإسقاط المناطق بدون قتال.

ج - العمل في الجانب السّياسيّ تزامناً مع الجانب العسكريّ كضامنٍ كاذبٍ يريد الحلول السّياسيّة، من خلال استجراح المعارضة وضامنها تركيا إلى مؤتمرات فارغة ك (الأستانة وسوتشي) لانتزاع تنازلاتٍ تساعد على المزيد من السّيطرة وقضم المناطق المحرّرة وإعادتها للنّظام المجرم.

ح - تغيير الخطط والتكتيكات العسكريّة من خلال شئٍ المزيد من العمليّات العسكريّة لتحقيق أهدافٍ معيّنة، ثمّ إعلان الهدن المحدّدة من طرفها لتعيد انتشار قوّاتها وتؤمّن استراحةً لمليشياتها، ثمّ تنقّض الهدنة في الوقت الذي تراه مناسباً لها بذريعة جاهزة لتعود لعدوانها من جديد.

كما قد لجأ المحتلّ الرّوسيّ لاستخدام نوعٍ آخر من المعارك ك (الحصار والتّجويع والتّهجير القسري)، فإضافةً للمعارك العسكريّة عمد إلى ممارسة الحصار المبرمج والتّجويع الممنهج حتى يضمن تركيع المدنيين وإجبارهم للضّغط على أبنائهم الثّوار والمجاهدين ليرضخوا إلى مطالب النّظام المجرم والمحتلّ الرّوسيّ، وقد نجحوا في تفريغ مناطق كثيرة، منها:

أ- منطقة القلمون: فقد تمّ تهجيرُ آلاف العوائل من مدنها: (الزبداني، ومضايا، رنكوس، وعسال الورد، ويبرود، وبقعة، ووادي بردى، وبسّيمة، وعين الفيحة ...).

ب- الغوطة الشرقيّة: فقد تمّ تهجيرُ أكثر من ثلاثين بلدة منها: ك (حريستا، ودوما، وسقبا، وكفرطنا، وحمورية، وبيت ساوى، والنّشابية، والشّيفونية، والرّيحان، ومديرة ...).

ت- الغوطة الغربيّة: تمّ تهجيرُ أكثر مدنها: ك (داريا، والمعضمية، وخان الشّيح ...).

ث- درعا وحووران وريفها: حيث تمّ تهجير آلاف العوائل منها على دفعاتٍ بدءاً من (درعا البلد، ونوى، ومدينة البعث في القنيطرة، وقرى شرق البصرى ...).

ح- حمص المدينة: فقد تمّ تهجير كامل المدينة القديمة في عام ٢٠١٥ م، وهي: (الخالدية، والحميدية، وباب الدّريب، وباب هود، ومنطقة السّوق القديمة وانتهى عام ٢٠١٥ م بتهجير عوائل حيّ الوعر).

خ- حمص الشّمال: تمّ تهجير أكثر المدن الثّائرة فيها في شهر رمضان من عام ٢٠١٦ م، مثل: (تليسة، الحولة، والرّستن، والدّار الكبيرة، تير معلّة، الغنطو، الفرحانية الغربيّة، غرناطة، والرّعفرانة، وتسنين، الفرحانيّة الشرقيّة، وبعض القرى من ريف حماة مثل: حرينفسه، عقرب، ...).

ج- حلب القديمة: حيث تمّ تهجير أحيائها من حيّ إلى آخر بحسب القصف والإجرام الذي مورس عليهم حتى تجمّعوا وانحسروا أخيراً في حيّ الأنصاري وصلاح الدّين بمئات الآلاف، ويمكن ذكر بعض الأحياء المهجّرة قسريّاً، منها: (حيّ الشّعار، والصّاخور، وطريق الباب، وباب الحديد، وباب الثّيرب، والمرجة، والصّالحين، والمعادي، والفردوس، والكلاسة، وبستان القصر، والعامرية، والإذاعة، والسّكري، والأنصاري، وصلاح الدين...).

ما سبق ذكره كان تهجيراً قسريّاً مارسه الاحتلال الرّوسيّ المجرم مع النّظام السّوريّ البغيض على مدن وبلدات سوريا المنكوبة وإجبارهم على التّوجّه إلى محافظة إدلب التي أصبحت مكاناً خاصّاً لتجميع الثّوار والمجاهدين، ليظهر على السّاحة طيّعة المشروع الذي يريدونه وينفّذونه بخطواتٍ ثابتةٍ مدروسةٍ وبطريقةٍ باتت واضحةً.

لم يكن واضحاً للوهلة الأولى الغاية من الحصار والتّجويع إلا تركيع النّاس واستسلامهم ورجوعهم إلى حضن النّظام المجرم، إلا أنّ الوقائع أثبتت أنّ تغييراً ديموغرافياً يُراد تنفيذه والعمل عليه، وذلك بنقل السّنّة من دمشق وريفها إلى مدينة إدلب والشّمال السّوريّ، وإسكان مكانهم أبناء الميليشيات الشّيعيّة الذين استقدموهم من هنا وهناك، وأصبح التّصريح بذلك علناً في وقت تمكّنوا فيه من رقاب النّاس ومحاربتهم في أرزاقهم وحليب أطفالهم.

وفي الوقت نفسه فقد عملت روسيا على القضاء على الثورة والثوار بكل المجالات وعلى جميع الأصعدة، واستعملت كل الأساليب الناعمة والخشنة للقضاء عليها، ودام الحصار سنوات عجاظاً بكل ما تحمله الكلمة من معانٍ، ومع كل ذلك لم تتأثر الثورة بالشكل الكبير الذي أرادتته تلك الدولة المجرمة، ولكنها أضعفتها إلى حدٍّ لم تستطع المعارضة القضاء على النظام الأسدي بشكلٍ كاملٍ، فتكون بذلك قد لعبت دور المنقذ له في البقاء في السلطة مدةً أطول.

والحقيقة أن الكلام عن جريمة التهجير القسري كلامٌ طويلٌ وسيكتب عنه الكتاب، ولكني أريد لفت النظر هنا إلى الجريمة المضاعفة التي قام بها النظام المجرم وحلفاؤه الغزاة من الروس والإيرانيين، وهي أن التهجير القسري يُعتبر جريمةً نكراءً بحدِّ ذاته، فما بالك أن هذه الجريمة (التهجير القسري) كانت بالأساليب الوحشية والإجرامية التي دمّرت عليهم مدنهم وقراهم، وحرقت لهم بيوتهم وممتلكاتهم، وطردتهم إلى حيث المجهول، لتضاعف تلك الجريمة البشعة، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل قامت العصابة الأسديّة المجرمة بعد طردهم وإخراجهم باستجلاب الميليشيات الشيعية الطائفية وإسكانهم بدلاً منهم في مدنهم وقراهم وبيوتهم علماً أنهم لا يملكون فيها أي حق، وليس لهم فيها أصل، بل هم غرباء الوجه واليد واللسان والمنهج والقيم والأخلاق والأعراف، وهذا من أكبر الجرائم الذي لم تعرفها الإنسانية ولم تشهد لها البشرية مثيلاً بتلك الصورة الهمجية، لتبقى شاهدةً على نظامٍ خبيثٍ مجرمٍ من أقدر أنظمة العالم وأكثرها خسةً ونذالةً ووحشيةً وهمجيةً.

١٧- إجرامٌ ومجازرٌ مع صمتٍ وتواطؤ:

صحيحٌ أن جيش النظام الأسدي قد أنهك وقتل أكثر من ٧٠٪ من عناصره النصريين والموالين له من أهل السنة، إلا أنه كان حاضراً بأجهزته الأمنية المجرمة لتمارس على بقايا الشعب قمعها ووحشيتها، وابتزازهم بالأموال والأعراض، حيث امتلأت السجون بمئات آلاف المعتقلين والمعتقلات الذين تعرّضوا للموت البطيء إن بالتعذيب، وإن بحقنهم بمواد كيميائية مميتة دون أن يشعروا، إضافةً إلى مئات الآلاف من الشهداء الذين قتلهم آلة الحرب الأسديّة والإيرانية والروسية، وعشرات الآلاف الذين هُدمت عليهم بيوتهم ليشهد التاريخ على تلك المجازر والجرائم التي يندى لها جبين البشرية، وكذلك المجازر التي ارتكبت بحقِّ العوائل والقرى المعروفة بمعارضتها للنظام والتي تُعدُّ بمئات المجازر التي قضت عليهم بشكلٍ كاملٍ، فضلاً عمّن قضاوا

وماتوا بالسلاح الكيماوي في أكثر من مدينة ومحافظة، وكل ذلك على سبيل المثال لا الحصر، فالقائمة تطول من جرائم طائفية مرعبة وعمليات انتقامية مروعة.

ولعلّي أذكر بعض المجازر على سبيل المثال لا الحصر؛ كي لا ننسى هذا النظام الفاشي القاتل ولنخلد إجرامه في تاريخ البشرية:

١- مجزرة الخالدية في حمص: كان عدد ضحايا أكثر من (٣٠٠) ثلاث مئة شهيد من الأطفال والنساء، بداية شهر شباط من عام ٢٠١٢ م.

٢- مجزرة الحولة بريف حمص: التي راح ضحيتها أكثر من (١١٠) شهيداً أكثرهم من النساء والأطفال، كانت بتاريخ ٢٥ / ٥ / ٢٠١٢ م.

٣- مجزرة داريا بريف دمشق: التي قضى فيها أكثر من (ألفي) شهيد بحسب شهود عيان، كانت بتاريخ ما بين ٢٠ - ٢٥ / ٨ / ٢٠١٢ م.

٤- مجزرة القبير بريف حماة: التي راح ضحيتها أكثر من (١٥٠) شهيداً أكثرهم من النساء والأطفال، كانت بتاريخ ٦ / ٦ / ٢٠١٢ م.

٥- مجزرة التريمسة: في ريف حماة وكان ضحيتها أكثر من (٢٢٠) شهيداً من النساء والأطفال والشيوخ، كانت بتاريخ ١٥ / ٧ / ٢٠١٢ م.

٦- مجزرة قرية تسنين في ريف حمص الشمالي: راح ضحيتها أكثر من (١٠٥) شهيداً من النساء والأطفال والشيوخ، بتاريخ ٦ / ١ / ٢٠١٣ م.

٧- مجزرة قريتي البيضا والبساتين وحي رأس النبع في مدينة بانياس الساحلية: حيث تم قتل أكثر من (٥٠٠) شهيد أغلبهم من النساء والأطفال والمدنيين العزل، مع اختطاف أكثر من (٦٠) ستين شخصاً حملوا بالشاحنات إلى القرى العلوية المجاورة ولم يُعلم مصيرهم حتى الآن، كان ذلك بتاريخ ٢-٣ / ٥ / ٢٠١٣ م.

كما كانت المجزرة الثانية في قرية البيضا في شهر رمضان من نفس العام بتاريخ ٢١ / ٨ / ٢٠١٣ م فقتلوا عائلتين كاملتين (١٣) شخص، ٣ رجال و٦ أطفال و٤ نساء.

٨- مجزرة قرية رسم النَّفل في منطقة الحص في ريف حلب الجنوبي: راح ضحيتها (٢١٠) شهيداً من النساء والأطفال حرقاً وقتلاً بالسكاكين حسب ناشطين من أهل المنطقة الذين انتشلوا كثيراً من الجثث من الآبار، وسميت هذه المجزرة (بمجزرة الآبار)، نفذها حزب الله الطائفي اللبناني ولواء أبو الفضل العباس العراقي، في الشهر السابع من عام ٢٠١٣ م.

٩- مجزرة معضمية الشام: حيث تمت عند الاقتحام الأول للمدينة، فاضطر أهلها للهروب إلى مدينة داريا لمدة ثلاثة أيام، وبعد عودتهم إلى البلدة تفاجؤوا بالجثث وقد ملأت الشوارع والبيوت بحسب الشاهد (راتب أنيس أبو أنس) خادم المقبرة في المعضمية كما روى أحداثها في الفيديو، بأنهم دفنوا / ٢٠٧ / جثث في مقبرة المدينة حتى امتلأت فاضطروا لشراء قطعة أرض أخرى لبقية الشهداء الذين بلغوا / ٢٧٤٠ / شهيداً، تم دفنهم فيها، وسميت مقبرة الشهداء.

١٠- مجزرتا نهر حلب (القويق): كانت على دفعتين، في شهر يناير كانون الثاني من عام ٢٠١٣ م، وقد بلغ عدد الضحايا: (١١٠) شهيداً ثم قتلت (١٢٠) شهيداً في شهر مارس آذار في العام نفسه وأُلقت بالجثث في نهر قويق مكتوفة الأيدي ومعصوبة العينين، وأثار التعذيب باديةً على أجسامهم.

١١- مجزرة القورية: وكانت من خلال القصف الجوي للطيران الإجرامي الذي استهدف مسجداً في قرية القورية من مدينة دير الزور، وكان ضحية هذا القصف أكثر من (١٠٠) مائة شهيد بينهم أطفال وشيوخ، فضلاً عن مجزرة دير الزور التي ارتكبتها قوات النظام في أحياء المدينة بتاريخ ٢٦ و ٢٧ / ٩ / ٢٠١٢ م خلال اقتحامات ومدهامات للبيوت راح ضحيتها حوالي (٥٢٠) شهيداً من النساء والأطفال والشيوخ.

١٢- مجزرة التضامن: وهذا الحي يُعتبر من الأحياء المناهضة للنظام الأسد المجرم من خلال المظاهرات والنشاطات الثورية حيث قام بها المجرم المدعو (أمجد يوسف) من مرتبات المخابرات العسكرية بتنفيذ مهمته في الانتقام لشقيقه الذي قُتل من قبل (كما يدعي)، فكانت من أبشع المجازر تنفيذاً وحقداً وتصفيةً لأكثر من أربعين شخصاً كان قد تمّ تسريب الفيديو المصور لتصفيتهم ثم حرق جثثهم بطريقة بشعة مؤلمة، ولم يُمكن من تحديد تاريخ المجزرة بشكلٍ دقيقٍ إلا أنها كانت في عام ٢٠١٣ م.

١٣- مجزرتي النَّبِك في ريف دمشق: حيث حصلت ما بين ٢٠ / ١١ إلى ٢٧ / ١٢ من عام ٢٠١٣ م وكان ضحية تلك المجازر حوالي الـ (٤٠٠) شخص بينهم (٩٨) طفلاً و (٩٤) امرأة.

وأما عن مجازر الكيماوي التي استخدمها النظام المجرم ضدَّ هذا الشعب الأعزل فقد وثقت الشبكة السُّوريَّة لحقوق الإنسان استعمال النظام السُّوري للأسلحة الكيماوية أكثر من مئتي مرّة، وأذكر منها هنا على سبيل المثال لا الحصر ما يلي:

١- مجزرة الغوطين الشرقيّة والغربيّة: بصواريخ محمّلة بغاز السّارين، وراح ضحيتهما آنذاك قرابة (١٥٠٠) شهيداً أكثرهم من الأطفال والمدنيّين.

٢- مجزرة خان شيخون: التي راح ضحيّتها أكثر من (١٠٠) شهيد و (٤٠٠) إصابة اختناق.

٣- مجزرة معصميّة الشّام: التي راح ضحيّتها على مدى ثلاثة أيّام بالترتيب (٧٣ + ٨ + ٤) ليكون مجموع الشّهداء بهذا المجزرة ٨٥ / شهيداً، كان ذلك بتاريخ ٢١ / ٨ / ٢٠١٣ م.

كلُّ ذلك كان على مرأى ومسمعٍ من دول العالم كلّها، تواطأت في ذلك جميعُ الدول التي تدّعي حقوق الإنسان ومنظمة العفو الدوليّة والأمم المتّحدة الذين شاركوا في قتل الشعب السُّوريّ بصمتهم وتخاذلهم عن نصرته، وعدم إدانة ما يحصل من قتلٍ وهدمٍ وتشريدٍ وحصارٍ وتجويعٍ ومجازر، واستعمالٍ لجميع أنواع الأسلحة الفتّاكة والمحرمّة دوليّاً، في إشارة واضحةٍ إلى أنّها حربٌ صليبيّةٌ شيعيّةٌ مجوسيّةٌ للقضاء على أهل السُّنة في بلاد الشّام، ومازالت فصولُ المؤامرة تسير وتمضي بشكلٍ ممنهجٍ على هذا البلد المنكوب حتى غدا الشعب السُّوريّ بين مهجّرٍ وشهيدٍ وأسيرٍ ومفقودٍ، وحتى غدت سوريا خاويةً على عروشها من غير بشرٍ ولا حجرٍ ولا شجرٍ، يُدكّرُك حالها بما فعله المغولُ و التتارُ والصليبيُّون قبل سبعة قرونٍ مضتٍ من الهمجية والمغولية والتترية وأحفاد الصليب .

١٨- تأمر وتواطؤ، اختبار وتمحيص، تدويل وصوملة^(١):

بات الوضع العسكري مشلولاً إلى حدٍ كبيرٍ لأسبابٍ كثيرةٍ، منها:

(١)- الصوملة: هو مصطلحٌ حديثٌ ظهر بعد نشوء الاقتتال الداخلي في الصومال والذي دام لسنواتٍ عديدةٍ ولم ينتهِ بعد، فانتشر هذا المصطلح على الأحداث الطويلة الأمد في انتهائها.

أسبابٌ داخليةٌ: (كالتشرذم والافتتال الداخلي مثلاً)، الذي كان له آثارٌ سلبيةٌ على نفسيّات المقاتلين وخروج بعضهم من السّاحة الميدانيّة والقتاليّة حتى لا يخوضوا في دماء إخوانهم، فضلاً عمّا أصاب قلوبهم من حقدٍ وبغضٍ تجاه بعضهم قد لا ينسونه لسنواتٍ طويلةٍ قادمة.

أسبابٌ خارجيّةٌ: (ك: توقّف الدُّول الدّاعمة للثّورة والثّوار أو التّخفيف من دعمها، بل والتّأمّر عليها)، وذلك بحجّة الإرهاب التي ألصقتها ببعض الفصائل الإسلاميّة في الوقت الذي غضّت فيه النّظر عن الميليشيات الشّيعيّة والطّائفيّة المصنّفة أصلاً وتجاهلها، بل ودعمها علانيةً بكلِّ ما تحتاج إليه من سلاحٍ ومالٍ للقضاء على الثّورة والثّوار.

مع تجفيفٍ كاملٍ شاملٍ وممنهجٍ لكلّ أنواع الدّعم السّابق بما فيه المادي؛ ليبقى العنصرُ المقاتلُ يفكّر فيما يملأ بطنه وبطنَ أبنائه وعائلته طعاماً يسدُّ رمقهم، وليدفع بعضهم إلى سلوك الأساليب الملتوية والانحراف السّلوكيّ في تحصيل المال من خلال السرقة والخطف والتّشليح والابتزاز وغير ذلك.

فُزيت الصُّفوف، وتمحّصت القلوب، وتغرّبل المخدّلون، وكُشفَ المنافقون، وفُضحَ المرجفون، ونزلت طائراتُ الهيلوكوبتر لتأخذَ عملاءها الذين أدّوا دورهم بجدارةٍ ونجاحٍ ومكرٍ، وعادَ العملاءُ الخبثاءُ إلى حضن الأسد المجرم بعدما استكملوا أدوارهم في الجاسوسيّة والتّخذيل والتّسليم، وسقطَ بعضُ الذين انتسبوا للثّورة من أجل مالٍ زائلٍ ومتاعٍ رخيصٍ بعدما انكشف أمرهم وافْتُضحَ زيفهم، وما زال الغربال يعمل، وما زال السُّقوط جارياً في مستنقع الفضيحة والخيانة من الدّاخل ممّن لبسوا لبوس العسكرة، ومن الخارج ممّن امتطوا جياذ السّياسة، والسّياسة منهم براء، ولكن ما كانوا ليظهروا على حقيقتهم لولا تلك المحن والملمات، (ليميز الله الخبيث من الطيّب).

يبدو أنّ الثّورة السّوريّة باتت تسير في طريق الصّوملة بعدما استحكمت فيها الدُّول، فلم تعدّ تلبّي مطالبَ شعبٍ أعزلٍ صاحبٍ قضيةٍ عادلةٍ مشروعةٍ في الحصول على حقوقه المسلوبة، وإنّما أصبحت معركةً صليبيّةً بامتياز بعدما اصطفّت كلّ قوى العالم على اختلاف أطرافها وجنسيّاتها للسيّطرة والنّفوذ على بلاد الشّام وما فيها من ثرواتٍ باطنيّةٍ هائلةٍ ومواردٍ طبيعيّةٍ وافرة، فضلاً عن الأهداف الحقيقيّة (العقدية) التي قد يخفونها أحياناً، لكنّها تأبى إلا الظّهور من خلال مكرهم وخبثهم وغدرهم وحقدهم الدّفين على أمة الإسلام، فكان إطالة أمد الثّورة من خلال التّحكّم

الدّولي بمنظومة الدّعم، ولعب دور الحَكَم بين النّظام المجرم والمعارضة الثّوريّة والسّياسيّة بما يضمن إطالة فترة الأزمة حتى تحقّق تلك الدّول (أمريكا- روسيا - إيران -...) أهدافها الخبيثة التي ترجوها.

١٩- صفاء ونقاء، مقابل خُبث ودَهَاء:

الأخطاء التي حدثت في الثّورة السّورية هي أمرٌ طبيعيٌّ في الوقت الذي لم يعرف الثّوار فيه الكثير عن الثّورات وطبيعتها، وهذا إن دلّ على شيءٍ فإنّما يدلّ على فطريّة هذا الشّعب الكريم ونقاوة معدنه وعدم التّحامل والتّحايل على غيره، بل تميّزوا بنظرة حسن الظّنّ تجاه غيرهم، وخصوصاً نحو المهاجرين الأجانب الذين قدّموا للدّفاع عنهم بعدما أبدوا حماسهم وتعاطفهم مع الثّورة وأهلها، حيث انضمّ المئات منهم إلى صفوف المقاتلين ليزيدوا من قوّة المجاهدين ويُسرّعوا في القضاء على عصابة الأسد المجرمة (حسب زعمهم وظنّهم)، مع ما استقدموه من مالٍ سياسيٍّ مشبوه المصادر، فكان دخولهم ودخول المال السّياسي والدّعم المشروط وغير المباشر باسم الثّورة ودعمها لتشكيل المزيد من الألوية والفصائل وظهور قياداتٍ مختلفة الولاءات، حتى غدت السّاحة السّوريّة كأنّها غرفة عمليّات عسكريّة للدّول الغربيّة ذات المصالح، تحت غطاء الدّعم المتنوّع (المالي - العسكري - الإغاثي - الإنساني...)، وهذا يعني أنّ الثّورة وأهلها باتوا أدواتٍ ومطابا لتنفيذ مشاريع الآخرين من خلال الاختراق الفاضح الذي استطاعوا تنفيذه في الثّورة والثّوار.

٢٠- نجاحات وإنجازات رغم القلّة والحصار:

بالرّغم من التّحدّيات التي اعترضت الثّورة السّوريّة والعقبات التي أحاطت بها من كلّ جانبٍ إلا أنّها حقّقت نجاحاتٍ وأظهرت إنجازاتٍ قلّ أن تظهر في تاريخ الثّورات التي تماثل الثّورة السّوريّة في أحوالها وظروفها، ومن هذه النّجاحات ما يلي:

١- إسقاط هيبة الطّاغية من عيون الشّعب السّوريّ، وفضح مخططات العصابة الأسدية في نهب وسرقة واستنزاف ثروات وخيرات البلد طيلة العقود الماضية من حكم الطّاغية النّصيريّة في وقتٍ كان للجدران فيه آذان تقطّع أنفاس النّاس وتكمّم أفواههم وتلجم ألسنتهم.

٢- تجاوز عقدة الخوف والرعب الذي كان تغلغل في قلوب الناس، ولاحقهم في بيوتهم، ورافقهم في جميع مجالسهم فنغص عليهم معيشتهم، وأقضى مضاجعهم وأحال حياتهم إلى خوف ورعب وقلق واضطراب.

٣- استحضار الناس لتاريخ حضارتهم المجيد بعد أن غُيِّبوا عنها لعقود قاحلة قاتمة، فكانت الثورة محطة وحافزاً كبيراً لاستعادة عزهم وكرامة أمتهم من جديد.

٤- تحرُّك النخب بكلِّ ألوانها وتخصصاتها لاستنهاض شباب البلد وفتح المجال أمامهم للنجاح والتَّمييز والإبداع العلمي والفكري والثقافي وغيره.

٥- فضح المنظومة الدوليَّة بكلِّ مؤسساتها وأدواتها وإظهار حقيقة خداعهم للشُّعوب المظلومة، وكشف كذب الشِّعارات التي يدَّعونها في الدِّفاع عن حقوق الإنسان والوقوف مع الشُّعوب المظلومة والمنكوبة، حيث كانت الثورة السُّورية فاضحةً لهم وكاشفةً لكلِّ أكاذيبهم.

٦- التَّألق والإبداع العلميُّ بكلِّ فروعه ومجالاته أمام الشَّباب السُّوري بعد الانفتاح والهجرة إلى دول اللجوء، حيث درس فابدع وتميَّز وتألق ونال أعلى المراتب وأفضل الدَّرجات في المدارس والجامعات.

٧- الأنموذج الرَّائع للشَّعب السُّوريِّ البطل في الصَّبْر والتَّحُمُّل والثَّبات، وهو ظاهرٌ وواضحٌ من خلال التَّأمر الذي رافقه طيلة سنوات الثورة من قتلٍ وحِصارٍ وتدميرٍ وتَشريدٍ وتَهْجِيرٍ، وما زال ثابتاً على مبادئ ثورته، صابراً محتسباً أجره عند خالقه ومدبر أمره.

٢١- إخفاقات وانتكاسات أمام أسباب وتحديات:

لم يكن الشَّعب السُّوريُّ على درايةٍ كافيةٍ بطبيعة وحقيقة النِّظام النُّصيريِّ الذي يحكمه، ولم يتوقع من هذا النِّظام أن يتعامل مع الثورة وأهلها بهذا الإجرام الفظيع، غير مباليٍّ بأيَّة أعرافٍ أو قيمٍ أو ضوابط أخلاقيَّة وإنسانيَّة، ومع كلِّ هذا فقد صبرَ وتصبَّرَ وتصدَّى لكلِّ أنواع الفجور والإجرام التي مورست عليه طيلة سنوات الثورة، إلا أنه (هذا الشَّعب) كان حديث عهدٍ بثقافة الثُّورات وتداعياتها المختلفة، فوقع في شرك بعض الانتكاسات، وأصابته بعض الاخفاقات العسكريَّة والسِّياسيَّة والمدنيَّة التي أرخت بآثارها السَّلبِيَّة على الواقع والحاضنة، والتي تتجلى بما يلي:

١- فُقِدَانِ السَّيْطَرَةِ على جزءٍ كبيرٍ من المناطق المحرَّرة بعد أن توسَّعت وبلغت ثلثي مساحة سوريا، وهو ما ترك أثراً سلبياً في نفوس الحاضنة الشَّعبية والعسكرية على حدٍّ سواء بعد استشهاد عشرات الآلاف من الشُّهداء الأطهار في تحريرها وتطهيرها من رجس النِّظام الأُسديِّ القاتل.

٢- عدم وضوح الرؤية، وغياب المشروع الجامع عند النُّخبِ والثُّوار الذين تصدَّروا المشهد السياسي والعسكري، وعجزهم عن تشكيل قيادةٍ سياسيَّة وعسكريَّة فاعلةٍ تستطيع تلبية طموحات الشَّعب السوريِّ، وتنقل قضيتَه إلى المحافل الدُّولية، وتُفنع الدُّولَ صاحبة القرار بشريَّة القضية السوريَّة وأحقَّيتها.

٣- التَّخاذلُ الدُّوليُّ تجاه القضية السوريَّة، وتقاعسه عن نصرتها والوقوف مع شعبيها، كما كان حاله مع بقية الثُّورات ونصرة شعوبها.

٤- الاختراق الأمني الذي نَخَرَ في جسد الثَّورة السوريَّة وتغلغل في كلِّ جوانبها العسكريَّة والسياسيَّة والمدنيَّة، وفَتَكَ بالحاضنة الشَّعبية، فكان من أخطر الأساليب التي اعتمدها النِّظامُ الأُسديُّ في محاولته القضاء على الثَّورة وأهلها من خلال دَسِّ الجواسيس بين صفوفهم ونشر الإشاعات والأكاذيب في قلوبهم، والقيام بالتفجيرات والمفخَّخات في شوارعهم وأحيائهم؛ لبثِّ الرُّعب والخوف والفوضى في مناطقهم المحرَّرة.

٥- الاختلافات البينيَّة المختلفة التي تطوَّرت وأدَّت إلى اقتتالاتٍ داخليَّةٍ راح ضحيتها آلاف القتلى والجرحى من إخوة السِّلاح، والتي تركت الأثار المؤلمة في قلوب الإخوة المتقاتلين فحوَّلتهم إلى أعداء متخاصمين فيما بينهم، في الوقت الذي لم يُفرِّق العدوُّ النُّصيريُّ بينهم عند قصفهم وتدمير المدن والقرى فوق رؤوسهم.

٦- الاختلافات العقديَّة التي غرَّت بعض العقول بعد مرحلة التَّصحُّر الفكريِّ والسياسيِّ عند الكثير من الثُّوار، حيث غدت السَّاحة السوريَّة سوقاً للبضائع الفكرية المستجَلبة من خارج الحدود، جعلت من الثُّوار أداةً طيَّعةً وسيفاً قاتلاً لكلِّ مَنْ يخالفهم أو يخالف منهجهم الجديد، وهو ما كان سبباً في إطلاق أحكام الرِّدَّة والتَّكفير من الأخ على أخيه، ومن الولد على أبيه، في مرحلة من مراحل الثَّورة، فانتشر الحقد والكُرَّة في الحيِّ الواحد، وفُقدت الثقة بينهم، وتنافرت القلوب وتمايزت الصُّفوفُ على أساس الفكر والتَّصورات العقديَّة.

٧- هجرة العقول من أصحاب الكفاءات العلميّة والفكريّة من السّاحة السّوريّة إلى الدّول الأخرى؛ لأسباب متعدّدة منها: ما هو مقبول، ومنها ما هو مرفوض.

لكنّ بالمحصّلة: فقد كان لهجرة العقول من ساحة الثّورة آثارٌ سيئةٌ، حيث كان الثّوار بأمرٍ الحاجة إليهم في التّوعية والتّربية والتّوجيه والإرشاد، فضلاً عن قطع السّبل وعدم إتاحة الفرصة لأصحاب الأفكار الأخرى لتحلّ مكانهم وتملأ عقول أبنائنا بدلاً منهم.

٨- فشل الإعلام الثّوري في تحريك الشّارع ونقل الوقائع والأحداث بالشّكل الذي ينبغي، وبالصّورة الصّحيحة التي يحتاجها النّاس، حتى لا يختطفهم الإعلام المعادي للثّورة والثّوار، وهو ما استغلّه النّظام المجرم بحكمةٍ وحنكةٍ ضمن منظومته الإعلامية المختصة التي استطاعت قلب الحقائق وتزييف الوقائع والأحداث، ونشر الأكاذيب والشّائعات؛ لبث الرّعب والفوضى وزرع الخلل والاضطراب بين صفوف خصومه الذين عجزوا عمّا نجح فيه، وأخفقوا في هذا المجال رغم امتلاكهم الوسائل والأدوات الإعلاميّة الكافية.

ولعلّ من أهمّ أسباب هذا الفشل: عدم وجود المكاتب الإعلامية الموحدّة، الذي يقطع الطّرق أمام الأعمال والنّشاطات الفرديّة والعشوائيّة، وكذلك عدم التّقيد والانضباط الإعلاميّ المنتظم ضمن برامج واضحة وأهدافٍ توصل الأخبار الحقيقيّة وتوصّف الوقائع بدقةٍ ومهنيّة وأمانة.

ومن جميل ما كتّب بهذا الخصوص ما لخّصه الباحث ياسر محمد القادري^(١) في بحثه بعنوان: (ملاحم الرّبيع السّوري وأبرز تحدّياته)، كورقةٍ بحثيّة ألقاها في مؤتمر شباب التّغيير بمدينة استنبول بتاريخ ٢٢ / ١ / ٢٠٢٢ م، والتي ختمها ببعض التّوصيات جاء فيها:

"قد مرّ الشّعب السّوري بمحطّات صراعٍ عديدةٍ مع النّظام السّوري منذ وصول حزب البعث إلى السّلطة ١٩٦٣ م، إلا أنّها كانت متفاوتةً من حيث الرّخم والاتّساع، ومن حيث الآليات والوسائل.

ومن المؤكّد أنّ أوج هذا الصّراع تجلّى في الثّورة الشّعبية عام ٢٠١١ م، وبغضّ النّظر عن ظروف وحجم تلك المحطّات إلا أنّ الثّابت الوحيد الذي صاحَب كلّ تلك الجولات كان "المأساة الإنسانية" التي تعرّض لها الشّعب السّوري ابتداءً من الانقلابات الدّمويّة في السّتينيات ومروراً

(١)- ياسر محمد القادري، سوري من مواليد دمشق، ماجستير في الدراسات الإسلامية، حاصل على دبلوم في العلوم السياسية، وطالب دكتوراه في الفقه الإسلامي، متخصص في السياسة الشرعية وباحث في الشؤون السياسية، منسق البرامج العلمية في مركز معراج للبحوث والدراسات.

بالمجازر التي ارتكبتها النظامُ الأسدِيّ في حماة وجسر الشُّغور في الثَّمانينَّات، ومجازر سجنِي تدمر وصيدنايا، وصولاً إلى المجازر الدِّمويَّة خلال سنوات الثَّورة التي خلَّفت حوالي مليون شهيد، ونصف مليون معتقل ومفقود، وثلاثة عشر مليون مهجرٍ، يعاني مرارة التَّشريد واللجوء والاعتراب.."

وقد استعرضتُ هذه الورقةُ أبرز الإنجازات التي حقَّقتها الثَّورة السُّوريَّة من وجهة نظر الباحث، وفي المقابل أبرز الإخفاقات التي مُنيتُ بها، ثمَّ حاولَ تحليلَ مجمل الأسباب التي أدَّت لهذه الانتكاسات، وأبرز الاستراتيجيَّات التي اعتمدها النظام في خياره القمعيِّ، وأخيراً رصدَ أبرز التَّحدّيات التي تواجه الثَّورة السُّوريَّة بعد نحو إحدى عشرة سنةً على اندلاعها.

وسنستعرض أبرز نتائج هذه الورقة:

أولاً: بالرَّغم من التَّكلفة الباهظة والتَّضحيات التي قدَّمتها السُّوريُّون فإنَّ جملةً من المكتسبات يمكن تقريرها، وهي:

١- أعظم مكاسب الثَّورة يتمثَّل في قرار الشَّعب السُّوريِّ إنهاء حكم نظام الأسد، بعد سيطرته على البلاد بالحديد والنَّار، وقد شاركتُ مختلفُ شرائح الشَّعب السُّوري في الثَّورة.

وعلى الرَّغم من أنَّ هذا النِّظام لم يسقط نهائياً لأسبابٍ عدَّة، إلا أنَّ المؤكَّد أنَّه فقدَ شرعيَّته ومقوِّمات استمراره، ولن يتمكَّن من العودة لحكم سوريا مجدداً.

٢- أعادت الثَّورة الشَّعب السُّوريِّ لمحيطه العربيِّ وعمقه الإسلاميِّ، وساهمتُ بانفتاحه على أمته وعزَّزتُ انتماءه لها بعد أن عزله نظام الأسد عن أمته رداً من الرَّم.

٣- ساهمت الثَّورة في إعادة هيكلة المنظومة الرُّبويَّة والنِّظام التَّعليميِّ لأبناء الثَّورة بما يتوافق مع هويَّة الشَّعب السُّوريِّ ودينه وثقافته، وساهمتُ النُّهضة التَّعليميَّة التي شهدتها المناطق المحرَّرة في نموِّ وعي المجتمع السُّوريِّ، وإعادة برمجة خارطة الاهتمامات العلميَّة في المحرَّر وبلدان اللجوء.

٤- استعادت المرجعيَّة الإسلاميَّة في زمن الثَّورة دورها في المشاركة بالحياة العامَّة على مختلف المستويات، وفضحتُ في الوقت ذاته المحسوبين على الدِّين ممَّن وقفوا مع الظَّالم وباركوا مجازره وخانوا أبناء شعبيهم.

٥- فضحت الثورة السوريّة ما يُسمّى بـ "محور المقاومة والممانعة"؛ الشعار الذي تاجر به النظام السوري وإيران وأذرعها، وتسَلَّلوا من خلاله إلى حِصْنِ الشُّعوب العربيّة والمسلمة.

وكذلك هناك إنجازات أخرى يمكن ذكرها، منها ما تحقّق للشَّعب من دربةٍ وممارسةٍ للعمل المدني الحرِّ الداعم للثورة في الدَّاخل والخارج السوريِّ الممثل في منظمّات المجتمع المدني والتي كان لها دورٌ فاعلٌ في دعم الثورة ومساندتها على مختلف الأصعدة.

ومنها ما تحقّق للنُخب السوريّة من ممارسةٍ سياسيّةٍ حُرِمَتْ منها عقوداً من الزَّمن، والتي أفرزت بدورها كياناتٍ متعدّدة أثّرت التَّجربةُ السياسيّةُ الناشئة بالرَّغم من محاصرتها فيما بعد من قِبَلِ المؤثّرين الدُّوليين الكبار.

كثيرٌ من الإنجازات حقّقتها الثورة السوريّة خلال السَّنوات الماضية، إلا أنّ قسوة المشهد إنسانياً وتراجع الثُّوار ميدانياً، وانسداد الأفق سياسياً، قد يطوي قدراً من الإنجازات عن الوضوح والملاحظة، وما تلبث أن تتغيّر الظروف وتستعيد الثورة زمام المبادرة ليتضح حجم الإنجاز التاريخي لهذه الثورة العظيمة على المستويين العربي والإسلامي.

ثانياً: في مقابل الإنجازات فقد مُنيت الثورة السوريّة بالعديد من الانتكاسات والإخفاقات، ويمكن رصد أبرز هذه الانتكاسات الثوريّة في النِّقاط التَّالية:

١- استعادة النظام السوري وحلفاؤه السَّيطرة على غالبية الجغرافيا السوريّة بعد أن سيطرت فصائل الثورة أواسط العام ٢٠١٣ م على ٨٠% من التُّراب السوري وكانت قاب قوسين أو أدنى من حسم المعركة وإسقاط النظام.

٢- إضاعة الثُّوار للعديد من الفرص التي كان من الممكن أن تحسم المعركة ميدانياً، وسوء إدارة العلاقة مع الحلفاء؛ بالتفريط بهم وعدم تفهيم مصالحهم، أو بالانبطاح لهم مع فقدان الخصوصية واستقلاليّة القرار.

٣- تفرّق الصَّف الثوريِّ سياسياً وعسكرياً وعجز الثُّوار عن صياغة قيادةٍ سياسيّة وعسكريّة واحدة.

٤- تحطيم الرُّموز وشيطة الشخصيات الثورية، وهو ما ساهم في تئيس النَّاس من إمكانيّة التَّغيير، وأضعف ثقتهم بالثورة وقياداتها.

٥- غياب الثقة المجتمعية بفعل سياسة النظام الخبيثة وبعض الأخطاء من فصائل ومؤسسات الثورة.

٦- تراجع الموقف الدولي من الثورة السورية بفعل مجموع المتغيرات السلبية التي طرأت على الواقع السوري.

ثالثاً: رغم صعوبة حصر أسباب الخسائر التي منيت بها الثورة بسبب تشابك الحالة السورية وتعقدها إلا أنها كانت تدور في مجملها بين كيد الأعداء وجهل الأبناء.

لذا يمكن أن نميزها من خلال اعتبارين اثنين:

١- معظم الأسباب التي أوصلت الثورة إلى واقعها الحالي هي أسباب داخلية؛ فتردد فئات ومناطق مؤثرة في تأييد الثورة في لحظة كان يمكن فيها الحسم المبكر لصالح الثورة، ومغادرة معظم النخب الفاعلة، وإخلاء الساحة مبكراً لقادة الصُدفة وأفكار الغلو، وإهدار الفرص المتتالية، والتنافس العسكري والسياسي على مشاريع القيادة مع التردد في مشاريع التوحيد، وتبني عقلية التغلب ثم الصراع العسكري، والفصام بين الفصائل العسكرية والهيئات السياسية، مع ضياع بوصلة الكثيرين بين الإفراط والتفريط.. كل ذلك من الأسباب التي هي من عند أنفسنا.

٢- في المقابل ولاكتمال الصورة وتجنب المبالغة في جلد الذات فقد كانت هناك أسباب أخرى خارجية كان لها أكبر الأثر في تراجع الثورة، وفي مقدمتها:

إجرام النظام المفتوح بحق أبناء الثورة، وبرود الموقف الدولي تجاه سلوك النظام، وقمعه للشعب السوري واكتفائه بتصريحات الإدانة، وتدخل الاحتلالين الروسي والإيراني على قاعدة مواجهة الثورة وتمكين النظام، والدور العربي المتردد على المستوى الرسمي في الوقوف إلى جانب الشعب السوري وإنهاء معاناته.

رابعاً: اعتمد النظام السوري وحلفاؤه في مواجهة الثورة الشعبية على جملة من الاستراتيجيات القمعية، أبرزها:

١- استخدام شتى أنواع الأسلحة بدءاً بالسلاح الأبيض، وليس انتهاءً بالمدفعية والطائرات والدبابات والصواريخ والأسلحة المحرمة والسلاح الكيميائي لارتكاب المجازر الجماعية وجعل فاتورة الموت مستمرة بحق الشعب.

- ٢- الملاحقات الأمنية والاعتقال العشوائي والمنظم وملء السجون بنصف مليون معتقل.
- ٣- حصار المناطق الثائرة وتجويع أهلها، ثم حرقها وهدمها على رؤوس الأمنيين، ثم استباحة أملاكهم ومقدساتهم، وتهجيرهم عن أوطانهم، وإحلال وافدين طائفيين لتغيير التركيبة السكانية.
- ٤- اختراق المناطق الثائرة بالعملاء وتوظيفهم في جمع المعلومات وممارسة دور التخدير والتبشير بعودته.
- ٥- تجيش العنصر الطائفي في نفوس أتباعه وتعبئهم بالشعارات الطائفية.
- ٦- صناعة بربوغاندا إعلامية لشحن الأتباع وتشويش الخصوم، وتبني رواية الحرب على الإرهاب لتلين الموقف الدولي وتبرير جرائمه.
- ٧- استدعاء احتلالات خارجية مقابل مقدرات البلد وجعله مستباحاً لمشاريع التشييع والتغيير الديموغرافي.
- خامساً: نجحت الثورة السورية في تحقيق بعض الإنجازات وأخفقت في بعض المحطات، وباعتبار أن الثورة ما تزال مستمرة، لذلك يمكن التعامل مع هذه الإخفاقات بصفتها تحديات تحتاج لمواجهتها على بصيرة، وأبرز هذه التحديات:
- ١- الحفاظ على المناطق المحررة من أي تراجع جديد، وإدارتها عبر قيادة واحدة.
- ٢- صناعة البديل السياسي والعسكري القادر على إدارة المعركة باقتدار، وإقناع العالم بتمثيله للشعب السوري.
- ٣- إعادة الثورة السورية إلى المحافل الدولية بصفتها ممثلاً عن الشعب السوري، وإبعاد النظام عن أي تأثير.
- ٤- هرولة معظم الدول العربية إلى تطبيع علاقاتها مع النظام والمساهمة في تعويمه ورفع الحصار عنه دولياً.
- ٥- مشاريع الانفصال المهددة لثوابت الثورة، وفي مقدمتها: (قسد وداعش).
- ٦- الحرب على هوية المجتمع السوري الدينية والتاريخية والثقافية.

٧- التغلغل الإيراني على مختلف المستويات، وإطلاق يده في مشاريع التشيع والتغيير الديموغرافي.

٨- عقبات اللجوء ومصاعب التهجير.

تلكم هي أبرز النتائج، ويبقى أن يوصي الباحث بالتوصيات التالية:

١- أولوية تجديد روح الثورة في نفوس أبنائها من خلال التركيز على قيم الثورة الأساسية التي تعرضت للتشويه على المستوى الفكري والسلوكي بفعل الزمن وكثرة المحن وتغير النفوس وركون البعض للتعامل مع الواقع بأدوات الاستقرار.

٢- الحاجة إلى أن تأخذ النخب الفكرية والثورية دورها في صناعة خطاب ثوري متوازن يتجنب الإفراط والتفريط، ويركز على الثوابت والنقاط الجامعة، وأبرز عوامل نجاح النخب في هذه المهمة التواجد الميداني ومعايشة الواقع وتحدياته.

٣- التركيز على إنتاج قيادة سياسية موحدة تمثل الثورة تمثيلاً حقيقياً، وتؤمن بثوابت الثورة، وتُجيد الخطاب التجميعي، وتعيد الثقة لأبناء الشعب وتُفعل دور الإعلام وتُشرف على التنظيم العسكري والإداري في المحرر.

٤- اعتماد القيادات الثورية استراتيجية لاستعادة الثقة المجتمعية من خلال تبني بعض المفاهيم، كالشفافية والمراقبة والمحاسبة وقيم الحوكمة الرشيدة.

٥- التنسيق بين المؤسسات والهيئات الثورية المختلفة في آليات منع تعويم النظام دولياً أو التطبيع معه عربياً.

٦- منح قضية الحرب على الهوية السورية أولوية في المواجهة، ومقاومتها بكل الوسائل وفي كل المحافل، وإعداد الدراسات حول مخاطرها، والآليات العملية لمواجهتها.

٧- الاستفادة من خبرات أصحاب التجربة، والعمل على ترميز بعض الشخصيات. وفي المقابل كسر احتكار بعض القيادات والشخصيات السياسية التي أصبحت محاطة بالتعقيدات وفارقة لثقة الناس لا سيما تلك التي تكرّر فشلها.

المبحث السادس

النُخبُ والمرجعيّاتُ الشرعيّةُ ودورها في الثورة السوريّة

المطلب الأول: حاجةُ الثّورة إلى العلماء والدُّعاة

المطلب الثاني: أقسامُ الشرعيّين باعتبار ولائهم وتحصيلهم العلمي في الثّورة

المطلب الثالث: الشرعيّون والفصائل العسكريّة

المطلب الرّابع: المهام الرئيسيّة للشرعيّين وتأثيرهم في السّاحة السوريّة

المطلب الخامس: الهيئاتُ الشرعيّةُ خارج السّاحة السوريّة

المطلب السادس: تياراتُ الفكر الإسلاميّ في الثّورة السوريّة

النُخب والمرجعيّات الشرعيّة ودورها في الثورة السوريّة

تمهيد:

هذا المبحث من الأبحاث المهمّة في الكتاب: لأنّ النُخب هي المرجعيّات الرئيسيّة للشُعوب في كلّ أمورِها الحياتيّة العامّة، وهي أوّلَى بذلك فيما يقرّر مصيرهم وأمنهم ضمن مجتمعاتهم في مدنها وقراهم.

يعرّف المفكّر الإسلامي عمر عبيد حسنة^(١)، النُخبَة بأنها: "تلك الطّليعة من النّاس التي تعتبر أنّ الانتماء إلى النُخبَة تكليفاً قبل أن يكون تشريعاً، والتي تعيش شعوراً وإحساساً داخليّاً يمدّها بطاقة التّحمّل لمواجهة الواقع السيّئ في المجتمع، وتكابد من أجل تغييره نحو الأحسن".

ومن المعلوم أنّ كلّ التّخصّصات العلميّة والفكريّة لها نُخبٌ مُختصّةٌ فيها، ومُبدعةٌ بعلومها وأمورها، يجمعها الهمُّ والأمانة والمسؤوليّة للتّغيير نحو مجتمعٍ أفضلٍ وحياةٍ أسعدَ وأكمل.

وهذا يعني أنّ المقصود بالنُخب هم القاماتُ الفكريّة والثّقافيّة والعسكريّة والسّياسيّة والاجتماعيّة والدّينيّة والإعلاميّة الفاعلة في المجتمعات، والمؤثّرة في الحواضن الشّعبية والجراك الجماهيريّ والثّوريّ.

وفي هذا المبحث سأتكلم عن النُخب الدّينيّة أو المرجعيّات الشرعيّة التي تعني: العلماء والمفكرين من الدّعاة وطلاب العلم والمشايخ الذين يُعنون بتسديد المسار الدّيني وتصويب البوصلة الشرعيّة والسلوكيّة، ضمن الضّوابط الشرعيّة والمعايير الأخلاقيّة والمبادئ الثّابتة لديننا الإسلاميّ الحنيف، وخصوصاً أنّ الشّعب السوريّ ينظر إلى العلماء والدّعاة نظرة التّقدير والاحترام، وهو في الثّورة أحوَجُ إلّهم وإلى توجيهاتهم وتوصياتهم ونصائحهم على الدّوام.

(١) - عمر عبيد حسنة: ولد في بلدة قطنا سوريا عام ١٩٣٥م، مفكر إسلامي وأديب صحفي واسع الاطلاع على التراث العربي والفكر الغربي، مدير مركز البحوث والدراسات التابع لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، وعضو مجلس كلية الشريعة والقانون والدراسات الإسلامية بجامعة قطر، له كثير من المؤلفات والمقالات الفكرية.

المطلب الأول: حاجة الثورة إلى العلماء والدعاة:

صحيح أنّ المسؤولين المترتبة على الثورة من حيث التقصير بها، أو التخاذل عنها، أو الهروب منها، أو التعدي عليها، تتحمّله النخب بكلّ أنواعها، إلا أنّ النصيب الأكبر من المسؤولية تلقى على عاتق النخب الدينيّة والمرجعيات الشرعيّة وخاصّةً في سوريا، الذين لم يلتحقوا بالثورة مع إخوانهم بالمستوى الذي يتطلّبه الواجب منهم، حيث إنّ الساحة الثوريّة تحتاجهم أكثر من غيرهم بكثيرٍ، وذلك لأسباب كثيرة، منها:

١- من الواضح تماماً أنّ النظام الفاجر مارس ظلمه واستبداده على الشعب السوري بشكلٍ عامٍ، وركّز ظلمه بحقدٍ وضغينةٍ واستئصالٍ بشكلٍ ممنهجٍ على الطائفة السنيّة، وهذا ما لا يحتاج إلى كثيرٍ شرحٍ وتوضيحٍ، فكان من الطبيعي أن يكون شباب الثورة من أولاد وأحفاد السابقين أو ممّن ما زال يعاني من إجرام هذا النظام القاتل.

٢- صحيح أنّ الثورة السوريّة عندما انطلقت؛ انطلقت من نشاطات أطفال درعا، ثمّ التحق بهم أمثالهم من الأطفال والشباب الذين لا يعرفون الخوف ولم يعايشوه في السجون، فخرجوا يريدون الحرية والكرامة، ثمّ سرعان ما عادوا إلى المساجد لينطلقوا منها، يلتمسون التوجيهات والنصائح من مشايخهم في كلّ أمورهم؛ لأنّ الجميع مفطورٌ على حبّ الدين والقيم والأخلاق والعلماء.

٣- عند تحوّل الثورة إلى المواجهة المسلّحة وبدأت التشكيلات العسكريّة، كانت معظم تلك التشكيلات إسلاميّة بفطرتها، ولو اختلفت في طبيعة مدارسها الفكرية أو مشاربها الفقهية والعقدية.

٤- كان النظام الأسدّي المجرم قد عمل على سلخ الشعب السوريّ عن هويّته الأصليّة ومارس عليه التّصخّر السياسيّ من خلال زجّ عشرات الآلاف منهم في السجون وإعدامهم على أعواد المشانق، مع منعه من تشكيل الأحزاب السياسيّة التي من شأنها أن تعكّر على النظام مكرّه، وتفضح خيانتته، وتكشف طبيعة نظامه، فتعطلّ بذلك استمرارية حياته السياسيّة والعسكريّة، بنفس الوقت الذي تعمل هذه الأحزاب على التوعية والتوجيه وتحريض الناس على المطالبة بحقوقهم المشروعة.

٥- في الثورة السورية استجدَّ الكثير من المسائل الفقهيَّة والنَّوازل الجديدة التي لم تكن من قبل، ولم يكن الثَّائرون على معرفةٍ وعلمٍ بذلك، فكانت الحاجةُ لأهل العلم في التَّفصيل والشُّروح والافتاء فيها.

النُّخبُ الدينيَّة "الشَّرعيُّون":

سأتناول في هذا المبحث من الكتابِ الموضوعَ الشرعيَّ ودوره وأهميَّة وجوده في الثورة السوريَّة سلباً وإيجاباً، وكيف استُعمل هذا الاسم في كثيرٍ من الأحيان في غير مكانه، بل وكيف استُغل من بعض الجهات لتبرير انحرافاتهم، ولتزيين خداعهم، والنَّيل من الثَّورة وتشويه سمعتها، ولذلك كان لا بدَّ من التَّعريح على هذا الموضوع بشيءٍ من الإسهاب والتَّفصيل؛ لأنَّ السَّاحة السوريَّة قد أصابها داءٌ كبيرٌ وبلاءٌ مستطيرٌ من جرَّاء ذلك.

فمن أين جاءت كلمةُ (الشَّرعيّ) وكيف تحوَّلت إلى ظاهرةٍ عامَّةٍ واسعة الانتشار، وأصبحت فيما بعدُ حاجةً ماسَّةً وملحَّةً في المجتمع لا يمكن الاستمرار بدونها.

الشَّرع لغةً: هو الطَّريق.

واصطلاحاً: ما شرعه الله تعالى، مثل: الصَّلوات والزَّكوات المفروضة.

الشَّرعيّ: هو المنسوب إلى الشَّرع، كالطَّبيب الشَّرعيّ، أو القاضي الشَّرعيّ، أو الوصيِّ الشَّرعيّ.

هذا هو المعنى الأصليُّ لكلمة الشَّرعيّ.

ومن هذا المنطلق كان إطلاقُ كلمةِ الشَّرعيّ على الشَّخصِ صاحبِ العلمِ الذي يكون بين المجاهدين، يقدِّم لهم النُّصح والعلم والتَّوجيه والإرشاد في كلِّ ما يعترضهم من مسائل شرعيَّة ومستجدَّاتٍ فقهيةٍ تحتاج إلى بحثٍ وشرحٍ وتفصيلٍ، وخصوصاً مع تغيُّر الأحداث في السَّاحة السوريَّة، حيث أصبحت ظاهرةُ الشَّرعيّ حاجةً ماسَّةً، لا سيَّما بعد ظهور الفصائل الإسلاميَّة التي كان من أهمِّ شعاراتها تطبيقُ الشَّريعة الإسلاميَّة.

المطلب الثَّاني: أقسامُ الشَّرعيِّين باعتبار ولائهم وتحصيلهم العلمي في الثَّورة:

١- قسمٌ منهم رضي البقاء في صفِّ الباطل، يسانده ويدافع عنه ويبرزُّ له أفعاله، بل ويؤوِّل آيات القرآن وأحاديث النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم لصالح الباطل الذي رضي أن يكون جزءاً منه.

٢- قسمٌ منهم علماءٌ لا يخفى علمهم على أحدٍ من النَّاسِ، إلا أنَّهم تركوا السَّاحةَ الثَّوريَّةَ وخرجوا منها، مبرِّرين خروجهم بحججٍ وذرائعٍ، منها ما هو منطقيٌّ مقبولٌ، ومنها ما هو هروبٌ مرفوضٌ.

٣- قسمٌ مُتعلِّمٌ وصاحبُ شهادَاتٍ وفكرٍ إسلاميٍّ ناضجٍ، درسَ العلومَ الشَّرعِيَّةَ بمقرراتها في الكليَّاتِ والمعاهدِ الإسلاميَّةِ، أو جاء من مدرسةٍ مشيخيَّةٍ قرأ فيها العلومَ الشَّرعِيَّةَ على يد شيخٍ معروفٍ بعلمه وسمعته، عمل في الثَّورة منذ البداية ولا يزال فيها مع أبنائه وإخوانه.

٤- قسمٌ منهم وقفَ على الحياد في بداية الثَّورة، ثمَّ انخرط فيها وعمل مع المجاهدين فيما بعد وأصبح جزءاً منهم.

٥- قسمٌ منهم تعلَّم في الثَّورة في دورات الشَّهر والشَّهرين، فتعلَّم بعضُ المسائل وحفظ بعضُ السُّور القرآنيَّةِ وبعضُ الأحاديث النَّبويَّةِ، على يد بعض المشايخ المهاجرين والمجهولين، فكانت الفتاوى التي تصدر منهم في مختلف الشُّؤون بعيدةً عن الحقِّ والصَّواب أحياناً، ومن هذا القسم انتشرت فتاوى القتل والرَّدة والتَّكفير والاحتطاب التي جلبت الطَّاماتِ للثَّورة والثُّوار، وتطاول الأقرامُ الصِّغارُ على أهل العلم الكبار.

الشَّرعِيُّون قبل الثَّورة وبعدها:

لم يكن للشَّرعِيِّين قبل الثَّورة دورٌ واضحٌ في التَّوعية والتَّوجيه ونشر الفكر الرَّشيد بين النَّاسِ، بل كانت وظيفتهم في الدُّروس وعلى المنابر محصورةً في خطب الطَّهارة والصَّلاة والصَّوم والزَّكاة وأحكام الحجِّ وغيرها ممَّا يريده النِّظامُ الفاجرُ، بعيداً عن السِّياسة والقانون وبناء الدُّول وأمن المجتمعات وصناعة الرِّجال ومهمَّاتهم الحقيقيَّة في الحياة، فهذا محرَّمٌ عليهم الكلامُ فيه، ليبقى الشَّرعِيُّون مجردَ أبواقٍ تنطق باسمه، وتُشرعن له أفعاله، وتُفتي له بما يخدم مصالحه ويُحقِّق له أهدافه ومشاريعه.

هذا ما عمل عليه النِّظامُ الفاجرُ طيلةَ فترة حكمه من بسط سيطرته على المنابر المختلفة، مع المتابعة والمحاسبة والتَّعزير والسَّجن والتَّهجير وغيرها من عقوبات الإبعاد والإقصاء والتَّصفية والإعدام على حبال المشانق وساحات التَّعذيب.

وأما في الثورة السوريّة فقد فُتِحَ المجالُ أمام أصحاب الكلمة والأقلام، وأمام التَّخَبِ السِّياسيّة والفكريّة والثَّقافيّة بكلِّ أشكالها وأنواعها، ولم يبقَ عذرٌ أمام أحدٍ منهم في تبيان الحقِّ والوقوف مع أهله.

ومن هنا بدأت قصّة الشرعيّين في الثورة، حيث برز دورهم في الحراك الشَّعبيّ في الدّاخل السُّوريّ في فترةٍ مبكّرة، بفعل عدّة عوامل، من بينها التَّغييب الممنهج لأغلب الشَّخصيات الدَّعويّة الفاعلة خلال حكم البعث، والتَّضييق عليهم حتى جاءت الفرصة المناسبة والتي لم يغفل عنها النِّظام القاتل، بل استغلَّ وجودهم فأتخذ خطوةً سريعةً وخبيثةً لجذبهم والحوار معهم لاحتوائهم، وللحدِّ من تأثيرهم في الشَّارع؛ كي يحافظ عليهم لجانبه.

لكن؛ ومع استمرار تصاعد عنف النِّظام المجرم بشكلٍ كبيرٍ في تعامله مع الثورة وأهلها ورَفُض مطالب الشَّعب المُحقَّقة من جهة، وعدم استجابته لمبادرات المشايخ التي تدعوه للإصلاح من جهةٍ أُخرى، ومع دخول أطرافٍ دينيّةٍ تحمل فكراً مغايراً لفكر علماء أهل الشَّام، وكذلك إخراج النِّظام الأسدِيّ للكثير ممَّن يحمل فكراً متشدّداً من السُّجون، وكذا التَّضييق على المشايخ في المساجد وغيرها، كلُّ ذلك؛ أدّى إلى إضعاف دورهم بصورةٍ كبيرةٍ، ودفع كثيراً منهم إلى مغادرة المشهد الدِّينيّ داخلياً، وبعضهم تمَّ إخراجهم بشكلٍ أو بآخر، كان ذلك مع تحوُّل الثورة الواسع نحو الاتجاه العسكريّ للدِّفاع عن النَّفس والأرض والعرض.

في هذه الأثناء؛ وضمن تلك الطُّروف ظهر (الشَّرعِيّ) الذي جاء ليملأ الفراغ الذي خلّفه خروج أو إخراج المشايخ من المشهد الثُّوريّ السُّوريّ، فتولّى الشَّرعِيّون الأدوار التي كانت منوطةً بأئمة المساجد والمشايخ في المجتمع السُّوريّ من قبل، وأضافوا لها أدواراً لم يعرفها المشهد الدِّينيّ في سوريا ولا المنطقة من قبل.

بداية ظاهرة الشَّرعِيّين ونمّوها:

ظهرت فكرة الشَّرعِيّين بشكلها المبسّط الأول مع ظهور الجيش الحرّ بعد انطلاقة الثورة بأشهرٍ قليلةٍ متزامناً مع ظهور مسائل وقضايا من الواقع الثُّوريّ الجديد لم يعلموا أحكامها، وهذا ما دفعهم إلى أئمة المساجد المعروفين في مناطقهم لمعرفة الحكم الشَّرعِيّ، وهو أمرٌ مُتعارفٌ عليه في المجتمع السُّوريّ.

لكن أئمة المساجد والمشايخ المحليين واجهوا مشكلةً بدورهم في التعامل مع القضايا التي تُطرح أمامهم لأول مرة، نظراً لغياب الخبرة وضعف المعرفة المسبقة في كيفية التعامل مع قضايا جديدة، مثل: التعامل مع الأسرى والمخبرين، والتصرف في الأموال والأموال التي يتم الاستحواذ عليها (فيما أصبح يُعرف لاحقاً باسم الغنائم)، إلى غير ذلك من القضايا الملحة والتي أدت بدورها إلى ظهور أول أشكال الهيئات الشرعية، حيث سعى طلاب العلم آنذاك إلى تجنب المسؤولية الفردية عبر تشكيل لجانٍ مشيخية لإصدار الفتاوى في قضية أو قضايا بعينها، ثم تحولت هذه اللجان المؤقتة إلى أشكالٍ شبه دائمة: مع تصاعد وتيرة الأحداث وكثرة القضايا التي تُعرض عليها.

ومن الواضح تماماً أنّ المشايخ السُوريين الذين عملوا بمجال الفتوى في تلك المرحلة اتسموا عموماً بالتوزع في الدماء والأموال، على خلاف الشرعيين الذين قَدِمُوا من خارج سوريا، أو الذين تخرجوا على أيديهم ودرسوا في مدارسهم، وترافق هذا التوزع من قبل المشايخ السُوريين مع توزع نسبي من قبل فصائل الجيش الحر، وخصوصاً في مسألة الدماء.

لكن الشرعيين في تلك الفترة، أفراداً أو مجموعات، لم يدخلوا في صلب الهياكل التنظيمية لمجموعات الجيش الحر، وبَقُوا عملياً بصفاتٍ استشاريةٍ مستقلة.

ومع بدء ظهور "الفصائل الإسلامية" في نهاية عام ٢٠١١ م، ظهر منصبُ الشرعي كجزءٍ من هيكليّة الفصيل، وهو المنهج الذي اتبعته فيما بعد كلُّ هذه الفصائل بما فيها فصائل الجيش الحر.

المطلب الثالث: الشرعيون والفصائل العسكرية:

تدرجت وظائف الشرعيين من بسطةٍ ومحدودةٍ، إلى معالجة إشكالياتٍ على مستوى الأحياء والبلدات، ليتحول الشرعيون إلى مكاتبٍ وهيئاتٍ فاعلةٍ تُعنى بتقديم الفتاوى في الوقائع والنوازل، تدخل في القضاء أحياناً، وتشرف على تنفيذ الحدود والعقوبات أحياناً أخرى.

بل، وأكثر من ذلك، فقد أخذت تروج للفصائل وتتصوّب لها وتبرّر تصرفاتها، وقد تُشرعن لها أفعالها، كما كان في الاقتتال الداخلي بين الفصائل في فترة من عام ٢٠١٨ م، إلى غيرها من المهام.

ومع ظهور الفصائلية، وما تبعها من انقساماتٍ، واندماجاتٍ، وصداماتٍ عسكرية، تحول الشرعيون إلى جزءٍ من الهياكل التنظيمية للفصائل، وأصبح بعضهم أدوات بيد القادة، وبالمقابل فإننا نجد في كثيرٍ من الأحيان شرعيين لم يكونوا مرتاحين لتصرفات القادة العسكريين لدى

فصيلهم الذي ينتمون إليه، لكن لم يُسمع لنصائحهم وتوجيهاتهم ممّا حدا ببعضهم إلى ترك فصيله والتحوّل إلى فصيلٍ آخر أو الاعتزال والجلوس في البيت.

وإلى جانب شرعي الفصائل، ظهرت مجموعةٌ من الشرعيين المستقلّين، لم ينتسبوا إلى أيّ فصيل، ومنهم الذين خرجوا أو أُخرجوا من فصائلهم التي كانوا يعملون ضمن صفوفها، ولكنهم في مجموعهم لا يشكّلون نسبةً تُذكر من عدد الشرعيين الكلّي، وإن كان بعضهم من أكثر الشرعيين تأثيراً في سوريا.

المطلب الرابع: المهام الرئيسيّة للشرعيين وتأثيرهم في السّاحة السّوريّة: أ - شرعيّو الفصائل:

يقوم الشرعيّون بعددٍ من الوظائف والمهام داخل الفصيل العسكريّ، كالّتوجيه والتّوعية والفتوى والاستشارات الشرعيّة والإداريّة بشكلٍ عامّ، وقد يشاركون في صنع القرار ورسم سياسة الفصيل، بحسب قوّة شخصيّته ومدى استجابة قائد الفصيل له ومرونته.

ويمكن حصرُ عملهم بشكلٍ عامّ ضمن عدّة محاور:

١- العمل على تعليم المجاهدين أبسط أمور دينه لضمان صحّة صلاته وعبادته (الطّهارة وشروطها - الصّلاة وشروط صحتها - حفظ سورة الفاتحة وبعض قصار السّور)، نظراً لتدني المستوى الثقافيّ الدينيّ عند أكثر شباب الثّورة الذين ولدوا وترعرعوا في زمن حزب البعث المجرم.

٢- التّوجيه والإرشاد والتّربية الأخلاقيّة والجهاديّة من خلال دروسٍ في التّزكية والأخلاق والثّقة بالله سبحانه، مع التّربية القتاليّة والتّعبئة الجهاديّة من خلال رفع معنويات المقاتلين قبل بدء المعارك، والقيام بجولاتٍ دوريّة على المعسكرات والمقرّات والجيّات ونقاط الرّباط، وتعليمهم ما لهم من حقوقٍ وما عليهم من واجباتٍ تجاه أهلهم وإخوانهم وبلدهم وقائدهم، وما إلى ذلك ممّا يتعلّق بالمعارك ومستلزماتها وملحقاتها.

٣- العمل على التّربية الفكرية والرفقيّ بهم إلى المستوى الذي يدرك فيه القائد والجنديّ أين موقعهم في الخريطة السّياسيّة، وما يترتّب عليهم حيال المؤامرات التي تُحاك عليهم وعلى أمتهم، مع ضرورة الحثّ والحضّ على القراءة والاطلاع على الأحداث المحليّة والدّوليّة؛ ليأخذ الجميع دوره الذي ينبغي له، ولا يكون هامشيّاً في المجتمع ولا أداةً لمشاريع غيره.

٤- العمل الإصلاحي وحل المشكلات التي من شأنها تعكير صفو المجتمع وزرع الفرقة والشقاق في المجتمع، والدخول بين الفصائل المختلفة والجماعات العاملة في الساحة لتقريب وجهات النظر بينهم ورأب الصدع وإنهاء جذور الخلاف من أصله، وغالباً ما يقوم بهذا الدور الدعاة المستقلون الذين تشهد لهم الساحة بالحضور والتجرد والقبول.

تغيير البوصلة والمسار الشرعي:

لو التزم الشرعيون بما هو مطلوب منهم وواجب عليهم لصنعوا رجالاً قلّ مثلهم في التاريخ، فساحة الشام ولادة وفيها من الطاقات الكامنة ما يُدهش العقول، ولكنها كانت تحتاج للنخب والمرجعيات التي توجهها عند الحاجة والسؤال، وتسددها عند التيه والضياغ، وتصوبها عند الخطأ والانحراف.

ولكن؛ هذه الطبقة من النخب والمرجعيات توسعت في أعمالها الأخرى على حساب العمل الدعوي والتوجيهي، حيث أقحم بعض الشرعيين أنفسهم فشاركوا بصناعة السياسة الداخلية والإدارية للفصيل، وأصبحوا من أصحاب القرارات الملزمة في بعض الأحيان، فأصابوا في أمور، وأخفقوا في أخرى، وهذا ما أفقدهم شيئاً من مكانتهم الاجتماعية وصفتهم الرمزية التي كانوا يتمتعون بها.

وكذلك فقد تولّى بعضهم أعمال القضاء وشارك في التحقيقات وإصدار الأحكام، والإشراف على تنفيذها في كثير من الأحيان، معتمدين على أفهامهم واجتهاداتهم القضائية والشرعية التي اكتسبوها من خلال دورات قضائية مضغوطة، بعيداً عن الانضباط العلمي المطلوب والقونة القضائية والمهنية، وهو ما كان له من آثار سلبية تجلّى بعضها بقطع رؤوس، وجلد ظهور، والسجن والإبعاد، ثم تراجعوا عن الكثير من تلك الأحكام والاجتهادات بعدما شعروا أنهم تسرعوا في أحكامهم ولم يراعوا أحوال الناس والظروف الاستثنائية التي يعيشونها مع واقع الحال العام للمنطقة، ولكن بعد أن سبق السيف العدل.

ب - الشرعيون الأجانب:

دخل معظم الشرعيين الأجانب إلى سوريا خلال عامي ٢٠١٢ م - ٢٠١٣ م، وانضمّ أغلبهم إلى الفصائل الإسلامية، ثم التحق بعضهم بما يُسمى تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام (داعش) عند تأسيسها عام ٢٠١٣ م، ولم يُعرفوا بأسمائهم الحقيقية لدى أفراد فصائلهم.

وقد تميّز هؤلاء بعدة ميزاتٍ لم تتوفّر في بقية الشرعيين السوريين، منها:

- ١- الحضور القوي في الفصيل والتفرّع الكامل له، مع التأثير الواضح في القادات والعناصر.
- ٢- امتلاك الكاريزما الجذابة في استجلاب الشّباب وإقناعهم بالجنديّة والتّبعيّة، وخصوصاً بما عندهم من علاقاتٍ ماليّةٍ تستجلب الدّعم الخارجي.

ج - الشرعيون المستقلّون:

يمثّل الشرعيّون المستقلّون، أو غير المنضمّين للفصائل، ظاهرةً حاضرةً في المشهد الدّعويّ والتّوجيهيّ في السّاحة السّورية، ويتوزّعون في إقامتهم داخل سورية وخارجها. إلا أنّهم يفتقرون للقوّة التّنفيذيّة التي يمتلكها شرعيّو الفصائل، لكنّهم لعبوا دوراً مهمّاً في الدّعوة المدنيّة والوعظ والإرشاد والإصلاح بين الناس وبين الفصائل عند الاختلاف أو الاقتتال.

المدارس الفكرية للشرعيين في الدّاخل المحرّر:

لم يكن الشرعيّون العاملون في السّاحة السّوريّة نتاج مدرسة فكرية واحدة، أو مشربٍ مذهبيّ واحد، وإنّما تعدّدت مدارسهم، وتنوّعت مشاربهم حسب انتماءاتهم وجنسياتهم وطبيعة مدارسهم التي درسوا فيها وتخرجوا منها.

وقد تعدّدت الاتّجاهات الفكرية بين الدّعاة وأصحاب الفكر إلى عدّة اتّجاهاتٍ، هي:

١- السّلفيّة الحركيّة:

والتي كانت تحاول إيجاد الحلول المناسبة لمشكلات السّاحة السّوريّة بطريقة موضوعيّة منبثقة من الكتاب والسّنة، وهو أقرب لمنهج الاعتدال الشّامي، بعيداً عن الإفراط والتّفريط.

٢- السّلفيّة العلميّة:

أو الدّعوة السّلفيّة، حيث يعتمد أصحابها على الدّعوة العلميّة والوعظيّة في تعليم النّاس أمور دينهم، وهم في ذلك كدعاة وعلماء تتركز جهودهم على زرع عقيدة التّوحيد والولاء والبراء، والتّبرؤ من الشّرك والبدع، وضرورة تعلّم ومعرفة الأحكام الشرعية الخمسة؛ من حلالٍ وحرامٍ وواجبٍ

ومستحبٍ ومكروه، معتمدين على فهم السلف الصالح للكتاب والسنة، بعيداً عن التعصب والتطرف والتأويل.

٣- السلفية الجهادية:

وهو مصطلحٌ جديدٌ ظهر في ثمانينيات القرن الماضي، وقد أُطلق على الجماعات الإسلامية التي اتخذت من الجهاد طريقاً ومنهجاً للتغيير السياسي ضدّ الحاكم الظالم الذي لم يحكم بشريعة الله.

ورجال هذا التيار يعتمدون أيضاً على فهم السلف الصالح لنصوص القرآن والسنة، إلا أنّهم يختلفون عن السلفية العلمية في أنّهم يرون الجهاد وحده هو طريق الحل المناسب لإزالة الحكام والطغاة، تحت شعار: (كتابٌ يهدي وسيفٌ ينصر)، بينما يرى السلفيون العلميون أنّ التربية الدعوية هي أساس التغيير والإصلاح مع استخدام الجهاد عند منع الدعوة.

المطلب الخامس: الهيئات الشرعية خارج الساحة السورية:

بعد انطلاق الثورة السورية بمدّة قصيرةٍ ظهرت حاجة الساحة وفصائلها للدعاة والمفكرين، فتشكّل عددٌ كبيرٌ من هيئات العلماء والدعاة والمجالس والروابط الشرعية داخل سورية وخارجها.

ومن أبرز المجموعات التي تشكّلت خلال سنوات الثورة خارج الساحة السورية، ولكنها كانت تعمل لصالح الثورة بما تستطيع وبما تمتلك من وسائل وإمكانات:

رابطة العلماء السوريين / وهيئة الشام الإسلامية / والهيئة العامة للعلماء المسلمين في سورية / وجمعية علماء الكرد / وهيئة العلماء والخطباء والدعاة الأحرار في سورية / ورابطة علماء الشام / والملتقى الإسلامي السوري / ورابطة خطباء الشام / وجبهة علماء حلب /

ولعلّ من أهمّ وأبرز المظلات الجامعة للكثير من الهيئات والروابط الدعوية كان: المجلس الإسلامي السوري الذي تأسّس في استنبول برئاسة الشيخ أسامة الرفاعي بتاريخ ١٢ / ٤ / ٢٠١٤م، كمرجعية سورية إسلامية وسطية، تسعى لجمع كلمة العلماء في كيان واحد لإيجاد الحلول الشرعية لمشكلات الشعب السوري وقضاياها العامة، مستقاة من الكتاب والسنة،

ولتسديد مسيرته نحو الحرّية والكرامة والتخلّص من نظام الطّاغية المجرم، مع الحفاظ على هويّته الإسلاميّة.

وقد شكّل المجلس الإسلاميّ علماء ومفكّرون وطلاب علمٍ سوريين، من ذوي الباع الطّويل في العلوم الشرعيّة والدّراسات الإسلاميّة، كما تطوّر وتوسّع ليضمّ كثيراً من الهيئات والروابط العلميّة والدّعويّة ضمن مجلسه، بلغت أكثر من (٤٠) هيئةً ورابطةً إسلاميّةً من أهل السنّة والجماعة في الدّاخل السّوريّ وخارجه على اختلاف مدارسهم ومشاربهم الفكريّة والمذهبيّة، فكان منهم من حمّلة الشّهادات الجامعيّة العليا من الليسانس والماجستير والدكتوراه في الدّراسات الإسلاميّة وعلومها المختلفة، وفي الفكر الإسلاميّ والسياسة والقانون، فضلاً عن إدارة المراكز البحثيّة وإدارة المعاهد، والمدارس، والكليّات، والجامعات، والجمعيات العاملة في كلّ المجالات الإنسانيّة والخدميّة والعلميّة والعملية.

لم يكن المجلس الإسلاميّ تشكيلاً سياسيّاً، كما لم يكن منافساً لأحدٍ، فقد ولد من خلال مبادرات للعلماء الذين شعروا بمسؤولياتهم تجاه الشعب السّوريّ بمهمّات تثقيفيّة وتوعويّة، وبما يحافظ على وحدة البلاد، وتوحيد الفصائل العاملة في السّاحة السّوريّة، وإصدار الفتاوى التي يحتاجونها فيما يعترضهم من قضايا مستجدّة ومسائل فقهية ونوازل مهمّة تحتاج للدّراسة والتّمحيص والفتوى من أهل الاختصاص منهم.

مما يُحسب للمجلس الإسلاميّ أنّه لم يقبل التّمول من أيّ جهة كانت، ولم يُرتهن لأيّ حكومة أو دولة لحاجته إليها، فهو يعتمد على تمويل ذاته بذاته تعاوناً وتكاتفاً فيما بين أعضائه الميسورين، ولا يتقاضى أحدٌ من أعضائه راتباً أو منحة لقاء عمله المنوط به، وإنّما كانت أعمالهم في المجلس حسبةً وتطوعاً.

كان العمل الرئيسيّ للمجلس في الدّاخل السّوري مع الجراك الثّوري ومستلزماته من النّصح والتّوجيه والتّوعية والإرشاد، وتقديم الخدمات الإنسانيّة والاستشاريّة والفكريّة، ومن خلال النّدوات والملتقيات، وحتى على الجبهات العسكريّة والمعسكرات ونقاط الرّباط والتي كان لهم نصيبٌ من الشّهداء فيها.

وقد لعب المجلس دوراً كبيراً في الرّبط بين الدّاخل السّوريّ من خلال مكاتبه وروابطه العلميّة وبين الخارج من خلال التّنسيق وإقامة العلاقات التي من شأنها دعم القضيّة السّوريّة في دول الجوار وخصوصاً تركيا.

ولعلّ من أهمّ ما صدر عن المجلس الإسلاميّ السّوريّ وكان من منارات الطّريق للثّورة والثّوار ما عُرف بـ (وثيقة المبادئ الخمسة^(١))، و (وثيقة الهوية السّوريّة^(٢)).

وباختصار:

فإنّ المجلس الإسلاميّ هيئته مرجعيّة شرعيّة وسطيّة سوريّة، تسعى إلى جمع كلمة العلماء والدّعاة وممثليّ الكيانات الشرعيّة، وتوجيه الشعب السّوريّ وإيجاد الحلول الشرعيّة لمشكلاته وقضاياها، والحفاظ على هويّته ومسار ثورته.

المطلب السّادس: تيارات الفكر الإسلاميّ في الثّورة السّوريّة:

إنّ المتأمّل لحال السّاحة السّوريّة وما آلت إليه بعد سنواتٍ من الثّورة يرى تياراتٍ فكريّة متعدّدة لعبت دوراً كبيراً فيها، وكان لها الكثير من الإيجابيّات من جهة، كما لم تخلُ من السّلبيّات من جهةٍ أخرى، نذكر على سبيل المثال لا الحصر أهمّ هذه التّيّارات دون الكلام عنها وعن نشاطاتها:

(١)- بنود وثيقة المبادئ الخمسة التي عقدت في استنبول بتاريخ ٢٠١٥/٩/١٨ م، هي:

١- إسقاطُ بشار الأسد وكافة أركان نظامه، وتقديمهم للمحاكمة العادلة.

٢- تفكيك أجهزة القمع الاستخباراتية والعسكرية، وبناء أجهزة أمنيّة وعسكريّة على أسسٍ وطنيّة نزيهة، مع المحافظة على مؤسسات الدولة الأخرى.

٣- خروج كافة القوى الأجنبيّة والطائفية والإرهابية من سوريا، ممثلة بالحرس الثوري الإيراني، وحزب الله، وميليشيا أبي الفضل العباس، وتنظيم الدولة.

٤- الحفاظ على وحدة سوريا أرضاً وشعباً واستقلالها وسيادتها وهوية شعبها.

٥- رفض المحاصصة السياسيّة والطائفية.

(٢)- بنود وثيقة الهوية السّوريّة التي عقدت في استنبول بتاريخ ٢٠٢١/٢/٨ م، هي:

أولاً: "سوريا جزء لا يتجزأ من العالمين العربي والإسلامي".

وثانياً: "الإسلام دينٌ غالبية الشعب السوري، وهو ثقافةٌ وحضارةٌ لجميع أبناء سورية".

ثالثاً: "اللغة العربيّة هي اللغة السائدة والرسمية في البلاد".

رابعاً: "الثقافة والقيم الحضاريّة المعهودة في التاريخ السوري الممتد لقرونٍ معرّفاتٍ أساسيّة من معرّفات الهوية السّوريّة، وكذلك الطابع العمراني والاجتماعي".

خامساً: "المكونات التاريخيّة العديدة الموجودة في سورية، والمتنوعة من ثقافتها ولغاتها وأديانها وانتماءاتها هي مكونات أصليّة، وحقوقها مصونة مضمونة، وحرّيات الجميع مكفولة متناغمة مع الهوية السّوريّة الأصيلة، ولا تعود عليها بالنقض".

التَّيار الأول: الإخوان المسلمون / التَّيار الثاني: السَّلفيَّون / التَّيار الثالث: الصُّوفيَّون / التَّيار الرابع: المستقلَّون.

أخيراً:

الهيئاتُ والرَّوابطُ الشَّرعِيَّةُ هي البوصلةُ الحَقِيقِيَّةُ لمعرفةِ الاتِّجاهِ الصَّحيحِ للطَّريقِ، وهي مرجعيَّةُ الجميعِ، فلا بدَّ من دعمها بكلِّ ما تحتاجُ إليه وإعطائها مكانها الرَّئيسي، وتفعيل أحكامها وقراراتها فيما تستشَار فيه ضمن مجالها، مع ضرورةِ العملِ والتَّركيزِ على رفعِ المستوى الثَّقافيِّ والفكريِّ والسِّيَاسيِّ للشَّرعِيَّين حتى يتمكَّنوا من الارتقاء بفكر المقاتل وتوجيهه بما يتوافق مع أخلاق الثَّورة ومبادئها، إضافةً للدُّروس الفقهِيَّة التي يحتاجونها ضمن واقعهم، والتَّوجيهِيَّة في سلوكهم وعلاقاتهم.

ومن هنا كانت الحاجةُ الماسَّةُ للعلماء والدُّعاة للرَّقِّيِّ بالمجتمع تربيَّاً وأخلاقياً وفكريَّاً، حتى يسود مبدأ الأخوة والمحبة والتَّعاون، ويتوسَّع أداءُ المواعظِ والتَّوجيهِ بالأسلوبِ الرَّاقِي الذي يخرج من قلب الدَّاعية ويدخل إلى قلوب النَّاس.

المبحث السّابع

الإعلامُ والإعلاميّون، ودورهم في الثّورة السّوريّة

المطلب الأول: أهميّة الإعلام

المطلب الثّاني: الإعلامُ في الثّورة

المطلب الثّالث: دورُ الإعلام الثّوري

المطلب الرّابع: مراحلُ تطوُّر الإعلام الثّوري

المطلب الخامس: منعطفاتُ الإعلام الثّوري وتحدياته

المطلب السّادس: أخطاءُ الإعلام الثّوري

نصائح وتوصيات

الإعلام والإعلاميون، ودورهم في الثورة السوريّة

الإعلام من أهمّ الرّكائز والأركان الدّاعمة للثورات، وقد يوفّر جهوداً كبيرةً في حسم أمور الثّورة نحو نصرها ونجاحها، وخصوصاً إذا كان القائمون على إدارته من الإعلاميين المهنيين الذين يعملون باحترافيّةٍ وصدقٍ وذكاء، يُفوّتون على الأعداء فرصَ النّصر، ويقطعون عليهم طرقَ النّجاح والنّجاة.

المطلب الأول: أهميّة الإعلام:

تمّ تسمية الإعلام بالسلطة الرّابعة لما يشكّل من ضغطٍ كبيرٍ في كلّ المجالات الحياتيّة في الوصول إلى الهدف المنشود، من رفعِ ظلمٍ، أو ردّ عدوانٍ، أو كشفِ فسادٍ، أو إظهارِ فضيحةٍ، أو إبرازِ ظاهرةٍ أو نشرِ نصيحةٍ، أو إيصالِ معلوماتٍ ورسائلٍ مجتمعيّةٍ توجّهيّةٍ وتوعويّةٍ.

وقد أُطلقَ مصطلحُ السلطة الرّابعة على الإعلام بدءاً من الصّحافة ووصولاً لكلّ وسائل الإعلام المرئية والمقروءة والمسموعة، بعدما أتيحت المساحات الواسعة في حرّية التّعبير في الصّحافة العالميّة وذلك في منتصف القرن التّاسع عشر.

وفي العصر الرّاهن، وبعد أن أخذ الإعلام مكانةً وصلاحيات السلطة الرّابعة صار يترتّب عليه الدور الأكبر في توجيه الأجيال وتوعيتهم، ونَقْلِ قضاياهم وشرّجها للعالم أجمع، واستعطافهم لصالح قضيتهم وإقناعهم بتحمّل مسؤولياتهم، وخصوصاً بعد انتشار الشّبكات العنكبوتيّة والتّطور التّكنولوجي الذي طرأ على العالم وحوّله لمثل قريةٍ صغيرةٍ لا يخفى منها شيءٌ يُذكر، وأصبح الإعلام في متناول الأيدي بكلّ أدواته ووسائله المختلفة والمتنوّعة التي كان لها التّأثيرُ المجتمعيُّ الكبيرُ في التّغيير الفكريّ والسلوكيّ والثّقافيّ وحتى السّياسيّ الذي تجلّى في أحد جوانبه بزعة أركان بعض الدّول، وتهديد رؤوس الظّلم والاستبداد من الجبابة والحكّام أمام شعوبهم، وهو ما بدا واضحاً من خلال النّشاط الإعلاميّ الثّوريّ في ثورات الرّبيع العربيّ وتوجيهه للجماهير وحشدهم في السّاحات والشّوارع والميادين بكلّ فئاتهم المجتمعيّة ليصطفّوا حول قضيةٍ واحدةٍ، جمعتهم فيها المظلوميّة والحاجة، ودفعتهم إليها السلطة الرّابعة والإعلام.

وتبرزُ أهميّةُ الإعلام، وخاصّةُ الإعلام الثّوري الذي هو موضوع بحثنا هنا، في النّقاط التّالية:

١- التّأثير الكبيرُ في الشّعوب من خلال الحشد الجماهيريّ نحو قضيةٍ معيّنة.

٢- الدفع باتجاه نقل حالات الشعوب المنكوبة، والعمل باتجاه استرداد الحقوق المسلوبة وحمايتها بقوة القانون والإعلام.

٣- التوعية المجتمعية المتنوعة من خلال إتاحة الفرص وتصدير الكفاءات العلمية والفكرية بما ينهض بالمجتمعات علمياً وفكرياً وحضارياً.

٤- نقل الأحداث التي من شأنها إحداث تغيير في المسارات السياسية والاقتصادية والتعليمية والنهضوية بين البلدان.

٥- التدخل في أعمال الدول والحكومات بسلطاتها الثلاث ومراقبة أداؤها الاجتماعي والسياسي والاقتصادي والتعليمي وغيرها من المجالات الحياتية.

المطلب الثاني: الإعلام في الثورة:

لم يكن الشعب السوري عند انطلاق الثورة على دراية كافية بفنون التصوير والإعلام وتوثيق انتهاكات وإجرام النظام القاتل، وكان الجميع ينتظر القنوات الإعلامية التي لم ترق إلى طموحات الشعب في نقل مأساته للعالم، ولكن؛ ومع ازدياد إجرام النظام وقتله للشعب في ثورته ومظاهراته المناهضة اضطر الثائرون لتعلم فن الإعلام ولوازمه، وساعدهم في ذلك امتلاكهم لأجهزة الهاتف الحديثة وانتشارها، والتي جعلت من الشباب الثائر إعلاميين يصورون المظاهرات اليومية ويرسلونها إلى الوكالات والقنوات الفضائية، والتي أوقعت النظام المجرم وأجهزته في حيرة من أمره، وعجزه عن منعها أو الحد منها على الأقل، بل، ولم يستطع أن ينفي ما ينشرونه في الإعلام وعلى مواقع التواصل الاجتماعي؛ ليتبين كذبه ويُفتضح أمره وتظهر جرائمه في كل يوم وساعة، كما ابتكر الشباب الثائر استخدام الكاميرات الصغيرة التي توضع بقلم الكتابة وتعلق بالجيب الصغير حتى لا تكشفها الأجهزة الأمنية التي بات شغلها الشاغل البحث عن أصحاب الموبايلات والجوالات الذين يقومون بالتصوير، واستهدافهم وتعذيبهم بدءاً من العصا الكهربائية مروراً بالتعذيب المتنوع ووصولاً إلى القتل بالرصاص والإعدام.

لم يتوقف الأمر عند هذا الحد من تصوير المظاهرات؛ بل تم تطويرها للتقل المباشر في ساحات المظاهرات وبثها على الفضائيات مباشرة، الأمر الذي أربك النظام القاتل، والذي لم يعرف كيف يقضي عليه أو يخفف منه، في الوقت الذي انتشرت المظاهرات وعمت معظم المحافظات السورية، وبلغت مئات المناطق المتظاهرة.

كلُّ هذه التطورات شكّلت حافزاً ودافعاً عند الشَّباب الثَّائر للتَّواصل فيما بينهم، ونَقْل الخبرات الإعلامية واستعانتهم بأصحاب الخبرة والمعرفة بهذا الشَّأن، مع ثباتهم وصمودهم في كلِّ ما يمكن أن يصيبهم جرّاء ذلك؛ لأنَّهم (الإعلاميون) أصبحوا تحت الاستهداف من قِبَل الأجهزة الأمنيّة والقتل المباشر في أغلب الأحيان.

لم يستسلم النظام الفاجر أمام فضائح الثوار لجرائمه ضدَّ المتظاهرين، وكشَّفهم لقتله العشرات منهم في ساحات التَّظاهر، حيث أنه كان يعتمد لتغطية الحقائق وتزييف الوقائع وطمسها، وإلصاق التُّهم بالثَّوار والمتظاهرين تارةً بالمخربين، وتارةً بالمندسِّين، وتارةً بالسَّلفيّة، وتارةً بمدمني حبوب الهلوسة والمخدّرات، وهو بذلك يحاول إظهار نفسه ونظامه أمام العالم على أنّه صاحب حقٍّ يدافع عنه ضدَّ عصابةٍ متمرّدةٍ مدعومةٍ من جهاتٍ خارجيّةٍ تريد تدمير البلد، ويصفها على أنّها مؤامرةٌ كونيّةٌ تمَّت حياكُها في الخارج للنَّيل من نظامه وإسقاط حكمه.

وبالرغم من حداثة عهد الثَّائرين في المجال الإعلاميّ إلا أنَّهم استدرَكوا الأمر وجَدُّوا في المهمّة الإعلاميّة ومواكبة أحداث الثَّورة المتسارعة لحظةً بلحظةً وحدثاً بحدث، فقد انبرى العشرات، بل والمئات منهم كمراسلين وصحفيّين للتَّواصل مع القنوات الفضائيّة العربيّة والعالميّة في كلّ نشراتهم وبثّ الفيديوها والصُّور من أرض الحدث ومن كلّ المواقع المتاحة بشكلٍ مباشرٍ وتصويرٍ حقيقيٍّ؛ لينقلوا الواقع الحقيقي والأحداث الصَّحيحة بكلِّ شفافيةٍ وتجرّد، فكانوا النّواة الأولىّ للإعلام السُّوريّ الثَّوريّ، وصوتاً حقيقيّاً يعمل على توجيه النّاس وإيصال أصواتهم وأحداث الثَّورة بكلِّ تفاصيلها.

لقد كان الهاتف الصَّغيرُ بوابةً واسعةً أمام الثَّائر السُّوري الذي استفاد من ثورات الرِّبيع العربيّ التي سبقته بأشهرٍ، ليشكّل مؤسسةً إعلاميّةً حرّةً، نغصت على النِّظام المجرم حياته في إدارة الملف في مجتمعه وأمام العالم، حيث ازداد افتضاح جرائمه أكثر فأكثر، وانكشفت مجازره وفظائعه مع الصُّور المؤلمة أكثر فأكثر، والتي بدورها أيقظت الضَّمائر العربيّة والإسلاميّة والعالميّة لتقف مع الشَّعب السُّوريّ في محنته، وتتخذَ المواقفَ المتناسبة التي يمكن أن توقيف نزيف الدِّماء السُّوريّة وتنهى مأساتهم، وتساعد الشَّعب في الخلاص من هذا النِّظام القاتل.

المطلب الثالث: دور الإعلام الثَّوري:

وأما بما يخصُّ الإعلام الثَّوريّ فقد تجلّى دوره بما يلي:

١- إبراز القيم الثورية والمثل الأخلاقية التي يتمتع بها الثوار في تعاملهم المجتمعي ومع الحاضنة الشعبية.

٢- العمل على فضح العدو وإظهار جرائمه وفساده أمام العالم لنزع شرعيته وإسقاطه من عيون أنصاره المخدوعين.

٣- عدم الإفصاح عن الأعمال الثورية والعسكرية التي يقوم بها الثوار إلا بما يتناسب مع الواقع والمرحلة ضمن مكتب إعلامي موحد.

٤- رفع الروح المعنوية عند الثوار بكل السبل والوسائل المتاحة واللازمة، مع إقامتها أو إضعافها عند الأعداء والخصوم قدر الاستطاعة والامكان.

٥- توثيق الجرائم التي يرتكبها الإعلام المعادي بكل تفاصيلها، والاجتهاد في نشرها في كل الميادين والقنوات الإعلامية المسموعة والمقروءة والمكتوبة.

٦- ملاحقة الأعداء والخصوم وتفنيد أكاذيبهم، ورفع الدعاوى عليهم، وملاحقتهم في المحاكم المحلية والدولية.

المطلب الرابع: مراحل تطور الإعلام الثوري:

ومع تعنت النظام الأسدي في نهجه وإجرامه وامتلاكه لمختلف الأدوات والوسائل الإعلامية التي تُزيّف الحقائق كانت الحاجة لتشكيل جسم إعلامي موحد يجمع الخبرات والمهارات الإعلامية الموجودة، فتشكلت تجمعات أو تنسيقيات ثورية في أغلب المحافظات الثائرة، تجمع من الصحفيين والإعلاميين والمصورين ما يُعينهم على إكمال مهمتهم في إيصال أصوات أهلهم إلى العالم، والسعي في إسقاط النظام الفاجر.

وقد تطور الإعلام الثوري عبر سني الثورة ضمن مراحل، منها:

أولاً: تنسيقيات الثورة السورية:

حيث كانت عبارة عن عمل جماعي ونشاط مجتمعي مدني لشباب الثورة ضمن المناطق الثائرة، جمعتهم الثورة ضد نظام القمع والإجرام والاستبداد للتخلص منه والوصول إلى فضاء الحرية والكرامة.

وقد اتخذت التنسيقيات أشكالاً مختلفة عن بعضها بتسميات متشابهة بما يوحي بالحراك الجماهيري الثوري، وكان منها:

أ- لجان التنسيق المحلية: تُعتبر هذه اللجان باكورة العمل الجماعي الثوري، كان لها الدور الكبير في حشد الجماهير في ساحات التظاهر والاحتجاجات، وربط المناطق مع بعضها في وقت واحد لتعطي زخماً خارجياً وتفاعلاً كبيراً.

ومع النجاح الكبير الذي تحقّق في تحريك الجماهير وحشدتهم دعت الضرورة لإنشاء "المكتب الإعلامي الثوري" الذي أخذ على عاتقه التصوير والتوثيق وإصدار البيانات الموجهة إلى الشعب الثائر من جهة، وإلى المسؤولين وضرورة نزولهم إلى مطالب الشعب من جهة ثانية.

كانت هذه التجمّعات بمثابة مؤسسة الإعلام الثوري التي تُنظّم أمور محافظتها، وترتّب أدوار ناشطها ومتابعة الشعارات والتهنئات، وكتابة الياقيات الثورية الهادفة.

ب- اتحاد تنسيقيات الثورة السورية:

ثمّ كان التطوّر الأبرز؛ وهو ربط كلّ المحافظات السورية ضمن إعلام واحد تحت مسمّى: "اتحاد تنسيقيات الثورة السورية"، حيث تمّ تأسيس الاتحاد وإصدار بيان التأسيسي في الأول من يونيو/حزيران ٢٠١١ في العاصمة دمشق، وكان يضم حينها أكثر من ٢١٦ تنسيقية ومجلس وتجمّع ولجنة محلية.

كانت الحاجة ملحةً لهذا التشكيل؛ من أجل جمع تنسيقيات الثورة في المحافظات السورية ضمن تجمّع واحد، وخاصة المحافظات الثائرة بدايةً، مثل: حمص ودمشق ودرعا ودير الزور ...

وتمّ تحديد أهدافه (التشكيل) بالتركيز على استمرار الحراك الجماهيري وتنظيمه ميدانياً، والحفاظ على الثورة وحماية أهدافها، وكان من أهمّ التنسيقيات المنضمة إليها على سبيل المثال لا الحصر: (شبكة شام الإعلامية، وشبكة فلاش، وصفحة الثورة السورية ضدّ بشار الأسد، وغيرهم من الشبكات التي بلغت أكثر من ثمانين تنسيقية على مستوى المحافظات)، والذي دفع الاتحاد للانضمام إلى الهيئة العامة للثورة السورية فيما بعد.

ج- الهيئة العامة للثورة السورية:

بعد التفاعل الجماهيري الكبير والمحافظة على الزخم الثوري والارتباط الوثيق بين النخب الثورية العاملة ضمن التنسيق والاتحاد من جهة، والجماهير الثورية من جهة ثانية، ومع دخول الثورة مرحلة المواجهة والعمل المسلح إضافة للعمل الثوري، ومع حاجة الناس للوقوف معها في حالات المفاصلة مع النظام المجرم وما يترتب على ذلك، من انقطاع العمل والحاجة إلى المساعدات والإغاثية والإنسانية، والتعليم، والصحة، ومتطلبات اللجوء والمخيمات، التي لم يعتد عليها الشعب الثائر، ولم يكن يحسب لها حساباً كبيراً، فضلاً عن التحديات الأخرى التي قد يتعرض لها من قبل النظام الأسدّي لقاء ميوله للجيش الحرّ، أو انضمامه للثورة، أو قيامه بالتشكيلات العسكرية.

ومن هنا كانت الحاجة لتشكيل ما يسمّى: "الهيئة العامة للثورة السورية" والتي كانت بمثابة وضع النواة الأولى في تشكيل المؤسسة الإعلامية الثورية بأدواتها المتواضعة المتمثلة بشاشة الهاتف المحمول واللابتوب الصغير، لكنه بعملٍ جماعيٍّ ضمن برنامجٍ مدروسٍ يربط المحافظات السورية مع بعضها في الإدارة والأداء والتنظيم، والذي أهر العالم وأرسل إليهم الصورة الحقيقية لصمود وثبات الشعب السوري في قضيتته المحققة من جهة، وكشف إجرام النظام الأسدّي بحق الشعب الحرّ من جهة أخرى.

في هذه المرحلة العصبية ومع مطاردة الأجهزة الأمنية للشباب الثائر من مكانٍ لآخر، كانت الفتيات الثائرات يقمن بهذا الدور الصعب، بالرغم من ملاحقتهن أيضاً، وزجهن في السجون وقتل بعضهن.

كان هذا في الأشهر الأولى من الثورة التي ما زالت ضمن سلميتها رغم استخدام النظام المجرم آلية الحرب والسلاح وقتلهم في السّاحات وتحت التعذيب.

لكن؛ ومع اضطرار الثوار لاستخدام السلاح للدفاع عن أنفسهم وأهلهم ازدادت الوسائل الإعلامية في تطورها لتغطية الجراك العسكري إضافة للجراك الثوري والمدني، وهو ما حقز الكثير ممن يملكون الخبرة الميدانية والمعلومات الإعلامية وإدارة الحروب العسكرية والنفسية التي تُستخدم عادةً في المعارك والحروب، والتي يبرع فيها النظام الأسدّي المجرم عادةً، فكان لابد من التضافر والتعاون بين المكونات الثورية من الداخل السوري وخارجه.

لم يقتصر دور الإعلام منذ انطلاقة ثورات الربيع العربي على شاشة الهاتف فحسب، وإنما كانت أقلام الناشطين والنشطات تغطي الصحف والمدونات ووسائل التواصل الاجتماعي بتفاعل كبير وتأثير واضح وحشد عظيم للمظاهرات والاعتصامات واتخاذ الخطوات والوسائل الضاغطة المتنوعة على الأنظمة المجرمة.

ومن الوسائل الإعلامية الضاغطة التي استخدمه الثوار والتي كان لها دور رائد في الإعلام الثوري والتأثير الواسع في الحاضنة المدنية والشعبية والثورية بشكل عام لاحتكاكها المباشر معهم في الساحة الميدانية والنشاطات الثورية، كل باختصاصه، فكان منها:

١- المدونات: التي تُعنى بإصدار المقالات والأخبار وإرسالها بشكل ساعي للجماهير حسب الواقع والحال والمقتضى، مع إحصاء وتوثيق أعداد الشهداء والجرحى الذين يسقطون في الأحداث والمظاهرات، والتي أضحت مصدراً موثوقاً للمعلومات.

٢- وسائل التواصل الاجتماعي: وخاصة الفيسبوك، والتويتر، والسكايب وغيرها من الوسائل التي أصبحت بمتناول الجميع.

٣- الظهور الإعلامي الحذر: على بعض وسائل الإعلام الفضائية من خلال استخدام أسماء وهمية بدايةً، لنقل الأحداث الثورية بشكل مباشر، أو تصويرها حسب الواقع والممكن والمتاح.

٤- الظهور الإعلامي الميداني المباشر والصريح: وذلك بعدما اشتدت المعارك واضطّر الثوار لحمل السلاح والدفاع عن أنفسهم وأهلهم، تحوّل الكثير من الشباب الثائر بما امتلك من خبرة ومعرفة إعلامية ليصبح مراسلاً ميدانياً يحمل روحه على أكفه.

٥- القنوات الفضائية العربية والعالمية: التي لعبت دوراً مميزاً في تغطية الثورة السورية، وخاصةً بعد افتضاح كذب إعلام النظام المجرم وزيف ادّعاءاته وظهور إجرامه بشكل واضح ومفصّل.

٦- الوكالات الإعلامية المحلية: التي لعبت دوراً جيداً في التحدّث عن الثورة السورية وتوثيق مجرياتها الثورية، وتصوير أحداثها الميدانية وتزويد القنوات والوسائل الإعلامية الأخرى بما حصلت عليه من وثائق وحقائق ميدانية.

٧- النخب الثورية والثقافية والدينية: من العلماء والدعاة، ومن المفكرين والباحثين، ومن السياسيين والكُتّاب، ومن الشعراء والمنشدين، ومن الممثلين والمبدعين، ومن المراسد المحلية

المدنيّة والعسكريّة الذين كانوا من أفضل الوسائل الإعلاميّة في دعم الثّورة السوريّة في كلّ مجالاتها وكافّة ميادينها العسكريّة والثّوريّة والمدنيّة، حيث كانوا يغطّون السّاحة على مدار السّاعة بكلّ مستلزماتها، ووضّع الجبهات العسكريّة، وتبيان حركة الطّائرات، وغير ذلك ممّا يحتاجه النّاس في حياتهم اليوميّة دون كلّ ولا ملل، فضلاً عن الأخطار المحدقة بهم، وتعتمد استهدافهم وكشف أماكنهم من قبل قوات النّظام المجرم.

القنوات الفضائيّة والوكالات الإخباريّة:

صحيح أنّ العمل الإعلاميّ كان بدائيّاً بداية الثّورة السوريّة المباركة، لكنّه قام بدورٍ مهمٍّ وعظيمٍ في إيصال صوت وعذابات السّوريّين إلى دول العالم من خلال عمل التّنسيقيّات ووسائل التّواصل الاجتماعيّ المتنوّعة، ومع تطوّر الإعلام بوسائله المتعدّدة عبر الأقمار الاصطناعيّة التي جعلت من العالم كأنّه القرية الصّغيرة التي تُمكن الجميع من معرفة ما يحصل من أحداثٍ، ويطلّع على ما يحدث من وقائع، في أيّ ناحيةٍ منها، كما لا تستطيع أيّ جهةٍ مهما كانت مكانتها أن تمنع الأخبار والمعلومات وإيصالها في الوقت الذي تريده.

كانت القنوات الفضائيّة منذ انطلاقة الثّورة تلمّح عن الواقع السوريّ والجراكَ الشّعبيّ تلميحاً عرضيّاً دون الدّخول في التّفصيل والجزئيّات للأحداث الثّوريّة اليوميّة، ودون أن تتعمّق في طبيعة تعامل النّظام مع الثّائرين والمدنّيين من قمعٍ وضربٍ وتعذيبٍ واعتقالٍ وغير ذلك ممّا كان يظهر على وسائل التّواصل الاجتماعيّ.

كان هذا في الأشهر الأولى من الثّورة، وكان النّظام المجرم يبتّ عبر قنواته أخباراً كاذبةً تضلّل الرّأي العامّ المحليّ والعالميّ، بأنّ هناك عصاباتٍ مسلّحةً متمرّدةً مموّلةً من السّلفيّين المدعومين من الشّيخ بندر السّعودي، وأنّها المؤامرة الكونية على الشّعب السوريّ، وغير ذلك من الإشاعات والأكاذيب المغرضة.

ومع تعنّت النّظام المجرم وإمعانه في تعذيب وقتل النّاس أخذت الثّورة السوريّة المراتب الأولى من الأخبار العالميّة على بعض القنوات العربيّة والعالميّة، وخاصةً قناة الجزيرة التي تُعتبر مصدر الثّقة عند الكثير من الجماهير العربيّة، وكذلك قناة العربيّة، وقناة الـ bbc، وقناة فرانس ٢٤، وقناة أورينت، ثمّ ازدادت القنوات الفضائيّة وبدأ التّنافس فيما بينها سمةً واضحةً في البثّ المباشر من أرض الواقع والحدث عبر مراسلهم، ثمّ عبر النّشطاء الثّوريين والصّحفيّين المحليّين

بعدها قامت سلطة النظام المجرم بمنع وإغلاق تلك القنوات التي تنشر أخباراً مغايرة لما يريده النظام الفاجر.

ومن هنا تحول الكثير من النشطاء والثوريين إلى عمل المراسلين مع القنوات الفضائية، فازداد الزخم الإخباري واستطاعت القنوات الفضائية أن تنشر الأخبار الحقيقية وتستضيف الكثير من الشخصيات السياسية والعسكرية لتحليل الواقع السوري، وتقوم بمقابلات يومية وساعية مع المحللين، وتعرض المقاطع المصورة والفيديوهات التي تفضح أكاذيب النظام وتدحض أخباره الكاذبة.

كما أنشئت أكثر من قناة إخبارية جديدة متخصصة بالشأن السوري مثل: قناة بردي، وقناة سوريا الشعب، وتلفزيون سوريا ...

وهكذا زاد التفاعل الشعبي والجماهيري والعالمي للثورة السورية بالرغم من الإعلام المضاد الذي مارسه النظام الفاجر ضد الثورة من خلال قنواته الإخبارية الرسمية والرديفة، وقنوات الأنظمة الداعمة له مثل: القنوات الإيرانية، وقنوات حزب الله اللبناني والعراقي، وكذلك القنوات الروسية التي لحقت بهم بعد تدخلها المباشر في سوريا لمساندة النظام المجرم، حيث عملت تلك القنوات على استقدام شخصيات سياسية وعسكرية واجراء مقابلات هادفة معهم، مع عرض بعض صور التخريب ومقاطع الفيديوهات ونسبها إلى المسلحين.

بالرغم من ذلك كله فقد استطاع الإعلام الثوري من خلال القنوات الفضائية أن يدحض أكاذيب النظام ويعريها أمام العالم، ثم يظهر الصحيح ويعكس الصورة الحقيقية للواقع، وهو ما كان من الأسباب الرئيسة في تحويل القضية السورية إلى مجلس الأمن وبدعم من جامعة الدول العربية بعد أن طردت النظام السوري من مقعد الجامعة بعدما أدانوا فعله وإجرامه، ووجهوا له النداءات تلو النداءات للسمع إلى الشعب السوري والتعامل معه بما يليق به.

المطلب الخامس: منعطفات الإعلام الثوري وتحدياته:

اعترضت الثورة السورية منعطفات قاسية وتحديات عظيمة، لحدثة عهد الثائرين بالإعلام من جهة، وللمطبات التي نصّبها النظام لهم للإيقاع بهم أمام العالم وتشويه صورة الثورة والثوار، حيث قام النظام الأسدي المجرم بترتيبها أمام التعامل الدولي الذي واجهه في السنوات الأولى من الثورة بعدما شاهد مجازره الفظيعة بالشعب السوري، فسحبت أغلب الدول سفراءها من

دمشق، فيما طردته جامعة الدول العربية من مقعده في الجامعة، وغير ذلك من العقوبات التي طالت مؤسساته الاقتصادية وبعض شخصياته، لعلّه يراجع حساباته ويحلّ مشكلاته مع الشعب السوري، إلا أنّه (النظام)، لم يأبه لكلّ ذلك، بل ضرب بكلّ القرارات الأممية والدولية عرض الحائط، متجاهلاً كلّ الأحداث والوقائع الميدانية في بلده، بل ومنكراً لكلّ المجازر التي ارتكبها جنوده وقواته في الأحياء الشعبية بعدما دمّرتها طائراته الحربية وأسلحته الفتاكة، كلّ ذلك كان بشكلٍ ممنهجٍ ومدرّسٍ ضمن مؤسساته الإعلامية التي عملت على تزيف الحقائق والوقائع، واستغلال الآلة الإعلامية بما يخدم مصالحه ويُقوّي شوكته، والتي تمثّلت بما يلي:

١- إطلاق بعض المصطلحات الكاذبة وإصاق الثوار بها، ك (المخربين، والمندسين، وعصابات، وإرهابيين).

٢- تشويه الصورة الحقيقية للثورة والثوار، وقلب الوقائع والأحداث الميدانية في التظاهرات السلمية من خلال زرع بعض العملاء المسلحين بين المتظاهرين لإثارة الشغب والفوضى.

٣- إصاق تهم القتل والمجازر بالثوار، من خلال وضع بعض الأسلحة في البيوت، وبجانب القتلى المدنيين، ونسبة ذلك للثوار.

٤- تركيز النظام المجرم آلياته الإعلامية على الجيش الالكتروني وإثارة الحرب النفسية بكلّ أشكالها وتنوّع أصنافها لتضفي بآثارها على الخصوم وتُقصّر من عمر المعركة وخسائرها.

المطلب السادس: أخطاء الإعلام الثوري:

لقد وقع الثوار في أخطاء تُعتبر كبيرة بحقّهم وبحقّ الثورة السورية، وإن كان مرء ذلك لعدم الخبرة الإعلامية العسكرية عندهم، وغلبة الحماس والعاطفة والبساطة على تصوّراتهم الغير محسوبة، والتي كان لها آثارٌ سلبيةٌ على الثورة والثوار في معاركهم العسكرية وحتى حياتهم المدنية، ومن هذه الأخطاء ما يلي:

١- كشف تحركات الجيش الحرّ في الجبهات وتحديد نقاط الرّباط التي يربطون فيها، والتحدّث عن الأماكن التي يتمّ تحريرها، والإفصاح عنها قبل إتمام العمليات العسكرية وانتهاء المراحل القتالية.

٢- عدم توحيد المكاتب الإعلامية الحربية ضمن غرفة عمليات واحدة منضبطة، ما يؤدي إلى فوضى الإعلام وكثرة الصفحات الإعلامية في الفصائل والألوية العسكرية، التي تعمل كل واحدة منها على انفراد بخططها الخاصة من تصوير غير ممنهج، وتوثيق لتحقيق أمني وخطير، أو تصوير لاعتراقات شبيح أو ضابط، أو تصوير لانتزاع اعترافات تحت الضرب والتعذيب قد يكون لها تداعيات صعبة أمام العالم وفي منظمات حقوق الإنسان، فضلاً عن الإساءة التي تلحق بالثورة عند مقارنتها بأساليب النظام المجرم وتعامله مع الثورة وأهلها.

٣- إظهار التحقيقات الأمنية الخاصة بالأسرى، أو التعامل معهم بما يستفز الأطراف الدولية، وخاصة في حالات قد لا تكون صحيحة في التعامل، أو مخالفة لحقوق الأسرى والمعتقلين.

٤- الوقوع في فخ التضليل الإعلامي الذي برع فيه النظام المجرم، من خلال بث بعض الأخبار الكاذبة عن سقوط مدني أو أماكن عسكرية، في الوقت الذي ينصب فيها حواجز مخفية ليوقع الثوار أسرى بأيدي جنوده.

المطلب السابع: نصائح وتوصيات:

لما كان للإعلام دوره وأهميته للواقع في الحال والمآل على أمن الناس وسلامة أمرهم من جهة إذا أحسن استعماله، ومن خطر كبير على أمن المجتمع وحال أفراد من جهة ثانية إذا أسيء استخدامه، كما يحصل في كثير من الأحيان، لذلك كان لا بد من الإشارة إلى بعض النصائح والتوجيهات، ومنها:

١- الإعلام سيف ذو حدين، يقتضي حسن الاستخدام؛ حتى لا يعود بالخسارة والهزيمة على صاحبه.

٢- الإعلام أمانة ومسؤولية أمام الله سبحانه، وأمام عباده "فكل مسلم على ثغرة من ثغور هذا الدين".

٣- الإعلام، وخصوصاً الرقمي، يختفي وراءه الكثير من المندسين من أصحاب الأسماء الوهمية والألقاب المزيفة والأرقام المشبوهة، والعبارات الرنانة والكلمات الطنانة، فإنها في حقيقتها قد تكون خداعة ومغرضة.

٤- عدم التسرع في كتابة الأخبار أو نقلها إلا بعد التأكد من مصادرها الرسمية المعروفة، فالتأخر في نقل الخبر الصحيح خيرٌ من الإسراع في نقل الأخبار الكاذبة التي سرعان ما تحبط الناس وينكشف زيفها.

٥- في الإعلام؛ كثيراً ما يُعمل على إسقاط الرُumuz: (قادات- علماء- شخصيات فاعلة- كوادر معروفة- دعاة وأساتذة ...)، وذلك من خلال سرد بعض القصص المغطاة بالكذب والتدليس للتشوية والطعن والتشكيك، فلا بدّ من الحذر والانتباه من الوقوع في تلك المطبات الخطيرة.

٦- الحذر من ترويح الأخبار الكاذبة بقصدٍ أو بغير قصدٍ، فهو من الحروب النفسية التي يستخدمها النظام المجرم لما فيها من بثٍّ للخوف في قلوب المدنيين وتشتيتٍ للثوار وتشكيكٍ بهم في قلوب حاضنتهم الشعبية.

المبحث الثامن

الثورة السوريّة وتبعاتها العامّة

المطلب الأول: تبعات الثورة السوريّة

المطلب الثاني: التّدخل الدوليّ؛ أسباب وذرائع

الثورة السوريّة وتبعاتها العامّة

تمهيد:

من خلال دراسة الواقع الجغرافي لسوريا والتي تعتبر نقطة اتّصال بين قارات العالم القديم، إضافة لما تمتلكه من ثروات باطنية وموارد نفطية وطبيعية وطاقات بشرية من أصحاب العلم والفكر والخبرة والمعرفة، جعل منها محطّ أنظار العالم، وأسأل لعاب الدول الطامعة بخيراتها، وهذا بحدّ ذاته يُعتبر عامل استقرار لها وللدول المجاورة، وذريعة تُجرّ الخلل والفوضى والاضطراب على المنطقة برمتها من بعض الدول الظالمة التي تعتاش على دماء الشعوب ونهب خيرات بلادهم.

وهو ما بدا واضحاً بعد انطلاقة الثورة السوريّة وتعثّب النظام الفاجر في التّعامل مع الشعب السوريّ الحرّ حيث انعكست تداعياته سلباً على البلد بكلّ مجالات حياته، وعلى البلدان المحيطة به أيضاً، حتى أصبحت الأزمة السوريّة من أكثر الأزمات تحدّياً في الشرق الأوسط، وما زاد من تعقيدها أكثر تدخل بعض الدول الكبرى الفاعلة ذات المصالح والأجندات الخاصة بعيداً عن المصلحة العامّة لسوريا صاحبة القضية.

المطلب الأول: تبعات الثورة السوريّة:

يمكن أن نقسّم تبعات وتداعيات الثورة السوريّة إلى قسمين رئيسيّين يتفرّع عنهما أقسام جزئية، نستعرضها فيما يلي:

أولاً: تبعات محلية (داخلية):

إنّ المتأمل في الواقع الداخلي لسوريا بعد عقدها الأول مع التّدخل الإقليمي والدوليّ في الملفّ السوريّ يرى المآلات الصّعبة والنتائج المؤلمة لما وصل إليه الحال والتي يمكن أن تتوضّح من خلال المحاور التالية:

١- التّبعات الاجتماعيّة:

لا شكّ أنّ المتأمل في الشّأن السوريّ من أول نظرة له سيشاهد عظم الكارثة التي حلّت بالبلد جرّاء إجرام النظام الأسدّي وحلفائه الغزاة من قصف للممتلكات وتدمير للمشافي والمدارس

والجامعات والبُنى التحتية والمرافق العامة ودور العبادات، والعمل على تهجير المواطنين من قراهم وبلدانهم بالتشبيح والتشليح والتهديد حتى بات أكثر من نصف سكان البلد بين لاجئ يستعطفُ العالم، ونازح يحتاج لأدنى مقومات الحياة، فضلاً عن أكثر من مليوني تاجر بين شهيد وجريح ومعاق وسجين ومفقود، وما يتبع لهم من نساء وأطفال وشيوخ يعيشون حالة الحاجة والعوز تحت خط الفقر، مع انتشار البطالة وفقدان فرص العمل، ولعلي أركز على بعض التبعات الاجتماعية في النقاط التالية:

أ- تشير الإحصاءات الرسمية في مراكز الإحصاء والتوثيق إلى أن عدد الشهداء والمفقودين تعدى المليون ونصف المليون، وهو عدد كبير يصل إلى مرحلة النكبة الإنسانية والكارثة البشرية.

ب- تشير الإحصاءات الرسمية في مراكز الإحصاء والتوثيق أيضاً إلى أن عدد النازحين واللاجئين الذين أُخرجوا من مدنها وقراهم وصل لما يقارب الأربعة عشر مليوناً، وهذا يعني أن أكثر من نصف عدد السكان بات نازحاً أو لاجئاً على أبواب الدول وفي بلاد الشتات.

ت- الفقر والعوز الذي أصاب الشعب السوري: بسبب تدمير المدن والقرى عليهم، وتهجيرهم إلى مناطق أخرى، هو ما أفقد الناس أرصدهم المالية وأدنى من مستوياتهم الغذائية، حتى باتت نسبة الفقر أكثر من ٩٠٪ من السكان، فضلاً عن نقص فرص العمل التي يمكن أن تُعوض لهم ذلك، أو تخفف من معاناتهم على الأقل.

ث- الفرز الطائفي والقتل على الهوية: فلم تبرز الطائفية قبل الثورة بشكلها الدامي وحدها الأسود الدفين، إلا بعدما طالب الشعب الحر بحقوقه المسلوبة حيث ظهرت الطائفية بكل مظاهرها البشعة، فصار القتل والختف والتهجير القسري أمراً مُمهّجاً عند الطائفة النصيرية في استباحة كاملة لكل أموال وأموال وأموال السُّنة جهاراً نهاراً.

ج- الاصطفاف الحزبي: استغل النظام الفاجر في أزمته بأن استعان بمنظومته الحزبية، واتخذ من أعضاء حزب البعث دروعاً بعدما قدّم لهم الوعود بمستقبل حزبي أفضل، فتحول الكثير منهم أدوات طيعة لقتل إخوانهم وأبناء جلدتهم.

ح- الاجتذاب المالي: لم يترك النظام الفاجر سبيلاً للخروج من أزمته إلا واستخدمها، وكان منها أن بذل الكثير من المال لشراء الذمم والتجنيد في صفوف قواته الأمنية والعسكرية والرديفة،

وخاصةً القوات التي أخذت الطابع المدني، ك(الدفاع الوطني، ولجان المقاومة، والشبيحة)؛ لقمع المظاهرات وتعفيش البيوت والممتلكات، ودفعهم لاقتحام المنازل والأحياء، ليكونوا رأس حربة في ارتكاب الجرائم والمجازر بحق أهلهم وجيرانهم.

خ- الانقسام المجتمعي السوري تجاه الموقف من الثورة، بين مؤيد لها أو معارض، وهو ما استغلّه النظام الفاجر وعمل على التحريض على الثائرين والمعارضين، وسعى لتجنيد المؤيدين لصفوفه مقابل مناصب وأموال، إضافة لاستخدام أساليب التهريب أحياناً وأساليب الترغيب أحياناً أخرى، حتى حوّل أفراد المجتمع الواحد إلى أعداء، يكيّد بعضهم لبعض، ويقتل بعضهم بعضاً، فضلاً عما زرعه في قلوبهم من الحقد والبغضاء قد لا تندمل آثاره على المدى المنظور.

د- تدمير النشء الجديد وتحطيم قيمه: لقد كان للأطفال السوريين النصيب الأكبر من تبعات الثورة السورية وما مارسه النظام الفاجر بحقهم مع عائلاتهم، حيث إنّ حقوق الطفل الواجبة لهم لم يحصلوا عليها، فضلاً عن التعب النفسي والقلق والاضطراب والأرق الذي ستكون انعكاساتها شديدة على مستقبلهم الحياتي، إضافة إلى الإعراض عن التعلم والدراسة بغية مساعدة عوائلهم في تجاوز المرحلة المعيشية الصعبة، فضلاً عن تدمير آلاف المدارس والمعاهد فوق رؤوس طلابها، وإشغال بعضها لسكن اللاجئين الهاربين من مدنها وقراهم، وكذلك الكثير من الأطفال المصابين والمعاقين وأصحاب الاحتياجات الخاصة الذين لم يستطيعوا خدمة أنفسهم وتجاوز ما يعترضهم من تحديات صعبة في حياتهم الطفولية تدفع عنهم الأذى والضرر.

كلّ هذه الأمور خلقت شرخاً كبيراً في المجتمع السوري من الصعب اندماله، وسيكون له تداعيات قاسية في المستقبل، من ردّ للاعتبار وأخذ بالثأر والانتقام ممّن قتل وظلم، إضافة لما قد يسببه ذلك من أثار الحقد والكراهية والضغينة والتفكك المجتمعي، وما ينطبق على أحياء البلد الواحد ينطبق على جميع المحافظات السورية.

وبنفس السياق فقد كان التداعيات واضحة في المجال التعليمي بكل مستوياته ومجالاته والتي سيأتي الكلام عنها في مبحث لاحق.

٢- التبعات السياسية:

تجلى ذلك من خلال الانقسام الدولي تجاه الأزمة السورية ومدى جدّيتهم في حلّها، وخاصةً أنّها تحوّلت إلى حربٍ بالوكالة بين الدّول الكبرى والإقليمية، وتصفية حساباتهم على الأرض السوريّة، كما زادت من الشّرخ الاجتماعيّ في المجتمعات العربيّة فضلاً عن المجتمعات السوريّة التي تحوّلت من مسيرة الإصلاح والنّمُو إلى حالة النُّدب والتّناحر وردود الأفعال وكسب المواقف، في الوقت الذي لم تُرد فيه الدّول الكبرى أيّ تقدّم في المجال الإصلاحيّ، أو في إخراج الأزمة من عنق الرّجاجة، وذلك من خلال مساعدتها في صناعة هيئاتٍ سياسيّةٍ صوريّةٍ هزيلةٍ منزوعة القرار بأسماءٍ مختلفةٍ لتستكمل خطّها وتضمن حصّتها من الكعكة السوريّة، مع ترتيب إدارة الحكم المستقبلية وصياغة الدّستور بما يحقّق أمنها ويحفظ لها مصالحها.

ومن المفيد أن نستعرض بعض التّداعيات السياسيّة التي اعترضت الثّورة منذ بدايتها، والتي كانت ضروريّة لضمان استمرار الثّورة رغم التّحدّيات والصّعوبات والتّأمر الدولي، وهي كما يلي:

١- ظهور تياراتٍ سياسيّةٍ معارضةٍ في الخارج، وأخرى عسكريّةٍ في الدّاخل تداعت كلّها للدّفاع عن الأرض والعرض والهوية، كلّ في مكانه ومجاله التّخصّصي، ك (المجلس الوطني السوري) الذي أعلن عن تشكيله في استنبول بتاريخ ٢ / ١٠ / ٢٠١١م، حيث ضمّ عدداً كبيراً من الشّخصيّات والأفراد والجماعات الثّوريّة؛ مستقلةً واعتباريّةً، لوضع رؤيةٍ لسوريّةٍ الجديدة.

ثمّ بعد فترةٍ قليلةٍ تمّ تشكيل (الائتلاف الوطني لقوى الثورة والمعارضة) في تشرين الثّاني من عام ٢٠١٢م في الدوحة، وقد لقي قبولاً لدى المجتمع الدوليّ كممثلٍ شرعيّ يجمع الأطياف السوريّة المتنوّعة في جسمٍ واحدٍ، واعترفت به عشرات الدّول كممثلٍ شرعيّ وحيدٍ عن الشّعب السوريّ مع الجامعة العربيّة التي طردت النّظام الأسدّي من مقعده في الجامعة، إلا ما كان من موقف الجزائر والعراق ولبنان الدّاعم للنّظام المجرم.

وكذلك فقد تشكّل ما يسمّى: (هيئة التنسيق الوطني لقوى التّغيير)، في مدينة حلبوني بريف دمشق في تشرين الأوّل من عام ٢٠١١م، حيث ضمّ شخصيّاتٍ وأحزابٍ اعتباريّةٍ ومستقلةٍ تطالب بحقوق الشّعب السوريّ وترفع مطالبه، كما تتبنّى ثلاثة مبادئ أساسيّة؛ سمّيت باللاءات الثلاثة هي: (لا للتّدخل العسكريّ الأجنبيّ، لا للتّجيش الطّائفيّ والمذهبيّ، لا للعنف وعسكرة الثّورة)،

وبالرغم من ذلك فلم تكسب ثقة الشعب الثائر، وإنما اعتبرت جماعة مدفوعة ومحسوبة على النظام المجرم يحركها كيف يشاء وبالوقت الذي يريد.

٣- التبعات الاقتصادية:

لا شك أن الحروب والصراعات الداخلية في أي بلد أو مكان تؤثر سلباً على حركة الاقتصاد لذلك البلد بالدرجة الأولى، فكيف إذا تحولت الساحة إلى حلبة صراع دولي وحروب طاحنة تحرق الأخضر واليابس، والتي أدت فعلاً إلى النزيف المستمر للموارد الاقتصادية، وما سببته من نزوح وتهجير قسري ولجوء الملايين إلى أنحاء من بلاد العالم بما فهم أصحاب رؤوس الأموال، وهجرة العقول والمفكرين وغيرهم من الشخصيات الوطنية الفاعلة، يتبين حجم الضعف والانهيار الذي أصاب الاقتصاد السوري على مستوى مناطق النظام الفاجر وعلى مستوى مناطق المعارضة.

وبنظرة بسيطة للوضع الاقتصادي العام بعد سنوات الثورة والتركيز على بعض نقاط الضعف والانهيار الاقتصادي، يتجلى بوضوح من خلال النقاط التالية:

١- توقف التجارات الداخلية ضمن المحافظات السورية بعدما تقطعت الطرق بينهم وحوصرت المدن من قبل النظام الفاجر.

٢- توقف الصناعات المحلية في المحافظات السورية لعدم وجود سوق للتصريف من جهة، ولعدم توفر المواد الخام اللازمة لها.

٣- تعطل الزراعة المعدة للتصدير، لعدم القدرة على تصريفها، والاقتصار على الزراعة للاستهلاك اليومي، والتي لم تشغل بالشكل الصحيح لانشغال المناطق بالأعمال العسكرية من قبل النظام القاتل الذي جعلها عرضة للقصف والحرق والتدمير.

٤- ضعف القدرة الشرائية عند الناس بالتزامن مع التدهور السريع للعملة المحلية وفقدان قيمتها، الأمر الذي أثار الخوف عند أصحاب رؤوس الأموال، وهو ما دفعهم لتهريبها خارج البلد لتشغيلها وضمان الحفاظ عليها،

٥- توقف أغلب المؤسسات الخدمية مع المدارس والمرافق العامة والمستشفيات التي أصبحت محلاً للاستهداف والتدمير من قبل النظام الفاجر وحلفاؤه المحتلين.

- ٦- توقّف قطاع السيّاحة ومشاريع الاستثمار السيّاحي الذي كان يشكّل مصدراً مالياً قوياً للدولة.
- ٧- توقّف مؤسسة الاتصالات التي تُعتبر من أقوى المؤسسات دخلاً مالياً، لا سيما أنّها كانت محتكرة للنظام وبعض أفراد طائفته المقرّبين حصراً.
- ٨- توقّف الصناعات الاستخراجيّة والتّحويليّة لعدم توافر المواد الخام والمستلزمات اللازمة جرّاء المعارك المتواصلة.
- ٩- توقّف الاستثمارات الخارجيّة لعدم وجود الضمانة الحقيقيّة لأموالهم وحماية شركاتهم ومشاريعهم.

٤- التبعات العسكريّة:

حيث تحوّلت سوريا في أغلب محافظاتّها إلى ركامٍ مهتدّم في أبنيتها، وخرابٍ مخيفٍ في أزقتها وشوارعها، فقد مزّقتها المعارك والحروب، وباتت مسرحاً لكلاّب المجوس وميليشيات الرّافضة بعدما أنهكت قوات النظام وأوشكت على السقوط والانهاء، وبقيت الجولات القتاليّة بين كرٍّ وفرٍّ دون انتصار أحد الطّرفين على خصمه، مع الرّغبة الدّوليّة في إطالة أمد الصّراع وعدم حلّ الأزمة، وذلك من خلال العمل على توازن القوى العسكريّة وتحريكها لصالح النظام في أغلب الأحيان مع منع سقوط قوّات المعارضة وانتهاء ثورتها.

ثانياً: تبعات خارجيّة (إقليميّة ودوليّة):

من خلال دراسة القضية السّوريّة بمطالبة الشّعب السّوري بحقوقه المشروعة ومع تعنت النظام الفاجر في السّماع والاستجابة لتلك المطالب تحوّلت القضية السّوريّة إلى أزمةٍ تحتاج إلى مخرجٍ مناسبٍ منها.

وأمام دراسة ثورات الرّبيع العربي وجدنا أنّ الحكّام العرب لم يستطيعوا الصّمود أمام ثبات شعوبهم فاضطر بعضهم للهروب (زين العابدين بن علي في تونس)، وبعضهم للسّقوط والمحاسبة (حسني مبارك في مصر)، وبعضهم للقتل عندما حاول التّعنت واستخدام العنف (القذافي في ليبيا)، بعكس ما حصل في سوريا التي استعصت على الثّائرين الذي بذلوا وقدموا وضحووا بكلّ ما يملكون، لكنهم لم يستطيعوا إسقاطه حتى هذا التاريخ؛ لأسبابٍ لا مجال لذكرها هنا.

أمام هذا التّعنّت واستخدام أشكال العنف ضدّ الشّعب الثّائر لم تقتصر تداعيات الثّورة السّوريّة على المستوى المحليّ فحسب، كما كانت عليه ثورات الرّبيع العربيّ، بل تعدّت إلى دول الجوار على المستوى الإقليميّ، الأمر الذي لم يكن بالحسبان حيث تسبّب تدخّل الدّول وإطالة أمِد الثّورة باضطراب المنطقة العربيّة والشرق الأوسط وعدم استقرارها، والذي بدوره خلق ذريعة لتدخّل الدّول الكبرى ذات المصالح والأجندات الخاصّة، لتصبح تبعاتها وتداعياتها على المستوى الدّوليّ.

كان التّدخّل الإقليميّ ثمّ الدّوليّ الذي أخذ طابع المساعدة للشّعب بدايةً وتخليصه من النّظام القاتل، لكنّه في الحقيقة كان ينتظر تلك الفرصة لتكون ذريعة للسيطرة والنّفوذ على خيرات وثروات البلد، كما كان حال غيرها من البلدان التي استعمرت من قبل، فضلاً عن تحقيق ما يراد لسوريا بشكلٍ خاصٍ ومنطقة الشرق الأوسط بشكلٍ عامٍ من تقسيمٍ يُضعف من قوّتها ويُزعزع من ثقتها ببعضها، ويُفكّك من ترابط أهلها.

لقد كان للتّدخّلات الإقليميّة والدّوليّة تأثيراتٌ سلبيةٌ ساهمت في تصاعد وتيرة الأزمة وتطويل أمدّها، وكذلك كان للعوامل الدّاخليّة آثارٌ سلبيةٌ كثيرةٌ كما أسلفنا، منها ضعفُ الأداء السّياسيّ في تمثيل الثّورة في المحافل الدّوليّة، وكذلك التّعنّت والظلم الذي مارسه النّظام الفاجر ضدّ الشّعب الثّائر، والذي أدّى بدوره إلى هجرة الملايين من سوريا إلى بلاد الشّتات في العالم، فضلاً عن الأوضاع الاقتصاديّة الصّعبة التي وصلت إليها المنطقة مع ازدياد نسبة البطالة في المجتمع وعدم وجود فرص عملٍ تسدّ رمقَ العوائل وتكفي حوائجهم.

يتحمّل النّظام المجرم كلّ التّبعات التي نزلت في السّاحة السّوريّة وأصابت أهلها ومن معه من الدّول الغازية وميليشياتهم الطّائفية والمرتزة فكانوا سبباً مباشراً بالأزمة، والفسل في التّعامل مع الشّعب وما ترتّب عليه من تبعاتٍ صعبةٍ، منها:

١- لم يكن بشار الأسد حريصاً على نهضة سوريا ورفعها بين البلاد بقدر ما كان حريصاً على إبقائها تحت سلطةٍ وهيمنةِ الأسرة الحاكمةِ بسلطاتها الثلاثة، كما كان الأمر في عهد أبيه الهالك حافظ أسد، وهذا يعني مزيداً من الفشل والتّقهقر على حساب الشّعب السّوريّ الذي وقع تحت سندان الوعود الموهومة ومطرقة الوعيد والتّهديد والسّجون، فاستمرت سوريا من فشلٍ إلى فشلٍ حتى جاءت ساعة الصّفر لتنطلق ثورة الكرامة وتخلع ثوبَ الدّل والخنوع.

٢- عدم استقلالية القضاء بشكل خاص، مع عدم إعطاء الصلاحيات الكاملة لأصحاب السلطات الأخرى ضمن مجالاتها والتدخل المباشر فيها.

٣- تعنت النظام الفاجر واستخدامه لكل أساليب القهر والقمع بدلاً من السماع لشعبه واعتماد أسلوب الحوار والدبلوماسية، واستئنائه بسلطة حكم القائد الأوحده مع إقصاء الجميع.

٤- مطالبة الشعب السوري بإلغاء القوانين الجائرة، والطوائ التي تُطلق الأيدي الفاسدة إلى مزيد من الإجرام، واحتكار السلطة بيد طائفة معينة أو أشخاص مفروضين على الشعب، مع عدم فسح المجال للمشاركة السياسية أمام أصحاب الفكر والسياسة.

٥- عدم استجابة النظام الفاجر إلى مطالب الشعب بالإصلاح الكلي للبلد، وخاصة الاقتصادية منها؛ لإنهاء الباطلة والفساد وتخفيف الفقر وحالات الحاجة والعوز.

٦- استقطاب النظام الفاجر للأقليات الموجودة تحت الإجبار والتهديد والترغيب أحياناً ببعض الميزات على حساب الطائفة السنية الأكبر، والذي أدى بدوره إلى الفشل الذريع على المستوى السياسي والاجتماعي، ثم إلى التدخل الدولي مع انسداد أفق الحل والإصلاح.

المطلب الثاني: التدخل الدولي؛ أسباب وذرائع:

من يقرأ تاريخ الدول المستعمرة عبر التاريخ يجدها تبحث عن فرائسها التي تقتات على دمائهم من خلال إيجاد الذرائع المناسبة والأسباب المسرعة لذلك، وهذا هو حال الدول الكبرى في الأزمة السورية، حيث ظهرت التدخلات بعيد انطلاق الثورة من الدول الإقليمية بدايةً، ثم سرعان ما كانت الدول الكبرى حاضرة في المطابخ السياسية والغرف العالمية للعمليات المخبرانية.

لم تكن تلك التدخلات الإقليمية والدولية من أجل التخفيف عن الشعب السوري وإخراجه من أزمته كما كانت تدعي، وإنما كانت كل دولة تسعى لكسب أكبر قدر ممكن من الكعكة السورية، وهو ما يعني أنها تدخلت مصلحة خاصة بامتياز.

حيث تتميز منطقة الشرق الأوسط عن غيرها من مناطق العالم بأنها تمتلك من الممرات المائية والمعابر البرية وطرق مواصلات لكثير من الدول الكبرى، فضلاً عن الموارد والثروات الطبيعية الكبيرة، إضافة إلى تنوع أنظمة الحكم فيها؛ بين أنظمة ملكية، وأنظمة ديكتاتورية قمعية، وأنظمة ديمقراطية وأخرى إسلامية، وهذا التنوع غالباً ما يكون سبباً من أسباب الفوضى في تلك

البلاد الذي تجد فيه الدول الكبرى ذريعة للتدخل، كما حصل في سوريا من تدخل إيران لصالح نظام الأسد حفاظاً على مصالحه الخاصة، وكذلك التدخل الروسي الذي يعتبر النظام السوري نظامه الخاص فضلاً عن المصالح الأخرى، فعلى سبيل المثال؛ فقد تدخلت السعودية وقطر وقدمت دعماً (إنسانياً وإغاثياً) كبيراً في السنوات الأولى من الثورة، وتبنت ضرورة إسقاط نظام الأسد المجرم لمنع التمدد الإيراني الذي استفحل في سوريا في عهد بشار الأسد، وكذلك لتقليل النفوذ الروسي في منطقة الشرق الأوسط الذي سيكون له من العواقب الوخيمة على دول الخليج.

وأما إسرائيل؛ فقد وقفت بدايةً موقف المعادي (ظاهرياً) للنظام الأسد منعاً للتمدّد الشيعي الواضح والخطر الإيراني الداعم لحزب الله اللبناني المحاذي لهم، فكانت الضربات الاسرائيلية الجوية تتوالى على المواقع الإيرانية ومواقع حزب الله وبعض مواقع النظام السوري وطرق إمداده لحزب الله.

وأما تركيا؛ فإن من مصلحتها أن تبقى سوريا واحدة تحظى بالأمن والاستقرار الداخلي؛ لأنها البوابة الرئيسية لها إلى الدول العربية في توريد بضائعها إلى الأسواق التجارية للدول العربية.

كانت العلاقات بين تركيا والنظام السوري قبل الثورة بأفضل أشكالها، ومع انطلاق الثورة والتحرك الجماهيري الكبير لم تبخل القيادة التركية بتقديم النصائح لبشار الأسد للبدء بعملية الإصلاح والسماع للشعب السوري من أجل الحفاظ على وحدة سوريا بأرضها وشعبها ومصيرها، إلا أن بشار الأسد لم يستجب لتلك النصائح، بل أمعن في قتل الشعب وزاد في ظلمه وتدميره، الأمر الذي جعل من الحكومة التركية تقف مع ثورة الشعب وأحقية قضيتهم مع الحفاظ على أمنها القومي، لا سيما أن حدودها الطويلة مهددة بالخلل والاضطراب من المنظمات الإرهابية الانفصالية الكردية الـ pkk، حلفاء النظام المجرم، فضلاً عن الأسباب الموجبة لتدخله في حماية بلده وأمنه القومي من خطر الأحزاب الكردية الانفصالية على حدوده البالغة أكثر من ٩٠٠ كم.

وقد تجلّت بعض العقوبات التركية على النظام السوري بعد إمعانه بسفك الدماء السورية وعدم استجابته لمطالب شعبه بإيقاف التعامل المالي مع البنوك السورية الرسمية، كما جمّدت الأرصدة المالية السورية عندها، مع إنهاء التجارة الحرة التي كانت من قبل.

وأما التّدخل الأمريكي: فقد كانت أمريكا ترغب بإسقاط النّظام بدايةً (ظاهرياً)؛ لتحقيق توازن القوى في المنطقة والتّخفيف من الخطر الإيراني بعد تغوّله في لبنان وسيطرته عليها، وتغوّله في العراق واليمن ومدّ أذرعه في دول الخليج، وعلاقاته الحميمة في سوريا، وهذا يعني زيادة السّيطرة والنّفوذ الإيراني على منطقة الشّرق الأوسط الذي سيشكل بتحالفه مع الرّوسيّ عقدة القلق والاضطراب عند أمريكا، الأمر الذي لا تسمح به أمريكا، وتعمل على قطع الطّرق أمامه من خلال إسقاط النّظام الأسد.

لم تكن العلاقات الأمريكيّة السّوريّة جيدةً من بعد أحداث سبتمبر ٢٠٠١م، حيث لم تكن سوريا راضيةً عن الاحتلال الأمريكي للعراق، إضافةً إلى بعض المصالح الأمريكيّة في سوريا لتجد الفرصة في خلق بوابةٍ للتّدخل مع الضّغط الذي مارسه عليها من قطع العلاقات الدّبلوماسية وفرض بعض العقوبات الاقتصاديّة عليها، حيث أوقفت كلّ الاستثمارات الأمريكيّة داخل سوريا، إضافةً إلى تجميد الرّصدة السّوريّة في البنوك الأمريكيّة، ومما سرّع من التّدخل الأمريكي في سوريا، وجود (داعش) فيها؛ لتكتمل ذريعة التّدخل واستخدام (قسد) أداةً لمحاربتها، مع التّموضع الأمريكي في مناطق الآبار النّفطيّة في الشّمال والشّمال الشّرق لـسوريا.

وأما روسيا: فلم تنقطع العلاقات بين روسيا وسوريا منذ عهد حافظ الأسد، والتي كانت تتمثّل بالتّبادل التجاري والاقتصاديّ الذي تجلّى في بعض جوانبه بإنشاء عشرات المشاريع التّنمويّة والاقتصاديّة في أنحاء من سوريا، إضافةً لإرسال بعثاتٍ من مهندسين وفنيّين من الرّوس لتدريب السّوريّين على إدارة بعض المنشآت في سوريا.

حاولت روسيا بدايةً العمل على حلّ الأزمة السّوريّة بالطّرق الدّبلوماسية لعلّها تحفظ نظام الأسد من السّقوط، وكونها من الأعضاء الدّائمين في مجلس الأمن جهدت أن تمنع التّدخل الأمريكي والفرنسيّ بالشّأن السّوريّ حفاظاً على مصالحها، وذلك من خلال الفيتو الرّوسيّ والصّينيّ عام ٢٠١٤م، على المشروع الذي قدّمته فرنسا والذي يقضي بإحالة الأزمة السّوريّة للنّائب العام في المحكمة الجنائيّة الدوليّة، وكذلك كان اعتراضها على المشروع الذي قدّمته السّعودية عام ٢٠١٢م لإدانة النّظام المجرم على استخدام العنف ضدّ المتظاهرين وضرورة الانتقال السّياسي، وكذلك استخدمت الفيتو ضدّ المقترح الأوروبيّ الذي يقضي بفرض عقوباتٍ على النّظام إن لم

يوقف العنف ضدَّ الشعبِ الثَّائر، وكذلك استعملت حقَّ الفيتو لمنع إصدار أيِّ قرارٍ بفرض عقوباتٍ عسكريَّةٍ عند عدم الالتزام بقرارات كوفي عنان السَّتَّة^(١).

وبشكلٍ عام فقد قامت روسيا بحماية النِّظام الأسدِيّ من العقوبات التي يمكن أن تُفرض عليه من قبل مجلس الأمن والدُّول الأعضاء من خلال مؤتمر جنيف آنذاك، فضلاً عن الدَّعم العسكريِّ المباشر والمفتوح بعد عام ٢٠١٥ م.

وبشكلٍ عام فإنَّ التَّدخُّلَ الرُّوسِيَّ في سوريا لم يكن لسواد عيون النِّظام السُّوريِّ، وإنَّما كان للحفاظ على المصالح الاقتصادية الرُّوسِيَّة، إضافةً إلى اعتبارها مكاناً للقاعدة العسكريَّة الرُّوسِيَّة في حوض البحر المتوسِّط، وتوسيع النفوذ في منطقة الشرق الأوسط، وخاصةً بعد الانكماش الرُّوسِيَّ بعد سقوط الاتحاد السُّوفياتي أواخر القرن الماضي لإعادة التَّموضع الرُّوسِيَّ على المستوى الدُّوليِّ ثانيةً.

وأما إيران: فقد كانت سبَّاقةً في علاقاتها مع الأسد الأب من ثمانينيات القرن الماضي عبر خطواتٍ من التَّقارب الشَّيعيِّ النُّصيريِّ، ثمَّ التَّبادل التِّجاريِّ والزَّيارات المتبادلة بين مدينتي (قُم الإيرانية، ودمشق السُّوريَّة) لطلاب العلم الشَّيعيِّ وما يتبع ذلك من الدَّعم الماليِّ والاقتصاديِّ بين البلدين، وحتى الدَّعم العسكريِّ المتبادل الذي تجلَّى بدعم النِّظام السُّوريِّ للثَّورة الخمينيَّة في حربها مع العراق في ثمانينيات القرن الماضي.

لم تتوقف إيران عن علاقاتها مع النِّظام السُّوريِّ بوفاة حافظ الأسد، بل ازدادت أضعافاً مضاعفةً في عهد ابنه بشار الأسد ودعمه بكلِّ أشكال الدَّعم السِّياسيِّ والعسكريِّ والماليِّ واللوجستيِّ وغيره.

(١) - النقاط السَّت لخطة كوفي عنان هي:

أولاً: الالتزام بالعمل مع أنان من أجل عملية سياسية شاملة يقودها السُّوريون.

ثانياً: الالتزام بوقف جميع أعمال العنف المسلح، بما في ذلك وقف استخدام الأسلحة الثقيلة وسحب القوات، ووقف تحركات قوات الجيش باتجاه المناطق المأهولة بالسكان.

ثالثاً: تطبيق هدنةٍ يوميَّةٍ لمُدَّة ساعتين: للسماح بإدخال المساعدات من جميع المناطق المتضررة من القتال.

رابعاً: الافراج عن جميع مَنْ جرى اعتقالهم تعسفياً بمنَّ فهم المعتقلون لقيامهم بنشاطات سياسيَّة سلمية.

خامساً: الاتفاق على ضمان حرية الحركة للصحافيين في جميع أنحاء البلاد وتبني سياسة لا تقوم على التَّمييز بشأن منحهم تأشيرات لدخول البلاد.

سادساً: الاتفاق على حرِّية تكوين المؤسسات وحقِّ التَّظاهر السِّلعي على أنَّها حقوقٌ مضمونة قانونياً.

ولعل من أهم الأهداف الإيرانية وراء ذلك؛ أن تُكْمَلَ مشروعها في إعادة إمبراطوريّتها الفارسيّة، وتوسّع رقعة سيطرتها لتصل إلى الهلال الشّيعيّ الخصيب الذي يصل بين إيران والعراق وسوريا ولبنان، وهو ما يعني السّيطرة والنّفوذ على أهمّ البقع الجغرافيّة والمنافذ البحريّة التي تسهّل لها التّجارة مع الدّول الأخرى، وتفتح لها أبواب الأسواق التّجارية العالميّة، وخاصّة نقل الغاز الإيرانيّ إلى الدّول الأوروبيّة كبديلٍ عن الغاز الرّوسيّ، فضلاً عن المآرب الأخرى التي تتبّع فيها الأساليب النّاعمة للوصول إليها، من بناء الحسينيّات وحماية المراقد الشّيعيّة والتمسك بآل البيت، وما تسلكه من أساليب وأدوات تستقطب النّاس وتستجلبهم لمذهبها ومنهجيتها الفكريّة والمذهبيّة الشّيعيّة.

كما أنّها (إيران) تدرك تماماً بأنّ البديل عن النّظام الأسد سيكون الأكثرية السّنيّة حصراً، وهو ما يعني لها العربيّة السّعوديّة المعاديّة لها مذهبياً وعقديّاً حسب زعمها، وهذا ما لا ترغب به ولا تقبله مهما دفعت من ثمن، ومهما قدّمت من تضحيات.

ولذلك كانت إيران من أحرص الدّول الدّاعمة لنظام الأسد، حيث دفعت بكلّ ما تستطيع من القوى العسكريّة والبشريّة والسياسيّة لتمنع سقوطه؛ لإيمانها بأنّ سقوط نظام الأسد أمام المعارضة الثّوريّة يعني اندثار مشروعها الصّفويّ الطّائفيّ في منطقة الشّرق الأوسط بأكمله بدءاً من العراق ووصولاً إلى لبنان واليمن.

وأما جامعة الدّول العربيّة: فقد حاولت بدايةً الأزمة السّوريّة الضّغط على النّظام الأسد في الاستجابة للشّعب السّوري وكفّ يد الجيش عن الاعتداء على الشّعب الثّائر وتلبية مطالبه، لكنّ النّظام لم يستجب لذلك.

وكذلك فقد دعت الجامعة العربيّة المعارضة للاستماع إليها ووضّع الحلّ المناسب، لكنّها لم تنجح في ذلك أمام تعنّت النّظام الفاجر على حسم معركته عسكريّاً، ولذلك دعت الجامعة العربيّة الدّول لمساعدة المعارضة بالسّلاح بعدما تدخل حزب الله اللبنانيّ، وإيران بميليشياتها، وروسيا بكلّ ترسانتها العسكريّة لدعم النّظام السّوريّ فيما بدأت المبادرات لوضع الحلول السّلميّة والتّسويات بين المعارضة والنّظام والتي لم تنجح أيضاً، فاضطرت الجامعة العربيّة لإحالة الملفّ السّوريّ إلى مجلس الأمن الذي يحقّ له التّدخل بما قد يؤدي إلى خلق الفوضى ويهدّد السّلم والأمن الدّوليّين.

ثمّ بالإضافة إلى تجميد مقعده في جامعة الدّول العربيّة فقد عمدت إلى تجميد التّبادل التجاريّ بينه وبين بقية الدّول العربيّة وايقافهم للتّمويل الذي تقدّمه تلك الدّول في تنمية المشاريع السوريّة.

ختاماً:

من خلال المآلات الحقيقيّة التي وصلت إليها الثّورة السوريّة بعد عقديّها الأول من الثّورة نرى أنّ الدّعم الرّوسيّ للنّظام الأسدّي نجح في استبقائه وعدم سقوطه من خلال المساعدات الاقتصاديّة والماليّة والسّياسيّة التي قدّمها له مع الصّين وإيران والتي شرعنّت تواجدها في الأراضي السوريّة والتّحكّم فيها والسّيطرة على القرار السوريّ.

بالمقابل نرى أيضاً أنّ الدّعم التّركي للمعارضة السوريّة نجحت في دخولها الأراضي السوريّة لحماية أمنها القوميّ، مع عدم ضمان بقاء تواجدها واستمراريتها، وذلك أنّ الدّخول الرّوسيّ كان من خلال استدعائها عن طريق الحكومة الشّرعية المعتبرة في مجلس الأمن بعكس الدّخول التّركي الذي لا يُعتبر دخولاً شرعيّاً بالمنظور الدّوليّ.

لكن في الحقيقة؛ لم تكن روسيا بالوضع المريح في اتّخاذ القرارات التي تريدها وتناسبها في حلّ القضية السوريّة لوجود الدّول المنافسة لها في مجلس الأمن، وكذلك هو حال تركيا الدّاعمة للمعارضة أيضاً، ومما يزيد من تعقيد المشهد أمام الدّولتين أيضاً كثرة اللاعبين الدّوليين والأطراف الإقليميّة والدّوليّة المتداخلة في القضية السوريّة.

المبحث التاسع

على رقعة الشطرنج

المطلب الأول: تكافؤ معدوم.

المطلب الثاني: الثورة اليتيمة في مواجهة الوحوش.

المطلب الثالث: الثورة السورية والمعادلات الدولية.

على رقعة الشطرنج

المطلب الأول: تكافؤ معدوم:

غالباً ما يكون اللاعبون على رقعة الشطرنج متكافئين في مباراةٍ تحتمل الرّيح والخسارة، يملك كلّ منهم خططاً للعب ومقوّمات النّجاح ليضمن تفوّقه وكسبه لجولات الفوز بأفضل النتائج وأقلّ الخسائر وأقصر الأوقات، ويكون بذلك قد حقّق أعلى درجات الفوز والانتصار.

وأما الحال في الثّورة السّوريّة فقد انعدم التّكافؤ فيها بين الطرفين، حيث نلاحظ طرفاً قوياً متمثلاً بالقوى العالميّة العظمى التي تمتلك السّلاح بكل أنواعه وأصنافه، إضافةً إلى عقيدةٍ منحرفةٍ تشدّها وتدفعها لاستئصال شأفةٍ خصمها والإجهاز عليه دون رحمةٍ أو رأفة، بمقابلٍ طرفٍ ضعيفٍ من فصائل لا تمتلك أدنى مقوّمات القوّة والدعم إلّا ما يأتيها على استحياءٍ وخجلٍ من دولٍ تخشى من ظهورها وانكشاف أمرها.

تكلم كثيرٌ من المفكّرين عن الثّورة السّوريّة وتقييم معاركها والحروب الطّاحنة فيها، وكثرة الأعداء المتكالبين عليها والمتربّصين بها، وطبيعة تدخلهم والاستماتة في القتال والإجرام بأهلها، رغم الخلافات الدّاخلية والاستراتيجيّة فيما بينهم، والتي وصلت إلى أعلى درجاتها وأوج قمّتها، فما الذي جمعهم الآن؟

هل هي المصالح المشتركة فيما بينهم؟

أم إنّها الحرب الصّليبيّة التي بدأت منذُ مئات السّنين وما زالت تُتابعُ فصولها تتوضّح كلّما دعت الحاجة لذلك، أو كلما بزغ المدّ الإسلاميّ المناهض لها.

إنّ المراقب للواقع السّوريّ والمتتبّع له ليرى بكلّ وضوح أنّ كافّة القوى التي اجتمعت وتكالت على الثّورة السّوريّة اجتمعت على أساس المصالح المشتركة بما فيها الحروب الدّينية (الصّليبيّة) في الوقت نفسه، ولو تلبّست بزيّ الإرهاب تارّة، ولباس الأمن القوميّ تارّة أخرى وغيرها من المصطلحات الزائفة التي باتت واضحةً أمام الصّغير والكبير.

فلقد كانت بداية الحملات الاستعماريّة رغبةً في الهيمنة على ثروات البلاد وخيراتها، وطمعاً في الاستغلال الاقتصاديّ للدّول الضّعيفة التي باتت اليوم مختصرةً في الأمّة العربيّة والإسلاميّة، إضافةً إلى ضرب الحركات الإسلامية التي يمكن أن تقضّ مضاجعهم، وتقضي على أحلامهم،

وتُنتهي مشاريعهم، ولذلك كان من الأهمية بمكان العمل على ضرب هذه الحركات والتنظيمات قبل اشتداد عوها، وقبل بناء قوتها واستفحال تهديدها.

إنَّها حربُ المطامع والمصالح، وحربُ السَّيطرة على الثَّروات والمقدَّرات، بل، إنَّها الحربُ الصَّليبيَّةُ التي تهدفُ إلى ضربِ الإسلام والقضاء على المسلمين بذرائع ناعمةٍ بعيدةٍ عن الاستفزاز والتَّحريض أحياناً.

من خلال دراسة الثَّورة السُّوريَّة طيلة السَّنوات الماضية وما اعترأها من تحدّياتٍ ومعوِّقاتٍ، ومقارنةً بثورات الرِّبيع العربيِّ وما رافق تلك الثَّورات من دعمٍ دوليٍّ وأمميٍّ سارعت في إنجاحها وإسقاطِ نظامِ الحكمِ المتسلِّطِ ولو مؤقتاً، لم تحظِ الثَّورة السُّوريَّة بشيءٍ من ذلك، بل بدا كثرةُ الخصوم لها والعاملين على إسقاطها وتميُّي عدم انتصارها.

وكما لم يريدوا لها الانتصارَ لم يريدوا لها الانتهاء، هم يريدونها ضعيفةً يتيمةً ليحققَ كلُّ منهم أهدافه ومصالحه التي يدفع باتجاهها ويسعى إلى تحقيقها ولو على حسابِ الشَّعبِ السُّوريِّ المكَلوم.

المطلب الثاني: الثَّورة اليتيمة في مواجهة الوحوش:

وفي هذا السِّياق أرى من المفيد أن أستعرض كلا الفريقين على حَلَبَةِ الصِّراع والمعارك الميدانيَّة والسِّياسِيَّة والعسكريَّة، والتي وضعُها تحت عنوان: "أعداءُ الثَّورة السُّوريَّة والحقيقةُ المضبوحة"، حيث قسَّمتُ الأعداء إلى قسمين:

القسم الأول: أظهر عداوته بشكلٍ ظاهرٍ سافرٍ ودفع بكامل قوَّاته وترسانته العسكريَّة لقتال الشَّعبِ السُّوريِّ، وهم:

١- النِّظامُ الأسدِيُّ المجرم: وهو الذي قتل مئات الآلاف، ودمَّر البلاد وشرَّد العباد ليبنى دولته الطَّائفيَّة ويحافظ عليها ولو على حساب جماجم وأشلاء الأطفال والنِّساء والشُّيوخ.

٢- روسيا المحتلَّة: صاحبةُ التَّاريخ الأسود في الإجرام، حيث تعتبرُ النِّظامَ السُّوريَّ نظاماً المخلص الذي يحقق لها مصالحها الخاصَّة، فلا يمكن أن تتركه عرضةً للهلاك والانتهاء، فتخسرَ بذلك مصالحها في بلاد المشرق العربيِّ، فدفعت بكلِّ ترسانتها العسكريَّة، وسخَّرت دهاءها السِّياسيِّ لإخماد الثَّورة والقضاء عليها.

٣- إيران الصفويّة: صاحبة المشروع الصفوي الطائفي الذي تغلغت جذوره في سوريا منذ زمن المقبور حافظ الأسد، وما زالت تعمل في ذاك الإطار الطائفي وتدفع بكلّ مقومات قوتها لتعمّق من جذورها، وتمكّن أذرعها وميليشياتها وتستجلبهم من مناطق بعيدة لقتل الشعب السوري، ومنهم:

أ_ حزب الله اللبناني الشيعي: الذي دخل بكلّ قوّاته العسكريّة والماديّة والبشريّة منذ بداية الثّورة السوريّة.

ب_ الميليشيات العراقيّة الشيعيّة الطائفيّة: التي تتبع لإيران أيضاً، وتبلغ أكثر من (٦٦) ميليشيا)، حيث دخلت لقتل الشعب السوري في السّنة الثّانية للثّورة السوريّة.

ج_ الميليشيات الأفغانيّة الشيعيّة: التي تعمل لصالح المشروع الصفوي الطائفي، حيث دخلت المعارك لقتل الشعب السوري الحرّ منذ السّنة الثّانية للثّورة.

٤- الميليشيات الفلسطينيّة اللعينة (لواء القدس وغيره): الذين يعملون لصالح نظام الأسد المجرم والدّفاع عنه لقاء لعاعة من فتاتٍ يقدّمها لهم، وقد دخلوا لقتل الشعب السوري الحرّ منذ السّنة الثّالثة للثّورة.

٥- الميليشيات الانفصاليّة الكرديّة الماكرة: الـ (p y d و p k k) الذين يعملون لصالح النّظام الأسدّي المجرم لتقاطع مصالحهم في القضاء على العرب السّنة في سوريا من جهة، وللمطمع بمنحهم سلطة ذاتيّة كرديّة مستقلّة، فدخلوا المعركة في مناطقهم ضدّ الشعب السوري الحرّ، ومارسوا عليه الضّغط المتنوّع من خلال المرور بمناطقهم قبل تحريرها منهم في عملية غصن الزّيتون لينتقلوا بعدائهم إلى مناطق أخرى يرسلون منها السيّارات المفخخة، ويجنّدون العملاء لصالحهم، ولا يتورّعون عن قتل النّاس بأيّ وسيلة أتيحت لهم.

٦- الدّواعش (كلاب أهل النّار): صناعة المخابرات العالميّة، وهؤلاء كانوا الخنجر المسموم في خاصرة الثّورة بما أجزموا بحق الثّورة ورجالها عندما تحوّلوا إلى قتال الثّوار بدلاً من قتال النّظام بتهمة الرّدة والصّحوات.

القسم الثّاني: قد أخفى عداوته بدايةً، ولكنّه في الحقيقة كان من الأعداء الحقيقيين والخطيرين على الثّورة السوريّة، وهم:

٧- أمريكا: التي تُعتبر القطبَ الأُوحدَ في العالم، فهي العدوُّ الأكبرُ التي منعتُ مصادر الدَّعم الخاصَّ والعامَّ، وفرضت ذلك بالقوَّة، وأطلقت اليدَ الإجراميةَ الرُّوسِيَّةَ في قتل الشَّعب السُّوري.

٨- الجامعة العربية: (بأغلب دولها) فقد كانوا عنوان الخيانة والتآمر على هذه الثَّورة اليتيمة ومنهم: {مصر (عهد المجرم السَّيسي)، والسُّعودية (عهد ابن سلمان)، والإمارات (ابن زايد)، ولبنان والعراق والأردن ...) ويا ليتهم سكتوا عن نصرتها، ولكنهم كانوا سبَّاقين في التَّحريض والتَّاليب والدَّعم المضادِّ الذي يُسرَّع في القضاء على الثَّورة وأهلها ومَن يقف معها أو يدعمها، وخصوصاً حكَّام دولة الإمارات الذين أبدوا حقدهم الدَّفين على الثَّورة السُّوريَّة، ودعمهم المفضوح المفتوح للنِّظام الأسدِيّ المجرم ومشاركة طائراتهم بقصف المدن السُّورية وتدميرها على أهلها، قد سجنوا كبار العلماء والدُّعاة في الإمارات بحجَّة دعم الإرهاب في سوريا.

وهنا أتكلَّم عن الحكَّام والحكومات، ولا أقصد الشُّعوبَ العربيَّةَ والإسلاميَّةَ في تلك البلاد، إذ لم تقصِّر الشُّعوب العربيَّةَ في دعمها للثَّورة بكلِّ ما تستطيع وضمن المتاح لها.

٩- مجلسُ الأمن: (كما يُسمَّى) عنوان التَّواطؤ الواضح في المراوغة والتَّخاذل في اتِّخاذ القرارات الرَّادعة ضدَّ النِّظام الأسدِيّ تجاه المجازر اليوميَّة بحقِّ الشَّعب السُّوريّ التي يندى لها جبينُ البشريَّة.

١٠- الأممُ المتَّحدة: التي اتَّحدت على قرار قتلِ الشَّعب السُّوريّ من خلال تخاذلها وخذلانها للشَّعب السُّوريّ الحرِّ، حيث اكتفت في قراراتها على الشَّجب والتَّنديد والاستنكار فقط.

١١- الصَّين: لم تخفي عداوتها للثَّورة السُّوريَّة بالرَّغم من وضع الإجماع الأسدِيّ على طاولة مجلس الأمن مراتٍ ومرَّاتٍ لإدانة النِّظام المجرم بما يقوم به من إبادة، فكان الفيتو الصَّيني المتكرَّر لأكثر من ثماني مرَّات، في إشارة واضحةٍ لعدم تخلُّمهم عنه، ولتقاطع مصالحهم مع الرُّوس والإيرانيين وتقوية وجودهم في الشَّرق الأوسط وقطع الطُّرق أمام الغرب في السَّيطرة على المناطق المهمَّة في قارة آسيا.

١٢- دولٌ ما يسمَّى: "أصدقاء الشَّعب السُّوري".

من خلال العنوان يتبادرُ إلى ذهن القارئ أو السَّامع ما يزيل عنه همّاً أو يفرِّج عنه كرباً؛ لأنَّ الصَّدِيقَ يقدِّم لأخيه وصديقه ما يحتاجه عند حاجته وضيقة، فما بالك باجتماع عشرات

الأصدقاء الذين يملكون الإمكانيات والطاقات التي تُنقذ صديقاً واحداً ضعيفاً، إلا أنهم على العكس تماماً، والحقيقة أن العنوان الأقرب والصحيح يجب أن يكون: (أعداء الشعب السوري) وذلك لما تجلّى من مواقفهم خلال السنوات العشر من تاريخ الثورة، ويمكن لي أن أقسمهم إلى ثلاثة أقسام:

١- دول العالم العربي: أغلب الدول العربيّة تتبّع في قراراتها وسياساتها إلى أجندات خارجية، لا تستطيع أن تتخذ قراراً دون الرجوع إلى حليفتها ذات القوة العظمى والقرار الأوحد، فضلاً عن رفضها للثورة ومحاربتها لها خشية تسلي ذلك إلى بلدانهم التي لم تكن أحسن حالاً من بلدان الربيع العربي.

٢- دول العالم الإسلامي: وأغلب هذه الدول مشغول بمشكلاته الداخليّة التي أنهكته وأبعدته عن مسرح العلاقات الدوليّة، ولا يهتمهم أخيراً إلا خلاص بلادهم ممّا قد يصيبهم من بلاء ووباء داخل بلدانهم وتحديات خارجها.

٣- الدول الأوروبيّة: لا تقلّ عداوتهم عن عداوة أمريكا وروسيا وإيران، إلا أنهم أخفوها وتزيّنوا بلباس الصداقة والمحبة؛ ليمرّروا مخططاتهم ويزرعوا عملاءهم من خلال الدّعم المالي الذي قدّموه ضمن جمعيّات إغائيّة وهيئات تعليميّة ومنظمات تبشيريّة تغلّغت في المجتمع السوريّ الذي فقد كلّ ما يملك، وأصبح بحاجة لكلّ شيء من تلك الجمعيّات وهذه المؤسسات والمنظّمات، وما دروا أن السّم الغربيّ قد دُسّ في العسل العربيّ والإسلاميّ، فضلاً عن الدّخول في المجالات التّعليميّة التي تحرف الجيل بالاتجاه الذي يريدونه وذلك من خلال المال وإدارته وتوزيعه بما يضمن زراعة الفساد والانحراف، ويدمرّ قواعد الأمن الأخلاقيّ والاجتماعيّ.

المطلب الثالث: الثورة السوريّة والمعادلات الدوليّة:

إنّ المتأمل في الواقع العامّ للعالم المتحضّر في القرن الواحد والعشرين والذي يتميّز بالنّموا الحضاريّ والازدهار التكنولوجيّ ليرى العالم المتراخي الأطراف وكأنّه قرية صغيرة في التّواصل والعلاقات والحضارة والتّنمية، ولعلّ هذا من أكثر ما يميّز به عن غيره ممّا سبقه من الحضارات السّابقة.

لكنّ الذي لم يتغيّر نحو الأفضل والأحسن بذاك العالم؛ أنّه مازال في المراتب المتدنيّة في السّيرة والقيّم والأخلاق، يدلّ على ذلك ما نعيشه اليوم من ظلّم الدول الكبرى المتغترسة واستعبادهم

وتسلّطهم على صغارها المستضعفة، الذين لا يملكون حولاً ولا قوةً، متستّرين بعناوين كاذبةٍ وثمهم زائفةٍ جاهزةٍ لنهب أموال الشعوب وسرقة موارد بلادهم واستعباد أهلهم واستئصال شأفتهم لنوازع عنصريّةٍ بغیضةٍ، أو دواعٍ طائفيةٍ مقبّية، يتعرى أحدهم من كلّ أخلاق الفضيلة التي يلبسها زوراً وبهتاناً، ويتزيّ بها مكرّاً وخداعاً، ليأتي اليوم الذي يُكشف فيه على حقيقته الأصلية ونفاقه الحقيقي وحقد البغيض، من خلال المحطّات القاسية التي تمرُّ بها الدول العربيّة والإسلاميّة بشكلٍ عامٍ والسّاحة السّوريّة بشكلٍ خاصٍ، علماً أنّه تتباين التّحليلات والتّقييمات بهذا الخصوص من شخصٍ لآخر حسب المؤهلات العلميّة والثّقافات المكتسبة، ومن بيئةٍ لأخرى حسب الوضع الحضاريّ العام والموقع الجغرافيّ المناسب الذي يعيشه المحلّل والمنظرُ ليعطي رأيه متجرّداً عن الأهواء والشّهوات.

في هذا المقام سأعرض وجهة نظريّ الخاصّة حول الخطّة الإبلّسيّة التي تُسيّرُ إليها السّاحة الدّوليّة من خلال الأدوار المتعلّقة بالدّول الفاعلة، تتوضّح من خلالها حقيقة سياساتهم الخبيثة والمآلات المرجّوة منها والأهداف المنشودة لها، مُختَصِراً ذلك على سبيل التّوضيح من خلال تقسيم الأدوار على أصحابها كما يلي:

١- جهةٌ أمرّةٌ حاكمة: "إسرائيل واللوبي الصّهيوني".

وذلك من خلال عمله واختراقه لأجهزة المخابرات العالميّة، وخاصّةً الأمريكيّة منها والتّحكّم بها للوصول إلى مشروعها الصّهيونيّ النّهائيّ بالسيطرة على العالم والتّحكّم به عن بُعد، فتضع خطط السّيّطرة والنّفوذ، وتحيكّ المؤامرات، وتزرعُ الفتن، وتبثّ الفرقة، وتنشرُ الكراهية بطرقٍ خداعةٍ وأساليبٍ مأكرة، حتى إذا حان الوقتُ المناسبُ أوعزتُ وأمرتُ غيرها من الجهات المنقّدة^(١).

٢- جهةٌ مشرّفةٌ على التّنفيذ: "أمريكا"، كونها القطب الأوحد في العالم، والمتحكّم به؛ لامتلاكها مقوّمات القوّة القاهرة والسّلطة الغاشمة التي تخولّها الإشراف على تنفيذ المخطّطات التي تخدم مصالحها وشركاءها.

٣- جهةٌ منقّدة: "روسيا ومرتزقتها، وإيران وميلشياتها"، وهؤلاء خدمٌ لأسيادهم من الدّول الحاكمة والمشرّفة لتنفيذ ما يُكلّفون به بكلّ سرورٍ وامتنانٍ (بشكلٍ مباشرٍ أو غير مباشرٍ)، بما

(١)- يمكن الرجوع إلى ملفات بروتوكولات صهيون والاطلاع على خطط ووسائل السّيّطرة على العالم العربي والإسلامي.

امتلكوا من مقومات القوة ووسائلها، خوفاً من عاقبة العصيان وطمعاً بالفتات المتبقي الذي يُلقى لهم، مع الرغبة في استجلاب الودّ على حساب دماء وأشلاء العباد وتدمير البلاد.

٤- جهةٌ باذلةٌ للمال دافعةٌ له: "ك (بعض دول الخليج).

وهي بمثابة البقرة الحلوب التي تُستخدم في مصالح الدول الحاكمة بما منّ الله عليها من خيرات وثروات وأموالٍ، فتدفع الأموال الطائلة لمعارك تلك الدول رغبةً في استرضائها أحياناً، ورهبةً من عصيانها ومخالفة أوامرها أحياناً آخر.

٥- جهةٌ محكومةٌ مقهورةٌ، وهي: "الشعوب المسلمة".

صاحبةُ المبدأ والتي تعمل وفق منهجها الصحيح لتبني مجدها وتعيد تاريخ أسلافها الضائع، كما كانت زمن الرّعيل الأول ومن بعدهم.

ومن هنا فإننا: أمام معادلةٍ قاسيةٍ صعبةٍ، ومعركةٍ طويلةٍ وشاقةٍ تحتاج للإرادة والعزيمة، وللإعداد والعمل ...

ونحن (المسلمين):

أمام قراءةٍ للتاريخ، وتفهُّمٍ لعقبات طرق الريادة والسيادة والقيادة، وحكمةٍ التعامل معها بكلّ مراحلها.

أمام سيلٍ جارٍ من ذئاب العالم وضباع البشرية، وقد اجتمعت على عملاقٍ نائمٍ؛ لتبقيه مستغرقاً في نومه بما أغرقته بموادٍ مخدّرةٍ وبرامجٍ خداعةٍ فتتنقض عليه وتجعله هباءً لا أثر له، أو غثاءً لا خير فيه.

هذه حكايةُ الشعب السوريّ والثورة السوريّة في عالمٍ ظالمٍ مبطلٍ اجتمع على باطله ضدّ هذا الشعب، وتغافل عن اختلافاته المصلحيّة البيئيّة لأجل القضاء على الثورة وأهلها.

ولعلّ من الآليات والوسائل الخبيثة التي تستخدمها الجهات الحاكمة الأمر لتقطع الطُرُق أمام الدول الطامحة لبناء إمبراطورياتها والتّرقّي في سُلّم الحضارة والسيادة أن تصنع لها المشكلات الداخلية وتُشغلها بشعبها، أو أن تُغرقهم في مستنقعات الدّماء هنا أو هناك بذرائع وهميّة زائفة، وقد نَعِدُها بفتاتٍ من خيرات تلك البلدان المستضعفة التي ستكون ساحة الصّراع أو تصفية

الحسابات البيئية، فتكون بذلك قد حصدت من النتائج الكثيرة والثروات الوفيرة دون أن تخسر رصاصة واحدة أو تفقد شخصاً واحداً، فضلاً عما كسبته من بيع السلاح بالعملية الصعبة، والتأكد من صلاحية هذا السلاح وتقييم مدى الأذى الذي ينتج عنه، والخلاص من العناصر التي يمكن أن تشكل عليهم خطراً مستقبلياً، والتحكم بمدة القتال وإدارة الصراع بما يضمن لهم خروج الأطراف المنغمسة في مستنقع الدماء وقد أفلسوا مالياً وبشرياً ومادياً وباتوا منهكين لا يقدرّون على حراك، عاجزين عن الاعتراض على أي قرارات يمكن أن تُفرض عليهم من قبل الجهات الحاكمة، لتبقى تلك الجهات بأسطة سلطاتها على العالم، تتحكم به، تستعبد شعوبه، وتاكل خيراته قروناً عديدة، فتمكّن جذورها في عمق التاريخ، وتخلّد اسمها في صفحاته كقوة واحدة صاحبة الملك والحكم المطلق.

وهنا لا بدّ من السؤال للشعوب العربية والإسلامية:

متى ستصحو من غفلتها؟؟

بل هل ستبقى محكومةً ومستضعفةً؟؟

أما أن لفرسانها أن يترجّلوا ويستعيدوا عزّة أمّتهم وكرامتها؟؟

وهل وعيت المخطّط الخبيث الذي يُحاك عليها، فتبادر للعمل بكلّ همّة وشجاعة ونشاط؟؟

أم ستكون ممّن غلبت عليهم الشّهوات فأعمتهم عن حقيقة وجودهم؟

أو ممّن طمست على قلوبهم الشّهات فتأهوا في غياهب الجهل والفساد، واستمروا العيش في مستنقع الدّل والخنوع والهوان.

وإن بقيت الأمة تواسي نفسها وتبكي على أطلال أسلافها دون العمل المسؤول، والبذل والعطاء والتضحية بما يناسب التّحديات المختلفة والمتنوعة فستبقى تبعاً للآخرين، وأداة طيّعة في مشاريعهم، حتى يستبدلها الله بقوم آخرين يُعيدون لهذه الأمة عزّتها وكرامتها، ويكون مثلها حينذاك كمثّل من قال فيهم ربّنا سبحانه:

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

المبحث العاشر

الثورة السوريّة بعد عقدها الأول

المطلب الأول: تيهٌ وضياغٌ، استبدالٌ واستعمالٌ.

المطلب الثاني: أزماتٌ، مصارحةٌ، نقدٌ وتقييمٌ.

المطلب الثالث: الثورة السوريّة في عنق الزُجاجة.

خاتمة

الثورة السورية بعد عقدها الأول

المطلب الأول: تيهٌ وضياغٌ، استبدالٌ واستعمالٌ:

من خلال دراسة الواقع الميداني الحالي للساحة السورية بشكلٍ واقعيٍّ منطقيٍّ، ونقدٍ ذاتيٍّ بكلِّ تجرّدٍ ومسؤوليّةٍ بعد العقد الأول من الثورة نرى اجتماع الأعداء المتكالبين، والمرترقة الحاقدين، والغزاة الطامعين في الوقت الذي ترهّلت فيه الفصائل المقاتلة، وتشرذمت القوى، وانكشف المتسلّقون، وتمرّد المنافقون، وغدر المرجفون، وتخلّى الأقربون والأبعدون، وتفاعس الأصدقاء المدّعون، فظهرت العورات، وانكشفت السّوءات، وفُضحت بعض القيادات، وضعفت العناصر وتشتّت القوّات، ودخلت الثورة في تيهٍ وضياغٍ لم تكن تحسب له حساباً، وكأنّه تيهٌ فاق تيه بني إسرائيل.

فلقد امتلأت دول العالم من أبنائنا الذين تاهوا في أصقاعها، وانتشروا في شوارعها، وتربّعوا في مضاربها، وامتلأت بطون الحيتان والأسماك من لحوم أبنائنا الذين فروا من جحيم المعارك ليكونوا طعاماً لها في البحار والمحيطات، وامتلأت المقابر في كلّ الأماكن من أجساد أبنائنا وفلذات أكبادنا الذين لجأوا إليها حفاظاً على أرواحهم وما درّوا أنّ ملك الموت كان بانتظار لقائهم هناك.

إنّه التيه والضياغ الذي يعيشه الشعب السوريّ بأشكاله المتعدّدة المتنوّعة بعدما تخاذلت الدّول عن نصرته؛ ليعيش تيهاً فكريّاً غريباً، في زحمة البضائع الفكرية والمنتجات الثقافية وتراكمها وتصادمها، وفي سوق الجهل البغيض والاتباع الأعمى.

نعم، إنّه التيه والضياغ لمن تسلّق على رقاب النّاس واستقوى عليهم وتسلّط على أرزاقهم وأقواتهم وزاد في مشكلاتهم ومعضلاتهم، وعكّر عليهم صفو حياتهم، بل لمن أضاع البلاد من العملاء المأجورين، وعبّث فيها مع الخبثاء والمنافقين، وتغافل عن فساد حكامها من دعاة العلم المزيّفين الذين حطّبوها في حبال الظالمين والمجرمين.

إنّه التيه والضياغ لمن تصدر للقيادة وكان رهين أفكارٍ منحرفةٍ قاتلةٍ، تخبطه ذات اليمين وذات الشمال لا يلوي على شيءٍ من أمور رعيّته، الذين هم بدورهم ضائعون تائهون بين قادة ظلّمة لا يعنون معنى القيادة، ولا يعرفون قدرها ومسؤوليّتها، وبين عدوٍّ مجرمٍ لا يرحم بما يصبّه عليهم من حممٍ حارقةٍ وقذائفٍ قاتلةٍ.

هكذا تخلى بعض من القادات، وهرب بعض من العناصر، واعتذر بعض من أصحاب الخبرة والكفاءات، وكثير ممن بقي في الطريق تائهون، وعن تدبير شؤون حياتهم غافلون، لكنهم مع ذلك ورغم ضعفهم وتقصيرهم فما زالوا يملكون الأمل برحمة الله ولطفه ومعيتهم لهم.

نعم إنه تيه وضياغ لمن استخدم الثورة لينهب من خيراتها ويسرق من ثرواتها على حساب دماء النساء والأطفال والشيوخ، ليستبدلهم الله برجال أوفياء كرماء، وأتقياء أنقياء تربوا على لبان العزة والكرامة تحت ظلال السيوف وميادين النزال، فكانوا أمل الأمة في انتشالها من براثن النصيرية المجرمة وتسلب الغزاة المحتلين، وكانوا أمل الأمة في استعادة عز البلاد إلى مجدها الزاهي التليد، ولعلهم ممن قال فيهم ربنا سبحانه: ﴿مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

المطلب الثاني: أزمت، ومصارحة، ونقد وتقييم:

أولاً: أزمت الثورة:

بعد سنوات عدة من الثورة المباركة وبعد التأمل فيها والنظر بعين البصيرة يرى العاقل المتبصر الأزمت التي أصابت الثورة وألمت بها والتي كانت من الأسباب الرئيسية لما وصلت إليه من انتكاسات خطيرة في بعض جوانبها، ولعل من الأهمية بمكان لفت النظر إليها واستكشاف أسبابها والعمل على علاجها أو التخفيف من مضاعفاتها على أقل تقدير، فمن أزمت الثورة السورية ما يلي:

١- أزمة قيادة:

تتجلى بعدم تمكين أصحاب الكفاءات وذوي الاختصاصات الذين يملكون مقومات القيادة من العلم والمعرفة والخبرة، مع الشخصية الحازمة في مواقفها، القوية في قراراتها تجسداً وتنفيذاً.

ومن هنا فحري بثورة الشام المباركة التي لم تشهد البشرية لها مثيلاً في سمو أهدافها ونبل غاياتها وفي صمودها وثباتها وعظمت رجالها الذين تحدوا الصعاب بكل أنواعها وتجاوزوا العقبات بكل أشكالها أن تفقد بوصلتها باختطاف القيادة منها، القيادة التي ولدت من أتون المحن ونبئت من أرض الميدان وترعرعت في ساحات القتال وميادين النزال؛ لأنها تعرف قيمة الحرية وثمر الكرامة فلا تفرط في تضيقها ولا تقتر من مستلزماتها ومستحققاتها، وقد وجهنا ربنا سبحانه في كثير من

الآيات القرآنية التي لا تقبل تأويلاً لصفات القيادة الجديدة بالنجاح فقال سبحانه في سورة يوسف: ﴿ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف: ٥٥].

٢- أزمة فكر:

وبالنظر المباشرة على واقع الثورة السورية نلاحظ أن الانحرافات الفكرية التي اعترضها كانت تدور بين محورين:

أ- شبهات فكرية أدخلت إليهم من شخصيات مختلة معتلة غريبة مجهولة قذف بها في الساحة الشامية، تدعي العلم في وقت عم فيه الجهل والتصحّر الفكري في الساحة السورية طيلة حكم البعث المجرم، ثم كانت الثورة السورية المباركة والانعتاق من ذاك الحكم اللعين، فكان الشعب متعطشاً وجاهزاً لتلقي وتقبل أي فكر يأتيه من هنا أو هناك حتى خرج من أبنائنا وشبابنا من انحرف فكره واختل سلوكه وأغلظ على غيره ممن كانوا إخوة له بالأمس القريب فكفّهم واستحلّ دماءهم وأموالهم.

ب- شهوات استحكمت في النفوس فأعمتها، وتغلغلت في القلوب فأضلتها، فلم ير أصحابها إلا أنفسهم، فالحق ما يقولونه وما عداه باطل، والصواب ما يرونه وما سواه خاطئ، وقد يكون بعضهم ممن أوتي شيئاً من حلاوة اللسان وجمال العبارات وحسن البيان، فجمع حوله من المعجبين والمحبين الذين يندفعون بالعواطف والشهوات، لتزداد الهوة اتساعاً بين الفكر الشامي المعتدل وبين الفكر الواعل الدّخيل عليه في أرضه وميدانه، وهذا ما كان له سيئ الأثر في الساحة السورية وعلى أبنائها، والذي قاد فيما بعد للإقصاء والإبعاد والاعتقالات والتصفيات الجسدية.

علماً أن أكثر الاختلافات الفكرية كان منشؤها من الاختلافات اللفظية في العناوين والمصطلحات واختلاف تفسيرها بين هذا وذاك، كمن يطعن بالجهاد لوجود مجاهدين سيئين، وكمن يمدح ويرفع الخوارج الذين استحلوا دماء المسلمين رغم إجماع العلماء على ضلالهم وانحراف نهجهم؛ لأنهم كانوا أكثر خشوعاً في صلاتهم، وأكثر صلابة في قتالهم، وهذا خلل كبير في النظرة والتقييم تحتاج لوقفة صادقة ودراسة فاحصة، فالأمر يتعلق بشأن أمة تنتظر أبناءها ليقودوها بسلام في بحر متلاطم الأمواج إلى برّ الأمان وشاطئ السلام بفكر معتدل سليم قوي يجمع الكلمة، ويلمّ الشمل، ويوحد الصفوف بعيداً عن صوفية تشطح وسلفية تنطح.

٣- أزمة قيم وأخلاق:

بنظرة متواضعة لأسباب هلاك الأمم السابقة نلاحظ أنّ انحطاط القيم الأخلاقية وانحلالها في مجتمعاتهم كانت من الأسباب الرئيسية في انهيار دولهم وهلاك أممهم واندحارها، وقد بيّن القرآن الكريم ذلك عندما تحدّث عن بني إسرائيل وكيف أصابهم اللعنات الربانية عندما استمروا المعاصي والمنكرات التي نهوا عنها ومردّوا عليها، فلم ينتهوا ولم يقم عالمهم بنصح جاهلهم، بل سكت عنهم، ثم آكلهم وشاربهم حتى استحقوا اللعنات والغضب من الله تعالى، وكذلك كان شأن بقية الأقوام من الأمم السابقة الهالكة ك (قوم لوط)، وكيف أهلكوا بسبب انحرافهم الأخلاقي وشذوذهم الجنسي، وغيرهم من بقية الأمم التي لم تُعطِ الأخلاق مكانتها وقيمتها في المجتمع.

وهكذا نحن في ثورتنا فإننا نواجه كثيراً من التحدّيات التي إنّ لم نعالجها ونعمل على استدراك الخلل فيها فإننا سنلحق بغيرنا ممّن هلكوا على أيدي غيرهم؛ لأنهم تخلّوا عن منهجهم القويم في بناء الأمم وسيادة الشعوب.

صحيح أنّ النظام البعثي المجرم كان قد زرع فينا من القيم الفاسدة، وهدم من قواعد الأخلاق الفاضلة، وحرص على أن نبقى رهن التفلّت والانحلال وحبّ الذات والانغماس بالشّهوات والملذّات بعيداً عن المعاني الحقيقية لوجود الإنسان والإنسانية وعمارته لهذه الأرض وطبيعة صراعه مع الباطل وأهله وما يترتب عليه حيال ذلك من إعداد وترتيب وبناء ومستحقّات، لذلك كان لا بدّ من بناء الفرد الواعي لعادلة قضيتّه، المخلص لها والمضحي من أجلها، الإيجابي في نشاطه وعطاءه، المستبصر بمكر أعدائه، العارف بفقّه السُنن والأولويات والمصالح والواقع والسياسة الشرعيّة، المتوازن بخلقه وسلوكه، القادر على حمل الأمانة والدِّفاع عن نفسه وأهله وبلده وأُمّته.

تلك الغفلة عن المعنى الحقيقي للثورة كنّا نحصد ثمارها دون أن نشعر منذ بداية ثورتنا، غير أنّ الزخم والعنفوان اللذين رافقا تفجّر الثورة وتنسّم عبق الحرية للمرة الأولى، ووجود عدوٍّ مشتركٍ يهدّد الجميع ساعد على خمول وسُبات تلك الموروثات إلى حين، ومع تطاول أمد الثورة وشدّة المحنة التي نزلت بالسُوريين وشعورهم بالعجز وحجم الخذلان الذي ذكرنا بما عشناه سابقاً في كنف المستبد أعاد تنشيط هذه الموروثات من جديد، بل ودفع بها إلى مراحل جديدةٍ من الاستفحال.

وقد تجلّى ذلك من خلال أزمة أخلاقية حقيقية تمرُّ بها الثورة، وحالة غير مسبقة من انعدام الثقة بين مكوناتها، والتي تزداد تفاقمًا مع مرور الوقت مهددةً إيّاها بالسقوط المعنوي والأخلاقي قبل الفشل العسكري والارتهان السياسي.

ولعلّ أخطر ما في الأزمة الأخلاقية التي تمرُّ بها الثورة؛ أنّ فلسفة الثورات عموماً تقوم على جملة من القيم والمبادئ والأخلاق تميّزها عن الطرف الآخر الذي ثارت عليه، ويتحشّد الناس من حولها ويتبنّون أفكارها بسبب هذا التمايز، وهو ما يعطيها زخمها وعنفوانها وعوامل صمودها ونجاحها، فإذا أحسّ جمهورها وحاضنها أنّها تتشابه مع الطرف الآخر انفضوا من حولها، بل، وآثروا الرجوع إلى سابق عهدهم الذي كان يوفرّ لهم على الأقل بعض مقومات الحياة والأمن (حسب ظنهم).

ثانياً: مصارحة شقافة:

صحيح أنّ الثورة السورية متمثلةً بالثوار المجاهدين سطرّت ملاحم بطوليّة، وحققت انتصارات كبيرة كادت تقضي على النظام المجرم في أوكاره وتأتي على بنيانه من القواعد، حتى استنجد بطواغيت الكفر ورؤوس الضلال في العالم من الروس والمجوس والرؤافض والمرزقة، فأعادوا له جزءاً من ماء وجهه الذي فقده، وفرضوا أمراً واقعاً لا يمكن إنكاره، بل ينبغي الاعتراف به وبما آلت إليه أمور الثورة، وبما وصلت إليه من أحوال قاسية وظروف صعبة كان لها تداعياتها السلبية، والتي تمثلت بالنقاط التالية:

- التراجع الميداني للثوار وخسارة بعض المناطق الاستراتيجية ك (حلب، والساحل، وريف دمشق)، وهذا ما أوصل الثورة إلى عنق الزجاجة بسبب حالة الترهّل التي أصابتها، والفرقة والتشرذم في فصائلها، والوهن الذي تغلغل في قلوب عناصرها وقادتها بعد أعوام من انطلاقها المباركة.

- التّقدّم العسكري للاحتلال الروسي وفرض الحلول التي يريدّها من خلال سيطرته الجغرافية على بعض المناطق، وتمسّكه بمفاصل اتّخاذ القرارات على المستوى الإقليمي والدولي في محاولة لاسترجاع هيبة إمبراطوريته القديمة من خلال تحالفاته مع الدول الشرق أوسطية، ومع التراجع للدور الأمريكي وغيابه في إدارة أهم الملفات الدوليّة التي باتت تخرج من عباءتها لتدخل في العبادة الروسية، وهذا ما جعل من روسيا لاعباً قوياً على الساحة الدوليّة بشكل عام والسوريّة بشكل خاص، فهي من تدير القضية السوريّة حيث تراوُع بخططها العسكريّة، وتمكّر بهُدنها السياسيّة، وتخدعُ بدهائها السياسي.

- التَّمَلُّمُ في صفوفِ المدنيين والحاضنة الشَّعبية التي أثَّرت سلباً على الثَّورة والثُّوار، وظهر ذلك من خلال تصرفاتهم وتصريحاتهم التي تدلُّ على يأسهم وتذمُّرهم من حالِ الثُّوار بما بدا منهم من أخطاء وإساءاتٍ واستهتارٍ وعدم مسؤولية أبنائهم في حمل الأمانة التي أقحموا فيها أنفسهم.

- تخليّ الدُّول التي ادَّعت أنَّها من أصدقاءِ الشَّعبِ السُّوريِّ عنها بعد أن كانت معها ولو صورياً حتى أضحت الثَّورة السُّوريةُ يتيمةً إلا من بعض الدُّول التي تدعّمُ بشكلٍ خجولٍ ومحدودٍ.

- الفشل في إنتاجِ هيئةٍ سياسيةٍ تمثلُ الشَّعبَ السُّوريَّ في المحافلِ الدُّوليةِ والمجالسِ الرّسمية، وترقى إلى طموحاته، وتنطقُ بلسانه، وتعزِّزُ عن آلامه وآماله، وتطالبُ بحقوقه ومظلوميّته لتأخذ الشَّريعيةَ الدُّوليةَ لثورته، وقد يكون هذا الفشل لأسبابٍ خارجيةٍ وضغوطٍ دوليةٍ خارج نطاق الإرادة الدَّاتية.

- الفشل في إنتاجِ مجلسٍ عسكريٍّ موحّدٍ يجمعُ الطّاقاتِ العسكرية والكفاءاتِ الميدانية تحت قيادةٍ واحدةٍ وأهدافٍ جامعةٍ وخطط عملٍ مدروسةٍ بشكلٍ حقيقيٍّ بعيدٍ عن التَّنظير.

- الفشل والتَّقصير في الخطابِ الشَّرعِيّ الذي كان له نصيبٌ كبيرٌ في عملية الانتكاسات، وذلك من خلال تحوُّل الشَّرعِيِّينَ إلى دعاةٍ لقادة الفصائل، يدافعون عن وجهة نظرهم دون أن يسعوا لتوحيد الرؤية الشَّرعِيّة في قيادة المسيرة، فلم يكونوا البوصلة الصَّحيحة التي توجّه السفينة إلى برِّ الأمان كما ينبغي، ولم يكونوا المنارات التي تضيءُ دروبَ التَّائهينَ في ميادين الجهل والفساد كما يجب، علماً أنَّه يوجد منهم من العاملين المخلصين الذين تحمّلوا الأمانة والمسؤولية وكانوا أهلاً لذلك، إلّا أنَّ السَّاحة تحتاج للكثير من الدُّعاة والعلماء ليسدّوا الحاجةَ المطلوبةَ ويرفعوا من المستوى الفكري والثقافي والتَّربوي لدى شباب الثَّورة.

ثالثاً: نقدٌ وتقييمٌ:

قد يفهمُ البعضُ من خلال التَّقييم الذي عرضته عن حال الثَّورة بشكلٍ عام، والذي سأعرضه عن الثُّوار بشكلٍ خاص؛ أنَّ هذه الثَّورة لم تجلب لأصحابها إلا الخراب والدمار والهلاك، ولم يتصدّر صفوفها وقيادتها إلّا بعضُ من المفسدين والظَّلَمَة وذوي الانحراف السلوكي والأخلاقي والفكري.

ولذلك أركز وأقول: إنه ومن خلال التقييم الدقيق والمتجرد لا بد من ذكر المساوي وأصحابها والعيوب وأسبابها؛ لئتم دراستها واستدراكها وتصويب أخطائها وتصحيح انحراف مسارها، علماً أن المحاسن الكثيرة والثمرات الطيبة التي أنتجتها، والصفحات المشرقة التي سطرتها كثيرة وكثيرة جداً، وهي التي يُعول عليها وعلى أصحابها بعد الله سبحانه في النصر والخلاص من الظلم والظلمة والمستبدين والمفسدين.

ولعلي في هذا المقام أعرض تقييماً متواضعاً لحال الثوار بكل أصنافهم مسلطاً الضوء على التقصير والانحراف للدراسة والتّحصيل، ثمّ التّشخيص والتّصويب بدايةً من العناصر وانتهاءً بالنخب والمرجعيات.

١- العناصر والجنود:

وهم أساس العمل العسكري ومحور القوة فيه، وصالح الجندي هو صلاح الكتيبة واللواء العسكري، وفساده بفساده.

والحقيقة: أن الجنود والعناصر لم ينالوا الجهد الكافي والحظ الوافي من التربية العسكرية والشرعية والميدانية، فكان التقصير والعيور واضحاً في كثير من المواقف والمظاهر، فمن خلال النظرة المباشرة على أيّ فصيل من الفصائل العاملة في الساحة السورية والتي أنهت السنة العاشرة من انطلاقها، يمكن لي أن أوصف الواقع بما رأيت وشاهدت ولامست وعالجت بحكم عملي معهم في الساحة وإطلاعي على كثير من خفاياها وملابساتها، علماً أنني لا أعمم ذلك، ولكنها حالة غالبية الفصائل، وإذا كانت بعض الفصائل خالية من بعض الصفات المعينة، فإن فيها صفات أخرى لا تقل عيباً عن أخواتها.

ونحن لم نذكر ذلك هنا على سبيل التّهم والانتقاص والازدراء كما ذكرتُ آنفاً، وإنما على سبيل التّقييم والتّشخيص لوضع العلاج المناسب الذي يُحتمه علينا الواجب الشّرعيّ تجاه ثوارنا وأبنائنا، ووضع آليات وتوصيات لنعيد ترتيب صفوفنا ونعالج عيوبنا ونصوب أخطاءنا ويكون كل منّا لبننة صالحة في كيان مجتمعه وأمته، فهناك من الملاحظات التي ينبغي الإشارة إليها بما يخصّ العناصر والجنود العاملين في الفصائل المقاتلة، سأذكر بعضاً منها على سبيل المثال لا الحصر، كما لا ينبغي تعميمها على الجميع، منها:

١- منهم منتفعون، يعملون من أجل الراتب أو تحصيل منصبٍ أو استغلال حالةٍ معينة، علماً أنه يوجد منهم الكثير ممن يشعر بالمسؤولية والأمانة، حملوا قضيةً عادلةً مشروعةً، وخرجوا من أجلها فكان أحدهم كالتاجر مع ربه في جميع أحواله، فارسٌ في النهار وراهبٌ في الليل، لا يحول بينه وبين رسالته مالٌ، ولا يردّه عن هدفه وغايته حالٌ، همّة إحدى الحسنيين: النصر أو الشهادة.

٢- بعضٌ من العناصر مقيمون على المعاصي في المقار من (دخان، وأراكيل، ولعب الورق، وكشٍ الحمام، والسّرقات)، ومقصّرون في جانب العبادات، مُستسِلّون للمخالفات الشرعية والأخلاقية، وليس من محاسبٍ على ذلك، وإن وُجدت المحاسبة فليست على المستوى المطلوب.

٣- فقدانُ الولاء للثورة أو للفصيل المقاتل عند بعض العناصر وحتى عند بعض القادة، الأمر الذي يجعل منهم عبئاً على الثورة، وخاصةً في أوقات المعارك.

٤- وجودُ المحاباة وانتشارُ المحسوبيات في كلّ مجالات العمل الثوري، وهو ما يظهر بسلوك بعض القادة في التعامل مع العناصر بشكلٍ غير متوازنٍ وغير مسؤولٍ في الأمور المالية، وهو ما يدفع بعضاً من أصحاب النفوس الضعيفة إلى بيع الذخيرة والسّرقة من أجل سدّ حاجاتهم في بعض الأحيان.

٢- القادة:

عندما تتعدّد المصطلحات الثورية وتختلط معانيها العملية ويدخل في الثورة من ليس منها، فيتسلّق ويتسلّط وينهب ويُسيء، بل لربّما صار له شأنٌ كبيرٌ بين القادة بما دلّس على غيره من البسطاء وتصدّر الفضائيات بما أوتي من لسانٍ حلوٍ وكلماتٍ طنانة، فجمع من السلاح والجنود ما يفرض به نفسه على السّاحة، فضلاً عن الاختراق الخارجي الذي تمكّن في بعضهم وتحكّم بأفعالهم؛ ليُحقّق مصالحه الخاصة على حساب الثورة السّوريّة.

١- بعضُ القادة من يعمل من أجل تثبيت كرسيّه، ويجمع حوله أعداداً يوالونه، ولو على حساب الصّدق والإخلاص والأمانة والأخلاق والولاء للثورة ومبادئها فنجح في تحويل الثورة لمشاريع خاصة بعيداً عن مصلحة الثورة والثوار الحقيقيين.

٢- المحسوبيات المقيمة التي فشلت وانتشرت في ألوية الفصائل، وعدم العدل في التعامل العسكري.

٣- لم تتوفر الصورة الحقيقية للقائد الناجح والمتابع للأمر أولاً بأول، والذي يجب أن يكون حليماً مرناً، صبوراً متجرباً، حريصاً كريماً حازماً، وهذا القائد في حال وجوده فهو مهمّش للأسف، وهؤلاء القادة المخلصون يعملون بصمتٍ وبكلّ مسؤوليّة وأمانة، ولا يقصرون في أداء واجباتهم في جبهاتهم وأماكن رباطهم، وقد لا يتكلمون عمّا يعانونه من تقصيرٍ معهم ومع عناصرهم لما يرونه من محسوبياتٍ وتمييزٍ واضح.

٣- الأمنيون:

من المعروف أنّ المؤسسة الأمنية يجب أن تكون صمّام الأمان للفصيل وللثورة بشكلٍ عامّ، ولقياداته الصّادقة المخلصة بشكلٍ خاص، ولكن الواقع يوحي بغير ذلك.

١- المكاتب الأمنية مؤسساتٌ مستقلةٌ وكياناتٌ خاصةٌ لكلّ فصيلٍ موجودٍ في السّاحة السّوريّة، وهي أشبه بفروع المخابرات السّوريّة بسمعتها ومعاملتها للسّجناء وتفشّي الظّلم فيها وبأدائها.

٢- الأنانيّات وعدم وجود التعاون والتّنسيق بين الجهاز الأمنيّ وبقية المكاتب ذات الصّلة، وخاصّةً القضائيّة في الفصيل الواحد.

٣- كثيرٌ من القضايا الأمنيّة لا تُعرض على المكاتب القضائيّة والشرعيّة إلّا كما يحلو لرئيس المكتب الأمنيّ، مع عدم التزامهم أحياناً بما يصدر عن المكتب الشرعيّ الذي يعتبر بوصلة المسار، وذلك حتى لا يطّلع على ما يجري من تجاوزاتٍ ومخالفاتٍ شرعيّةٍ وهذا بحد ذاته أمرٌ خطير.

٤- الاحتياطات والإجراءات الأمنيّة بالنّسبة للثورة دون المستوى المطلوب، وهذا يحتاج إلى دراسةٍ ومراجعةٍ ووضعٍ خططٍ تضمن الأمن والسّلامة للمدنيّين والعسكريّين على حدّ سواء.

٥- عدم وجود الولاء للفصيل عند عناصر الأمنيّة بشكلٍ عامّ، والأغلب منهم نفعيّ، وهذا كان له آثاره السّلبية التي تجلّت في السّاحة.

٤- الشرعيون:

المكتب الشرعي بما يضم من علماء ومشايخ ودعاة ومفكرين هو البوصلة التي تحدّد سير ووجهة العمل الميداني والسلوك الاجتماعي والأخلاقي للفرد والقائد.

فالشرعي هو المنارة التي تضيء الطريق أمام التائبين والضّالّين، وتحدّد ما له وما عليه بكلّ أمانة ومسؤوليّة، لكنّه (الشرعي) لم يُعطَ دوره الذي ينبغي، بل كان مهمّشاً في كثير من القضايا المهمّة التي يجب أن يتكلّم فيها.

كما قد حوّل أو تحوّل بعضهم لعلماء سلطان يفتي لقائد فصيلة ما يُطلب منه وبما يلبي حاجاته ويشرعن له قراراته وأحكامه التي يريد تنفيذها بغطاء شرعي.

وكذلك فقد بدا التّحزّب سمة واضحة عند بعضهم للدّفاع عن فصيلة ولو كان مجانباً للحق والصّواب أحياناً، وهذا ما أفقد بعضهم المصدقيّة في السّاحة، وكان سبباً في تطاول المنافقين والمتسلّقين على دماء الشّهداء لتبرير شذوذاتهم ومخالفاتهم الشرعيّة والأخلاقيّة، علماً أنّ السّاحة السّوريّة كان فيها الكثير من العلماء الأفاضل الذين لم يألوا جهداً في نشر العلم والدّعوة إلى الله بكلّ صدق وأمانة وإخلاص رغم التّحدّيات المحدقة والصّعوبات المحيطة بهم، والتي لم تُنهم عن أداء الأمانة التي أوكلها الله إليهم ووضعها في أعناقهم.

وهنا أرى من الأهميّة بمكان أن أذكر بعض الصّفات العامّة المشتركة بين أغلب الفصائل وكانت سبباً في الانتكاسات وبعض الهزائم وانفضاض قسم كبير من الحاضنة الشعبيّة عنهم، وأذكرها على سبيل الذّكر والتّصويب، لا التّهكم والسّخرية والانتقاص، للاستفادة من الخطأ والانحراف، والعمل على التّصويب والتّرشيد، وهي كما يلي:

١- الأنانيّة وحبّ الرّئاسة: فقد يكون القائد لا يملك من صفات القيادة إلّا الاسم أو الجزء اليسير من صفاتها، فضلاً عن الحياة المترفة التي يعيشها على حساب عناصره وجنوده.

٢- الارتهاق للمال السّياسي المشروط: والذي يفرض على القائد أموراً لا تناسب السّاحة السّوريّة، أو افتعال معركة قد يكون ضررها أكثر من نفعها من غير تخطيط دقيق ولا تنسيق ولا ترتيب.

٣- غياب الوعي الفكري لدى كثير من المجاهدين: وعدم التعامل مع مجريات الأحداث بالشكل المطلوب الذي ينبغي، فضلاً عن غياب النضج الفكري عند شريحة واسعة من الناس، وعدم الاستعداد لدفع مستحقات الحرية والكرامة التي ستترتب عليهم.

٤- عدم الارتقاء في التعامل بين الفصائل بالشكل الذي ينبغي أن يكون عليه من وعي وفهم، وهذا كان له الأثر السيء على الثورة في سرعة نشوب الاقتتال بين الفصائل وانتشار العداوة الموصلة إلى الاستئصال في بعض الأحيان.

٥- رفض المشاريع التي تدعو إلى التوحيد والاندماج مخافة خسارة منصب القيادة أو نقصان الراتب.

٦- ضعف استخبارات الثوار في كشف العملاء والخونة الذين اخترقوهم في جبهاتهم ومؤسساتهم وغرف عملياتهم العسكرية.

٧- غياب الوعي السياسي، ونجاح النظام المجرم ببت الشائعات والأخبار الكاذبة وترويجها وتأليب الناس على المعارضة والثوار من خلال ذلك.

٨- دخول الكثير من العناصر المندسة والمرسلة من قبل النظام المجرم وتسلمهم لمناصب مهمة في صفوف المعارضة وقيامهم بدور التشويه والتجيش بما يخدم النظام المجرم.

المطلب الثالث: الثورة السورية في عنق الزجاجة:

بعد توصيف الواقع المؤلم للثورة السورية بشكل عام لابد من دراسة خيارات الحل للخروج من تلك الأزمة الخانقة، فمن المسلّم به أن خروج الثورة السورية من عنق الزجاجة ليس بالأمر اليسير، ولا يمكن التنبؤ بسلامة المولود الجديد، وخاصة أن القابلة^(١) التي ستولده هي عدوة له قبل أن يخرج للحياة، وهذا يعني أن مولودنا الجديد سيولد إما ميتاً أو مشلولاً على أكثر تقدير.

لكن ذلك لا يعني اليأس والاستسلام أبداً، ولا بد من أخذ زمام المبادرة من جديد، فالسوريون هم أصحاب القضية، وهم أصحاب الأرض والميدان، وليس من المقبول أن ينتظروا الآخرين ليحلوا لهم مشكلاتهم، ولو فشلوا مرات ومرات، فما زال في الوقت متسع لرأب الصدع ولم الشمل وجمع الكلمة واستدراك الأمور.

(١)- القابلة: هو مصطلح يُطلق على من تقوم بتوليد النساء، وقد أنشئت في العصر الحديث معاهد وجامعات لتخريج القابلات.

علماً أنّه لم يكن يخطر على بال أحدٍ من الكفاءات السوريّة الفاعلة بتخصّصاتها كافّة ضخامة التحدّيات وحجم الصّعوبات التي ستعترضهم في مسيرة ثورتهم التي خرجوا فيها من أجل إسقاط نظام الأسد الظّالم وأجهزته الأمنيّة المجرمة.

وإنّ كان الشّعب قد استعدّ للكثير منها وتجهّز للتّصدي لها والصّمود أمامها ممّا عرّف من تبعات ثورات الرّبيع العربيّ التي سبقت ثورته، إلّا أنّ الأمر الذي لم يخطر له ولم يتيّها لمواجهته قيام ثورة مضادّة لثورته المحقّقة بمشروعيتها ومطالبها، وتهيئة الأجواء لها بما يحقّق نجاحها والقضاء على ثورة الشّعب الأولى ودفنها في أرضها.

فلقد بات واضحاً وبعد مضيّ السّنات العجاف على الثّورة السوريّة المباركة أنّ هناك ثورة مضادّة كانت تعمل في الخفاء طيلة الفترة الماضية، ويبدو أنّه أن الأوان لتظهر علانيّة بعد أن دلّست على الكثير من أبناء الثّورة، ولتستّ عليهم انحراف البوصلة في سير سفينتهم الثّوريّة.

لم يكن من وراء تلك الثّورة المضادّة أشخاصٌ بعينهم فحسب، إنّما هي دولٌ تلبس لبوساً مخلصاً للشّعب السوريّ وثورته، تبدو داعمةً له إغاثياً وإنسانيّاً، ذات طاقاتٍ ومقدّراتٍ فاعلةٍ على السّاحة الدّوليّة، ترسم وتخطّط وتحرك الشّارع من خلال مشاريع مسبقة الصّنع تحقّق لها مصالحها المرجوّّة والمطلوبة بما فيها القضاء على الثّورة السوريّة بأيدي أبنائها، فتحوّلهم إلى معاول هدمٍ لكيان ثورتهم التي أجرت بحاراً من الدّماء، وعمّرت جبلاً من الجماجم والأشلاء.

ومن هنا كان لا بدّ من التّجهيز لتلك المرحلة، والتي توجب العمل بكلّ دأبٍ وجديّة لحصاد ثمرات الثّورة، وقطع الطّريق على المتسلّقين والمتسلّطين بما امتلكوا من إمكاناتٍ وطاقاتٍ وكفاءاتٍ فاعلة.

كان لا بدّ من البحث عن الأمل الذي يمكن أن يعيد الثّورة إلى مربّع الصّحوة والرّشاد، والتّخلّص من العبودية ورؤوس الفساد، وهذا قد لا يُكتب له النّجاح المأمول ما لم تتضافر الجهود الجماعيّة والتي يمكن أن تسمّى باللغة العصريّة: (الحركات، الجماعات، الأحزاب، التّنظيمات...) فقد أصبحت الأمل في تخليص الأمة من كوابيس الاستبداد ونتاجة العهر السّيّاسي، وهي المؤهّلة لقيادة الأمة بما تحمله قيم وأفكارٍ وتصوّراتٍ ومنهجٍ رشيدٍ يقود الجماهير لرفع الظّلم وردّ العدوان وحماية الأرض والعرض بالتّوازي مع رفع المستوى الثّقافي والأخلاقي لأفراده وحاضنيه،

وهذا ليس اختياراً فحسب، بل هو الواجب الذي يفرضه الواقع والدِّينُ على التَّخَبِّ والكفاءات صاحبة الأمانة والخبرة والمعرفة والمسؤولية.

ما أراه أمام تلك الحقيقة أنَّ السَّاحةَ الشَّاميةَ تحتاج لمشروعٍ سياسيٍّ جامعٍ لكلِّ أطرافها ممَّن ينتمون إليها ويؤمنون بها، يعملون بالتَّوازي مع غيرهم من الفعاليَّات والمؤسسات والهيئات بشكلٍ متكاملٍ بما يخدم المصلحة العامَّة ويسير بالسَّاحة وأهلها إلى برِّ الأمان في خضمِّ الأمواج المتلاطمة التي تحيط بها من كلِّ جانبٍ والتي تعمل على إغراقها بكلِّ ما أوتيت من دهاءٍ ومكرٍ وخداعٍ وخبثٍ وإجرام، دأَّبها في ذلك دأْبُ أسلافها المجرمين الذين تربَّوا وترعرعوا على الدِّماء والجماجم والأشلاء، وقد نجحوا إلى حدٍّ كبيرٍ في استئصال شأفة الحركات التحرَّرية والوطنية النَّزيهة التي رفضت استبدادهم ومشاريعهم القذرة، وقد ساعدتهم في ذلك التَّصحُّرُ الفكريُّ والسِّيَاسيُّ الذي كرَّسوه في المجتمع السُّوريَّ مع الدَّفْع بأهله للانشغال والسَّعيِّ وراء لقمة عيشهم وإبعادهم عن ميادين العلم والفكر والسِّيَاسة، حتى بات المفكَّر السُّوريُّ وكأنَّه الغريبُ في مجتمعه ولا مكان له بين أهله وإخوانه، بل زُجَّ به في غياهب السُّجون وعُلِّق على أعواد المشانق؛ ولذلك لم نرِ الأثرَ الكبيرَ للفعاليَّات السِّيَاسيةَ الحقيقيَّة في الثَّورة السُّوريةَ لأسبابٍ ذاتيةٍ وخارجيةٍ كثيرةٍ لا مجال لذكرها الآن.

لكنَّ ذلك لن يكون محبِّطاً لنا كسوريِّين أبداً ففي المجتمع السُّوريِّ من الكفاءات والقامات والشَّخصيَّات الوطنية الفاعلة من يرفع هذه الأُمَّة ويُعيد لها أمجادها ورفعتها ومكانتها كما كانت في سابق عهدها، ولعلَّ الدُّورَ الأكبرَ أصبح على كواهلهم في هذه المرحلة الحرجة من تاريخ البلد بعد التَّيَّه والضَّياع الذي مرَّت به، كما لن يكون لهم أثرٌ واضحٌ على الأرض مالم يعملوا ضمن أُطرٍ وطنيةٍ جامعةٍ، وأعمالٍ منظَّمةٍ وأهدافٍ واضحةٍ برؤى متكاملةٍ فيما بينهم يلتقي الجميع عليها ويعملون لأجلها بعيداً عن الإقصاء والتَّعنُّت والغرور.

المبحث الحادي عشر

الواقع السوري وملفاته المدنية

المطلب الأول: الملف التعليمي في المناطق المحررة (آمل وآمال)

المطلب الثاني: الملف القضائي في المناطق المحررة

المطلب الثالث: الملف الصحي في المناطق المحررة

المطلب الرابع: الدفاع المدني والتكافل الاجتماعي في الثورة السورية

المطلب الخامس: دور المرأة في الثورة السورية

المطلب السادس: المنظمات العاملة في الساحة السورية وأدوارها المتباينة

المطلب الأول: الملفُّ التَّعليميُّ في المناطق المحررة، (آلامٌ وآمالٌ):

مما لا شكَّ فيه ولا ريب أنَّ رقيَّ الأممِ ونهضتها وتقدّمها يتمثّل فيما تصل إليه من علمٍ وثقافةٍ ومعرفةٍ وحضارةٍ تحقّق الأهدافَ المرجوةَ وتلبّي الاحتياجاتِ والآمالَ والطُّموحاتِ النبيلةَ، فبالعلمِ ترتقي الأممُ، وبه تنمو الحضاراتُ، وبنوره تهتدي الأجيالُ، وتقتحم ميادين التّقدّم والازدهار، وما من أمةٍ ذاع صيتها وعمّرت لقرونٍ إلّا تركت أثراً مشرقاً في العلم والمعرفة والحضارة، وما من أمةٍ طغى فيها الجهلُ إلّا سادَ فيها الفسادُ والفوضى والانحراف ... وصدق من قال:

والجهلُ يهدم بيت العزِّ والكرم

العلمُ يبني بيوتاً لا عماد لها

وبنظرةٍ بسيطةٍ إلى السّاحة السُّوريّة وما مورس عليها من إجرامٍ همجيٍّ بكلِّ ما تعنيه الكلمة من معانٍ لقتل روح الحياة عند أهلها وإخضاعهم لحياة الدّل والقهر والتّشرد بعيداً عن العلم والمعرفة بشكلٍ مباشرٍ وغير مباشرٍ؛ لينشأ الجيلُ الذي تربّى بين أنياب الفقر والحاجة والجهل والفساد والانحراف، فيسهل التّحكّم به والسيطرة عليه.

ومن أهمّ التّحديات التي أصابت السّاحة السُّوريّة في المجال التّعليميِّ وكانت من أسباب ترديّه من جميع جوانبه ما يلي:

١- الاعتقالاتُ التّعسفيّةُ التي طالت النّخب السُّوريّة والكفاءات الفاعلة، وخاصةً المدرّسين منهم، حيث تمّ اعتقال الآلاف من المدرّسين والكفاءات والفاعليات التي كانت تملأ الفراغ التّعليميِّ في المدن والقرى السُّوريّة الرّافضة لحكم الأسد ونظامه المجرم.

٢- حالاتُ النّزوح التي تمثّلت بتشرّد آلاف القرى والبلدات في مناطق الشمال إلى مناطق وبلداتٍ أخرى في الشمال نفسه بسبب القصف الهمجيِّ من المحتلّ الرّوسِي والنّظام الأسدِي المجرم، والتّهجير القسري الذي تمثّل في إجبار أهالي الجنوب السُّوري (حمص، دمشق، الغوطة، درعا...) والذي ألجّء إليه النّاس قسراً وقهراً وعنوةً ولم يترك لهم مجالاً لشيء، فأصبح النّاس يسعون لتأمين مكانٍ يؤويهم وعوائلهم بالمقام الأوّل.

٣- قلّة الكفاءات والطّاقات العلميّة المختصّة في المناطق المحرّرة؛ نظراً لانخراط بعضهم في العسكرة مع إخوانهم على جبهات القتال، وارتباط بعضهم بالعمل في المنظّمات والهيئات

المتنوعة، وهجرة بعضهم إلى الخارج لإكمال تعليمه؛ وإقصاء بعضهم عن سلك التعليم لأسباب فكرية ومنهجية أحياناً أو لأسباب أخرى.

٤- عدم وجود الرواتب الشهرية أو المنح الكافية للمدرسين المتفرّغين في ظلّ انعدام مصادر دخل تكفي أسرهم وعيالهم ذلّ الحاجة والسؤال، وهو ما أدّى لسعي الكثير منهم للبحث عن عمل يسدّ حاجته ويكفي أسرته.

٥- القصفُ الممنهج الذي استهدف المدارس والمؤسسات التعليمية والطلاب؛ لمنعهم من الذهاب إلى مدارسهم، حيث نتج عنه عدم توقّر الأمانة والأمانة واللائقة والمناسبة للتعليم في ظلّ القصف الهجمي المتواصل الذي دمر آلاف المدارس، تدميراً كلياً أو جزئياً.

٦- فقدان الأمن عند الأهالي وشعورهم بالخوف على أبنائهم الذين قد يموتون بالقصف الهجمي الذي يستهدف الحجر والشجر والبشر، كما حصل لمئات الطلاب في عشرات المدارس التي تهدّمت على رؤوس طلابها.

٧- حالة العوز التي وصل إليها الناس، والحاجة الماسة للمال عند معظم الناس، وهو ما اضطّرهم لإرسال أولادهم للعمل وكسب المال ومساعدتهم في الإنفاق على الأسرة، على حساب العلم والتعليم.

٨- سوء الحالة الاقتصادية في المناطق المحررة الذي انعكس سلباً على الناس، فلا موارد تكفي المستلزمات، ولا فرص عمل تسدّ الحاجات، وهذا يعني العجز عن تأمين الكتب المدرسية ومستلزمات التعليم في ظلّ تلك الظروف القاسية.

٩- ازدياد عدد الطلاب المتسرّبين عن المدارس والمنقطعين عن الدراسة لسنوات، وهي نسبة كبيرة تزداد نسبتها بازدياد المرحلة الدراسية لتصل لأكثر من ٧٠٪ وخاصة في المناطق التي سيطرت عليها داعش ومنعت التعليم بعد مرحلة التعليم الأساسي.

١٠- امتناع المنظّمات العاملة في السّاحة السّورية لدعم المدارس وترميمها وتوجّهها إلى المجال الإغاثي والإنساني واستقطاب الكفاءات العلميّة المختصة وتحويلهم إلى موظّفين بعيداً عن العلم والتعليم.

وبالرغم من تلك الظروف القاهرة والتحديات القاسية التي أحاطت بالمناطق المحررة وأهلها، ففي العام الأول من الثورة وبعدما انقطع التعليم بمدارسنا للأسباب التي تم ذكرها آنفاً، تداعى العقلاء واستدركوا خطورة الأمر فعادوا إلى متابعة التعلم والدراسة بعد هذا الانقطاع بشكل تدريجي ضمن خطوات تمثلت بما يلي:

- بناء الخيم المتواضعة التي تؤوي الطلاب مع فقدان المقاعد الدراسية ومعظم المستلزمات الدراسية.

- ترميم ما يمكن ترميمه مما بقي من مدارس لم تهدم بكليتها لتستوعب مزيداً من الطلاب.

- الحملات الشعبية الكثيرة التي ساعدت في دعم التعليم بحده الأدنى من أهل الخير من السوريين المغتربين.

- المبادرة من قبل الجمعيات والهيئات والمجالس المحلية في القرى والمخيمات وإنشاء مراكز تعليم أساسية ضمن الإمكانيات المتواضعة والمتاحة.

- الحرص الشديد من قبل أهالي الطلاب على المتابعة الحثيثة لأبنائهم لمتابعة العلم والدورات العلمية التي يقوم بها بعض المدرسين حسبة لله تعالى.

- الاهتمام بتعليم ذوي الحاجات الخاصة وإقامة دورات علمية تناسب مع وضعهم.

- صحيح أن نسبة التسرب المدرسي كانت كبيرة في سنوات الثورة الأولى للأسباب التي ذكرت آنفاً، إلا أن أعداد الطلاب الملتحقين بالمدارس ازدادت بشكل ملحوظ وباهتمام أكبر، وخصوصاً بعد السنوات الخمس الأولى من الثورة، والتي شهدت تفاعلاً كبيراً من الطلاب والأهالي، وتعاون بعض المنظمات الخاصة التي لم تأل جهداً في تقديم ما تستطيع من لوازم وحاجيات ورواتب للمدرسين.

ومن خلال تلك الجهود الداعمة، وهذه الهمم العالية عند أبنائنا فقد شهدت الساحة السورية تخرج آلاف الطلاب من الجامعات بجميع فروعها واختصاصاتها، فضلاً عن عشرات الآلاف من حملة الشهادة الثانوية وأكثر منهم من حملة الشهادة الإعدادية.

ومن فضل الله تعالى وكرمه فقد أنشئت أكثر من عشر جامعات بكل الاختصاصات العلمية العامة منها والخاصة، وعشرات المعاهد التعليمية والمهنية المتنوعة؛ لتخرج الطاقات والمدرسين

وأصحاب المهن والخبرة والمعرفة التي يحتاجها المجتمع، وكذا آلاف المدارس التي أعيد ترميمها، فضلاً عن التي تمّ بناؤها من جديد.

التعليم العالي (أشواك، وورود):

لم يكن التعليم العالي بمنأى عن العقبات والتحديات أمام الخريجين الذين اجتازوا المرحلة الجامعية بكل تبعاتها الثقيلة لتعرضهم نفس التحديات السابقة، بل قد تزيد عليها بما يمكن أن نلخصها ببعض النقاط، منها:

١- التكاليف المالية الكبيرة التي قد لا تتوفر للجميع في ظروف الحرب التي يعيشها الطلاب وخصوصاً العوائل التي تضم أكثر من طالب في البيت الواحد.

٢- عدم توفر فرص العمل الكافية والتي من شأنها تخفيف العبء المادي اللازم للأسرة، في الوقت الذي تشكل الأعباء المالية أكبر عائق في الجامعات أمام طلاب العلم.

٣- نقص الكفاءات من الدكاترة وأهل الاختصاص في السنوات الأولى من الثورة، وهجرة الكثير منهم للعمل خارجاً لكفاية أسرهم مع ضعف الموارد وانعدامها أحياناً.

٤- عدم كمالية المناهج الجامعية الاختصاصية لكل الفروع واعتمادها ضمن المعايير الدولية التي من شأنها رفع مستوى الكفاءات العلمية والنخب المستقبلية التي تنهض بالأمة في مجالات العلم والتقدم والازدهار.

٥- من الأمور التي اعتُبر تحدياً كبيراً أمام الطلاب الخريجين من الجامعات عدم الاعتراف الدولي بالشهادة الجامعية، وهو ما شكّل عائقاً أمام البعض الذي لم ير تحقّق حلمه الذي كان يصبو إليه.

ومن جميل ما يُذكر في المجال التعليمي أنّ أهل الخير والأمانة والمسؤولية لم ينسوا أبناء الشهداء الذين قد لا يتمكنون من متابعة الدراسة وتحمل تبعاتها المادية بعد استشهاد آبائهم فسارعوا لإقامة مدارس خاصة ضمت آلافاً من الطلاب والطالبات تُعنى بأبناء الشهداء وتكفلوا بكل ما يحتاجونه في كل مراحل دراستهم الثانوية والجامعية، فملؤوا لهم فراغ الأبوة إلى حد كبير، وكفّوهم ذلّ الحاجة لنيل مرادهم وتحصيلهم العلمي حتى بتنا نرى المئات منهم وقد تقلدوا أوسمة

الفوز والتَّجَاح، وتسَلَّموا الإجازات الجامعيَّة، وما زالوا سائرين ثابتين في طرق العلم والمعرفة ليكونوا من الكفاءات الفاعلة في بناء هذه الأُمَّة.

وأما على مستوى المعاهد الشَّرعِيَّة فقد شهدت المناطق المحرَّرة قفزاتٍ كبيرةً في مجال تحفيظ القرآن الكريم، واستُخدمت البيوتُ والخيمُ والأقبيةُ والمساجدُ وامتلأت بحلقات القرآن حسبةً لله سبحانه، ثمَّ تطوَّرت شيئاً فشيئاً، وتكفَّل أهلُ السَّعة والفضل في دعمها فضلاً عن المنظَّمات الخيريَّة، فانتشرت المعاهدُ الشَّرعِيَّةُ بجميع علومها وكلِّ فروعها واختصاصاتها حتى أضحت المناطق المحرَّرة كأنَّها خلايا النحل العاملة على الدوام المصنِّعة للشَّراب النَّافع الشَّافي بما تخرَّجه من أطفالٍ وفتيانٍ تربَّوا في المساجد وترعرعوا على حبِّ القرآن وحفظه.

وما زالت مواكب الحفاظ تمضي في طرق العلوم الشَّرعِيَّة لتخرِّج عشرات الآلاف من الرِّجال، وتصنع منهم الأبطال الذين سيحملون على أكتافهم أمانةَ هذه الأُمَّة، ليكونوا الرُّواحل التي ستسير بها إلى حيث العزَّة والكرامة.

وأخيراً:

بالرَّغم من كلِّ ما سبق من تحدِّياتٍ وصعوباتٍ مختلفةٍ ومتنوعةٍ فقد كانت النَّتائج والثَّمرات رائعةً بما أفرزت من كفاءاتٍ علميَّةٍ رفدت المؤسسات العاملة والمدارس المحتاجة والمجالس النَّاطمة لشؤون النَّاس، فضلاً عن تصدَّر السَّاحات السِّياسيَّة والقنوات الفضائيَّة من إبداعاتهم وثمرات جهودهم على المستوى المحلي والدُّولي.

وهكذا فإنَّ شعباً خرج ضدَّ أقدر نظامٍ مجرمٍ وحُكْمٍ مستبدٍّ عرفته البشريَّة، فصبرَ على آلامه، وثبتَ على مبادئه وأهدافه، وتجاوزَ كلَّ التَّحدِّيات قادرٌ على أن يتكيَّف مع الطُّروف الصَّعبة المختلفة، ويبني أمجاده، ويصنِّع حضارته، ويحقِّق آماله من خلال العلم في كلِّ مجالاته واختصاصاته وكلِّ أبوابه.

المطلب الثَّاني: الملفُّ القضائيُّ في المناطق المحرَّرة:

لم يكن مجال العمل القضائيِّ وما يلحق به بمعزلٍ عن غيره من مجالات الحياة ومستلزماتها منذ بداية الثَّورة السُّوريَّة المباركة، فما إنَّ انطلقت الثَّورةُ بداية عام ٢٠١١ م حتى ظهرت الحاجةُ الماسَّةُ لوجود كيانٍ أو سلطةٍ تُعنى برَدِّ المظالم وإعادة الحقوق لأصحابها والضَّرب على أيدي

الظلمة وردع الخارجين على القانون والدين والأخلاق، وإعادتهم لجادة الصواب والطريق السوي القويم، وخصوصاً في المناطق التي تحررت من رجس النظام الأسدي المجرم بعد الانتفاضات الشعبية والتظاهرات السلمية الرافضة له ولفساده.

بعد تحرر تلك المناطق برزت الحاجة لسد الفراغ في المجال القضائي وما يلحق به من أدوات ووسائل لضبط الفوضى وزرع الأمن في المجتمع، وحتى لا يفسح المجال لأصحاب النفوس الضعيفة ممن امتطوا الثورة وساروا في ركبها واستخدموها مطية للتفليت الأخلاقي وأداة لاغتصاب الممتلكات والتسلط على الأرزاق والاعتداء على حقوق الناس وأملأهم في ظل غياب رادع يردعهم؛ فكان لا بد من تسليط سيف القضاء على رقاب تلك الفئة، والعمل على رفع الظلم وتحقيق العدل الذي هو مطلب الجميع وأساس رئيس من أسس ديننا الحنيف.

المحاكم ومقاصدها وضرورتها وجودها:

لا شك أن القضاء في المناطق المحررة يعتبر قضاءً استثنائياً، للضرورة التي يفرضها الواقع، ولعل من أهم الدوافع التي استوجبت قيام المؤسسات القضائية والحقوقية لتحقيق الأمن والعدالة ما يلي:

١- رفع الظلم وردع الظلمة عن ظلمهم، وقطع الطرق أمامهم باستغلال المستضعفين من الناس بعدما حمل بعضهم السلاح واستخدمه بغير حقه.

٢- رد الحقوق والأموال المنهوبة والممتلكات المغتصبة والمأخوذة بأساليب منحرفة إلى أهلها وأصحابها الحقيقيين.

٣- زرع الأمن والأمان في نفوس الناس الذين لا يتجرؤون على رفع دعاوى أو تقديم شكاوى ضد رؤوس الفساد.

٤- إقامة العدل بين الناس؛ لأنه بوابة لأمن المجتمع واستقراره، وطمأنينة لأفراده، ورفعة لمكانة الدولة بين الأمم.

٥- ضرورة الفصل في النزاعات والبت في الخصومات المجتمعية التي لا تتوافر غالباً بشكل متكامل إلا في المحاكم القضائية.

٦- حاجة الناس لتسيير أمورهم ومصالحهم الحياتية، من معاملات البيوع المختلفة، وعقود الزواج والطلاق، وغيرها من المعاملات المستعجلة التي لا تحتمل المماطلة ولا التأخير، إضافة إلى دوائر "الكاتب بالعدل" لتنظيم الوكالات وتوثيق الحقوق وترتيب الموارث.

كل ذلك جعل من إقامة القضاء ضرورة مهمة وركناً أساسياً في بناء مجتمع آمن سليم، يحفظ له حرّيته وكرامته، ويؤمن له استقراره وأمنه.

ومن هنا فما إن حرّر الثوار مواقع جغرافية من عصابات الأسد حتى بدأوا بتنظيم الحياة المدنية وذلك في نهاية ٢٠١١ م ومطلع العام ٢٠١٢ م، فاعتنوا بالتعليم وإقامة المؤسسات الخدمية وإدارة المنظّمات المجتمعية العاملة، ومن أهمها: الفصل في الخصومات بين الناس، حيث كان قائد المجموعة الثورية هو من يحلّ الخلافات ويفصل فيها، ثم بدأت بعض الفصائل الاستعانة بشرعيين ليحكموا بين الناس في خلافاتهم وشؤون حياتهم، ثم تطوّر ذلك ليصبح مكتباً قضائياً يأخذ شكل المحكمة في أماكن تواجد الفصائل.

أدى تعدّد المكاتب القضائية إلى التباين والاختلاف في الفتاوى والأحكام التي تصدر ويتمّ تنفيذها من قبل الفصائل العسكرية (لكونها القوة التنفيذية للمحكمة) حيث كان لذلك الأمر آثاراً سلبية بما خلفه من الأحقاد والأضغان في النفوس التي قد لن تنتهي بسنوات.

تأسّس مجلس القضاء الموحد في حلب عام ٢٠١٢ م بعد تحرير بعض مناطقها، واعتمد القانون العربي الموحد كمرجع قضائي له، لكنه افتقر لوجود قوة عسكرية تدعمه وتقويه في المنطقة، وهو ما أدى لظهور بعض المحاكم التي تعتمد على الفصائل، فكان أن نشأت أول محكمة في منطقة السكري بمدينة حلب في منتصف عام ٢٠١٢ م، تعتمد في قوتها على حركة أحرار الشام الإسلامية، ثم توافقت الفصائل الكبرى على تشكيل هيئة شرعية موحدة منعاً للتعارض في الأحكام وضرورة تنفيذها في كلّ مدينة حلب المحرّرة، واتفقت على تناوب الفصائل في رئاستها وتسيير شؤونها، (كلّ فصيلة ستّة أشهر)، وتبعت لهذه الهيئة محاكم فرعية في عدد من المناطق المحرّرة التابعة لمدينة حلب كـ (الحاضر، وإعزاز، وصوران، إعزاز، وحريتان، وغيرها).

الجدير بالذكر أنّ تلك المحكمة اعتمدت الشريعة الإسلامية في قضائها دون تقنين، حيث لم تعتمد على مرجعية قانونية (مكتوبة)، فكان القاضي الشرعي هو القاضي المجتهد في القضايا حسب تحصيله للعلم الشرعي، وفهم أصوله وقواعده، وتميّزت المحكمة حينها بوجود درجات

للتقاضي (محكمة البداية والاستئناف والتّمييز)، وقويت تلك المحكمة المشكّلة في مشفى العيون بحلب بسبب دعم الفصائل القويّة لها، ممّا أضعف مجلس القضاء الموحد، علماً أنّها اكتسبت حاضنةً شعبيةً كبيرة، ثمّ حدثت بعض الإشكالات بين الفصائل المشكّلة لها، فانسحب بعضها تبعاً، فخلّفت فراغاً قضائياً وإدارياً كبيراً.

تداعى مندوبو الفصائل الكبرى الثلاثة آنذاك (الأحرار-التّوحيد- الزّنكي) إلى عقد عدّة لقاءات لاعتماد مرجعيّة شرعيّة مقنّنة للقضاء في محكمة حلب نتج عنها تشكيل لجنة سباعيّة للنّظر في القانون العربيّ الموحد لاعتماده، ونَبَذَ الموادِ المخالفة فيه للشّريعة الإسلاميّة.

ورغم كلّ التّحدّيات فقد كانت المحاكمُ المختلفة في ريف حلب وإدلب وريفها تعمل بكفاءةٍ عاليةٍ كـ (محكمة بلدة مارع، وإعزاز، والباب، ومنبج- وبلدة بنش - وبلدة الحاضر جنوب حلب - وسرمدا وغيرها من البلدات).

أمّا بالنسبة لداعش؛ ففي عام ٢٠١٣ م ومع بداية ظهور ما يُسمّى بتنظيم الدّولة الإسلاميّة (داعش) أنشأت محاكمَ خاصّةً بها، حيث تمّ استخدامها ضدّ معارضيه من الفصائل المقاتلة أكثر من مهمّتها الأساسيّة من تحقيق العدالة بين النّاس، إذ استخدمت من اسمها مطيّة وأداة للوصول إلى الغاية الأساسيّة، فكان من أهمّ محاكمها: المحكمة المركزيّة في مدينة الدّانا التي كانت تعتبر عاصمتها آنذاك.

كان هذا في مدينة حلب وريفها، وأمّا في مدينة إدلب فقد اجتمعت كبرى الفصائل العسكريّة (أحرار الشام، جبهة النصرة، صقور الشام، جيش الإسلام، فيلق الشام، وفصائل أخرى كثيرة) على تأسيس محكمة كبيرة في بلدة بنّش، أسمتها: (الهيئة الإسلامية لإدارة المناطق المحررة)، تتبعها محاكم فرعيّة كثيرة في مختلف أنحاء إدلب منها: (محكمة سراقب، والدانا، ومعرّة النعمان، وأريحا)، وغيرها كثير.

استمرّ العمل على هذا المنوال مدّة أشهرٍ قليلةٍ ثمّ ما لبثت جبهة النصرة أن انسحبت منها كما فعلت في حلب، وأنشأت محاكمَ خاصّةً بها، فاستقرّ حال المحاكم في المحرّر ضمن ثلاث مرجعيّات:

الأولى: الهيئة الإسلاميّة، ومقرّها الرّئيس: في بلدة بنّش.

الثانية: مجلس القضاء الأعلى، ومقره: ريف حلب الغربي.

الثالثة: جبهة النصرة، ومركزها الرئيس: في بلدة سرمد.

استمرّ الوضع على ما هو عليه حتى أواخر عام ٢٠١٧م، حيث قامت جبهة النصرة بفرض سيطرتها على المنطقة برمتها، وتوحيد العمل الإداري والقضائي بقيادتها، فألغت المحاكم التابعة لحركة أحرار الشام (الهيئة الإسلامية)، واستبدلتها بمحاكم تتبع لها، فأصبحت محاكم المحرّر كلّها بذلك تتبع لجبهة النصرة ومجلس القضاء الأعلى في حلب.

كان هذا حال القضاء في الشمال المحرّر من سوريا، وأمّا في الجنوب فلم يكن القضاء مختلفاً عنه في الشمال كما في مدينتي حلب وإدلب وأريافهما، حيث سارع بعض أهل الخير والأمانة والمعرفة وأصحاب الرأي والمشورة لتشكيل مؤسسة قضائية مؤلفة من عدّة محاكم لفضّ النزاعات وفصل الخصومات وردّ المظالم وإعادة الحقوق إلى أصحابها، ونشر العدل بين الناس بما يتوافق مع روح الشريعة الإسلامية الغراء، بعيداً عن المحسوبيات الشخصية والأجندات الدولية والضغوطات الحزبية والفصائلية، فكانت دار العدل في حوران التي تشكّلت بشكلٍ رسمي بتاريخ: ١ / ١١ / ٢٠١٤م، كمؤسسة قضائية مستقلة، تعمل بمهنية ومصداقية لتزرع الثقة والاطمئنان، وتبعث الأمن والأمل في نفوس الناس من خلال سدّ الفراغ الذي أحدثته النظام المجرم، والحاجة الملحة لعمل قضائي مستقل في إطار جامع لكلّ الكيانات القضائية التي تسعى لذات الهدف، وقد تطوّر الأمر وتمّ التنسيق مع القضاء الموحد في الغوطة من دمشق باعتماد الكفاءات القضائية وتشكيل لجنة التطوير القضائي في الشهر التاسع من عام ٢٠١٥م، الذي كان له الأثر الطيب في رفع سوية العمل القضائي بمجالاته كافةً واكتماله من كلّ جوانبه القضائية، بالرغم من كلّ التحدّيات والعقبات التي اعترضت المؤسسة وهدّدت بقاءها واستمراريتها.

كان هذا العرض السريع لمسار العمل القضائي مختصراً في سياق توضيحه خلال فترة الثورة المباركة رغم وجود الكثير من المعوّقات والعقبات التي اعترضتها في كلّ مساراتها والتي كان لها النّصيب الأكبر في إعاقة ونجاح تلك المؤسسة، والتي تتجلى فيما يلي:

١- ضعف الإمكانيات المادية التي واجهت المؤسسة القضائية بكل مجالاتها من نفقات ومستحقّات وغيرها.

٢- ضعف الكوادر العاملة في المجال القضائي ممّن لا يملكون المؤهلات والخبرات المطلوبة، وقلة الكفاءات المتخصصة التي تلبي حاجات المحاكم المختلفة.

٣- عدم اعتماد قانون خاص ومرجع قضائي ثابت يعود إليه القضاة عند إصدار أحكامهم بما يساعد المتداعين بالاستناد إليه عند مرافعاتهم أمام المحاكم بقانون ناظم لإجراءات الدعاوى يضمن حسن سير العملية القضائية.

٤- تعدد المرجعيّات القضائية التابعة للفصائل (الراديكالية، والجيش الحر) حيث إنّ بعض المحاكم تعتمد على اجتهاد القاضي الذي يستعين بالقانون العربي الموحد تارةً، والقانون السوري تارةً أخرى، إضافةً إلى الفقه والشريعة الإسلامية حسب توجه الفصيل الذي تتبع له المحكمة، وهو ما أدّى إلى عدم الاطمئنان لقرارات بعض المحاكم، وهروب البعض منها إلى محاكم أخرى.

٥- تصدر بعض طلاب العلم الشرعي ممّن لا يملكون المؤهلات القانونية والحقوقية لمنصب القضاة المتخصصين.

٦- صعوبة تبليغ المدعى عليهم، وخاصة الذين هم خارج المحاكم المختصة، واستحالة تنفيذ الأحكام بهم عند صدورها بحقهم، وعدم القدرة على محاكمة من هم فوق القانون والمتنفذين من قادة الفصائل، أو حتى طلبهم للمحاكمة عند الحاجة لذلك، وعدم انصياعهم للقرارات الصادرة عنها.

٧- عدم رقابة القضاء على السجون؛ بحجة الملفات الأمنية وظهور بعض حالات الاختفاء القسري أحياناً، وعدم علم القضاء بها.

٨- فقدان استقلالية القضاء بشكل تام، بسبب النفوذ الفصائلي الذي يسيطر على المحاكم ويتحكم بقراراتها إلى حد كبير.

هذه بعض العقبات التي أعاقَت العملية القضائية وكادت تؤدي بالساحة إلى مزيد من الفوضى، لكنها تدرّجت شيئاً فشيئاً حتى أخذت شكلها الرسمي المنضبط إلى مستوى مقبول.

ولعلّ من أهم المؤسسات الفاعلة في هذا الشأن كانت: (معاهد إعداد القضاة) في بلدة كفرديان من محافظة إدلب، وما قدّمته من الجهود الكبيرة من خلال الدورات القضائية المكثفة والمستمرة لرفع سوية المحامين والقضاة في الداخل السوري، وفي تركيا الشقيقة أيضاً، وهو ما زاد من

المؤهلات والكفاءات القضائية وتحمل الأمانة والمسؤولية، وما رفدت به المحاكم بأعداد كبيرة في كل مجالات واختصاصات العمل القضائي الذي أخذ خطأ بيانياً متصاعداً للأفضل.

ولعلّي أوضح المراحل التي مرّ بها العمل القضائي خلال فترة الثورة المباركة ابتداءً من انطلاقها:

١- منذ بداية الثورة وتحرير المناطق من النظام المجرم، تمّ تشكيل المخافر الثورية فيها وإدارتها من خلال بعض الضباط المنشقين عن النظام الأسديّ المجرم من أصحاب الخبرة والاختصاص للحفاظ على الأمن والاستقرار وضبط الأمور وردّ الحقوق، وقد لاقت قبولاً كبيراً وترحيباً من قبل الأهالي، حيث سدّت الكثير من حوائج الناس وحققت مصالحهم، فكانت بمثابة الخطوة الأولى في الدخول إلى المؤسسة القضائية بشكلها ومضمونها.

٢- ثمّ تطوّر الأمر، فتمّ إنشاء محاكم صغيرة بإمكانيات متواضعة واختصاصات محدّدة للنظر في بعض الأمور المهمة الضرورية في أماكن بعض الفصائل الفاعلة ذات القوة والشوكة التي تحميها بغضّ النظر عن توجهاتها الفكرية.

٣- تعدّدت المحاكم الثورية وانتشرت في أغلب المناطق المحرّرة، وأصبح لكلّ فصيلة محكمة الخاصة التي تقضي بمشاكل عناصره وقضاياه في المنطقة التي يسيطر عليها، وقد سبّب هذا التعدّد عائقاً كبيراً في تحصيل الحقوق من بعض القادة المتنقّذين الذين سيطروا على قرارات محاكمهم وكانوا سبباً في الفساد الذي استشرى في المجتمع.

٤- تمّ إنشاء "الهيئة الإسلامية لإدارة المناطق المحرّرة" واعتماد محاكمها بداية عام ٢٠١٤م، وقد عملت على جمع المحاكم العاملة بنظامٍ قضائيّ واحدٍ يوحد العمل القضائيّ بكلّ المناطق المحرّرة ضمن أطر التّقاضي القانونيّة التي تضمن حقوق المتقاضين وإجراءات القضاء.

٥- ثمّ بعد ذلك تمّ اعتماد المحاكم المدنيّة والعسكريّة بكلّ اختصاصاتها في كامل المناطق المحرّرة ضمن إدارة وترتيبات الحكومات التي تدير تلك المناطق ليأخذ القضاء هيكله القضائيّ الرّسميّ ويعمل بالطّرق القضائيّة والقانونيّة المتّبعة في كلّ المحاكم المحترمة.

ختاماً:

على الرّغم من كلّ تلك التّحدّيات والعقبات التي أعاقَت العمليّة القضائيّة، وبالرّغم من أنّها لم تحقّق عدالةً عمر (رضي الله عنه)، ولم تكن على المستوى المأمول، إلّا أنّها كانت صاحبة دورٍ كبيرٍ

وأثر فاعلٍ في استقرار الوضع الأمني والحياتي بما حقّقه وقدمته، فكانت ظاهرةً سابقةً ونقطةً مضيئةً في تاريخ الثورة السوريّة المباركة.

المطلب الثالث: الملفّ الصحيّ في الثورة السوريّة:

يُعتبر الملفّ الصحيّ من أهمّ الملفّات الدّاعمة للثورة السوريّة وأهلها؛ لأنّها صمّامُ الأمان ضدّ الضّعف والأسقام، ومنبعُ القوّة والعزيمة بتأمين الاحتياجات اللازمة لاستمراريّة الثورة وضمان بقائها حيّةً قويّةً في كلّ المجالات الحياتيّة وعلى جميع الأصعدة الثّوريّة.

هذا ما أدركه النّظامُ المجرّمُ فعمل جاهداً على هدم أركانه الحيويّة من خلال تدمير المستشفيات والمستوصفات والنّقاط الطّبيّة التي من شأنها تقديم أيّ مساعدةٍ بهذا الخصوص، فبادر باعتقال أغلب الطّاقات والأطباء والشّخصيّات الفاعلة وملاحقتهم وداعمهم ومصادرة أموالهم.

وما إن انطلقت الثورة السوريّة المباركة حتى جفّت مصادرُ الدّعم الطّبيّ في كلّ الأماكن التي تحرّرت من رجز النّظام المجرّم، وباتت تلك الأماكن تنوّت تحت وطأة الوباء والبلاء الصحيّ، واقتحمت الأمراضُ بكلّ أصنافها لتغزو المحرّز وأهلّه، وترتّعت في مضاربهم دون أن تقدّر لهم صغيراً أو تحترم منهم كبيراً، ساعدها في غزوها هذا أسبابٌ كثيرةٌ نزلت بالنّاس وفاقت الأوضاع العامّة وخصوصاً الصحيّة منها، وهي ما يمكن إجمالها بما يلي:

١- القصف الهمجّي للطيران الرّوسيّ والسّوريّ الذي دمر الحجر وقتل البشر وأحرق الشجر، وكانت المشافي والمستوصفات والنّقاط الطّبيّة لها نصيب الأسد من التّدمير والتّدمير، فتوقّفت أعمالها كليّاً أو جزئياً حتى اضطر النّاس لاستخدام الأقبية وحفر الأنفاق ك (مشافي ميدانية) يؤدّون الخدمات ويقدمون الدّعم والمساعدات.

٢- الاستهداف المباشر من قبل طائرات الإجرام لسيارات النّقل بشكلٍ عامٍ، وسيارات الإسعاف بشكلٍ خاصٍ، حتى أصبح أصحاب السّيارات يحسبون كل حسابٍ للحفاظ على أنفسهم وأهلهم من القتل والاستهداف.

٣- اعتقال النّظام لمئات الأطباء والمسعفين والكفاءات الطّبيّة وقتل الكثير منهم جرّاء تدمير المشافي عليهم، وهذا ما كان سبباً كبيراً في هجرة بعضهم إلى خارج البلد ليأمن على حياته من العدوان الإجرامي.

٤- قلة الموارد المالية التي تسد حاجات المشافي الميدانية والبديلة (شراء معدات، تأمين أدوية، إسعافات...)، إضافة إلى رواتب للأطباء وخصوصاً الأخصائيين منهم بما يكفهم وأسْرهم.

٥- فقدان الكثير من الأنواع الدوائية العلاجية التي تحتاجها المناطق المحررة لأسباب كثيرة، مع صعوبة إدخالها من البلدان الأخرى بشكل رسمي.

٦- فقدان التيار الكهربائي في المناطق المحررة بسبب استهدافها من الطيران الإجرامي وتدمير مؤسساتها بالكامل، وهو ما أرحى بأثقاله وأعبائه الكثيرة على الناس، تجلّى ذلك من خلال:

أ- استحالة تخزين الدّم الذي يقدّمه المتبرعون لإخوانهم المصابين عند الحاجة والضرورة.

ب- عدم توافر الأدوية اللازمة لعلاج الحالات الخاصة لعدم وجود الحافظات وآلات التبريد في ظلّ فقدان التيار الكهربائي وعدم وجود البديل المكافئ.

٧- معظم الأجهزة والمعدات الطبية إمّا قديمٌ مهالكٌ يحتاج للصيانة، وإمّا مُعطّلٌ بسبب القصف الذي أصاب المشافي فدُمّرت كلياً أو جزئياً.

٨- غياب حملات التلقيح الدورية: (شهرية، نصف سنوية، سنوية) التي من شأنها الوقاية من بعض الأمراض التي قد تصيب الأطفال خاصة، والتخفيف من الأوبئة التي تكثر في الظروف الاستثنائية كالحروب وغيرها.

٩- سوء التغذية الذي سيطر على الحالة العامة للناس بسبب ظروف الحرب الإجرامية، فكانت سبباً في نقص المواد الحياتية اللازمة، إضافة إلى غلاء الأسعار التي فرضت عليهم، نظراً لقلّة المواد من جهة، واحتكار بعض التجار من جهة أخرى.

١٠- تردّي الأوضاع الصحية وازدياد الأمراض، من خلال الأزمة السكانية الخانقة نتيجة حملات التهجير القسري الذي تعرّض لها الشعب السوري في المناطق المحررة والتي تفتقد لأدنى شروط الوقاية الصحية.

١١- انتشار الأوبئة والأمراض الخطيرة التي تحتاج إلى مزيدٍ من المتابعة والعناية: (اللشمانيا أو حبة حلب، السّل، الكبد، التيفوئيد، الكلى، السكري، القلب، السرطان بأنواعه، أمراض الأطفال، الرضّع والحواضن...)، وكذلك حالات الإجهاض والولادات المبكرة جرّاء حالات الخوف

والهلع والاضطراب، في ظل غياب الموارد الطبيّة الكافية، وقلة الكوادر الطبيّة الفاعلة الذي يجعلها عاجزة عن تقديم ما يسدّ الحاجات ولو بالحد الأدنى.

- ضعف أداء المنظّمات الطبيّة الدوليّة (وخاصةً في السّنوات الثلاثة الأولى من الثورة) التي كان من المفترض أن تعوّض النقص الحاصل في الحاجيات الطبيّة وتسدّ الفراغ الذي خلفه النظام المجرّم وحليفه الرّوسيّ الخبيث، وكذلك تحكّم بعض المنظّمات الأخرى بطريقة الأداء والعمل الطّبيّ بما يخدم المنظّمة وأهدافها وليس بالشكل الذي يعطي الحرية للأطباء في عملهم بمهنيّة ومصادقيّة.

١٣- التّفاعس الدوليّ والتّخاذل الأمميّ تجاه الشعب السّوريّ في المناطق المحررة الذي تجلّى بعدم السّماح لدخول المساعدات الطبيّة في السّنوات الأولى من الثورة إلّا بموافقة النظام الأسدّي المجرّم، وهو مالم يوافق على ذلك.

كل ما سبق من تحدّيات وصعوبات وعقبات اعترضت العمل في المجال الصحيّ بداية الثورة لم تُثني أصحاب الأمانة والخير والمسؤوليّة من السّوريّين وخصوصاً المغتربين منهم من المبادرة والمساعدة في تقديم ما يستطيعون من تنظيم العمل الطّبيّ وبناء نظام صحيّ متناسب مع الحالة الميدانيّة التي تعيشها المنطقة، فكانت الخطوات سريعةً وجديّةً تجلّت فيما يلي:

١- التّواصل مع المنظّمات الدوليّة الدّاعمة ووضعهم أمام مسؤولياتهم وتسهيل إدخالهم إلى الأراضي السّوريّة المحرّرة للاطلاع على الواقع الصّحيّ المرير لأخذ دورهم الإنساني في تأمين الأدوية والعلاجات اللازمة.

ومن أهمّ تلك المنظّمات: (سامز، سيما، الأوسم، أطباء بلا حدود، منظمة أطباء العالم...).

٢- تأمين الطّاقة البديلة عن التّيّار الكهربائي الذي هو عصبُ العمل الطّبيّ لضمان تخزين الدّم والأدوية ونجاح سلامة حياة الحواضن وحديثي الولادة.

٣- بناء المستوصفات الصّغيرة وتجهيزها بما يلزم من المعدّات والأجهزة لتقديم الإسعافات الأولية في البلدات والقرى.

٤- تأمين سيارات الإسعاف الجاهزة وإدخالها للعمل في الخدمات الطبيّة في ظلّ النقص الكبير فيها؛ نظراً لاستهدافها من قبل الطّيّران الإجرامي.

٥- تأمين المستشفيات المتنقلة بين القرى والبلدات لعلاج المرضى والمعاقين والحالات المزمنة والخطيرة.

٦- تطوّر العمل الطّبيّ من خلال بناء المستشفيات الحديثة بكلّ التّخصّصات الطّبيّة في أغلب المدن الرّئيسيّة التي تشكّل نواة مجتمعيّة كبيرة.

٧- الدّورات الطّبيّة المكثّفة في الدّاخل والخارج لرفع مستوى الأطباء العاملين وما يلحق به، لردف المستشفيات والمستوصفات والنّقاط الطّبيّة بالكفاءات اللازمة.

٨- الجامعات السّوريّة وما بذلته من جهود جبّارة في إعداد أطباء يُعوّضون النّقص الذي تركه إخوانهم ممّن تركوا السّاحة إلى خارج البلاد.

بعض المنظّمات الطّبيّة الفاعلة:

كثيرة هي المنظّمات الطّبيّة العاملة في تقديم الخدمات والمساعدات الصّحيّة منذ بداية الثّورة وحاجة النّاس لذلك، وأرى من المفيد أن نذكّر ببعض المنظّمات الفاعلة على سبيل المثال لا الحصر، ومنها:

١- الجمعية الطّبيّة السّوريّة الأمريكيّة (منظّمة سامز):

وهي منظّمة إغاثة طبيّة عالميّة غير حكوميّة وغير ربحيّة، تأسست عام ١٩٩٨م، كمجتمع مهني، حيث عملت على توفير أطباء من أصلٍ سوريّ من خلال الشّبكات والخدمات التّعليميّة والثّقافيّة والمهنيّة.

تعمل المنظّمة في الخطوط الأماميّة للإغاثة خلال الأزمات، كان لها حضورها المتميّز في الدّاخل السّوريّ، حيث دعمت الرّعاية الصّحيّة فاعتنت بالمستشفيات الميدانيّة وقدمت سيارات الإسعاف والأجهزة والمعدات الطّبيّة اللازمة وأقامت دورات التّدريب الطّبيّ ودفعت الكثير من رواتب العاملين في المجال الطّبيّ، وتُعتبر منظّمة سامز من أنشط المنظّمات العاملة في الدّاخل السّوريّ.

٢- منظمة: (يداً بيد من أجل سوريا):

تأسست في شهر أيار من عام ٢٠١١م، في مدينة لندن من المملكة المتحدة كمنظمة إنسانية خيرية، ومن خلال المساهمات التي يقدمها المانحون والشركاء تقوم بتنفيذ العديد من المشاريع في مجالات الصحة والصرف الصحي والمأوى والأمن الغذائي والتعليم والمواد غير الغذائية.

كان لها فرع في مدينتي الرّيحانية وغازي عنتاب بتركيا، ولها في الدّاخل السّوريّ أكثر من ٣٥٠ موظفاً يعملون في مجالات الإغاثة المتنوعة.

٣- منظمة: (أطباء بلا حدود):

منظمة (أطباء بلا حدود): وهي منظمة طبية دولية غير حكومية، تأسست في عام ١٩٧١م على يد مجموعة من الأطباء والممرضين والصّحفيين في مدينة باريس بفرنسا، على مبدأ "حقّ جميع النّاس في الحصول على الرّعاية الصّحية"، بغضّ النّظر عن الجنس أو العرق أو الدّين أو العقيدة أو الانتماء السّياسي، ولأنّ الاحتياجات الطّبيّة للأفراد تتجاوز حدود الدّول فقد وسّعت نشاطها لتضمّ موظّفين من أكثر من ١٥٠ بلداً في العالم.

وتعمل المنظمة ضمن ميثاق ومبادئ إنسانية تُعتبر مرجعاً وإطاراً لجميع أنشطتها يتمثل بما يلي:

١- تقدّم منظمة (أطباء بلا حدود) المساعدات إلى السّكان المنكوبين، وإلى ضحايا الكوارث الطّبيعيّة أو البشريّة، وإلى ضحايا النزاعات المسلّحة، بغضّ النّظر عن العرق أو الدّين أو العقيدة أو الانتماء السّياسي.

٢- تلتزم منظمة (أطباء بلا حدود) بمبدأي الحياد وعدم التّحيز، تطبيقاً للأخلاقيّات الطّبيّة العالميّة؛ ومراعاةً للحقّ في الحصول على المساعدة الإنسانيّة، وتطالب المنظمة بالحرية المطلقة ومن دون عوائق في معرض ممارستها لمهامها.

٣- يلتزم أعضاء المنظمة باحترام المبادئ الأخلاقيّة لمهنتهم والحفاظ على الاستقلاليّة التّامة عن جميع السّلطات السّياسيّة والاقتصاديّة أو الدّينيّة.

٤- يدرك الأعضاء بصفتهم متطوّعين المخاطر والمجازفات المترافقة مع المهام التي يضطلعون بها ولا يطالبون لأنفسهم أو لذويهم بأيّ تعويض غير الذي تحدّده المنظمة في حدود إمكانياتها.

٤- منظمة: (أوسم):

وهي مختصر لـ (اتحاد المنظمات الطبية الإغاثية السورية).

والإتحاد هو مجموعة من المنظمات الطبية والإغاثية والإنسانية المستقلة غير الحكومية، أسسها مئات الأطباء السوريين الذين يعملون في الخارج، بعد أحداث العنف التي تجري في سوريا، تعمل على توفير الرعاية الطبية والمساعدات الإنسانية لكل المصابين والمحتاجين في هذا البلد.

يعمل الإتحاد بكل مؤسساته وأفراده تحت شعار: (ضمان حرية وصول الخدمات الصحية للجميع بغض النظر عن العرق أو الدين أو الرأي السياسي)، ويعتمد الإتحاد على الفرق المحترفة التي توفر الإغاثة وفقاً لمبادئ العمل الإنساني والأخلاقي في مهنة الطب.

٥- منظمة سيما: (SEMA):

وهي الرابطة الطبية للمغتربين، حيث كانت انطلاقة (سيما) كاستجابة لتزايد أعداد الجرحى بشكل كبير مما كان ينذر بمستقبل خطير، حيث تداعى مجموعة من أبناء سوريا المخلصين من الأطباء والمتخصصين في المجال الصحي، والمغتربين في شتى بلاد المهجر حول العالم، استجابة لقسمهم لرفع المعاناة عن الجرحى، وقرروا إنشاء هذه الهيئة الإغاثية الإنسانية (الرابطة الطبية للمغتربين السوريين/سيما)، وكانت انطلاقتها في أواسط عام ٢٠١١ م، ومن ثم حصلت على الاعتراف الرسمي والترخيص والتسجيل في العديد من دول الاتحاد الأوروبي، كفرنسا وبريطانيا وإيطاليا، وكذلك في تركيا، وهي مازالت تشهد الاعتراف والاعتماد في الكثير من دول العالم.

٦- منظمة ميداكل ريليف: (Medical Relief For Syria):

وهي مختصر لـ (المنظمة الإغاثية الطبية لسوريا (MRFS)، هي منظمة إنسانية غير ربحية تتمثل مهمتها في تقديم الدعم والمساعدة الطبية الحيوية إلى المحتاجين في سوريا منذ شباط من عام ٢٠١٢ م.

تسعى منظمة الإغاثة الطبية لسوريا (MRFS) إلى دعم الأفراد والمجموعات الذين يقدمون الدعم الطبي للجرحى والمرضى في سوريا من خلال توفير الكوادر والمهارات الطبية اللازمة لتدريب الموظفين، كما تستمر المنظمة في توفير الإمدادات والمعدات الطبية والدعم اللوجستي.

٧- منظّمة الإغاثة الإسلامية: (Islamic Relife):

وهي منظّمة دوليّة خيريّة تعمل في مجال الإغاثة العاجلة والطوارئ والتنمية في أكثر من ٣٠ دولة حول العالم منذ نشأتها، تسعى الإغاثة الإسلاميّة لمحاربة الفقر وخدمة الفئات المهمّشة والفقيرة بغض النظر عن العرق والانتماء السّياسي والنّوع الاجتماعي والديّن. تأسست في العام ١٩٨٤م، في بريطانيا، وتعتبر أكبر منظّمة دوليّة خيريّة مستقلّة، مرجعيّتها مستوحاة من القيم الإنسانية الإسلاميّة.

تعمل المنظمة بشكلٍ أساسيٍّ في مجال الإغاثة العاجلة والطوارئ والجهوزية للطوارئ وتنمية الشّعوب الفقيرة لتحسين وصولها لسبل عيشٍ مستدامة، وفي الرّعاية الصّحية والتّعليم والمياه والصّرف الصّحي وتمكين الفقراء والمهمّشين.

الواقع الصّحي؛ الّام لا تندمل:

الحقيقة المؤلمة التي لا تخفى على ذي لبٍّ، والتي ستبقى في ذاكرة الأجيال لعقودٍ وعقود، هي تلك الحالات المؤلمة من الإصابات الخطيرة المتنوّعة، والأعداد العظيمة من المعاقين الذين فقدوا أطرافهم، والمآسي الكثيرة التي نزلت بكلّ مدينة، وألّمت بكلّ قرية، وسكنت كلّ بيت، فلا تكاد تسير في طريقٍ ولا تتجوّل في سوقٍ ولا تمشي في أرضٍ، إلا وتلك المناظرُ تحوطك من كلّ جانب، وكأنك في بلد المعاقين ومزرعةٍ من الجرحى والمصابين.

والجميل ما تسمعه منهم من عباراتٍ ملؤها الرّضا والتّسليم، وما تراه منهم من قبولٍ واطمئنان، ثقةً منهم بقضاء الله وقدره عليهم، وبقينا منهم بأجرٍ ومثوبةٍ من الله ورضوان.

المطلب الرّابع: ملفّ الدّفاع المدنيّ والتّكافل الاجتماعيّ في الثّورة السّوريّة:

إنّ من أهمّ مقاصد الشّريعة الإسلاميّة الغرّاء الحفاظ على النّفس البشريّة وتأمين مقومات السّعادة والنّجاح في الحياة، وحمايتها من كلّ ما يؤذيها أو يسبّب لها الأذى أو يجلب عليها الضّرر أيّاً كان، وهذا في الحالة الاعتياديّة التي يعيشها النّاس، وهي الأولى والأهمّ في الشّدائد والمآسي التي قد تمرّ على النّاس في مراحل ضعفهم حيث يكونون بأمرّ الحاجة لمن يقف معهم في محنهم ويمدّ إليهم يد العون والمساعدة ليخفّف عنهم مصابهم إنّ لم يستطع تخليصهم منها بشكلٍ كامل.

ومن فضل الله سبحانه ورحمته بعباده أن جعل الأعمال الخيرية بكل أصنافها وأنواعها التي يتعدى خيرها للآخرين من أفضل الطاعات التي تقرب العبد من ربه وترفعه الدرجات العالية الرفيعة في الدنيا والآخرة؛ لأنها من المعالم الحضارية والقيم السامية لهذا الدين، فيبدو أفراد المجتمع كالعائلة الواحدة في وحدة كلمتهم وقوة إرادتهم وجمال تعاونهم وتكافلهم كأنهم الجسد الواحد الذي أشار إليه الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه النعمان بن بشير رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ؛ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى)^(١).

لم يقتصر أمر التكافل والتعاون بين أفراد المجتمع على أمرٍ دون آخر، كما يفهمه البعض في الأمور المادية والمادية فقط، وإنما التكافل في الشريعة الإسلامية كان كاملاً في معانيه شاملاً في مجالاته ليشمل الأمور الحياتية كلها.

ولعل في هذا البحث المتواضع ألقى نظرة على الواقع السوري من زاويتين مختلفتين جديرتين بالنظر والتأمل، وهما:

الزاوية الأولى: النظرة إلى الواقع العام المؤلم الذي يعيشه الشعب السوري الحر وقد انصبّت عليه المآسي والمصائب وأحاطت به البلايا والمحن وتربعت في مضاربه الشدائد والكرب بكل أنواعها وجميع أصنافها وكافة جوانبها وأشكالها بسبب العدوان الأسدي والإجرام الروسي والإيراني والتحالف الدولي والتخاذل الأممي والتقاعس العربي عن نصرة هذا الشعب المظلوم.

الزاوية الثانية: النظرة إلى أهل النخوة والشجاعة والمروءة، أهل البذل والعطاء والفداء، الذين اقتحموا ساحات الموت ليعيش غيرهم، وتحدوا القصف الهمجى والعدوان التدميري فدخلوا البيوت المهتمة لينقذوا أهلها من الموت، بل ليموتوا مكانهم بعد أن ينقذوهم، هم الذين إن سألت عنهم فستجدهم في أماكن التدمير والتهديم ومستنقعات الموت.

كانوا المنارات التي يحتاجها الناس على الدوام، والدواء الذي لا يستغني عنه المريض من السقام، بل والجرجات التي تعيد الروح للجسد بعد أن كاد يموت ويفنى.

(١) - صحيح مسلم، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، رقم الحديث (٢٥٨٦)، (١٩٩٩/٤).

إنَّهم مؤسسة الدفاع المدني أو ما يسمونها: (أصحاب الخوذ البيضاء)، بيّض الله وجوههم في الدنيا والآخرة.

فما هي مؤسسة الدفاع المدني، ما هي مهماتها وميادين أعمالها، ما دورها في الثورة السوريّة، وماذا قدّمت من خدماتٍ جليّةٍ للشَّعب السوري الحرّ؟

كلّ ذلك سأعرضه عن تلك المؤسسة العظيمة من خلال صفحاتهم الخاصّة المشرقة المقرونة بالواقع والوقائع الميدانيّة التي لم ولن تخفى على ذي بصيرٍ أو بصيرةٍ.

ولعل من الأفضل أن أنقل للقارئ الكريم ما جاء في تقرير مؤسسة الدفاع المدني في الذكرى السنوية السادسة لتأسيسها التي توضّح جزءاً بسيطاً من أعمالهم الميدانيّة، حيث جاء فيه:

"في ٢٥ تشرين الأول عام ٢٠١٤م، انطلق الدِّفاعُ المدنيُّ السُّوريُّ لمساعدة جميع السُّوريّين بكلّ أطيافهم بحياديّةٍ وشفافيّةٍ ودون أيّ تحيّزٍ.

فرضت الظروف التي مرّ بها السُّوريون مع بدء الحراك السِّلبي في عام ٢٠١١م، تغييراً كبيراً في جميع مناحي الحياة، وكانت السّمةُ الأبرز لتلك المرحلة هي الفراغ الحاصل بعدّة مناحي هامّة من حياة المدنيين نتيجة انسحاب الأجسام الحكوميّة الخدميّة وغيرها بعمليةٍ ممنهجةٍ من قبل النِّظام السُّوري، وفي أواخر عام ٢٠١٢م، بدأ النِّظام باستخدام القصف شكلاً من أشكال العقاب على الأحياء والمناطق التي انسحب منها، واقترن القصفُ الجوّي والبرّي بسحب الخدمات التي تقدّمها الدّولة، مثل الإطفاء والإسعاف في حالات الطّوارئ وصيانة شبكات المياه والكهرباء، لتصبح حياة السُّوريين أشبه بالجحيم الحقيقي، قصفٌ لا يتوقّف وبنيةٌ تحتيّةٌ مدمّرة، وغيابُ أيّ جهةٍ تساعد المدنيين أو تقدّم لهم الخدمات الأساسيّة التي تساعدتهم بمصاعب الحياة في ظروف الحرب وتبقيهم على قيد الحياة، وكانت الحاجة المتزايدة لسدّ الفراغ الحاصل، دافعاً للمجتمع المدنيّ السُّوريّ للاصطفاف من جديدٍ، وتنظيم جهوده من أجل المدنيين، ومساعدتهم في جميع الظروف دون تمييز.

كيف كانت البداية؟

نشأت عدّة مبادراتٍ مدنيّةٍ مدفوعةٍ بشغفٍ لإنجاح حلم التّغيير الجذري الذي دعت إليه شعاراتُ الحراك السِّلبي في سوريا، ولم يبدأ الدِّفاعُ المدنيُّ السُّوريُّ بالصُّورة المنظّمة التي هو

عليها اليوم، إنّما جاء نتاجاً طبيعياً لتجمّع العشرات من المبادرات التّطوّعيّة في مناطق مختلفة في جميع سوريا، وتجمّع المئات من المتطوّعين معاً، الذين كانوا من مختلف المشارب والاتجاهات والاختصاصات، بينهم المعلمون والمهندسون والنّجارون والخياطون والتّجار وأصحاب المهن الحرّة.

فعل هؤلاء المتطوّعون ما بوسعهم لمساعدة مجتمعاتهم في الاستجابة لعمليات القصف وحالات الطوارئ الأخرى بدءاً من أحيائهم وجيرانهم، ولم يربط تلك الفرق أو المتطوّعين أيّ رابط مؤسّساتي بالصّورة التي نراها اليوم، بل عمل الجميع في الحيز الجغرافي الموجود به دون أن يعرف حتى بالمجموعات التّطوّعيّة الأخرى التي كانت تعمل بالأحياء المجاورة، مدفوعاً بهدف إنساني بحت، لاسيما أنّ تلك المرحلة كانت بدأت تظهر فيها ملامح الحصار كسلاح عقابٍ موجّه ضدّ المدنيين، لم تقلّ بشاعة عن القصف وسحب الخدمات.

أخذت نواة العمل في محافظة حلب منحىً تنسيقياً أكبر نظّم عمل الفرق المستجيبة الأولى، وكانت حادثة منع قوات النّظام عام ٢٠١٢م، لأحد فرق الإطفاء في مدينة حلب من الاستجابة لحريق في حيّ سكّني بحجة أنّه خارج عن سيطرتها، البذرة الأولى للظهور بشكلٍ علني لأول فريقٍ مختصٍ تحدّوا قرار قيادتهم وذهبوا وأطفأوا الحريق، وبرفضهم لأوامر رؤسائهم قد صاروا أعداء للنّظام القاتل، وأنّ حياتهم أصبحت في خطر، وفي اليوم نفسه، أنشأوا مركزاً للاستجابة لحالات الطوارئ لخدمة جميع السّوريين، بالرّغم من قلة معدّاتهم، إلّا أنّ خبرتهم ومهاراتهم مكّنتهم من الشّروع في الاستجابة لعمليات القصف وإنقاذ حياة النّاس العالقين تحت الأنقاض، وهكذا كانت بذرة إنشاء أحد مراكز الدّفاع المدنيّ الأولى في محافظة حلب.

وأما في المناطق السّورية الأخرى لم يختلف الوضع كثيراً، فالقصف والنّزوح كان على أشده، وحاجة السّكان لفرقٍ تساعدُهم بات أمراً ملحاً، فتمّ إنشاء أول مركزٍ للدّفاع المدنيّ في محافظة إدلب في بلدة اليعقوبية غربي المحافظة، وخضع أعضاء الفريق للدّورات التّدريبية الأولى المقدّمة في تركيا في عام ٢٠١٣م، وفي دمشق وريفها ودرعا وحمص كانت تسير على نفس الطّريق مجموعة من المتطوّعين الشّباب يجتمعون وينشئون مراكز للدّفاع المدنيّ لمساعدة السّكان وإنقاذهم من تحت القصف بما يتوفّر لديهم من معدّاتٍ بسيطة، ولكن كان أثرهم كبيراً، وما قدّموه كان جباراً في ظلّ الظّروف على الأرض.

ثمّ بحلول عام ٢٠١٣ م، بدأت أخبار أعمال الفرق المتطوّعة بالانتشار، وسمعت هذه المجموعات ببعضها البعض لأول مرّة، نتج عنها إنشاء قنوات اتصالٍ للتّسيق بين الفرق وتبادل الموارد المحدودة، كما بدأت بعض الفرق في تلقّي دوراتٍ تدريبيةٍ في أساليب البحث والإنقاذ من خبراء، وبهذه المرحلة ذاع صيتُ هذه المجموعات المتطوّعة البطلة وعمل على دعمها العديد من المنظّمات الدّوليّة والمانحين الدّوليين من خلال تقديم معدّات الإنقاذ والإسعاف.

وفي عام ٢٠١٤ م، بدأت مناقشة موضوع توحيد هذه الجهود بطريقةٍ رسميّةٍ أكثر لتصير المنظّمة منظّمةً واحدةً تكرّس عملها في إنقاذ حياة النّاس في سوريا، وأثناء السّعي للتّنظيم والتّسيق بصورةٍ أفضل، حاصرت قواتُ النّظام عدّة مناطق في سوريا وباتت معزولةً عن بعضها بسبب تغيير خطوط السّيّطرة، ولم تتمكّن الفرق الموجودة في الشّمال من الوصول إلى تلك الموجودة في دمشق وريف دمشق وحمص ودرعا والقنيطرة.

وفي ٢٥ تشرين الأوّل عام ٢٠١٤ م، كان الاجتماعُ التّأسيسيّ الأوّل في مدينة أضنة التّركيّة، وحضره نحو / ٧٠ / من قادة الفرق في سوريا، ووضع المجتمعون ميثاقاً للمبادئ الخاصّة بالمنظّمة لتعمل تحت القانون الإنساني الدّولي، وتمّ الاتّفاق على تأسيس مظلّةٍ وطنيّةٍ لخدمة السّوريين، وإطلاق اسم "الدّفاع المدني السّوري" عليها، وشعاره من الآية القرآنية الكريمة: "ومن أحيّاها فكأنّما أحيّا الناس جميعاً"، لمساعدة جميع السّوريين بكلّ أطيافهم بحياديّةٍ وشفافيّةٍ ودون أيّ تحيّز.

ومع بداية عام ٢٠١٥ م، أُطلق اسم "الخوذ البيضاء" على "الدّفاع المدني السّوري"، بعد اشتهاار الخوذ التي يرتديها المتطوّعون أثناء عمليات البحث والإنقاذ، وما زالت أعدادهم في ازديادٍ، وما زالت الحاضنة الشّعبية تحوّلهم بالمحبّة والمودّة والقبول.

مصادر التّمويل في الدّفاع المدني:

يحصل الدّفاع المدنيّ السّوري على التّمويل عبر عدّة مصادر، أهمّها:

- ١- الحملاتُ الشّعبيةُ والتّمويلُ القادّم من الدّول والمؤسسات الإغائيّة والإنسانيّة والأشخاص.
- ٢- جمعُ التبرّعات عبر الإنترنت، والذي كان له دورٌ مهمٌّ في تطوير عمل المنظّمة، وفي حالات الطوارئ.

٣- المؤسسات الإنسانية والإغاثية المختلفة، منها: (الهلال الأحمر التركي، وهيئة الإغاثة الإنسانية التركية (IHH)، ومؤسسة قطر الخيرية، وعدة مؤسسات خيرية تعمل في كندا وأوروبا).

٤- وعلى صعيد التمويل من الدول لم يمانع الدفاع المدني السوري من تلقي التمويل من أي دولة أو جهة، لكن دون أي إملاءات أو شروط سياسية، كما لم يرفض التمويل الشخصي، من أي شخص يريد أن يساعد السوريين، دون قيد أو شرط.

أعمال الدفاع المدني السوري:

يقوم الدفاع المدني السوري بعمليات البحث والإنقاذ، كما يستجيب للحوادث والكوارث بكل أنواعها، إضافة لخدمة الرّاصد والتي تحذّر المدنيين من الهجمات الجوية، وتساهم بإنقاذ أرواحهم، كما ويسعى الدفاع المدني في المشاركة بتقديم الخدمات، مثل إعادة الكهرباء والمياه والصّرف الصحي، وإزالة جبال من ركام المنازل التي انهارت بسبب قصف النظام وحليفه الروسي، وكذا تقديم الخدمات للمدنيين المهجرين والنّازحين عبر تجهيز المخيمات وفتح طرق لها، وفرش أراضيها، والمساعدة بتحسين بنيتها التحتية، وبذل وسعهم في مواجهة الأمراض والأوبئة والحد من انتشارها، عبر الإمكانات المتاحة مع التوعية وتأمين التجهيزات الطبية والوقائية.

وكذلك كانت فرقهم المختصة تقوم بإزالة مخلفات الحرب والتخلّص من الذّخائر غير المنفجرة وتحديد أماكن وجودها.

وقد انضمت المراكز النسائية لفرق الدفاع المدني السوري، وكانت ركيزة أساسية من عمل المنظمة الإنسانية، وكانت الانطلاقة الأولى لها في الشّهر الأول من عام ٢٠١٧ م، حيث توزعت على مناطق العمل في إدلب وأرياف حماة وحلب واللاذقية، تقدّم مساعداتها في مجال الخدمات الأساسية، ك (الخدمات الطبية، وحملات التوعية عن الأمن والسّلامة للمدنيين، ودورات التّمرّيز، والتوعية الصحيّة للأهالي).

التّضحيات:

كان عمل الدفاع المدني في إنقاذ الأرواح ومساعدة المدنيين الذين يتعرّضون لقصف النظام وحليفه الروسي وتوثيقهم لهجماتهم وإجرامهم، أهمّ الأسباب التي جعلتهم هدفاً للنّظام وروسيا، عبر استهداف المراكز أو المتطوّعين بغارات مزدوجة أثناء انقاذهم الأرواح، فقد قُتل أغلبهم

بالاستهداف المباشر، أو الغارات المزدوجة أثناء عملهم الإنساني، فضلاً عن الهجمات الإعلامية المنهجية، وحملات التضليل الإعلامي؛ لاستهداف سمعة الدفاع المدني وتصوير متطوعيه كـ "إرهابيين" أو "عملاء للغرب"، والهدف من هذه الهجمات الإعلامية هو تقويض مصداقية الأدلة التي جمعها عن بعض أبشع جرائم الحرب في القرن الحالي، مثل: (الهجمات بالأسلحة الكيميائية على المدنيين، أو قصف قافلة مساعدات تابعة للأمم المتحدة، وغيرها مما يكشف إجرامهم).

لكن؛ وعلى الرغم من هذه الهجمات العسكرية المباشرة أو الإعلامية إلا أنها لم تثبط من معنويات المتطوعين، ولن تمنعهم من مواصلة عملهم الإنساني وإنقاذ الأرواح وكشف الحقيقة والمطالبة بمحاسبة كل من ارتكب جرائم بحق السوريين.

ولقد كانت تلك الخدمات والروح البطولية لفرق الدفاع المدني السوري محط إعجاب وتقدير في المحافل الدولية، ما مكّن الدفاع المدني السوري من إيصال صوت السوريين إلى العالم أجمع، ورشح الدفاع المدني السوري منذ تأسيسه للعديد من الجوائز الدولية، وحصل على أكثر من (٢٠ جائزة)، قُدمت من قبل العديد من المنظمات والمؤسسات الإنسانية الدولية حول العالم، وأهم تلك الترشيحات كان لجائزة نوبل لثلاثة أعوام متتالية، في عام ٢٠١٥ م، ٢٠١٦ م، ٢٠١٧ م، ومن بين الجوائز التي حصل عليها جائزة الأوسكار عن فيلم "الخوذ البيضاء" على منصة نتفلكس، وجائزة نوبل البديلة عام ٢٠١٧ م، وجائزة السلام العالمي عام ٢٠١٦ م، وغيرها من الجوائز.

الحلم والأمل:

يحلم متطوعو الدفاع المدني السوري باليوم الذي ينتهي فيه عملهم في سحب الجثث من تحت ركام القصف، وألا يروا الدماء والأشلاء للأبد، وأن يتحولوا لزراعة الأمل وتكريس جهودهم كلها لإعادة بناء سوريا، الوطن والمجتمع، والتي لا يمكن أن تنعم بسلام دائم إلا عندما يُقدّم جميع مرتكبي الهجمات ضد المدنيين إلى العدالة.

لم، ولن يتخلّى الدفاع المدني عن التزامه تجاه المدنيين وتأمين الاستقرار لهم، ومواصلة العمل على تقديم الأدلة والشهادات حول جرائم الحرب إلى أن تصل كل أسرة سورية عانت من الظلم إلى العدالة، وعندها فقط سيكون باب الأمل مفتوحاً للتغلب على جروح الحرب والانتقال للعيش بسلام.

المطلب الخامس: المرأة؛ ودورها في الثورة السورية:

إنَّ المتأمل في حال المرأة المسلمة السوريّة ليرى أنّها مُكرّمةٌ أيّما تكريم، وذلك من خلال ما فرض الله لها من حقوقٍ واجبة، ورفع لها من مكانةٍ عالية، ودرجاتٍ رفيعة، فجعلها شقيقةً للرجال في الأعمال والأحوال، مساويةً لهم في القدر والمكانة، كما أوجب عليها من الواجبات ما يرفع من قيمتها ويُعلي من مكانتها في المجتمع، وما يُشعرها بأنّها جزءٌ مهمٌّ في نجاحه وتفوّق أبنائه، فهي الأمُّ التي وصّى بها الخالق العظيم وجعل طاعتها بوابةً لدخول الجنة، ففي طاعتها ملءٌ لشغور الجبهة الجهاديّة التي أُكرمت بها المرأة في هذه الأمة، كما جاء في الحديث النبوي الشريف الذي رواه عبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرٍو حيثُ قَالَ: (جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْتَأْذِنُهُ فِي الْجِهَادِ فَقَالَ أَحْيِ وَالِدَاكَ قَالَ: نَعَمْ قَالَ: فَفِيهِمَا فَجَاهِدْ)^(١).

كلُّ ذلك لأتّها المدرسة الحقيقية التي تهذب الرجال، والحاضنة الرئيسيّة التي تربي الأجيال، والآلة الحيويّة التي تصنع الأبطال، وصدق شاعرُ النيل حافظُ إبراهيم عندما قال في حقّها:

الأمُّ مدرسةٌ إذا أعددتّها أعددتّ شعباً طيّب الأعراق

وما أجمل قولُ مَنْ قال: "أنت تربي ولداً فأنت تربي فرداً، ولكن أن تربي فتاةً فأنت تربي أمة".

هذا حالُ المرأة في المجتمع المسلم بشكلٍ عامٍ، وهو واقعٌ عمليٌّ عاشته الثورة السوريّة وأهلها بشكلٍ خاصٍ، من خلال ما قدّمته المرأة من بذلٍ وعطاءٍ وتضحياتٍ فاقت كلّ التّصورات في جميع الأصعدة وكافة المجالات.

كم قرأنا عن المرأة المسلمة ودورها الكبير في مقارعة الظلم والطغيان، وكم سمعنا عن دورهن في مجال الريادة والقيادة وإتقان العمل وحسن التدبير، وكم كان لهنّ البصماتُ المضيئة في نهضة الأمة وتربية الأجيال وتوعية الشعوب، بل كم قدّمن من أبنائهنّ وفلذات أكبادهنّ ليضربن أروع أمثلة الفداء والتّضحية والبذل والعطاء في تاريخ البشرية.

كنّا نسمعُ ونقرأ عن الخنساء (رضي الله عنها) التي قدّمت أبنائها الأربعة في سبيل الله؛ ليُخلّد التاريخُ ذكراها النَّاصعة المشرقة، إلّا أنّنا في الثورة السوريّة المباركة وجدنا أنفسنا بين مئات

(١)- البخاري، باب الجهاد بإذن الأبوين، رقم الحديث (٣٠٠٤)، (٥٩/٤)، ومسلم، باب بر الوالدين وأنهما أحق به، رقم الحديث (٢٥٤٩)، (١٩٧٥/٤).

الخنسوات اللاتي قدمن أبناءهن وأزواجهن وأعلى ما يملكن من متاع الدنيا، إيماناً بالله، وثقةً به وحباً له، وتقرباً منه، وطمعاً في الرفعة والأجر والمثوبة عنده سبحانه.

نعم وجدنا الخنسوات اللاتي رفعن رؤوسهن عزّة وكرامةً وشجاعةً ليبقين قدوةً ومنارةً تُزاحمُ الفرسان في ميادين الشرف والإباء؛ ليكتبن تاريخاً ستذكره الأجيال بما قدمن من صورٍ مشرقةٍ في التضحية والبذل والفداء.

لن ننسى آلاف السيدات اللاتي فقدن سندهن وشريك حياتهن، لتصبح كلٌ واحدةٍ منهنّ الرّجل المعيل لأطفالها تكابد آلام المعيشة ومصاعب الكسب بعد أن كانت سيدة مطاعةً في بيتها.

لن ننسى آلاف السيدات اللاتي فقدن أزواجهن وما زلن في مقتبل العمر؛ لتعيش إحداهنّ حياة الأرامل اللاتي لم يذقن طعم الحياة الزوجية بعد.

لن ننسى مئات العائلات اللاتي فقدن جميع أبنائهنّ في السجون والمعتقلات، وفي المعارك وتحت الرّكام، وما زلن بنفس الهمة والحماسة والإيمان تسير إحداهن على ما سار عليه أبنائهنّ إلى النصر أو الشهادة.

ولن ننسى تلك المرأة ومثلها العشرات الآتي عانت كلٌ واحدةٍ منهنّ ما عانت بحمل طفلها في بطنها قبل ولادته، ثم حملته بيدها مرّةً أخرى وقد مزّقت طائراً الحقد والإجرام بعدما انتشلت من بين الرّكام والحطام والدّمار.

لقد أثبتت المرأة السّوريّة قدرتها على الصّمود وتجاوز المحنّ والمآسي، وتحمل الصّدّات وعودتها أقوى من ذي قبل، فاقتحمت ميادين العمل الدّعويّ والتّعليميّ والتّربويّ والسّياسيّ والعسكريّ بكلّ عزيمةٍ وصدقٍ وثبات، فلم يقتصر عملها في الثّورة في مجالٍ محدّدٍ أو ضمن عملٍ معيّن، إنّما تعدّى ذلك إلى مجالاتٍ شتى وميادين واسعةٍ سطّرت فيها أروع الأمثلة في التّفوّق والنّجاح، ورسمت أجمل الصّور وأبهاها في ميادين التضحية والبذل والكفاح.

ففي مجال المظاهرات الثّوريّة: حيث كان للمرأة السّوريّة دورٌ رائدٌ فيها منذ اللحظات الأولى لانطلاقتها، وما زالت تواكب الثّورة خطوةً بخطوةً بكلّ عزّة وشجاعةٍ وإباء، من خلال المظاهرات والاحتجاجات، والاعتصامات وتوزيع المنشورات في كثير من الأحيان، ولم تُنهنّ المحنّ والمآسي عن متابعة مسيرتهنّ المباركة، ولم يمنعنّ التّحذير والتّهديد والوعيد عن حمل رسالتنّ الخالدة،

فدفعن الأثمانَ الباهظةَ في سجونِ النِّظامِ المجرمِ بما تعرَّضنَ له من تعذيبٍ جسديٍّ ونفسيٍّ لا يمكن أن يتخيَّله عقلٌ بشري.

وأما في المجال العسكري: فقد كانت المرأةُ السُّوريَّةُ الدَّاعمةَ للمرابطين في أماكن القتال، والمهممةَ للمجاهدين في ميادين النِّزال، تَبَّتْ فيهم روحَ الجهادِ والشَّهادةِ والنَّصر، وتدفعهم للتَّضحية والفداء بالنَّفْسِ والمالِ والمتاع، بل حملتِ السِّلاح، وشاركتِ الرِّجالَ في تلك المهمةِ العظيمةِ علماً أنَّها معذورةٌ من فوق سبع سماءات، فضلاً عن الأكلاتِ الشَّعبيةِ التي كانت تعدّها أمّهاتُ الثَّوار للشُّبابِ المرباطين على الثُّغور، والمطابخِ الميدانيةِ التي كانت تتشاركُ فيه العملَ مع الرِّجال.

وأما في مجال التعليم: فَلَمَّا أن تدخلَ إلى المدارسِ والمعاهدِ والجامعات، لترى المئاتِ من المدرّساتِ اللاتي لم يتأخرنَ عن تقديمِ العلمِ والمعرفةِ رغمَ الفاقةِ والحاجةِ والعُوز، ولم يُقصِرْنَ في تربيةِ الأجيالِ الناشئةِ رغمَ الصُّعوباتِ والعقباتِ، لترى آلافَ الطَّالباتِ اللاتي تحدّينَ صعوباتِ التَّهجيرِ وآلامِ التَّشردِّ في مشهدٍ تُسرُّ له النفوسُ وتطمئنُّ إليه القلوبُ؛ يقيناً منهنَّ بمستقبلٍ رائعٍ مائعٍ جميلٍ يعيد لهذه الأمّةِ عزَّتها وكرامتها من جديد.

لقد نجحت المرأةُ السُّوريَّةُ في قيادةِ مهمّةِ التَّربيةِ والتَّعليمِ في البيتِ والمجتمعِ متحديةً كلَّ المآسي والمحنِ لتصنَعِ الجيلَ الواعدَ الواعي لقضايا أمته وتغرسَ فيه العقيدةَ الصَّحيحةَ والقيمَ السَّاميةَ والأخلاقَ الحميدةَ الرَّاقيةَ.

وأما في مجال الصَّحةِ والطبابةِ والإسعاف: فلقد كانت المرأةُ السُّوريَّةُ سبّاقةً في مجال الطبابةِ والتَّمرّيزِ والإسعافاتِ الأولىّةِ وخدمتها للأهل والمجتمع والبلد، حيث شهدتُ لهنَّ المستشفياتُ والمستوصفاتُ بالعمل الدَّؤوب والنَّشاط المستمر، فكان منهنَّ الطَّبيباتُ الماهراتُ العاملاتُ، وكان منهنَّ الممرّضاتُ المخلصاتُ والمسعفاتُ النّشيطات، وكان منهنَّ المدرّباتُ والمتدريّباتُ صاحباتُ المهمّةِ والعزيمة، وما زالت الجامعاتُ والمعاهدُ تُخرِّجُ منهنَّ لترفدَ العملَ الميداني حتى وصلَ أعدادهن إلى المئاتِ والآلاف.

وأما في مجال الإعلام: فلقد لعبتِ المرأةُ السُّوريَّةُ دوراً متميّزاً وجريئاً نظراً للواقع الذي كانت تعيشه قبل الثَّورة من محدوديّةِ دورها واقتصاره على صناعةِ الطَّعامِ والشُّرابِ وترتيبِ المنزل، ففي الثَّورة السُّوريَّةِ وجدتُ فرصتها لترفعَ صوتها بالحقِّ، وإيصالِ أصواتِ أهلها وأبناء بلدها من المظلومين والمستضعفين، وترسمَ صورةَ مجتمعها وحالِ أهلها بحياةِ النِّزوحِ والتَّشردِّ والقهرِ

وقسوة المخيمات، كما نزلت إلى الساحة الميدانية وعملت بالتوثيق ونقل أخبار المعارك وشاركت بالمنتديات الفكرية والثقافية وحضرت الدورات الإعلامية ودخلت الأكاديميات المتنوعة حتى تصدرت شاشات القنوات الفضائية، وملأت كتابتها الصحف والمجلات، وزاحمت الرجال في الإعلام في المعاهد والجامعات، متحديّة كل حواجز الخوف والتهديد، محافظة على قيمها الرأقية ومبادئها السامية.

وأما في مجال الدفاع المدني: فلقد كانت من السابقين في هذا المجال التكافلي الرائع، فافتحمت ساحات الموت لانتشال الجرحى والمصابين وإنقاذ الأطفال والشيوخ والمعاقين، في واقع أليم أظهرت فيه المرأة السورية القوة الروحية وأبدت الشجاعة والهمة القوية التي لم يمتلكها الكثير من الرجال بما قدّمته من الخدمات الطّبيّة والصّحيّة للأهالي، وحملت التوعية عن الأمن والسلامة، ودورات التمريض، وغيرها مما يحتاجه الناس.

وأما في المجال الخيري والإنساني: فلقد كان دور المرأة فيه دوراً متميزاً عن غيره في قيادة العمل المجتمعي والخدماتي، وفي المجالات التنموية العامة لمواجهة صعوبات الحياة، فقد وضعت بصمتها الرائعة بما تميّزت به من سمات شخصية وصفات عاطفية، وبما حملت في قلبها من حنان ورحمة وعطف وإحسان تفوق الرجال في تعاطفها مع الأرمال والأيتام وخدمة الشيوخ والمصابين والمعاقين، وتزاحمهم في أعمالهم من خلال منظمات خيرية وهيئات نسائية ولجان تطوعية في مجالات الخدمات والأعمال الإنسانية كافة، فكانت المرأة تعمل في خدمة الأسر الفقيرة والمنكوبة، ورعاية الأرمال والأيتام، وجمع التبرعات والأموال، وإقامة الندوات الفكرية والملتقيات التوعوية، والعمل على تنمية القدرات والمواهب.

ولم تتخلف المرأة السورية عن العمل فيما يتناسب مع طبيعتها الأنثوية، فعملت في الخياطة والحياكة والأشغال اليدوية والتطريز، وأقامت معارض رائعة في مجال أعمالها وإبداعاتها، وعملت في التعليم والتربية وتنشئة الأجيال ورعاية الأرمال والأيتام، كما عملت في بعض المراكز التجارية والزراعية والطبية وصناعة الأدوية والمنظفات والمعطرات لتكفي أبناءها وتستتر حال أسرتها وتقدم أفضل ما عندها من مهارات وخدمات منطلقاً من شعورها الإيماني الذي يدفعها للأعمال الخيرية ويشجعها عليها، ومن خلال شعورها بإنسانيتها ومشاركتها لأهلها وأبنائها وأهل بلدها في التحمل معهم والتخفيف عنهم.

وأما في المجال السياسي: فما إن بدأت الثورة السورية حتى فتحت أبواب السياسة المحظورة، وكانت النساء ممن دخلن فيها وإن كنَّ حديثات عهدٍ بذلك، لكن ومع كل ذلك فقد خاضت تجربة جيدة في هذا المجال مع تمسكها بمبادئها وثوابت دينها.

كما خاضت المرأة السورية معارك ضارية في مقارعة النظام الفاجر وملاحقته مع رموزه في المحافل الدولية لمحاسبتهم واستجلابهم للعدالة بما ملكت من إمكانيات العمل القضائي لتكبيله وتقييده بالأدلة القاطعة على إجرامه دون كللٍ ولا ملل.

أثمان الحرية والكرامة:

لقد أثبتت المرأة السورية قدرتها على الصمود وتجاوز المحن والمآسي وتحمل الصدمات، وعادت أقوى من ذي قبل فاقتحمت ميادين العمل الدعوي والتعليمي والتربوي والسياسي والعسكري بكل عزيمة وثبات، وقدمت أبهى الصور وأسماها لنيل الحرية والكرامة لها ولأبناء بلدها مهما كانت الأثمان ومهما بلغت التضحيات، بما فيها حياة التهجير والتشرد في المخيمات وحياة اللجوء الصعبة، وبما فيها حياة الفقر والحاجة والحرمان والعوز وفقدان أدنى مقومات الحياة، وبما فيها الاعتقال والتغيب القسري في السجون الذي مارسه النظام المجرم لما يعلم من حساسية ذلك الموضوع في المجتمع السوري وما قد يلحق بالمعتقلات السوريات من تبعات قاسية لهن ولأهلهم بما يتعرضن له من تهديد وتعذيب واغتصاب أمام أزواجهن أحياناً لانتزاع اعترافات وتسجيل فيديوهات وعمليات ابتزاز مهينة من نظام قذر لا يعرف للإنسانية طريقاً ولا يجد للأخلاق مسلكاً.

أخيراً:

لقد أثبتت المرأة السورية أنها صاحبة رسالة عظيمة وأمانة كريمة كانت أهلاً لحملها وتحمل عقباتها مهما عظمت، كانت رافعة الجهد في المجتمع بما فيه من منغصات، فربت أبناءها على العبادة والطاعة، وعلى الصبر والثبات والرضى والتسليم بقضاء الله، وزرعت فيهم الأمل ونمت فيهم بذور الإيمان: ليبقى كلٌّ منهم متمسكاً بروح التفاؤل وجميل الأحلام في بناء مستقبل واعدٍ جميل قائم على المحبة والمودة والتكافل الاجتماعي، يأخذ كلُّ دوره في تأدية واجباته تجاه أهله وبلده وأمتة.

المطلب السادس: المنظّمات العاملة في السّاحة السّوريّة وأدوارها المتباينة:

تمهيد:

من المسلّم به أنّ الدّول تقوم على ثلاثة أركانٍ، هي: الأرض، والشّعب، والسّلطة، وبقدر ما تكون السّلطة الحاكمة قادرةً على تحقيق الأمن والعدل بقدر ما يرتقي الشّعب في سلّم الحضارة والازدهار، وقد لا يكون ذلك مع توقّر الثّروات والإمكانيّات الماديّة عند تغييب الشّعب وإشغاله فيما لا نفع منه مع عدم اكتراث الحاكم إلا بما يضمن له سلطته ويحقّق له مصالحه الشّخصيّة.

ومن علامات نجاح المجتمعات تنظيم العمل المؤسّساتيّ في المعاملات والعلاقات العامّة القائمة على المحبّة والمودة وأسس التعاون والتّكافل المجتمعيّ، ويزداد هذا النّجاح تألّقاً ويصل إلى ذروته عندما يكون العمل جماعيّاً منظّماً ضمن أطرٍ مدروسة ومنضبطة، يعلم كلّ فردٍ من أفراد المجتمع ما عليه من واجباتٍ تجاه غيره فيسارع إلى تأديتها، وما له من حقوقٍ عند غيره فيتنازل عنها أو يطلبها بعفافٍ واف.

وقد كانت المنظّمات الإنسانيّة من مظاهر التّعاون والتّكافل الاجتماعيّ التي قدّمت الكثير وخفّفت من معاناة الشّعب في كلّ المجالات وعلى جميع الأصعدة.

ومن المفيد هنا أن نعرض بعض المعلومات عن تعريفٍ بالمنظّمات وأعمالها، وما اعترضها من اختراقاتٍ وتصرفاتٍ أساءت إليها وإلى سمعتها في بعض جوانبها، وذلك من خلال المحاور التّالية:

تعريفُ المنظّمة: هي مجموعةٌ من الأفراد لهم هدفٌ معيّن يستخدمون طريقاً أو أكثر للوصول إليه.

فمثلاً هناك منظّمات إنسانيّة، ومنظّمات إغائيّة، ومنظّمات طبيّة، ومنظّمات تعليميّة، ومنظّمات بيئيّة، ومنظّمات عماليّة،

وتعتبر المنظّمة شخصيّة اعتباريّة لها كيانها المستقل عن الأفراد المكوّنين لها، وتدارّ بواسطة مجلس إدارةٍ منتخبٍ بواسطة الجمعية العامّة للأعضاء.

أنواعُ المنظّمات: تنقسم المنظّمات باعتبار المكوّنين لها إلى نوعين:

١- منظماتٌ دوليةٌ: وهي الهيئاتُ والمؤسساتُ التي يتكوّن منها المجتمعُ الدوليُّ وتشاركُ في تفعيلِ إرادة الجماعةِ الدوليّة، وتقومُ على هيكلٍ إداريّ وتنفيذيٍّ ضمن إدارة مجموعةٍ من الأشخاص الاعتبارية.

وتتشكّل تلك المنظمات من اتفاق عدّة دولٍ أو انضمام مجموعةٍ من الدولِ إلى ميثاقٍ أو اتفاقيةٍ معيّنة بإنشاء وعمل المنظمة، وهي إمّا:

أولاً: منظماتٌ عالميّةٌ عامّة، مثل: منظمة الأمم المتحدة.

ثانياً: وإمّا منظماتٌ عالميّةٌ متخصصة، مثل:

• منظمة اليونسكو: تابعة لمنظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة.

• اليونيسف: تابعة لمنظمة الأمم المتحدة للطفولة.

• منظمة الصحة العالمية: تابعة لمنظمة الأمم المتحدة في المجال الصحي.

• الانتربول الدولي: أو المنظمة الدولية للشرطة الجنائية، لمكافحة ومنع الأنشطة الإرهابية عبر الكشف عن هوية أعضاء الشبكات الإرهابية.

• منظمة التجارة العالمية: تقوم بإجراء مفاوضات واتفاقيات تجارية بما يخصّ البضائع والخدمات والملكيّة الفكرية، وتسوية المنازعات التي يمكن أن تنشأ بما يخصّ التجارة بموجب مذكرة تفاهم لتسوية المنازعات لضمان تدفق التجارة بسلاسة، وبناء وتقوية القدرة التجارية عن طريق اتفاقيات وفرض التزاماتٍ على الدول لتوسيع تجارتها وخصوصاً في الدول النامية.

ثالثاً: وإمّا منظماتٌ إقليميةٌ عامّة: ك (جامعة الدول العربية، والاتحاد الأوروبي، ومنظمة الوحدة الأفريقية، ومنظمة المؤتمر الإسلامي، ومجلس التعاون الخليجي، أو إقليمية متخصصة كمنظمة الأوبك).

٢- منظماتٌ حكوميّةٌ وطنيّة: وتنقسم إلى قسمين:

• منظماتٌ حكوميّة: تُنشأ الدولة ضمن حدودها، وهي من تدعمها وتقوم بإدارتها وتحت إشرافها، وهي من تضع نظامها وبرنامجهما وخطة عملها، وهي من تقوم بتوظيف أعضائها والعاملين فيها.

• منظمات غير حكومية:

وتُسمى "منظمات المجتمع المدني": وهي مجموع المنظمات غير الربحية، وغير الحكومية، المستقلة تماماً عن السلطة السياسية والتي يتم تأسيسها على يد أفراد أو جماعات لديهم؛ رغبة في تكريس أنفسهم للعمل الإنساني دون السعي خلف الأرباح، وهي مُهتمة بالطابع الإنساني، تمارس عملها لتحقيق هدف معين تعاوني أو خدمي، تقوم على أساس المواطنة، والعمل التطوعي، تحصل على تمويلها من التبرعات والاشتراكات والإعانات.

تهتم هذه المنظمات بتحسين حياة الفرد وتطوير سبل الحياة أمامه من خلال الاهتمام بالتعليم والصحة وغيرها وفق برامج مدروسة ومعدّة بدقة، وفي هذا البحث سأتكلم عن منظمات المجتمع المدني التي كان لها النصيب الأكبر في العمل التطوعي والإنساني في الساحة السورية.

أين نحن من منظمات المجتمع المدني:

لم نسمع بهذا المصطلح قبل الثورة، ذلك لأنّ النظام الأسدّي المجرم كان قد غيّب أفراد المجتمع عن أيّ أمرٍ خارج نطاق نظامه، بل كان يعتبر ذلك من الموبقات التي قد تؤدي بصاحبها إلى حبل المشنقة، حتى إذا كانت الثورة السوريّة المباركة وما أصاب النّاس من تبعاتٍ قاسيةٍ أفقدتهم أموالهم والكثير من ممتلكاتهم وألجأتهم للحاجة وطلب العون والمساعدة، فكانت المبادرات للعمل الجماعي والتكاتف الأسري ومدّ يد العون وجسور المحبة والتعاون، فنشأ ما يسمى بالتنسيقيات ثمّ المجالس المحليّة التي لعبت دوراً جيداً في هذا المجال، وقد نجحت إلى حدٍ كبيرٍ بدايةً تشكيلها بما قدّمت من دعمٍ وخدماتٍ متواضعة، لكنها مع الرّمن والحاجة الملحة والكبيرة بقيت مرتبهةً للدّاعم، وهو ما قيّد لها عملها نوعاً ما، فضلاً عن دخول المنظمات الدّوليّة تحت عنوان الدّعم الإنساني وتوابعه، حيث بدأت بإقامة المؤتمرات وورشات العمل وطرح الأفكار والمشاريع وتقديم الأموال الدّاعمة فاستدعت الكثير من شباب الدّاخل السوري إلى دول الجوار (مصر والأردن ولبنان وتركيا ...) حيث حياة الثّرف في الفنادق بعيداً عمّا يعيشه إخوانهم وأهلهم، ووضعهم تحت الدّراسة والاختبار والمراقبة وأوكلت إليهم دراسة الواقع السوريّ وكتابة تقارير عنه وما يحتاجه من دعمٍ يسدّ رمق المحتاجين من أهلهم، مع الأخذ بعين الاعتبار عدم التّدخل بالأمور السياسيّة والعسكريّة وعدم التّعامل بشيءٍ من ذلك.

وبالتأمل البسيط لهذه المعادلة نجد أنّ المنظمات الدولية نجحت في أمورٍ تريد الوصول إليها ضمن مشاريعها المغلفة التي لم تكن لصالح الثورة، ولم يكن الثوار على درايةٍ منها، وهي:

١- نجحت في استقطاب الكثير من الكفاءات العلمية من شباب الثورة في غير مجالات عملهم وأبعدتهم عنها تماماً.

٢- نجحت في إخراج الكثير من بلدهم المنكوب ليصبحوا موظفين في مؤسساتهم ويعملون لصالحهم بغض النظر عما يقدمونه من أمورٍ ومساعدات.

٣- نجحت في إبعاد الكفاءات عن العمل السياسي والعسكري الذي خرج من أجله بدايةً لتحرير أرضه وعرضه، وجعلته شرطاً لنجاح العمل واستمراريته.

٤- ولعلّ من أخطر الأمور التي قد لا يُنتَبَه إليها في أماكن عمل المنظمات الدولية هو التركيز على التوظيف الأنثوي برواتب مغرية وبنسبٍ أكبر من التوظيف الذكوري؛ لصرفها عن أداء دورها في التربية الأسرية وتنشئة الأطفال ومتابعتهم في بناء الأجيال؛ ليضمنوا بذلك فساد المجتمعات وانحلالها.

ومن هنا فقد لعبت المنظمات الدولية دوراً سلبياً من خلال استقطاب الكفاءات كموظفين يخدمونها وينفذون أجنداتها مضطرين لسياستها، ومبعدين عن الجانب السياسي والثوري الذي خرجوا لأجله.

منظمات المجتمع المدني:

بنظرة متواضعة إلى تعريف منظمات المجتمع المدني نجد أنّ الإسلام قد سبق الجميع في بناء تلك القيم والمبادرات للدعوة إليها والتشجيع عليها وتبشير من سارع إليها بدءاً من إدارة الحياة التعاونية في شعب أبي طالب في مكة المكرمة، وصولاً لما سارع إليه أهل الخير من السوريين وأصدقائهم من العرب الأوفياء، وهذا ما كان واضحاً من خلال طبيعة تصرفات بعض المنظمات العاملة في الساحة السورية وخطتها، فلقد كان الشعب السوري واعياً متفهماً لما يدور حوله، وكانت المنظمات الأخرى تسد وتغطي الكثير من حاجات الناس، إلا أنّ المأساة السورية كانت أكبر بكثير، ولا تكفيها منظمات بمفردها، بل تحتاج لدولٍ بأكملها، فضلاً عن بعض التجاوزات التي اعترضتها وحرفت مسارها المسلكي والأخلاقي في بعض شخصياتها.

منظمات المجتمع المدني السوري بعد الثورة:

لم يكن الشعب السوري بحاجة لمن يقدم له المساعدات المادية والإغاثية بدايةً، لكن في أواخر عام ٢٠١٣ م، ومع اشتداد القصف الهمجى والصواريخ المدمرة للأحياء السكنية في المدن والقرى والمحافظات السورية ظهرت الاحتياجات وضرورة مد يد العون والمساعدة للناس الذين باتوا بالعراء وتحت أشجار الزيتون، حيث سارعت منظمة الإغاثية الإنسانية التركية (Ihh) التي كانت أول المنظمات العاملة في الساحة السورية، ثم مع استمرار المأساة السورية وعدم الجدّة الدوليّة بحلّ الأزمة دخلت عشرات المنظمات إلى الدّاخل السوري لتبدأ نشاطات واسعة تقدّم فيها الكثير من الاحتياجات اللازمة للشعب المنكوب، ومن تلك الجمعيات على سبيل المثال: (جمعية عطاء للإغاثية الإنسانية، وجمعية شفق، والأيدى البيضاء، والبنفسج، وغيرها من الجمعيات السوريّة الكثيرة ..)، وهنا أرى من الإنصاف أن نذكر أوجه عمل المنظمات ودوافعها وما قدّمته للساحة السوريّة إيجاباً وسلباً.

إيجابيات عمل المنظمات:

- ١- التخفيف عن الناس المنكوبة في الظروف القاهرة وعند الجوائح والأزمات.
- ٢- إيجاد فرص عمل لأصحاب الحاجة وإخراجهم من دائرة الفقر والحاجة من خلال تأمين مشاريع صغيرة محدودة.
- ٣- دفع العملية التعليمية وفتح باب العلم أمام ذوي الحاجة من الراغبين في تلقي العلم.
- ٤- تشجيع أصحاب المبادرات والمهارات بفتح مشاريع إنتاجية تفتح أمامهم آفاقاً تجارية واسعة.
- ٥- تأمين فرص عمل كبيرة لأصحاب الشهادات والكفاءات وحصر عملهم في الدّاخل السوري منعاً لهجرة العقول.

سلبات عمل المنظمات:

- ١- الاختراق الأمني الذي حوّل مسارها الإنساني إلى مخبراتي.
- ٢- انتقاء العاملين في المنظمات على وفق معايير تناسب الجهات الدّاعمة بعيداً عن أهداف المنظمة الحقيقية المعلنة.

- ٣- تفشي الفساد الإداري ضمن بعض المنظّمات وعدم وجود الرقابة.
- ٤- انتشارُ المحسوبيّات في التّوظيف والإدارة على أساسِ مناطقيّ أو فكريّ بعيداً عن الخبرة والكفاءة.
- ٥- غيابُ المسؤوليّة في صرف الأموال التي استُجلبت لصالح الثّورة في غير مكانها.
- ٦- الخللُ في توزيع الإغاثات وعدم وصولها إلى مستحقّيها أحياناً، وبروز الابتزاز في كثيرٍ من الأحيان.
- ٧- عدمُ وجود الخبرة الإدارية لعمل المنظّمات فتح الطّريق أمام الفاسدين للوصول لرئاسة بعض المنظّمات، إضافةً لأساليب التّسلّق والتّزلف والخداع التي أبدعوا فيها.
- ٨- تعويدُ اللاجئين والنّازحين على التّوكل والتّكاسل عن العمل وربطه بالسّلة الإغاثيّة، وتحويلهم إلى مجرد متسرّلين فقدوا الحياء الذي كانوا يتجملّون به.
- ٩- الصُّور التي تؤخذ بحجة التّوثيق في كثيرٍ من الأحيان كانت مهينةً لشعبٍ قدّم وبذل وأعطى وضحيّ بكلّ ما ملك.
- ١٠- أغلبُ المنظّمات مرتبهةٌ لمنظّمة الأمم المتّحدة وتعمل ضمن خططها أو للدُّول الدّاعمة، وهذا السّبب الذي يفرّغها من مهمّتها الأساسيّة.
- ١١- الدّور السّلبّي الذي لعبته المنظّمات في ربط مصير النّاس بهم بما تقدّمه لهم من فتاتٍ بسيطٍ دون أنْ تمكنهم من الحياة بشكلٍ يؤمّن لهم مصدرَ رزقهم والحفاظَ على كرامتهم على مبدأ: (لا تعطيني سمكةً، ولكن علّمني كيف أصطاد).

توصيات:

بعد سبر الخلل الذي أصاب عمل المنظّمات الإنسانيّة بالرّغم من أهدافها الرّاقية التي تسمو بها على كلّ المؤسسات العاملة كان لا بدّ من الإشارة والتّركيز على بعض النّقاط للتّصويب وتصحيح الخلل، وخاصةً أنّها (أي المنظّمات) حلقةُ الوصل الرّئيسيّة بين الشّعب والقيادة السّياسيّة للدّولة والتي يمكن أن يكون لها البصمات الرّائعة في المجتمعات، من خلال تنظيم مؤسسات المجتمع المدني التي تسارع لتجميع الشّعب ضمن روابط مهنيّة واجتماعيّة وفكريّة وعملية من خلال إدارات بشكلٍ مدروسيٍّ ومسؤولٍ بكفاءاتٍ صاحبة أمانةٍ وعلمٍ وخبرةٍ وتقوى لإيصال

المستحقّات إلى أصحابها الحقيقيين بعيداً عن المحسوبيّات والشّخصنة والنّزعات الشّيطانيّة، مع الحرص والتّذكير بمقوّمات النّجاح في الأعمال المجتمعيّة التي تتجلّى في:

١- الفكر والتّخطيط السّليم.

٢- الإرادة الحقيقيّة لتنفيذ الخطط.

٣- الدعم المادي لإقامة المشاريع.

فالفكرة الصّحيحة أولاً، والإرادة ثانياً، وأخيراً المال، وقد علمتنا سنوات الثّورة الطّويلة أنّ الفكر السّليم والإرادة الصّلبة إذا اقترنا يصنعان الحلول ويصنعان المال، ولكنّ المال مهما كثر لا يصنع فكرة ولا يولّد إرادة، كما علمتنا أنّ الحلول التي لا نصنعها بأيدينا لا يمكن أن تكون أبداً لمصلحتنا^(١).

(١)- بحث منظمات المجتمع المدني الجذور والواقع والمستقبل، محمد علي نجار، مجلة مقاربات.

المبحث الثاني عشر

الثَّورَةُ السُّورِيَّةُ؛ صفحاتُ ناصعة، وتاريخٌ مُشرق

الثورة السوريّة؛ صفحات ناصعة، وتاريخ مُشرق

من خلال قراءة واستعراض الثورة السوريّة وما مرّت به من مراحل كانت صعبةً وقاسيةً ومؤلمةً بكلّ المقاييس وعلى جميع الأصعدة والمجالات كافةً، لكتّها بنفس الوقت كانت ضروريّةً لأسباب كثيرة نحن بحاجة إليها؛ لأخذ الدروس والعبر، وبما فيها من صفحات مضيئة مشرقة، ومواقف مشرّفة سيخلدها التاريخ في صفحاته، وسيدكرها العالم في وقفاته وأحداثه، وستبقى منارات مضيئة على مدى الدهور والأزمان، ويمكن أن نجمل بعضها فيما يلي:

١- الثّبات على المبادئ والقيم: امتثالاً لقول الله سبحانه: ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣]. وهذا لا يحتاج إلى شرح ولا إلى توضيح، فصفحات الإعلام المتنوعة مليئة ببطولاتهم وثباتهم وشجاعتهم في كلّ الميادين الثوريّة والعسكريّة.

٢- خنساوات الثورة قوّة دافعة: وهنّ اللواتي ضربن أروع الأمثلة في الصبر والثبات والقوّة الرُوحية والثقة بالله واليقين بنصره سبحانه، في وقتٍ زاغت فيه الأبصار وبلغت فيه القلوب الحناجر من الخوف، فقدّمنّ فلذات أكبادهن استجابةً لأمر الله تعالى وحبّاً برسول الله صلى الله عليه وسلّم.

٣- أطفال الثورة بناءً الأُمّة وجيل المستقبل: وهم الذين تربّوا وترعرعوا تحت شظايا البراميل المتفجّرة والصّواريخ المدمّرة، وألسنة الموت المحيط بهم من كلّ جانب، وأيديهم تحمل المصاحف فيما تعلّقت قلوبهم بكتاب ربهم، حتى حفظوه وأتقنوه ليكونوا رجال المرحلة المقبلة وبناءً الأُمّة وعماد قوّتها في مستقبلها.

٤- الإيثارُ تاج الأوفياء: وقد تجلّى ذلك بأبهى صوره من مواقف البذل والوفاء والتّضحية والعطاء، وجميع صفات التّكافل والفداء بين أبناء الشعب السوريّ الكريم في أوقات الحاجة والفاقة والعوز التي طالت الجميع، فكانوا مثلاً عملياً لقوله سبحانه: ﴿يُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

٥- تميّز في الإدارة، وتألق في الأبداع: فقد أظهرت هذه الثورة من الكفاءات المتنوعة، والقامات المبدعة، والشخصيات النّاجحة، والطّاقات المتميّزة، التي أبدعت في إدارة الأزمات بإيجاد طرق

العيش والتكليف مع الواقع بما فيه من مصاعب ومآسٍ وتحدياتٍ لتخفف منها وتزيل عقباتها لتبقى ضمن المقدور والاستطاعة.

٦- رجالٌ صامدون، وشبابٌ رائعون: فكم أظهرت هذه الثورة من شبابٍ خفيفي الدم (كما يُقال)، من أصحاب الطُرف الجميلة والنُكت الطريفة في أقسى الأحوال وأصعب الأوقات؛ ليزرعوا البهجة والسُرور ويدخلوا الفرح والحبور إلى قلوب أهلهم وإخوانهم، ويُنسوهم الواقع الأليم الذي أحاط بهم من كل جانب، وكم أسمعوهم من الأهازيج الثورية الجميلة التي تحاكي الواقع الصَّعب بأسلوبٍ شيقٍ جذابٍ.

٧- إعدادٌ لا يعرف الملل، واستعدادٌ لا يقبل الرُّل: فكم كنّا بحاجةٍ للترقي في سُلّم البلاء والابتلاء والتَّحمُّل لإعادة بناء أنفسنا وتأهيلها لمرحلةٍ جديدةٍ قد تكون أشدَّ قسوةً لا يحتملها إلا الرِّجال؛ لنكونَ من أبناء هذه المرحلة، نعيد للأمة عزَّتها وكرامتها، بل كم كنّا بحاجة لتقييم أنفسنا في زمن الشَّدائد والمحن، ومدى تفاعلنا مع المنكوبين من المستضعفين من أبنائنا وأهلينا، ومدى استعدادنا لما قد يكون بعد تلك المرحلة؛ لنضع البصمات التي ترفع من شأننا في الدنيا والآخرة.

٨- تصويبُ البوصلة بعد انحرافها:

يكفي في ذلك أن نتذكَّر كيف كان بعضُ شبابنا قبل الثورة غارقين في مستنقعات الانحراف السلوكي ووديان الانحلال الأخلاقي الذي كانوا يُسيِّرون إليه، لا يعرفون إلى المساجد طريقاً، ولا إلى مجالس العلم والمعرفة مسلَكاً، وكيف أصبحوا اليوم من رجال المعارك وأبطال الميادين، مدافعين عن دينهم وعرضهم وأرضهم، لا تجد للخوف في صدورهم مكاناً، ولا للظالم هيبةً واحتراماً.

٩- مَنْ صَبَرَ عَلَى المَحَنِ والبَلَايا ظَفَرَ بِالْمَنْحِ والعَطَايا:

وكم كنّا بحاجةٍ لنعيشَ أياماً صعبةً قاسيةً، كما عاشها قبلنا الحبيبُ المصطفى صلَّى الله عليه وسلَّم وصحابته الكرام، فصبروا وصابروا واحتسبوا حتى نالوا الكرامةَ والفتحَ والنَّصرَ لهم ولأُمَّة الإسلام من بعدهم... ونحمد الله سبحانه أن عشنا تلك المواقفَ الصَّعبةَ واستشعرنا قساوتها وآلامها؛ لنكون من أحبابه وأتباع هديه وسنته.

لقد أدرك الشَّعب السُّوريُّ بأنَّ للحرية ثمناً لا بدَّ أن يُدفع، وللكرامة ثمناً لا بدَّ أن يُعطى، وللحرَّة ثمناً لا بدَّ أن يُقدَّم، وأنَّ الشَّعب السُّوريَّ البطل كان أهلاً لكلِّ ذلك والحمد لله.

تلك هي ثورة الشّام وما أنتجتُهُ من إنجازاتٍ ترتقي بها إلى أعظم ما وصلت إليه أفضلُ الثّورات في تاريخ البشريّة؛ لأنّه ينظر إليها على أنّها: فكرةٌ ناضجةٌ، نضجت بالصّبر والمصابرة، بالصدّق والإخلاص، بالعطاء والتّضحية والفداء، فأثمرت رجالاً أبطالاً، وشباباً شجعاناً، ونساءً فضليات، أنجبنَ فتیاناً آمنوا برّهم وزادهم هدى.

يُنظر إليها على أنّها فكرةٌ، والفكرةُ لن تموت مهما طالّت مسيرتها، فالفكرةُ الصّادقةُ لن تموت، ولو مات أصحابُها فسيخلفهم الأحفادُ الذين تربّوا على لبان العزّة والكرامة والحرية.

يُنظر إليها على أنّها ثورةٌ شعبٍ حرٍّ كريمٍ صابرٍ صامدٍ ثابتٍ مغوارٍ معطاءٍ، قدّم التّضحيات الجسام، وروّى ترابَ أرضه بدماء أبطاله العظام من الشّهداء الجرحى والمصابين والمعاقين.

يُنظر إليها على أنّها أعظم الثّورات في تاريخ البشريّة من حيث أهدافها، ومن حيث مقومات نجاحها، ومن حيث مَنْ قام بها، ومن حيثُ من قامت عليهم وضدّهم.

يُنظر إليها على أنّها ستنبئ وروداً تشتمُّها الأجيالُ على مرِّ التّاريخ والدّهور في الحاضر والمآل، وستنتج أزهاراً من حافظاتٍ للقرآن وحاملاتٍ للعلم والمعرفة ودعاةٍ للبر والخير والإحسان.

يُنظر إليها على أنّها طريقُ الخلاص من الجبابرة والجلادين، وبوابةُ القضاء على الفساد والمفسدين، وسبيل النّصر على الطّغاة والمجرمين؛ لأنّها ثورةٌ عزّة وكرامةٍ وحقٍّ وعدلٍ وتضحيةٍ وفداء.

نعم، هي ثورةٌ كرامةٍ كما سمّاها ثوّارُها الأوائل في جمعتهم الأولى (جمعة الكرامة)، وهي ثورةٌ حريةٍ وعزّةٍ وإباءٍ بما انتزعتُ حرّيتها انتزاعاً من العصابةِ الأسديةِ المجرمة.

وهي ثورةٌ حقٍّ في مواجهةٍ كفرٍ وباطل، وثورةٌ عدلٍ في مواجهةٍ ظلمٍ وفجور، وثورةٌ تضحيةٍ وفداءٍ في مواجهةٍ استبدادٍ واستكبار.

هي ثورةُ الياسمين التي فاحت بعطرها أنحاء العالم كلّهُ، فساحَ في أرجائه عبقاً طاهراً وريحاً طيّبةً.

نعم لقد كانت ثورة الشّام المباركة ضدّ سفاح الشّام ونيرون دمشق، بل كانت ثورة ضدّ ضباع العالم كلّه وذئابه المجرمين الذين تجرّدوا من الأخلاق والإنسانيّة عندما وقفوا مع طاغية الشّام وساعدوه في إجرامه.

لم تكن ثورة الشّام المباركة ثورة سلاح فقط وإنّ كان السّلاح جزءاً اضطرارياً فيها؛ للدّفاع عن الدّين والأرض والعرض، وإنّما كان سلاحهم صوت الحقّ الذي امتلكته الجماهير ورفعته بكلّ قوة وشجاعة، فصنعوا الثّورة وحافظوا عليها قويّة جيّارة.

لم تكن الثّورة السّوريّة ثورة جيل واحد، وإنّما كانت ثورة أجيال، ثورة شعبٍ طلب الحريّة فانتزعها انتزاعاً ليورثها للأولاد والأحفاد؛ ليرفعوا في البلاد رايات الحريّة والكرامة والرّشاد.

يكفي الثّورة السّوريّة: أنّها أوقفت التّمدّد الشّيعيّ وفضحت مشروعه في العالم العربي والإسلامي.

يكفي الثّورة السّوريّة: أنّها كشفت تآمر الدّول التي تدّعي الحريّة وحقوق الإنسان، وفضحت عمالة الحكام المأجورين الذين باعوا شرفهم وضميرهم لمحتلّ مجرم غادرٍ ومستعمرٍ لئيمٍ فاجر.

يكفي الثّورة السّوريّة: أنّها أظهرت حقيقة مجلس الأمن في تخاذله وتواطئه، وفضحت كذب الأمم المتّحدة التي تدّعي الحريّة وتتغنى بالديمقراطية وحقوق الإنسان.

يكفي الثّورة السّوريّة: أنّها كشفت الوجه الحقيقيّ القبيح للجامعة العربيّة وانتزعت قناع أعضائها المزيّفين لتظهرهم خونة وعملاء ومأجورين.

يكفي الثّورة السّوريّة: أنّها كشفت اللصوص والمجرمين الذين تسلّطوا على أرزاق المساكين والمستضعفين، وفضحت الكثير من المرتزقة والمتسلّقين الذين دلّسوا ونافقوا حتى استحكموا برقاب النّاس الأمنين.

يكفي الثّورة السّوريّة: أنّها امتلكت رجالاً يعشقون الموت من أجل كرامتهم وحريّتهم، رجالاً أحراراً صادقين، شرفاء نذروا أنفسهم لتحرير الأرض والعرض والإنسان والدّين.

يكفي هذه الثّورة السّوريّة: صحوّة أبنائها من غفوتهم التي كادت تودي بهم إلى الهلاك المؤكّد، فأصبحوا أمل الأُمّة في انتشالها من براثن الطّغاة، والسّيّاح المنيع لغطرسة المحتلّين والغزاة،

والأمل الواعد في استعادة عزّ البلاد إلى مجدها الزّاهي بعدما أضاعه العملاء المأجورون، وعبث فيه الخبثاء والمنافقون، وتغافل عنه أهله النائمون والمُعفلون، وسكت عنه دعاة العلم المزيّفون.

ومع كلّ هذا فقد تعثّرت الثّورة في بعض مراحلها، ولكنّها لم تتوقّف، ولن تعلن استسلامها وفشلها، بل ازدادت إصراراً وثباتاً واستفادت من الأخطاء، وما زالت تستفيد بعد الدّراسة والتّقييم والتّصويب، فبالرّغم من الواقع المرير لبعض مراحل الثّورة في مجالاتها كافّة، وما اعترأها من تحدّيات قاسية تجعل من فرص نجاحها على الأرض ضئيلة، إنّ لم تكن معدومة بالمقاييس الماديّة في ظلّ الطّروف الرّاهنة، من تشرذم الفصائل والتّنازع على السّلطة الوهميّة وحبّ السّياسة والرياسة، مع تكالب الأعداء من كلّ حدب وصوب، ومكرّ المنافقين وتغلغلهم ضمن صفوفهم.

لكن، ومع كلّ ذلك؛ فلو أردنا أن نحكم على الثّورة بواقعها الحالي ومآلها المستقبلي من خلال المقارنة والمقاربة بينها وبين الثّورات الأخرى، أو على الأقلّ بينها وبين حركات التحرّر التي جرت عبر التّاريخ، مع النّظر إلى ممارسة التّضييق الممنهج عليها، وحصار شبابها، والعمل على إنهمائها والقضاء عليها، إلا أنّهم ثبتوا على مبادئهم لسنوات عديدة قاسية، استخدم الغزاة فيها كلّ أنواع الأسلحة الفتاكة والمحرمّة دولياً، وما زالوا ثابتين في كلّ الميادين الثّوريّة، بل ما زال هذا الشعب الحرّ الأبي متمسكاً بأهداف ثورته وثوابتها بالرّغم من حرمانه من أغلب مقومات الحياة بحدودها الدّنيا التي لم تمارس على أيّ شعب في تاريخ البشريّة، متحدّياً كلّ ذلك من أجل نيل عزّته وكرامته، وهذا دليل واضح وبرهان ساطع على أنّ هذه الأمّة الولادة قد تمرض وتضعف، ولكنّها لن تموت ولن تستكين، وأعتقد أنّ من ينظر لتلك الثّورة بعين التّجرّد والإنصاف يدرك تماماً أنّها ثورة منتصرة على الجميع، وستنال حرّيتها، وستستعيد كرامتها شاء من شاء، وأبى من أبى ولو بعد حين.

نعم لقد مرّت الثّورة السّوريّة بمنعطفات قاسية وخطيرة انكشف فيها غدر المنافقين، وظهرت فيها عورات المفسدين، وانفضّح فيها نفاق المتآمرين من الخونة والعلماء والمتسلّقين، لكنّها انتصرت والحمد لله من يومها الأول عندما خرج النّاس وقد رفعوا أصواتهم من غير خوف ولا وجلّ بهتافاتهم الجميلة لإسقاط نظام الطّاغية.

لقد انتصرت عندما أسقطت النظام الفاجر وكسرت شوكته وفضحت منظومته الملعونة وزمرته الخبيثة، انتصرت عندما مرّغت أنوف الجنود الإيرانيين الرّوافض بالثّراب وأرجعت آلافهم إلى بلادهم بالصّناديق الصّفراء، انتصرت بعدما كسرت روسيا بكلّ جبروتها وطغيانها فلم تستطع هزيمة الثّورة رغم استخدامها لكلّ أنواع الأسلحة، انتصرت بعددها القليل وعدّتها البسيطة المتواضعة بعد أن صمدت أمام أقوى دول العالم أكثر من عشر سنواتٍ و لاتزال ترفع راياتها في فضاء الحرية، انتصرت بعدما امتلأت السّاحات والباحات والشّوارع والميادين والبلدات بالأحرار الشّرفاء، وما زالت حناجرهم تلعن الأسد من الجذّ إلى الولد.

الثّورة السّوريّة بدأها أطفالُ درعا الأبطال، وتغذّت من دماء ورجال وحرائر سوريا الأبرار، وستزهّر حريةً وكرامةً وعزّةً وعدالةً بسواعدٍ شبابها، ودماءٍ شهدائها، وحماسةٍ ثوارها، ووفاءٍ نساءها، وبطولاتٍ رجالها، وعقولٍ مفكرها بإذن الله.

المبحث الثالث عشر

الثورة السوريّة بين السّياسة والعقيدة

المطلب الأول: السيناريوهات السّياسيّة لحلّ القضية السوريّة

المطلب الثاني: منارات إيمانيّة لثورة الكرامة:

الثورة السوريّة بين السّياسة والعقيدة

المطلب الأول: السيناريوهات السّياسيّة لحلّ القضية السوريّة:

ما من صراعٍ داخليٍّ أو خارجيٍّ طال أمده أو قصر إلا وسينتهي بحلولٍ مناسبةٍ لحالة الصّراع والتي تختلف في طبيعتها لأكثر من سيناريو، ولعلّي أذكر بعض السيناريوهات المحتملة لنهاية الصّراعات في الأزمات بشكلٍ عامٍ، والتي لن تخرج القضية السوريّة عن واحدةٍ منها:

١- الصّراع الصّفري:

ويعني انتصارُ أحد الطّرفين على الآخر بالحسم العسكريّ وفرض شروطه وتحقيق النّتائج التي عمل من أجلها، مع إقرار واعتراف الخصم بالهزيمة.

وفي الثّورة السوريّة لم يتمكّن أحد الطّرفين من تحقيق النّصر على الآخر (وهو ما يعني أنّ الصّراع في سوريا ليس صفريّاً).

٢- الصّراع التّنافسي:

ويعني فشل أيٍّ من الأطراف في حسم الصّراع وتحقيق الانتصار لصالحه، وهنا يمكن للجهود السّياسيّة والدّبلوماسية أن تلعب دوراً في إيجاد حلٍّ سياسيٍّ تتوافق عليه أطراف الصّراع، على سبيل التّعايش السّلمي، وغالباً ما يكون ذلك الحلّ - في حال حدوثه - هشّاً في بنيته ولا يستمر طويلاً؛ لتعود حالة الفوضى والصّراع من جديدٍ وإلى مزيدٍ من الدّماء والأشلاء والاستنزاف العام الذي قد يدفع إلى السيناريو الثّالث.

وفي الثّورة السوريّة لم يتمكّن السّياسيّون من التّوافق على حلٍّ يرضي جميع الأطراف (وهو ما يعني أنّ الصّراع في سوريا ليس تنافسياً).

٣- التّقسيم:

عند العجز العسكريّ والتّعثر السّياسيّ والدّبلوماسيّ في حلّ الأزمات ووصولها للطّريق المسدود، مع الاستنزاف المستمر للموارد والطّاقات والكفاءات والفعاليّات من جميع الأطراف، ومع ضرورة إيجاد الحلول، فقد يكون التّقسيم الدّاخليّ (فيدرالي - حكم ذاتي أو مؤقت) للبلد هو أنسب الحلول الذي يخرجهم من ساحة الدّماء على مبدأ: (لا غالب ولا مغلوب) مع توافق الدّول الكبرى

المؤثرة في أطراف الصّراع وتأييدها لذلك، علماً أنّ التّبعات التي تترتب على هذا الحلّ صعبةٌ من حيث تمزيق البلد وتشتتّه وسهولة ابتزازه، والسيطرة عليه والتحكّم به، وسهولة إثارة النزاعات فيه ... لكنّه الأمر الذي يفرضه الواقع المؤلم في حال التّوافق عليه.

٤- الصّراع المفتوح أو طويل الأمد:

وذلك عند فشل كلّ الحلول السّابقة التي من شأنها أن تُنهي الأزمة أو تخفّف منها، وغالباً ما يكون عند تدخّل الدّول الكبرى صاحبة الأجندات والمصالح الخاصّة، حيث يختفي دور الأطراف الأساسيّة في الصّراع، وتخرج الأمور من أيديها وتصبح بأيدي الأطراف الإقليميّة أو الدّوليّة، فتصبح القرارات رهينة تلك الدّول، والذي من شأنه أن يطيل أمد الثّورة لسنواتٍ وسنواتٍ مع وضع آلياتٍ للحلّ، والتي قد تكون:

١- شاملة: ضمن اتفاقاتٍ محليّةٍ بمراقبةٍ دوليّة.

٢- جزئية: تعالج أماكن التّوتر أولاً بأولٍ، وتلزمها باتفاقياتٍ تفاهمٍ بعد أن تضمن مصالحها المرجوة (كبيع السّلاح، وإنهاءك قوّة البلد، وقتل أكبر عددٍ من النّاس، والتخلف والتّجهيل، وسهولة السيطرة والتحكّم، وضمان دفع المخاطر المحتملة التي قد تترتب من ذلك عنها).

ولعلّ من الأسباب الرّئيسة لإطالة عمر الثّورة السّوريّة والتأخّر في حلّها؛ ما كان من التّأمر الدّوليّ البغيض لتحقيق مشاريعها ومصالحها كما ذكرنا آنفاً من خلال التّمكّن والتحكّم بخيرات البلاد ونهبها وضمان السيطرة عليها عبر التّموضع المرحليّ فيها بحججٍ واهيةٍ وذرائعٍ كاذبةٍ، ك (محرّبة الإرهاب والتّطرّف الديني).

هذا من النّاحية السّياسيّة التي تُعنى بها الدّول وتعمل وفقّها لتحقيق مصالحها كما ذكرنا آنفاً، وأمّا من النّاحية الدّينيّة والأخلاقيّة فإنّ لها نظرةً أخرى، سأعرّضُ لها من خلال المنارات التّالية:

المطلب الثّاني: مناراتُ إيمانيّةٍ لثورة الكرامة:

إنّ المتأمّل لما يحدث في ساحات الدّول العربيّة والإسلاميّة بشكلٍ عامٍ، والسّاحة السّوريّة بشكلٍ خاصٍ، يرى ويدرك تماماً أنّ ملة الكفر تكالبت على أهل السّنة للقضاء عليهم واستئصال شأفتهم، وأمام هذه التّحديات الصّعبة من تكالب الأعداء وازدياد الخراب، وقلة الأرزاق وانسداد الأبواب، كاد اليأس أن يتسلّل إلى قلوب البعض من أبنائنا الذين لا يدركون فقه السّنن الإلهيّة في

الكون، ولا يفقهون الحقائق الربّانية في الخلق، بل حسب الكثير ممّن في قلبه مرضٌ وزيفٌ أنّه سيدخلُ الجنّةَ ويتنعم بنعيمها دون أن يمسه شيءٌ من مشقة الطريق وصعوبته، متجاهلاً قول الله تعالى: ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ [العنكبوت: ٢]، وقوله أيضاً: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مِّثْلُ الَّذِينَ حَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَفَلَا يَنصُرُ اللَّهُ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ٢١٤].

فقد حُفَّتِ الجنّةُ بالمكاره وحُفَّتِ النَّارُ بالشّهوات، ولذلك لا يثبت على هذا الطريق إلا مَنْ استحكم الإيمانُ في قلبه فأخلصَ النّيّةَ وصدقَ العملَ، وملكَ الإرادةَ والعزيمةَ، وأدركَ السُّننَ الإلهيّةَ والحقائقَ الربّانية التي لا بدّ آتيةً، والمناراتِ التي تضيءُ له الطريقَ، وفيما يلي سأعرض بعضاً من تلك الحقائق والمنارات التي يجب أن يضعها المؤمنُ نصب عينيه في طريق الدّعوة والجهاد وخصوصاً في هذه الأحوال الثّوريّة:

١- بالإيمان نستمدُّ القوّة ونستجلبُ النّصر:

قال تعالى: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

من هذه الآية الكريمة نستمدُّ قوّةنا ونستنهضُ همّتنا ونستعيدُ عزيمتنا، ونبحث عن أهدافنا السّاميةِ وغاياتنا الرّفيعةِ العاليةِ، ونرسمُ الخططَ ونضعُ الآليات الموصلة إليها دون كللٍ ولا ملل، حتى نصلَ إليها أو نهلك دونها؛ لأنّ الأُمَّةَ التي تبحثُ عن النّصر لا بدّ لها من أن تهيئَ له أسبابه ومقومات نجاحه دون أن تستهين بشيءٍ منها، وأن تبذلَ طاقاتها في البحثِ عن مستلزمات هذا النّجاح... وهذا ما انتهجه المصطفى ﷺ وأصحابه الكرامُ في معاركهم وفتوحاتهم التي أنارت شعلتها أكثر من نصف الكرة الأرضية في يومٍ من الأيام، وما علينا إن أردنا الاقتداء بهم والسّير على نهجهم إلا أن نستلهم خطواتهم ونتتبّع آثارهم ونحذو حذوهم، وكما قال ربُّنا سبحانه وتعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١].

وقد تختلف دوافعُ النَّاسِ في الحياة باختلاف انتماءاتهم وطبيعة ظروفهم وتباين ثقافتهم وتوقّير الأخلاق والقيم عندهم، ونحن كأُمَّة التّوحيد فقد أكرمنا ربُّنا سبحانه أن كنّا من هذه الأُمَّة

المباركة التي كانت خير أمة أخرجت للناس بما تميّزت به عن غيرها من الأمم السابقة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والعدل والتجرد لله سبحانه وتعالى، فكان أفرادها أصحاب رسالة ربانية عالمية عادلة، يتفاوتون في حمل تلك الرسالة ونشرها والدفاع عنها بين الأمم بما اكتسبوا من ثقافة وعلم، وبما حملوا من إرادة وهمة وعزيمة، وبما امتلكوا من إيمان وصدق وإخلاص، فكان منهم السابقون، وكان منهم المحبّون والمعجبون، وكان منهم المقتصدون والمقصرّون والمُسرفون.

وميدان الحياة واسع ومتاح للجميع، وحقيقة المعركة اليوم في الساحة السورية هي معركة بين حق وباطل، ولكلّ منهم فريقه وجيشه، وهي معركة طويلة لن تنتهي بشهرٍ أو شهرين ولا بسنةٍ أو سنتين، فمن أراد أن يكون جندياً صادقاً بجيش ربّانيٍّ محمّديٍّ يعيد للأمة عزّتها وكرامتها ويحفظ عليها دينها وأرضها وعرضها، فالميدان جاهز والمجال متاح.

٢- ألا إن سلعة الله غالية:

لا بدّ لكلّ سلعةٍ من ثمنٍ يُدفع، ولا بدّ لكلّ مطلوبٍ من جهدٍ يُبذل، وهذا من مبادئ ديننا الحنيف وأصول شريعتنا الغراء، ويتفاوت الثمن بتفاوت السلعة المطلوبة ومقدار قيمتها.

وسلعة الله غالية، فإن أردت الجنة فوطّن نفسك على تحمّل الآلام وتقبّل المصائب وبذل الدماء، إذ لا أمل بدون ألم، ولا نجاح بدون بذلٍ وعطاءٍ وعمل، ولا يقدر على ذلك إلا الرجال الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فهذا الحبيب المصطفى ﷺ وقد ضرب لنا أروع الأمثلة في التّحمّل والثّبات والصّبر على البلاء والابتلاء، فما استكانت عزيّمته ولا ضعفت همّته ولا إرادته في المضي قدماً، كيف لا؛ والثمن هو الجنة كما جاء في الحديث الصّحيح عن النّبي ﷺ: (ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة)^(١).

٣- لا يغرنك انتفاش الباطل؛ فإن العاقبة للمتقين:

إنّ المعركة بين الحق والباطل كرّ وفرّ، وإنّ الأيام دولّ، يومٌ لنا ويومٌ علينا، ويومٌ نساء ويومٌ نُسّر، فلا يكُ ذلك داعياً لليأس والقنوط، فليس ذلك من أخلاق المؤمنين.

(١)- الترمذي، رقم الحديث (٢٤٥٠)، (٢١٤/٤).

وَمَنْ يَعْتَقِدُ أَنَّ النَّصْرَ يَكْمُنُ بِالسَّيْطَرَةِ عَلَى بَقْعَةٍ جُغَرَفِيَّةٍ (وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ جُزْءًا مِنْهُ) فَإِنَّ اعْتِقَادَهُ خَاطِئٌ وَفَهْمُهُ مَنْقُوصٌ، مَا دَامَ يَمْتَلِكُ الْإِيمَانَ وَالْعَزِيمَةَ وَالْإِرَادَةَ وَأَعَدَّ وَاسْتَعَدَّ بِمَا يَتَطَلَّبُهُ الْوَاقِعُ الْمِيدَانِيُّ وَالْعُسْكَرِيُّ مِنْهُ وَشَعَارُهُ فِي ذَلِكَ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨].

٤- الجهادُ طريقُ المخلصين وتاجُ الصّادقين:

إِنَّ هَذَا الطَّرِيقَ؛ طَرِيقَ الْجِهَادِ طَرِيقٌ طَوِيلٌ وَشَاقٌّ، مَمْتَلِئٌ بِالمَصَاعِبِ وَالبَلَايَا، يَتَرَدَّدُ فِي سُلُوكِهِ الْكَثِيرُ، وَيَتَرَاوَعُ عَنْ سُلُوكِهِ الْكَثِيرُ، وَيَسْقُطُ فِيهِ الْكَثِيرُ، وَلَا يَثْبُتُ فِيهِ إِلَّا الرِّجَالُ مِنْ أَصْحَابِ الْمُبَادئِ وَالْقِيَمِ الَّذِينَ تَسَلَّحُوا بِالصَّبْرِ وَالثَّبَاتِ وَالْإِرَادَةِ وَالْعَزِيمَةِ، وَامْتَلَكُوا الْهَمَّ وَالْهَمَّةَ وَالْإِيمَانَ، لَا يَعْرِفُونَ مَلَأً وَلَا اسْتِسْلَامًا، فَسَخَّرُوا كُلَّ مَا عِنْدَهُمْ لِلْوُصُولِ إِلَى الْهَدَفِ الْمُنْشُودِ بِفُوزٍ وَنَجَاحٍ، أَوْلَيْتُكَ الَّذِينَ سَيَمُنُ اللَّهُ عَلَيْهِمُ بِالنَّصْرِ وَالتَّمَكُّنِ، الَّذِينَ قَالَ فِيهِمْ سُبْحَانَهُ: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨]، وَقَالَ أَيْضًا: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۖ وَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَنَجْعَلَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ غُرَفًا ۖ وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۚ وَنُفَصِّلَنَّ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۚ وَكَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٥-٦].

٥- مَنْ كَانَ مَعَ اللَّهِ؛ فَلَنْ يَخْذُلَهُ وَلَنْ يَخِيْبَهُ:

وَهَذِهِ حَقِيقَةٌ رَبَانِيَّةٌ تَبْعُثُ الْأَمَلَ فِي الْقُلُوبِ لِمُجَرَّدِ أَنْ تَقْرَأَ قَوْلَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ۖ مَتَّعْتُ قَلِيلًا ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٩٦-١٩٧].

وَيَزِدَادُ الْأَمْلُ بِوَعْدِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَالتَّفَاوُلُ بِهِ عِنْدَمَا نَقْرَأُ قَوْلَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ۚ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦]. وَهَذَا قَوْلُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ الَّذِي لَا يَتَبَدَّلُ وَلَا يَتَخَلَّفُ عَنْ وَعْدِهِ لَنَا وَوَعِيدِهِ لَهُمْ، فَلَنَكُنْ عَلَى ثِقَةٍ وَاطْمَئِنَّانِ بِأَنَّ اللَّهَ لَنْ يَخْذُلَنَا أَبَدًا، وَلَنَكُنْ عَلَى ثِقَةٍ أَيْضًا بِإِهْلَاكِهِ سُبْحَانَهُ لِلظَّالِمِينَ الَّذِينَ طَغَوْا وَبَغَوْا وَاسْتَكْبَرُوا كَمَا كَانَ حَالُ قَارُونَ: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَلِيتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ

عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَدَّكُم تَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴿٨٠﴾ [القصص: ٧٩-٨٠].

٦- من استعجل السَّيِّء قبل أو انه عَوقِب بحرمانه:

إذ لن تُثمر شجرة قبل اكتمال نموها، ولن تُؤكل فاكهة قبل نضجها وبُدُو صلاحها، فلا تطلب النَّصْرَ قبل أن تقيمه في نفسك، وتحقق مقوماته في مجتمعك وأمتك ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، فما لم يتم بناؤه قبل اكتمال نضجه فلن يُكتب له النَّجَاح والاستمرار، ولن يعطي الفائدة المرجوة المطلوبة، ولو كان مدهشاً في مظهره وباهراً في جماله.

٧- الرُّجولة تكمن في مواطن الضَّعف، والشَّجاعة عند تَمَكُّن الخوف:

نعم، الرُّجولة أن تستمر دون تردُّد وإن كنت لا تمتلك القوَّة الكاملة، فالحياة مواقف متباينة والنَّاس فيها كالمعادن المختلفة، ولن تظهر حقيقة المعادن إلَّا من خلال المواقف، فبعضها يصدأ وبعضها يهترأ، والأصيل منها ما يحافظ على ذاته وجمال رونقه مهما امتزجت به الشَّوائب ودخلت عليه اللوثات، وكذا الرِّجالُ الأشداء في مواقفهم وشجاعتهم في وقتٍ غابت فيه القوَّة والغلبة الماديَّة.

٨- الجهادُ عزُّنا وشرفنا:

كلَّنا يعلم ويدرك ويؤمن بأننا مقبلون على مرحلة كتبها الله علينا، وهي الموت الذي لا مفرَّ منه ولا مهرب، فلنعمل على استقباله ومواجهته بأفضل حالٍ ونحن أعزَّة مرفوعو الرُّؤوس في الدُّنيا، وفي أعالي الدَّرجات من الفردوس الأعلى في الآخرة، ولا يكون ذلك إلَّا عن طريق الجهاد في سبيل الله، بل إنَّه أقصر الطُّرق إلى الله، فلنجهد على أنفسنا أن نكون من سالكي هذا الطُّريق العظيم.

٩- فإمَّا حياة تُسرُّ الصَّديق، وإمَّا مماتٌ يُغيظ العدي:

إنَّ أعظمَ نعمةٍ أنعمها الله علينا أن أعزَّنا بالإسلام، ومنَّ علينا بالإيمان، وأكرمنا بنبيِّنا محمدٍ ﷺ، وهذا يعني أنَّ طريق النَّصر بين أيدينا، والمرشد إليه والموضح لتفاصيله بين ظهرانينا، وما علينا إلَّا استحضار الإرادة القويَّة، واستنهاض العزيمة الفتيَّة، واستبعاد الشَّهوات والملذات الدِّنيَّة،

فنشمرُ عن سواعد الجدِّ في طريق الإيمان، لنصل إلى الغاية المطلوبة والهدف الأسمى في حياتنا وبعد مماتنا.

ولنكنْ على ثقةٍ تامّةٍ أنّنا لم نُكَلَّفْ ما لا نُطِيق، فلا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها، فلنعملْ بقدر طاقتنا واستطاعتنا وبما أعطانا الله من إمكانيّات، ثمَّ لتتوجّه إلى الله بصدقٍ وإخلاصٍ، فإنّها إحدى الحسنين، النَّصْرُ أو الشَّهادة، فإن كان (النَّصْرُ)؛ فنحن أهله بإذن الله، وإن كانت الأخرى (الشَّهادة)؛ فإنّها غايةُ المسلم ومطلبه في الدُّنيا، فلها نعمل ومن أجلها نسعى، ورحم الله الشَّهيد سيد قطب حيث قال:

سأثأر لـكن لربّ ودين وأمضي على سنتي في يقين

فإمّا إلى النَّصر فوق الأنام وإمّا إلى الله في الخالدين

أخي إن نمت نلق أحبابنا فروضات ربّي أعدت لنا

وأطيارها رفرفت حولنا فطوبى لنا في ديار الخلود

١٠- إحسان الظنّ بالله يكون بامتثال أوامره:

إنَّ الحقيقة الواضحة التي أخبرنا بها ربُّنا سبحانه وتعالى في كتابه: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]. وقوله: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١]. وقوله: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ﴾ [الصافات: ١٧٢-١٧٣].

ففي هذه الآيات الكريمات وعدٌ صادقٌ من الله سبحانه بنصر المؤمنين ولن يخلف الله وعده، وهذا يعني أنّ النَّصرَ حليفُ المؤمنين طال ذلك أم قصُر، فهذه حقيقة قرآنيّة ثابتة عندما تتوقّر المقومات الأساسيّة في أهل الإيمان، من إيمانٍ قويٍّ، وإخلاصٍ نقيٍّ، وإعدادٍ ذكيٍّ، وجهدٍ فتيٍّ، وهمةٍ وإرادةٍ وعزيمةٍ وثبات.

فتلك عدّة النَّصر التي تستوجبها، ولا تستدعي عدداً ولا عدّةً كبيرةً كما هو حال الكافرين: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨].

تلك الحقيقة الإيمانية التي يقهر الله بها أعداءه الذين يتباهون بقوتهم أمام جنوده الذين افتقدوا لأدنى مقومات القوة إلا من الإيمان الذي ملأ قلوبهم فأحال ضعفهم قوةً فينتصر الضعيف على القوي؛ لأنهم جنود الله، وما يعلم جنود ربك إلا هو، فلا بد من الثقة بالله وحده، والتوكل عليه وحده، والاستعانة به وحده، والطلب منه وحده، لأنه المدبر والمتصرف والمتوكل بعباده.

١١- (ومن يتوكل على الله فهو حسبه):

لا بد أن نتذكر بأن القوي هو الله وحده دون سواه، وأن قوة الله فوق كل قوة، فلن تخيفنا قوة في العالم أياً كانت، فكلمهم جميعاً بيد الله، فليكن اعتمادنا على الله وحده دون سواه، فلن يخيب من اعتمد عليه، ولتكن استعانتنا به وحده دون سواه، فلن يخذل من استعان به، وليكن توكلنا عليه وحده دون سواه، فلن ينسى من فضله من توكل عليه، واعلموا أنه لن يخيبنا ولن يخذلنا ما دمنا بحبله متمسكين، ولشريعته مطيعين، وبحكمه عاملين، ولأوامره ممتثلين.

١٢- هنيئاً لأهل الشام؛ فهي خيرة الله من أرضه:

بعد كل هذه الحقائق الربانية التي تزرع الأمل في القلوب وتغرس الطمأنينة في النفوس، فإنني سأختم بحديث النبي ﷺ عن فضل الشام وأهلها، وقد نصح أصحابه أن يلجؤوا إليها، فإنها خيرة الله من أرضه، يجتبي إليها خيرته من عباده، وإن الملائكة لتضع أجنحتها على الشام وقت السلم، فكيف بها وقت الحرب.

كيف لا؛ وقد تكفل الله بها وبأهلها وبارك فيهم، أما يكفيننا هذا فخراً أن كنا من أهل الشام ومن جنود الحق فيها، فعن ابن حوالة (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ: (سَيَصِيرُ الْأَمْرُ إِلَى أَنْ تَكُونُوا جُنُودًا مُجَنَّدَةً، جُنْدٌ بِالشَّامِ، وَجُنْدٌ بِالْيَمَنِ، وَجُنْدٌ بِالْعِرَاقِ، قَالَ ابْنُ حَوَالَةَ: خِرْلِي يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ أَدْرَكْتُ ذَلِكَ، قَالَ: عَلَيْكَ بِالشَّامِ، فَإِنَّهُ خَيْرُهُ اللَّهُ مِنْ أَرْضِهِ، يَجْتَبِي إِلَيْهَا خَيْرَتَهُ مِنْ عِبَادِهِ، فَإِنْ أَبَيْتُمْ فَعَلَيْكُمْ بِيَمَنِكُمْ، وَاسْقُوا مِنْ عُذْرِكُمْ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ تَوَكَّلَ لِي بِالشَّامِ وَأَهْلِهِ)^(١).

فأبشروا بأهل الشام الكرام، فأنتم أهل الصبر والثبات والإقدام، أهل العبادة والطاعات، أهل الرجولة والكرامات، أهل المروءة والشجاعة والبطولات، أهل الفوز والتصر والبشارات بإذن الله، وسيكتب التاريخ لكم ثورتكم، وسيسجل لكم بطولاتكم، وسيدكر لكم الملاحم المضيفة لتكون

(١)- سنن أبي داود، باب في سكنى الشام، رقم الحديث (٢٤٨٣)، (٤/٣).

ثِقَاتُ الْبُحْرَانِ

لكم شهادة عَزٍّ وسعادةٍ وفخارٍ أمام الله سبحانه، وأمام الأمم من بعدكم، وشهادةً على أعدائكم بالخزي والهوان والعار والسُّنار بإذن الله سبحانه.

خلاصات

١- الثورات حركة جماهيرية شعبية شاملة مستمرة، ونوع من أنواع التغيير الجذري الذي يستهدف إحداث تغييرات في بنية المجتمع، وبناء وضع جديد يشمل جميع النواحي الاجتماعية والثقافية والسياسية.

٢- حركات التغيير والتحرر إن لم تستطع على تجديد نفسها وضخ دماء جديدة تسري في عرونها باستمرار فستكون آيلة إلى مرحلة التحلل والدوبان الذاتي.

٣- إصلاحات حقيقية موجهة بالأمها وأثمائها، أفضل من جرعات مخدرة وقاتلة؛ لأن أنصاف الثورات مقاتل لأصحابها.

٤- أمام الثورات وأهلها تحديات عظيمة بأساليبها الناعمة والخشنة، ولابد من الوقوف أمامها بكل ثبات وعزيمة وإصرار، ومنها الأقلام المسمومة والوكالات المأجورة التي تعمل على شيطنة الثورة وتجريم الثوار، وخصوصاً الثورة السورية التي كانت أنموذجاً أمام كل التحديات الداخلية والخارجية.

٥- الثورات الحقيقية هي التغيير المدروس البعيد عن الفوضى والعشوائية ضمن خطط منظمة مع التركيز على النخب المتنوعة لصناعة نواة صلبة تحمل فكراً واعياً، وإرادة قوية، وإصراراً على إنجاز مهمتها الربانية، وإيصال رسالتها في الحياة بالوسائل المناسبة مع الواقع الذي يتقبله الشعب.

٦- النجاح حليف للثورات المنظمة التي تديرها النخب، ولا تقتصر النخب على نوع واحد من الفكر والتوجه وطبيعة السلوك، ولا بد من تجمع كل الكفاءات والقامات والشخصيات الفاعلة في كل المجالات الميدانية والثورية على الشكل التالي:

أ- النخب الفكرية: التي توجه إلى فهم طبيعة وحقيقة وجود المرء، ودوره في الحياة بما له وما عليه، بعيداً عن التقليد والإتياع الأعمى.

ب- النخب الدينية: التي تحدد المسار الأخلاقي والسلوكي للأفراد ضمن الضوابط الشرعية بعيداً عن الإفراط والتفريط.

ج- النُخبُ السِّياسيَّةُ: التي تُعنى بالعلاقات الدُّوليَّة لصالح بلدها، وتفهم ما يحاك لها من مؤامراتٍ، وما يدور حولها من مكائد وخيانات.

د- النُخبُ العسْكريَّةُ: التي تفرض وجودها من خلال أوراق القوة التي تمتلكها، وتحمي البلد من التَّشَتُّتِ والضَّياع.

٧- توصيفُ الواقعِ الثَّوريِّ بشكلٍ صحيحٍ يُسهِّلُ تشخيصَ الخللِ والمرضى فيه ووصفَ العلاجِ المناسبِ له، بعيداً عن المجاملة والعواطف.

وغالباً ما تتجلى أمراضُ الثَّورةِ بداءين رئيسيين، هما:

أ- ضعفٌ في الجانبِ العقدي الذي يؤدِّي إلى مآلاتٍ دمويَّةٍ في كثيرٍ من الأحيان.

ب- ضعفٌ في الجانبِ السُّلوكيِّ الذي يعكس المستوى الأخلاقيَّ المتدنِّي لأصحابه عند الآخرين، وكلا الداءين غالباً ما يؤدِّي إلى مآلاتٍ غير مرضيةٍ للثَّوراتِ وأهلها.

٨- لنجاحِ الثَّوراتِ لا بدَّ من توحيد الجهود والعمل الجماعيِّ المركزيِّ بعيداً عن الفوضى والعشوائیَّة وتعدُّدِ المرجعيَّات، وإنْ تعذَّر ذلك؛ فلا بدَّ من التَّعاون والتَّطاول والتَّنازل للوصول إلى أفضلِ التَّنتائج، وإنْ تعذَّر ذلك؛ كان لا بدَّ من التَّشاور والتَّوافق على المشتركات بما يُؤمِّنُ سلامةَ المدنيِّين العزل.

٩- من المفيدِ والضَّروريِّ في الثَّوراتِ البحثُ عن حلفاءٍ أقوياء يدعمونها في المحافل الدُّوليَّة فضلاً عن المعارك الميدانيَّة، مع تحييد الخصوم والأعداء الذين يوجِّهون السِّهامَ والضَّرباتِ قدر الاستطاعة والامكان.

١٠- من مقوماتِ نجاحِ الثَّوراتِ:

امتلاكُ المشروعِ الواضح، مع امتلاكِ إرادةِ التَّنفيذ والعملِ لأجل تحقيقه ضمن أهدافٍ واضحةٍ وآلياتٍ مناسبةٍ ورجالٍ يقدمون ويضحون، وذلك من خلال توقُّرِ الواجبة السِّياسيَّة صاحبة القدرة والكفاءة ومعرفتها بالدهاليز السِّياسيَّة، وإدراك معاني مصطلحاتها القانونيَّة التي قد يستخدمها الأعداءُ في المحافل الدُّوليَّة خشية الوقوع في أفخاخها.

١١- من عناوين النجاح في الثورات: التجسيد العملي لمعاني الكلمات: لا تياسن ... لا تحزن ... لا تخف.

١٢- ضرورة الحفاظ على الحاضنة الشعبية؛ لأنهم الرصيد الرئيس في حركات التغيير، حيث تتباين نظرة الناس إلى الثورة والثوار نظراً لطبيعة التعامل والأداء الذي ينعكس عنهم تجاه أهلهم وإخوانهم، وغالباً ما يكون المدنيون هم ضحايا الثورات، وبأشكال مختلفة يتجلى بعضها بإقصائهم عن الإدارة في اختصاصهم، واستبدالهم بمن لا يمتلك ذلك؛ خضوعاً للمحسوبيات والأنانيات القاتلة.

١٣- للثورات أدوات ووسائل كثيرة ومتنوعة، تختلف من منطقة إلى أخرى باعتبار طبيعتها، وأسبابها، وآلياتها، ومراحلها، وأهدافها، ومآلاتها، وتتحول إلى حرب إرادات مع الدول ذات الصلة في حال الصراع التنافسي وإطالة أمده حتى تسقط إحداها بنهاية المطاف.

١٤- تختلف وسائل التغيير في الثورات من بلد إلى آخر حسب الواقع الذي تعيشه البلد، وطبيعة التدخلات الدولية فيه، وبالتالي يمكن تقييم عملية التغيير بكل بلد:

أ- بالنظر إلى الحاكم وطغيانه ... هل هو صاحب قرار أم كلب حراسة؟

ب- بالنظر إلى النظام القائم ومدى سلطته مرونة وشدة.

ج- بالنظر إلى الشعب المحكوم ومدى فهمه لطبيعة الصراع... مزاجي أم صاحب رؤية وهدف، ومدى استعداداته وتحمله وتقديمه للتضحيات، ومدى إدراكه لوسائل التغيير المناسبة لثورته.

د- بالنظر إلى التدخلات الدولية بمصالحها المختلفة ومطامعها المتنوعة حسب كل بلد وخبراته وطبيعة سكانه.

١٥- القاعدة الصلبة أو الكتلة الحرجة أساس النجاح في الوصول إلى الهدف، ولا يكون ذلك إلا من خلال الانتقاء الدقيق للطاقت الفاعلة وتنظيمها بشكل جيد ومدرّس، وإعادة نهضة الأمة تحتاج عملاً دؤوباً مع التنظيم والتخطيط الدقيق، والتفكير العميق، والإدراك السياسي للواقع العالمي، والعمل الدعوي الذي لا يعرف الملل للوصول إلى الهدف الواضح مسبقاً بعد معرفة الحجم الحقيقي للحراك الثوري بكل أركانه وتفصيله، ومعرفة حجم العدو الحقيقي بكل تفاصيله بعيداً عن العواطف والمجاملات، فإن سنن الله لا تحابي أحداً.

١٦- الإعلام نصف النَّصر، والتَّقْصِيرُ في نقل الصُّور المضيفة للثورات قد ينعكس سلباً على نظرة الناس إليها وخصوصاً الذين لا يرون منها إلا السَّلبيات والمخالفات الاجتماعية والشرعية والأخلاقية مع الانتباه إلى خطورة إبراز الصُّور القاتمة وما يصل إلى جلد الدَّات أو الانغماس في مستنقع اليأس والإحباط.

١٧- ضرورة الاستعداد والجاهزية عند جمهور الثورات للثورات المضادة التي كانت وما زالت يقظةً وجاهزةً للعمل بكلِّ الوسائل والأدوات من أجل إجهاد ثورات الربيع والقضاء عليها، وستكون المواجهات شديدة وقاسية، تُستخدم كلُّ الوسائل والأدوات الناعمة والخشنة.

١٨- "الثورات الشعبية مزيج من العفوية والتنظيم"^(١).

"فالعفوية: تعصمها من الاستئصال، والتنظيم: يعينها على حسن التسديد".

١٩- من دواعي العنف في الثورات:

أ- الحقد السياسي الذي يمارسه الطُّغاة والمستبدون.

ب- الحقد الطائفي الذي يمارسه الجبابرة والعنصريون.

ج- التخاذل الدولي والأممي الذي تتخذه الدول الراعية لحقوق الإنسان.

٢٠- الخلل في الثورات نوعان:

من الداخل: يتجلى في:

أ - عدم امتلاك المشروع الجامع.

ب- التنافس على السلطة والتفوذ الموهوم.

ج- التنافس على الاقتصاد والواردات وتحويل الثورة الى مصالح خاصة.

من الخارج: يتجلى في:

أ- التدخل الأجنبي لفرض هيمنتهم وتحقيق مصالحهم وتمكين نفوذهم.

(١)- مدونات الجزيرة، منطق الثورات ومآلاتها، محمد مختار الشنقيطي.

ب- الاختراق الأممي المفضي إلى تمزيق الصُفوف وتشتيت القوى وبثّ الفوضى والاضطراب.

٢١- ضرورات مهمة في الثورات:

أ- ضرورة الحفاظ على الحاضنة الشعبية.

ب- ضرورة إقامة العلاقات الطيبة مع المكونات العاملة والهيئات الفاعلة والكيانات النشطة والشخصيات ذات الكلمة والتأثير.

ت- ضرورة الحفاظ على العلاقات الخارجية مع الدول الداعمة وكسب بقية الدول المترددة.

ث- ضرورة معرفة طبيعة الأعداء والاطلاع على ثقافتهم وأهدافهم وتاريخهم وقوتهم المتنوعة.

ج- ضرورة العمل والقدرة على توظيف الطاقات الفاعلة باختصاصاتها المتنوعة؛ لأنها بوابة النجاح في إدارة الثورات.

ح- ضرورة شعور كل فرد بمسؤوليته والأمانة الملقاة على عاتقه بما يدفعه لإيصالها إلى غيره برسائل هادفة من خلال عبارات خطابية، أو علاقات اجتماعية أو غيرها من وسائل التواصل الاجتماعي والإعلامي.

خ- ضرورة الاعتماد على من يحمل همّ الثورات ويستشعر المسؤوليات عند انسداد أفق الحل، والبدء بالإصلاحات الداخلية بما تقتضيه المصلحة العامة.

د- ضرورة التقييم المرحلي لعمل الثوار؛ لأجل استدراك الأخطاء والسلبات، والاستزادة من الصواب والإيجابيات.

٢٢- الانخراط الجماهيري والمشاركة الشعبية بكلّ فئاتها في الثورة السورية من خلال الاعتصامات والمظاهرات والعصيان المدني وغيرها، من أفضل الوسائل الضاغطة، والأدوات الهادفة في إسقاط النظام المجرم وهالته من عيون الشعب السوري الحرّ.

٢٣- تجاوز عُقدة الخوف التي زُرعت في قلب الشعب طيلة العقود الماضية، والخروج على النظام الظالم لردّ عدوانه وكفّ فجوره وإسقاط سلطانه، زاد من ثقة الشعب بنفسه، وأعطاه قوة الاستمرار في ثورته رغم التحديات الجسيمة والتضحيات العظيمة.

٢٤- سقوط ورقة التوت الأخيرة عن إيران وميليشياتها، ووضوح عداها للأمة الإسلامية الذي أخفته طيلة القرون الماضية، وانكشاف خطرها وحقيقة مشروعها الطائفي على العالم العربي والإسلامي.

٢٥- أمام إصرار خصومه لن يترك الظالم وسيلة ولا نوعاً من أنواع القهر والاستبداد إلا يستخدمه للحفاظ على عرشه وسلطانه، من ترغيب وترهيب وتجويع وتخويف وتدمير وتهجير بتواطؤ وتدير دولي، وهذا ما بدا واضحاً في همجية النظام الأسدي الفاجر وحلفائه المجرمين.

٢٦- الحصار والتجهيز القسري للمدن السورية من الوسائل القذرة في تفجير الشعوب وإذلالها: لأنه بوابة الانحلال والانحراف، فضلاً عن سياسة التكريع والاختضاع والتجويع لتلك الشعوب.

٢٧- تبني الدول سياساتها على أساس مصالحها الخاصة، فصديق اليوم قد يصبح عدو الغد، وعدو اليوم قد يكون صديق الغد، بعيداً عن العواطف والمجاملات.

٢٨- الظالم يجعل من المظلوم بطلاً يدافع عن نفسه ويطالب بحقه ما ملك صحوته وقراره، ومحال أن ينتصر نظام ظالم على شعب مظلوم صاحب حق وإرادة وعزيمة وإصرار.

٢٩- يتباين الأعداء في عدواتهم ويتعدّدون في أشكالهم وألوانهم، ولعل من أخطر أولئك الأعداء الذين يلبسون لباس الخصم ويتكلمون بلسانه ولغته، كما هو حال (داعش) التي لبست لباس الدين، والدين منهم براء.

٣٠- الاختلاف البيئي بمظاهره المتنوعة بوابة للخلل والاضطراب، ومدخل للتخايم والاقتتال، ومفتاح للخسارة والهزيمة والخراب.

٣١- خسارة المساحات الجغرافية في المعارك والحروب تُعتبر جزءاً كبيراً ومهماً من الخسارات، وقد يكون ذلك بسبب جهل أبناء الثورة بفنون القتال وعدم خبرتهم بثقافة الثورات، مع قلة عتادهم وتآمر الدول عليهم، إضافة للإجرام المفرط الذي سُلط عليهم، ولكن الخسارة الأهم والأكبر هي خسارة العقول وهجرتها إلى بلاد الغربة والشّتات بعيداً عن أهلهم وإخوانهم الذين هم بأحسن الحاجة إليهم.

٣٢- لن يئأس أهل الباطل من الحق وأهله، وهم مستعدون لاستخدام كلِّ الوسائل والأدوات القذرة في محاربتهم، حتى إذا وصلوا للطُّرق المغلقة معهم دون أن يتمكنوا منهم رفعوا شعارهم الأخير:

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذَنَّ مِنَّا فِئْتَانٌ فَأَوَّحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴾ [سورة إبراهيم: ١٣].

٣٣- البلاء أشكالٌ متعدِّدةٌ، وصنوفٌ متنوِّعةٌ يُنزلها الله على مَنْ يشاء من عباده، وفي الابتلاء دروسٌ بليغةٌ وعبرٌ كثيرةٌ؛ ليميز الله الخبيث من الطيب، ويُفرز المنافقين من صفوف المؤمنين، ويراجع كلُّ ماضيه وإخفاقاته فيستدرك الأخطاء وينهض من جديد في سبيل دينه وأُمَّته.

٣٤- لكلِّ منَّا بصمته الماديَّة التي تميِّزه عن غيره في الدُّنيا، لكنَّ البصمة الحقيقيَّة هي التي تميِّز المرء عن غيره في الآخرة، فما من بطلٍ إلَّا كانت له بدايةٌ قاسيةٌ، لكنَّه عندما امتلك العزيمة والإرادة مع الصِّدق والإخلاص سجَّل بصمته التي رفعت منزلته في الدُّنيا وأكرَّمته بالفوز في الآخرة.

٣٥- الأهميَّة الكبيرة للإعلام في معظم القضايا الحياتيَّة على مستوى المجتمعات والدُّول والحكومات جعل منها شوكةً قويَّةً وسلطةً تفرض واقعاً، ترفع نظاماً وتحطِّم آخر، وتقدِّم شخصيَّاتٍ وتُسقطُ أخرى، وتنهضُ بدولٍ وتُشتتُ أخرى؛ ولذلك كان من أفضل التَّسميات التي اتَّفِق عليها ب (السُّلطة الرابعة)، مع العلم بأنَّ كلَّ الدُّول والحكومات تخصِّص وزارةً خاصَّةً بالإعلام، وتُنفق عليها الأموال الطائلة لإيمانها بأهميَّة الإعلام ودوره، وهو ما أفقَدَ إعلاميَّ الثَّورة شطراً من الخبرة، فوقعوا ببعض الأخطاء التي أربكتهم وحُسِبَتْ عليهم، في الوقت الذي يمكن أن يُقدَّرَ لهم ذلك لظروفهم الحياتيَّة وحداثة عهدهم بالإعلام.

٣٦- لا يمكن نسيان التَّحدِّيات التي طالت النَّاشرين في الميدان الإعلاميِّ لنقلهم الحقيقة وصدقهم في التَّعامل الصَّحفيِّ والإخباريِّ، والذي جعل النِّظام في إرباكٍ كبيرٍ انتصر عليه في كثير من المواقف، وفضح إجرامه أمام الفضائيَّات وفي المحافل الدُّوليَّة.

٣٧- نجح النِّظامُ المجرمُ في الفبركة الإعلاميَّة للكثير من المجازر التي نفَّذها بأيدي قوَّاته وميليشياته، فاستخدم التَّدليس والفبركة والتَّزييف ليعيدها مشاهدَ يَدِينُ بها خصمه، أو ينتقي

صوراً ومشاهد من بلدان ودول أخرى ويُعيد نشرها من جديد، مع زيادة بعض الرُتوشات عليها أمام المشاهدين، على أنّها من فعل إرهابٍ خصومه في السّاحة السُّوريّة.

٣٨- اعتمد النّظامُ المجرمُ على شخصيّاتٍ إعلاميّةٍ تمتاز بالدّهاء والفبركة واستخدام الخُدع، مع امتلاكهم الحقد والضّغينة والإجرام الذي يزيد من حماسهم في ذلك، ويُقوّي من رغبتهم في الضّحّ الإعلامي الكبير لأخبار التّحريض وبث الكراهية للثّورة والثّوار، والذي بدوره كان يُسهّم ويُسرّع في عمليّات الإجرام والانتقام من القرى السُّنيّة بناءً على تلك الأخبار والفيديوهات.

٣٩- يدرك النّظامُ الفاجرُ أهميّة الإعلام في مواجهته الحاسمة مع خصومه، فلم يقتصر على إعلامه الرّسميّ فحسب، بل كان جاهزاً مع بداية ثورات الرّبيع العربيّ، ومستعداً لذلك بما جنّده من إعلامٍ محليّ رديف، كما استخدم إعلام الدّول الحليفة له الرّسميّ والرّديف، مستفيداً من خبراتها في قلب الحقائق وتزييف الأحداث والوقائع.

٤٠- فضلاً عن الدّهاء الإعلامي والفبركة والتّدليس الذي استخدمه النّظام الفاجر من خلال الجيش الإلكتروني الذي صنّعه، والقنوات الرّديفة التي تعمل بإشرافه، كان يُجبرُ المواطنين على الإدلاء بشهاداتٍ يريدونها منهم بعد تلقينهم إيّاها تحت التّهديد والتّخويف، فضلاً عن المساجين الذين لا يملكون حولاً ولا قوّة، حيث ينتزعون منهم الشّهادات والتّصاريح التي تخدم تحقيقاتهم انتزاعاً.

٤١- صحیح أنّ الإعلام الثّوريّ ولد في الثّورة بعدما اضطر الثّوار لخوض معركتهم مع النّظام الفاجر؛ لنقل الصّورة الحقيقيّة للواقع اليوميّ، ثمّ انتقل معها إلى مرحلة المواطن الصّحفي بحكم الضّرورة والواجب، ثمّ طوّر أدائه الإعلاميّ متغلباً على كلّ التّحدّيات التي اعترضت مسيرته، فأنشأ اللجان الثّوريّة والجراك الشّعبیّ في المدن، ثمّ التّنسيقيّات الجامعة بين المحافظات الثّائرة، كما صمّموا الشّبكات الإلكترونية والإعلاميّة لتوثيق المجازر والجرائم الأسديّة، ونجحوا في التّواصل مع القنوات الفضائيّة العربيّة والعالميّة، وأبدعوا في فضح وتكذيب النّظام الفاجر وإعلامه المزيف، بعدما تجاوزوا آثار الحرب النّفسيّة وبثّ الأكاذيب والشّائعات من الجيش الإلكترونيّ الأسديّ، الذي دأب على ضحّ الأخبار الكاذبة ونشر الأراجيف في المجتمعات لبثّ الهلع والخوف، وبذلك استطاع أن ينقل الصّورة الحقيقيّة للواقع المؤلم الذي

يعيشه السوريون من ظلم واستبداد وإجرام النظام عليهم إلى العالم كله، وخاصة في المحافل الدولية.

٤١- الإعلام الثوري عليه أن يؤمن بأنه كالمقاتل المربط على الخط الأول من جبهة الثورة، وعليه أن يمتلك الإعلام الهادف، فيُسخر كل إمكانياته للدفاع عن ثورته، ويجتهد في إيصال رسالته بكل إيجابية، ويتحصن بقول الحق ونقل الحقيقة قدر استطاعته، ويتجمل بالجرأة والشجاعة والحكمة في إعلانها، ويعتقد أن أكبر أجر يتقاضاه هو عندما يحقق أهداف الثورة بعمله.

٤٢- ما من صراع داخلي أو خارجي طال أمده أو قصر إلا وسينتهي بحلول عسكرية أو سياسية مناسبة لحالة الصراع والتي تختلف في طبيعتها لأكثر من سيناريو، ولن تخرج القضية السورية عن واحدة منها، والتي تتجلى بالصراع الصوري أو الصراع التنافسي أو التقسيم أو الصراع المفتوح أو طويل الأمد الذي قد ينتهي بحلول جزئية أو شاملة.

وأما من الناحية العقدية: فإن استمداد القوة واستجلاب النصر يكون من خلال الإيمان بالله سبحانه، وسلوك طريق الجهاد؛ لأنه شرف الأمة، مع العمل الدؤوب في الإعداد والاستعداد بكل أنواعه بعيداً عن التفريط والاستعجال، وإظهار الشجاعة والإقدام في مقارعة الباطل المهزوم أصلاً مهما بدا منتفشاً، مع التوكل على الله سبحانه وإحسان الظن به، واليقين بوعده، فلن يخيب الله من كان معه، وإن سلعة الله غالية، أعدّها لعباده الصالحين الصادقين المخلصين، وكان لأهل الشام كرامة خاصة من الله سبحانه، فإما نصر عزيز في الدنيا، أو شهادة كريمة عند رب رحيم في الآخرة.

جدول المحتويات

٥	الإهداء
٦	المقدمة
٨	محتويات الكتاب
٩	ثقافة الثورات
١١	المطلب الأول: تعريف الثورة
١٢	المطلب الثاني: أسباب الثورات
١٣	المطلب الثالث: عناصر الثورات الرئيسية
١٥	المطلب الرابع: أشكال الثورات
١٩	المطلب الخامس: ميزات الثورات
١٩	المطلب السادس: من أهداف الثورات
٢١	المطلب السابع: الخلل في إدارة الثورات
٢٢	المطلب الثامن: متلازمات النجاح في الثورات
٢٧	المطلب التاسع: أقسام الناس في الثورات ودورهم فيها
٢٩	المطلب العاشر: الإعلام الثوري
٣٠	المطلب الحادي عشر: مميزات الثورات
٣٥	المطلب الثاني عشر: تفريغ الثورات
٣٧	المطلب الثالث عشر: سرقة الثورات
٤١	المطلب الرابع عشر: ما بعد الثورات
٤٣	المطلب الخامس عشر: مصطلحات مرادفة
٤٦	سوريا من قلب الحدث
٤٨	المطلب الأول: نظرة عامة على العالم العربي والإسلامي
٥١	المطلب الثاني: عين على الواقع السوري
٦٢	الشأن في زمن الكرام
٧١	جاهليّة القرن العشرين
٧٣	المطلب الأول: الجاهليّة بين الأمس واليوم
٧٥	المطلب الثاني: سوريا المحتلة وبائع الجولان
٨٥	حافظ الأسد والحكم الطائفي
٨٦	حافظ الأسد والدولة الطائفية
١٠٢	المطلب الثالث: سورية مزرعة الأسد
١٠٨	الواقع السوري والربيع العربي الدامي
١١٢	الثورة السورية: وقفات مهمة ومحطات مؤلمة
١٥٢	النخب والمرجعيات الشرعية ودورها في الثورة السورية
١٥٥	المطلب الأول: حاجة الثورة إلى العلماء والدعاة
١٥٦	المطلب الثاني: أقسام الشرعيين باعتبار ولائهم وتحصيلهم العلمي في الثورة
١٥٩	المطلب الثالث: الشرعيون والفصائل العسكرية

المطلب الرابع: المهام الرئيسية للشريعيين وتأثيرهم في الساحة السورية:	١٦٠
المطلب الخامس: الهيئات التشريعية خارج الساحة السورية:	١٦٣
المطلب السادس: تيارات الفكر الإسلامي في الثورة السورية:	١٦٥
الإعلام والإعلاميون، ودورهم في الثورة السورية	١٦٨
المطلب الأول: أهمية الإعلام:	١٧٠
المطلب الثاني: الإعلام في الثورة:	١٧١
المطلب الثالث: دور الإعلام الثوري:	١٧٢
المطلب الرابع: مراحل تطور الإعلام الثوري:	١٧٣
المطلب الخامس: منعطفات الإعلام الثوري وتحدياته:	١٧٨
المطلب السادس: أخطاء الإعلام الثوري:	١٧٩
المطلب السابع: نصائح وتوصيات:	١٨٠
الثورة السورية و تبعاتها العامة	١٨٣
المطلب الأول: تبعات الثورة السورية:	١٨٥
المطلب الثاني: التدخل الدولي؛ أسباب وذرائع:	١٩٢
على رقعة الشطرنج	١٩٩
المطلب الأول: تكافؤ معدوم:	٢٠١
المطلب الثاني: الثورة البيئية في مواجهة الوحوش:	٢٠٢
المطلب الثالث: الثورة السورية والمعادلات الدولية:	٢٠٥
الثورة السورية بعد عقدها الأول	٢١٠
المطلب الأول: تيه وضياغ، استبدال واستعمال:	٢١٢
المطلب الثاني: أزمت، ومصارحة، نقد وتقييم:	٢١٣
المطلب الثالث: الثورة السورية في عُق الزجاجة:	٢٢٢
الواقع السوري وملفاته المدنية	٢٢٦
المطلب الأول: الملف التعليمي في المناطق المحررة، (آلام وآمال):	٢٢٨
التعليم العالي (أشواك، وورود):	٢٣١
المطلب الثاني: الملف القضائي في المناطق المحررة:	٢٣٢
المطلب الثالث: الملف الصحي في الثورة السورية:	٢٣٩
الواقع الصحي؛ آلام لا تتدمل:	٢٤٥
المطلب الرابع: ملف الدفاع المدني والتكافل الاجتماعي في الثورة السورية:	٢٤٥
المطلب الخامس: المرأة؛ ودورها في الثورة السورية:	٢٥٢
أثمان الحرية والكرامة:	٢٥٦
المطلب السادس: المنظمات العاملة في الساحة السورية وأدوارها المتباينة:	٢٥٧
منظمات المجتمع المدني السوري بعد الثورة:	٢٦١
الثورة السورية؛ صفحات ناصعة، وتاريخ مشرق	٢٦٥
الثورة السورية بين السياسة والعقيدة	٢٧٤
المطلب الأول: السيناريوهات السياسية لحل القضية السورية:	٢٧٦

المطلب الثاني: منارات إيمانية لثورة الكرامة: ٢٧٧

خلاصات ٢٨٥